

الْحَاذِي
فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

تأليف
العلامة سيّدنا مفتي
العلامة

الحقّ

مفتي

بين الحج والعمرة

الهادي في تفسير القرآن الكريم

المجلد الرابع



تأليف

العلامة سيّد مرتضى المهری

سرشناسه

عنوان و نام پدیدآور

مشخصات نشر

مشخصات ظاهری

ISBN

مهری، سید مرتضی، ۱۳۲۴ -

الهادی فی تفسیر قرآن کریم / سید مرتضی مهری.

قم: بنیاد معارف اسلامی، ۱۳۹۳ - (۲۱۹-۲۰۹-۲۰۷-۲۰۶)

ج:

دوره‌ای ۹-۱۵، ۱۴۶-۶۰۰-۹۷۸

ج ۱ (۶-۱۶-۰۱۶۶-۶۰۰-۹۷۸ ج ۲ (۳-۱۷-۰۱۴۶-۶۰۰-۹۷۸

ج ۳ (۷-۱۹-۰۱۴۶-۶۰۰-۹۷۸ ج ۴ (۲-۰۳۰-۰۱۴۶-۶۰۰-۹۷۸

ج ۵ ج ۶

فیا:

عربی.

ج ۳ (چاپ اول: ۱۳۹۵) (فیا).

ج ۴ (چاپ اول: ۱۳۹۵) (فیا).

ج ۴: تفسیر سوره احقاف

تفاسیر شیعه — قرن ۱۴

بنیاد معارف اسلامی

۱۳۹۳ هـ ۲۸۶۶ م / BP ۹۸

۲۹۷/۱۷۹:

۳۴۸۳۰۶۱:

وضعیت فهرست‌نویسی

یادداشت

یادداشت

یادداشت

مندرجات

موضوع

شناسه افزوده

رده بندی کنگره

رده بندی دیویی

شماره کتاب‌شناسی ملی



۲۱۹

هویة الكتاب:

اسم الكتاب: الهادي في تفسير القرآن الكريم ج ۴

المؤلف: العلامة السيد مرتضى المهری

الناشر: مؤسسة المعارف الإسلامية

الطبعة: الأولى ۱۴۳۸ هـ - ق

المطبعة: عترت

العدد: ۱۰۰۰ نسخة

رقم الایداع الدولي للدورة: 978-600-146-015-9

رقم الایداع الدولي / ج ۴: 978-600-146-030-2

حقوق الطبع محفوظة لمؤسسة المعارف الإسلامية

قم المقدسة - تلفون: ۰۹۱۲۷۴۸۸۲۹۸ - ۳۷۷۳۲۰۰۹ - فاکس ۳۷۷۴۳۷۰۱ ص ب ۷۶۸ / ۳۷۱۸۵

www.maarefislami.com

E-mail: info@maarefislami.com

تفسير سورة الأحقاف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمَّ ۝ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ ۝ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ۚ أَتَتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ۝

سورة الأحقاف مكية تشتمل على إثبات الوحدانية والربوبية المطلقة للكون، وإثبات المعاد والرسالة، وأن القرآن هو الكتاب المنزل من عند الله تعالى، والإشارة إلى بعض ما جرى على الأمم السالفة، وورد في نهايتها قصة إيمان الجن بالقرآن وبالرسالة.

﴿حم﴾، مرّ الكلام حول الحروف المقطعة في تفسير سورة يس.

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾؛ مرّ تفسيرها في بداية سورة الجاثية.
 ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، الآية تستدلّ على لزوم حشر
 الناس يوم القيامة. والظاهر أنّ المراد بالسموات هنا، الأجرام الفلكية التي نراها
 فوقنا، وبالأرض الكرة الأرضية؛ وإضافة ﴿مَا بَيْنَهُمَا﴾ لكي يشمل التعبير كلّ
 الكون المشهود، أي عالم الطبيعة، وقد ذكرنا مراراً أنّ السموات قد يراد بها - في
 القرآن - العوالم العلوية التي ترتبط بها الملائكة الكرام إلا أنّ قوله تعالى: ﴿وَأَجَلٍ
 مُّسَمًّى﴾ يقتضي أن لا يراد بالسموات عالم الملائكة هنا، وإن احتمل أن يكون
 للسموات بمعنى ما وراء الطبيعة أجل أيضاً، كما ربما يفهم من قوله تعالى:
 ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾^١ إلا أنّه لا
 علاقة له بهذا الاستدلال، فإنّه يبتني على فناء الحياة الدنيا وزوال النظام الكوني
 في عالم الطبيعة، كما سيتبيّن إن شاء الله تعالى.

والباء في قوله تعالى: ﴿بِالْحَقِّ﴾ للملابسة، أي ما خلقنا الكون إلا خلقاً على
 أساس الحقّ، وهو كونه لغاية وهدف، وهذا الأمر مع توصيفه تعالى في الآية
 السابقة بالعزیز الحكيم، يقتضي لزوم تعقّب هذه الحياة بحياة أخرى، ينال فيها
 الإنسان جزاء أعماله الصالحة والفاسدة، ويوضع موضعه اللائق به، فإنّ هذا هو
 مقتضى العدل والحكمة، والنظام الكوني يدلّ على أنّ الكون مبنيّ عليهما، وأنّ
 خالقه عزيز حكيم لا يعمل إلا بمقتضى الحكمة، وهو العزيز والغالب المطلق
 الذي لا يمنعه شيء من تحقّق ما يريد.

وإذا لاحظنا الكون، نجد أنّ كلّ شيء في موضعه الذي ينبغي أن يكون إلا

هذا الإنسان. فإننا نجد أن كثيراً من البشر يستحقون أشد العذاب، ومع ذلك فهم يعيشون في رفاهية ونعمة وسعة من العيش، ونجد كثيراً ممن يستحقون التبجيل والاحترام، لا يُعرف قدرهم ولا يُكرمون، بل يقضون حياتهم في بؤس وعناء، بل نجد المجتمع البشري يقلّب الموازين طيلة القرون، ويكرّم ويعظّم الظلمة والأشرار أكثر من إكرام الأنبياء والمصلحين، فضلاً عما لا قوة في حياتهم من ظلم وتشريد وقتل، فلا بدّ لتحقيق الحكمة من خلق الإنسان الذي سخر الله له هذا الكون، أن يعود إلى عالم آخر، يوضع فيه كل إنسان موضعه، ويرى كل أحد نتيجة أعماله.

﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ عطف على الحق، أي ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بأجل مسمّى، أي ملابساً للأجل.

والمسمّى، أي المعين. والأجل المدّة المضروبة، والغاية المحدّدة للشيء، ولعلّه بتقدير كلمة «بتقدير» ونحوه؛ لأنّ الذي يلبس الخلق ليس هو الأجل نفسه، بل تقديره وتحديده. وكون الخلق ملابساً لتقدير الأجل، بمعنى أنّه من بدو الخلق كان مؤجّلاً ومحدوداً لحدّ معيّن من الزمان، والمراد به، الأجل الطبيعي لهذا النظام الكوني.

ولعلّ القصد من ذكر الأجل المسمّى، الإشارة إلى أنّ هذا النظام وهذه الحياة فانيان لا محالة، وهو مقدّر من بدو الخلق، بمعنى أنّ خلق هذا النظام يلازم الفناء، فلم يخلق الله الطبيعة بحيث تبقى إلى الأبد، فلا يمكن أن تتحقّق الحكمة والعدالة في هذه الحياة وفي هذه المرحلة من الكون، وهنا يستنتج أنّه لا بدّ من حياة أخرى وعالم آخر ومرحلة أخرى من التكوين، لتتحقّق فيها العدالة التي تقتضيه الحكمة الإلهية.

وقيل: إن المراد بالأجل المسمى يوم القيامة، ونسب إلى ابن عباس وتبعه المفسرون. فإن أريد به يوم النفخة الأولى أو فناء الكون، فهو صحيح إلا أن التعبير عنه بيوم القيامة غير دقيق؛ ويوهم أن المراد يوم النفخة الثانية وإحياء الناس، وقيام نظام جديد وهو غير مراد في الآية قطعاً، كما يلاحظ من التعبير بـ«الأجل» الذي هو نهاية مدة بقاء هذا النظام، ولأن الآية بصدد الاستدلال على لزوم تحقق يوم القيامة، فكيف يكون هو بنفسه جزءاً من الاستدلال؟!

وقيل: إن المراد به آجال البشر، فلكلّ أحد أجله المسمى، وهو أقرب إلى الحقيقة من التعبير بيوم القيامة، بمعنى أن موت الإنسان يمكن أن يكون جزءاً من الاستدلال، فإنه لو كان مخلداً في هذه الحياة، أمكن أن يأتي الله تعالى بيوم ينال كلّ إنسان جزاءه في الدنيا، ولكن حيث إنه يموت من دون أن ينال جزاء أعماله - خيراً أو شراً - فلا بدّ من حياة أخرى وعالم آخر.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ﴾، أي بالرغم من أن الكتاب منزل من عند الله العزيز الحكيم، ومنذر لما يأتي بعد أجل السماوات والأرض، وبالرغم من أن الكون مليء بالآيات الدالة على أنه مخلوق بالحق وأجل مسمى، مع ذلك كله تجد الذين كفروا - بوجه عام أو خصوص مشركي مكة والجزيرة العربية؛ لأنّ الخطاب موجّه إليهم - معرضين عن ما أُنذروا به، وهو الخطر المحقق بهم، والمراد به يوم القيامة، فتكون ﴿مَا﴾ موصولة.

ويمكن أن تكون مصدرية، أي تجدهم معرضين عن نفس الإنذار والآيات المتضمنة له. والسياق يفيد التعجب من حالهم.

والإعراض بمعنى صرف الوجه، فالمراد أنّهم يصرفون وجوههم حتّى لا يواجهوا الحقيقة؛ فإنّهم لا يريدون أن يسمعوا ما لا يعجبهم وإن كان حقاً.

وهكذا الإنسان في جميع شؤونه؛ فإنه إذا حُذِرَ عن عاقبة فعله - حتى لو كان التحذير لأمر دنيوي محسوس، وحتى لو كان الأمر خطيراً يتعلّق بالموت والحياة، ولكنه لا يوافق ميوله - فهو لا يحبّ أن يسمع، فضلاً عن التدبّر والتفكّر، فضلاً عن الانتهاء عن فعله، كما نجده من المدمنين للتدخين أو استعمال المخدرات أو الكحول أو نحو ذلك ممّا يتعاطاه أهل الأهواء والشهوات.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾. المعروف بين المفسّرين أنّ قوله: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ بمعنى أروني وأخبروني، وأنّ قوله: ﴿أَرُونِي﴾ بعد ذلك تأكيد له. ولكنّ الظاهر، أنّ قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ﴾، أي انظروا إلى ما تدعون من دون الله، أي الأصنام وغيرها، فهو توطئة للجملة التالية.

والمراد بقوله: ﴿مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، ما يعتقد بعض البشر أنّهم يؤثرون في الكون تأثيراً فاعلياً غيبياً بالاستقلال، فيدعونهم بدلاً عن الله، كما كان المشركون المخاطبون يعتقدون ذلك في الملائكة أو في الأصنام، لأنّها تمثّل الملائكة؛ وكما يعتقد ذلك في بعض الأنبياء والأولياء. و﴿تَدْعُونَ﴾ بمعنى أنّكم تطلبون منهم حاجاتكم، وتظنّون أنّهم يغنون عنكم من الله شيئاً. ودعائهم من دون الله، بمعنى أنّهم لا يدعون الله، ويدعون هذه الأصنام وغيرها بدلاً منه.

وعليه فكلّ من يعتقد أنّ لشيء ما تأثيراً فاعلياً غيبياً في الكون بدلاً عن الله تعالى، بمعنى أنّه لا يستند في فعله وتأثيره إلى إرادته تعالى، فهو يدعو أحداً من دونه تعالى، وهو مخاطب بهذا الخطاب.

﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾، هذه الجملة تفنّد ربوبية غيره تعالى، فإنّ الربوبية لا تنفكّ عن الخلق؛ لأنّ التأمل في نظام الكون يقضي بأنّ الربّ المدبّر

له، هو الخالق الذي وضع كل شيء موضعه، وهياً لكل شيء ما يحتاج إليه في ذاته وفي ما حوله، وهو الذي أنشأ هذا النظام المتناسق والمتكامل، بحيث يكمل كل جزء منه سائر الأجزاء.

فالسؤال أن ما تعتبرونهم أرباباً، هل خلقوا من الأرض شيئاً ليكونوا ربّه وما الذي خلقوه؟ ومن الطبيعي أن الجواب هو النفي. فهذا مجرد تنبيه لما غفلوا عنه، حيث اعتبروا من لا دور له في الخلق ربّاً مؤثراً في الكون، توهماً منهم أن الربّ ليس هو الخالق، وأن هناك من يؤثر في الكون تأثيراً مباشراً ومستقلاً، غير الخالق الحكيم جلّ شأنه.

﴿أَمْ هُمْ شِرْكُ فِي السَّمَوَاتِ﴾، ﴿أَمْ﴾ منقطعة، ففيها معنى الإضراب عن السؤال الأول وهو الخلق في الأرض، واستفهام أمر آخر وهو اشتراكهم في شيء من تدبير السماء. ومن الواضح أن الأصنام وغيرها، لا تؤثر شيئاً في السماوات ولم يكن المشركون يعتقدون ذلك؛ فالاستفهام للتقرير، أي أخذ الإقرار منهم ولكي ينتبهوا إلى أن الكون واحد متناسق، فخالق السماوات ومدبرها هو خالق الأرض ومدبرها أيضاً؛ إذ لا يمكن أن تنفصل إدارة الأرض عن إدارة السماء، فإذا أقررتم بأن الأرباب المزعومين لا دخل لهم ولا تأثير في السماوات، فهو ملازم لنفي تأثيرهم في الأرض أيضاً. وإنما أتى بضمير ذوي العقول مع أن المراد به الأصنام؛ لأن إسناد التدبير والربوبية إليها يستلزم ذلك، فهو نوع من التهكم.

﴿إِنِّي بَكِنَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَنَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، لعل الغرض أنكم حيث لا يمكنكم الإتيان بشواهد خارجية تدلّ على تأثير الأصنام في الكون، فأتوني بدليل نقلي من كتب السماء، يدلّ على ربوبية الأصنام أو غيرها، وهذا

على غرار ما مرَّ من الاستدلال على ربوبية الله تعالى بالكتاب المنزل من عنده وبآيات التكوين التي ملأت الكون. والإشارة في قوله: ﴿مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ إلى القرآن الكريم. والأثارة والأثر، ما يبقى من الشيء؛ فالمراد ما بقي لديكم من علوم الأولين وهو عطف على الكتاب، أي اثتوني بمستند سماوي أو علم بشري يدلّ على ربوبية غير الله تعالى.

وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ شرط جزاؤه محذوف، يدلّ عليه الطلب السابق، أي إن كنتم صادقين في دعواكم، فاثتوني بكتاب أو أثارة.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، استفهام إنكاري، أي ليس هناك أضلّ من هؤلاء الذين يدعون غير الله بدلاً عن الله، بمعنى أنهم يعتبرونهم آلهة وأرباباً يؤثرون في الكون استقلالاً، مع أن الأصنام التي يدعونها لا يستجيبون لهم ولا يردّون عليهم، بل لا يسمعون دعاءهم، كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْكُمْ وَلَا يُبَيِّنْكُمْ مِثْلَ خَبِيرٍ﴾.^١

وقوله: ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ يمكن أن يكون كناية عن التأييد، كقوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾.^٢ ويمكن أن يكون بمعناه الظاهر، ولكن ليس له مفهوم، فليس معناه أنهم يستجيبون لهم يوم القيامة، بل معناه أن حالهم مع هؤلاء يوم القيامة، يختلف عن حالهم في الدنيا، وذلك لأنهم يوم القيامة يكونون لهم أعداء ويكفرون بعبادتهم وشركهم، كما مرّ في الآية

١. فاطر (٣٥): ١٤.

٢. هود (١١): ١٠٧ و ١٠٨.

المذكورة، وسيأتي في الآية التالية.

﴿وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ هذا بمعنى قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾، ولكنه عبّر هنا بالغفلة، مع أنّ الأصنام جماد لا توصف بالغفلة؛ فهو إما من جهة أنهم يسندون إليها ما لا يسند إلا إلى عاقل، ففيه نوع من التهكم والاستهزاء، وإما باعتبار أنّ الجمادات أيضاً لها نوع من الشعور عند الله تعالى، وفي ذلك شواهد كثيرة في الكتاب العزيز، كقوله تعالى: ﴿قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾^١، فإسناد الغفلة إلى الأصنام من جهة أنها لا تشعر بأنّ هذا الدعاء موجه إليها؛ لأنها تعلم أنّها غير قادرة على شيء فلا تصدّق ذلك.

﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾. الضمير في قوله: ﴿هُمْ﴾ لا يرجع إلى الناس بل إلى المشركين خاصّة، أي أنّ الأصنام التي يتخذونها آلهة تعاديهم يوم يحشر الناس جميعاً. والأعداء جمع عدوّ وهو مشتقّ من العدو، أي التجاوز. وكلّ من يتجاوز الحدّ الطبيعي في المنافرة فهو عدوّ، وقد لا يكون عداؤه عن قصد، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوٌّ لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾،^٢ فإنّه تعالى لا يحذر ممّن يعادي علناً من الأزواج والأولاد، بل المراد من لا يظهر منه عداوة ولا يقصدها أيضاً، بل ربما يقصد الخير ولكنه يجبر الإنسان إلى ما لا يرضى الله تعالى به، والإنسان ينجّر وراءه حبّاً لولده وزوجته ويقع في المفسدة والبلاء من حيث لا يدري. ومن هذا القبيل عداوة الأصنام للمشرّكين وهي تعاديهم في هذه الدنيا أيضاً؛ لأنها كسائر المخلوقات مؤتمرة بأوامر الله تعالى

١. فصلت (٤١): ١١.

٢. التغابن (٦٤): ١٤.

مطبعة له، بخلاف المشركين المتآمرين على ربهم، ولكن هذا العداء لا يظهر إلا يوم القيامة، حيث تبرز الحقائق الكامنة علانية.

﴿وَكَاثُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾. الكفر بمعنى الإنكار، فالمراد أن الأصنام تنكر عبادة المشركين لها واقعاً، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْكُمْ﴾^١، وليس ذلك كذباً منها؛ لأن المشركين يعلمون حين عبادتهم أن الأصنام لا تسمع شيئاً ولا تعمل عملاً، فهم لا يدعونها ولا يعبدونها بجدّ، وإنما يدعونها تثبيتاً لما يجمعهم وتجتمع عليه أحزابهم من العقيدة الفاسدة التي تبنيها كذباً وزوراً، كما قال تعالى في حكاية قول سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾^٢؛ أي من أجل إبقاء المودة وترسيخها بين الأتباع، وهكذا كلّ دعاة الباطل وأتباع المذاهب الفاسدة الواضحة الفساد. وهذه الآية تحاول أن تنبّههم إلى ما يغفلون أو يتغافلون عنه.

١. فاطر (٣٥): ١٤.

٢. العنكبوت (٢٩): ٢٥.

وَإِذَا تَتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٦١﴾ قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَىٰ مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنِ أَنْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٦٢﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَقَامَ مِنْ أَشْكَرَتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾

﴿وَإِذَا تَتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾، المراد بالآيات، القرآن الكريم، و﴿بَيِّنَاتٍ﴾ حال لها، أي تتلى عليهم الآيات حال كونها بيّنة واضحة، بمعنى أنهم يعلمون أنها آيات نزلت من عند الله تعالى وأنها ليست من إنشاء الرسول ﷺ ولا يمكن أن يكون هو المنشئ لها، فهم يعلمون ذلك بمقتضى خبرتهم ومعرفتهم بخصائص الرسول ﷺ وسوابقه وصدقه وبعده عن الشعر والكلام المسجع، وكونه أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وأن مثل هذا البيان لا يمكن أن يصدر منه ولا من غيره من البشر، ولذلك لم يذكر بعد ذلك ضميراً يعود إلى الآيات، بل أبدله بكلمة «الحق» للإشارة إلى أنهم علموا أنه الحق، ومع ذلك قالوا فيه إنه سحر واضح، وهم بذلك يعترفون بتأثيره العجيب وإخضاعه لمن يسمعه، ولكنهم يأبون من الاعتراف بأنه حق بالرغم من إحساسهم بذلك؛ فيعملون تأثيره بالسحر.

ومثله التعبير بالذين كفروا، بدلاً عن الضمير، للتأكيد على كفرهم وعنادهم. وقوله: ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ لعله للتأكيد على أنهم بمجرد سماعه حكموا عليه بذلك، من

دون تردد وتروّ مكابرةً منهم وعناداً. واللام في ﴿لَلْحَقِّ﴾ ليس لتعديّة القول؛ إذ ليس هذا خطاباً للحقّ، بل للتعليل، أي من أجل الحقّ باعتبار أنّه كلام حوله وتعبير عنه وتوصيف في شأنه.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾، ﴿أَمْ﴾ منقطعة، ففيها معنى الإضراب والاستفهام، والإضراب الذي تضمّنه، بمعنى أنّهم لم يكتفوا بالقول بأنّه سحر، بل اتهموا الرسول ﷺ بأنّه افتراه، والاستفهام للإنكار.

﴿قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾، المتداول في التفاسير أنّ المراد بهذا الجواب أنّه ﷺ لو كان مفترياً لعاقبه الله تعالى ومنعه وهو قادر على كلّ شيء. فجزاء الشرط - في الواقع - ليس هو الجملة الواردة في الآية، بل هذه تتمّة الجزاء، والجزاء المقدّر: «فهو قادر على أن يمنعني ولا تتمكّنون من منعه، لأنكم لا تملكون لي من الله شيئاً»، والملك في الأصل يدلّ على قوّة في الشيء وصحّة على ما في «معجم المقاييس»^١، والمراد به هنا القدرة، أي لا تقدرون على منعه تعالى من أيّ ضرر يريد إيقاعه عليّ.

وفيما ذكروه ملاحظتان:

الأولى: أنّه ليس للمخاطبين خصوصية في الدفاع عن الرسول ﷺ، إذا أراد الله به شراً؛ فلماذا يخاطبهم بقوله: ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِي﴾؟ بل لا يتوقّع منهم أن يدفّعوا عنه حتّى لو تمكّنوا من فعل شيء.

وقد انتبه المفسّرون لورود هذا الإشكال عليهم؛ فقال بعضهم في الشرح: «لا تقدرون أنتم ولا غيركم»، ومردّد ذلك إلى أنّ توجيه الخطاب إليهم من باب أنّهم

من الخلق وكل الخلق ليست لهم القدرة. ولكن من الواضح أن هذا التوجيه لا يحل الإشكال ولا يبرر مخاطبتهم بذلك مما تظهر منه الخصوصية.

وقال أكثرهم في الشرح: «والمراد كيف أفتى على الله من أجلكم وأنتم لا تقدرون على دفع عقابه عني إن افترت عليه؟!» كما في «مجمع البيان» وغيره؛^١ فأضافوا قولهم «من أجلكم» ليكون مبرراً لتوجيه الخطاب إلى المشركين، كأنه ﷺ يقول لهم: «إني لو افترت فقد افترته من أجلكم، مع أنكم لا تقدرون على مساعدتي إن عاقبني الله على افترائي، وهو لا شك يعاقب على ذلك فلا موجب لهذا الافتراء». ومن الواضح أنه أبعد من الصواب من الوجه الأول؛ إذ لا وجه لكون الافتراء من أجلهم، إلا أنه لمصلحتهم في الآخرة، والمفروض أنه افتراء فأي مصلحة لهم فيه؟! بل ليس لهم فيه حسب دعوهم إلا الضرر.

الملاحظة الثانية: أن هذا الجواب يشبه قول المشركين، كما قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾،^٢ وقال أيضاً: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا هُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾،^٣ وغير ذلك. وحاصله أن الله تعالى قادر على منعهم من الشرك ونحوه، وحيث لم يمنعهم يكشف ذلك عن رضاه بعملهم، وقد ردّ عليهم القرآن - كما في الآية الثانية - بأنهم ليس لهم علم برضاه تعالى، وعدم التعجيل في المؤاخذه لا يدلّ على الرضا. ونفس هذا الجواب يأتي هنا أيضاً.

١. راجع: مجمع البيان في تفسير القرآن ١٠ - ٩: ١٢٦؛ جامع البيان في تفسير القرآن: ١٢٢.

٢. الأنعام (٦): ١٤٨.

٣. الزخرف (٤٣): ٢٠.

وتمسك بعضهم في تفسير هذه الآية بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ * لَا خَظْمًا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾^١، حيث استظهروا من الآيات أنها أيضاً بصدد الاستدلال على كون القرآن حقاً، بأنه تعالى يعاقبه أشد العقاب لو تقوّل على الله بشيء.

وهذا الكلام غير صحيح؛ فما أكثر من ادعى النبوة كذباً وافتراءاً، وما أكثر من نسبوا إلى الله تعالى ما لم يقله من دعاة الدين والملوك والفراعة وغيرهم، وفي القرآن الكريم نسب الافتراء إلى المشركين وأهل الكتاب، مع أنه تعالى لم ينزل عليهم عذاباً من السماء، ولا منعهم من الافتراء عليه تكويناً. وستأتي تتمّة الكلام في تفسيرها إن شاء الله تعالى.

والظاهر أن المراد من الآية المباركة ليس هو الجواب عن اتهامهم الرسول ﷺ بالافتراء، بل هو إعلام لمقاطعتهم؛ لأنهم لا يكذبونه جهلاً بمقامه، بل هم يعلمون بوضوح أنه صادق في دعواه، وأنه لم يقل كذباً طيلة حياته، وقد لبث فيهم عمراً من قبله، وإنما يتهمونه بالكذب والافتراء عناداً ومكابرةً، فهم لا يستحقّون الجواب، ومعنى هذه الجملة أنه إذا افتري على الله تعالى - وحاشاه - فإن الله هو الذي يجازيه في الآخرة، وليس لهم دور في الموضوع ولا عليهم مسؤولية، ومثله قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾^٢، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيثُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾^٣. ويشهد لهذا التفسير الجملات التالية؛ وأما على ما ذكره

١. الحاقة (٦٩): ٤٤ - ٤٧.

٢. هود (١١): ٣٥.

٣. يونس (١٠): ٤١.

المفسرون، فلا علاقة لهذه الجملة بما يليها.

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾، الإفاضة في الحديث، هو الخوض والاندفاع فيه والاشتغال به عن غيره. وحديث مستفاض، أي ذائع ومنتشر بكثرة، استعير من إفاضة الماء، أي أسالته بكثرة. ويتبين منه أن القوم كانوا يصرون على نشر اتهامه ﷺ بالكذب والافتراء، وهكذا شأن الطغاة إذا واجهوا الحق، فإنهم يسعون بمبالغة في التكذيب والتقصص، حتى لا يبقى له أي تأثير في المجتمع. وفي هذا الخطاب تهديد لهم بأن الله تعالى هو محاسبهم على ذلك. ويتبين بوضوح أنها لا تناسب التفسير المعروف، وإنما تناسب ما ذكرناه من أن الجملة تدلّ على المقاطعة وإيكال أمرهم إلى الله تعالى.

﴿كَفَى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾، الشهيد بمعنى الشاهد، أي كفى به شاهداً على ما يقع بيني وبينكم من الخصومة والاحتجاج، حيث إنه أعلم بما يقولون وأعلم بنياتهم وبدوافعهم وهو القادر على مجازاتهم وهو الحكم العدل، فتكفيني شهادته. وهذه الجملة أيضاً تهديد وتحذير.

﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾. لعل هذه الجملة لإكمال التهديد بما قبلها، حيث إنه ربما يتوهم المشركون أنه حيث هو أعلم بما نخوض فيه وهو الشهيد بيننا وبينك، فلم لا يعذبنا بذنوبنا، فأكمّله بقوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، أي لا يغفركم تأخير العقوبة لعنادكم وكفركم، فإنه تعالى غفور رحيم، يهلككم لعلكم ترجعون، ويمكن أن تكون لدفع اليأس عنهم وترغيبهم على التوبة والرجوع.

﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِّنَ الرُّسُلِ﴾، البدع صفة مشبهة من الإبداع، أي إيجاد الشيء من غير مثال. والبدع يطلق على الفاعل والمفعول، وهنا يحتمل المعنيين، فعلى اسم الفاعل معناه أنني لست مبدعاً ولم آت بطريقة جديدة في الرسالة؛ فأنا كباقي

الرسول، من حيث إنني أُبلغ ما أُرسلت به. وعلى المفعول، أي مبدعاً معناه: أن الله تعالى لم يرسلني بكيفية مبدعة، أي جديدة، بل كما أرسل سائر الرسل.

والحاصل أن الله تعالى سنّة في إرسال الرسل وبعثهم، حيث يبعث معهم الآيات ويأمرهم بالإبلاغ، وأنا أيضاً كما سبقني من الرسل، أحذو حذوهم، وليس معناه أنه لم يأت بشريعة جديدة وأنه يتبع الشرائع السابقة، بل المراد أن سبيله في الإبلاغ سبيل الرسل السابقين.

والظاهر أن الآية في سياق الردّ عليهم باتّهامهم بالسحر أو الافتراء، باعتبار أنه لم يأت بأمر غريب، وإنّما هو رسول كسائر الرسل، ويمكن أن يكون ردّاً لبعض طلباتهم، حيث كانوا يطلبون منه ﷺ أن يأتي بمعجزات خاصّة، كما ورد في سورة الإسراء: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرِفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرؤه قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾^١.

﴿وَمَا أَذِرِي مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾، قوله تعالى: ﴿وَلَا بِكُمْ﴾، أي ولا أدري ما يفعل بكم، فحذف بعض الكلام لدلالة الجملة السابقة عليه. والجملة تؤكد المضمون السابق وهو أنه ﷺ ليس إلا رسولاً كسائر الرسل، وأنه لا يدعي أمراً وراء ذلك، ليكون مستغنياً. ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْعَ إِلَّا مَا يَوْحَى إِلَيَّ﴾^٢، وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ

١. الإسراء (١٧): ٩٠ - ٩٣.

٢. الأنعام (٦): ٥٠.

لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ^١، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾^٢، وفي حكاية كلام نوح عليه السلام: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾^٣، وغير ذلك مما يدل على أنَّ الأنبياء كانوا ينفون عن أنفسهم أنَّهم فوق البشر؛ لثلاث يتوقع الناس منهم معاجز غير ما أعطاهم الله تعالى.

وهناك إشكال يخطر في الأذهان في الآية الكريمة من جهة نفى علمه ﷺ بما يؤول إليه أمره، مع أنَّه لا شك في أنَّه شافع مشفع يوم القيامة. ويمكن أن يجاب عنه بأنَّ المراد نفى علمه بالغيب في مستقبل الحياة الدنيوية، وفي نفس الوقت إظهار للعجز أمام إرادة الله تعالى، وأنَّ التقدير بيده يفعل بي وبكم ما يشاء. أمَّا في الآخرة، فهو يعلم أنَّ الله تعالى يدخله الجنة. نعم يمكن أن ينفي العلم بتفاصيل ما يحدث وإن كان بعيداً أيضاً، للروايات المتواترة إجمالاً، التي تشمل على تفاصيل ما يحدث في مختلف مواقف يوم القيامة.

وفي روايات العامة ما يدل على نفى علمه ﷺ بما يؤول إليه أمره في الآخرة؛ ففي «صحيح البخاري» بسنده عن خارجة بن زيد: «أَنَّ أُمَّ الْعَلَاءِ — امْرَأَةً مِنْ الْأَنْصَارِ، بَايَعَتِ النَّبِيَّ ﷺ — أَخْبَرَتْهُ أَنَّهُ اقْتَسِمَ الْمُهَاجِرُونَ قُرْعَةً فَطَارَ لَنَا عُثْمَانُ بْنُ مَطْعُونٍ، فَأَنْزَلْنَاهُ فِي أَثْيَاتِنَا فَوَجَعَ وَجَعَهُ الَّذِي تُوفِّيَ فِيهِ؛ فَلَمَّا تُوفِّيَ وَعُسِّلَ وَكُفِّنَ فِي أَثْوَابِهِ، دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ: رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ أبا السَّائِبِ

١. الأعراف (٧): ١٨٨.

٢. الكهف (١٨): ١١٠.

٣. هود (١١): ٣١.

فَشَهَادَتِي عَلَيْكَ لَقَدْ اكْرَمَكَ اللَّهُ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَكْرَمَهُ». فَقُلْتُ: يَا أَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَمَنْ يُكْرِمُهُ اللَّهُ. فَقَالَ: «أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ وَاللَّهُ إِنِّي لَأَرْجُوهُ الْخَيْرَ وَاللَّهُ مَا أَذْرِي وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ مَا يُفْعَلُ بِي». قَالَتْ فَوَاللَّهِ لَا أُرَكِّي أَحَدًا بَعْدَهُ أَبَدًا^١. ورواه في «الدر المنثور»^٢ عن أحمد والنسائي وابن مردويه أيضاً، ورواه بوجه آخر عن غيرهم.

ونسب بعضهم إلى ابن عباس القول بأن الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿لِيَعْفَرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾^٣، ولكن لا معنى للنسخ هنا، فهذا ليس حكماً شرعياً، وإنما هو إخبار عن حقيقة قائمة، لا تبدل إلا إذا أريد بالنسخ أَنَّهُ ﷺ ما كان يعلم أَنَّ اللَّهَ تعالى غفر له ذنبه وَأَنَّهُ يدخله الجنة إلا بعد نزول سورة الفتح، وهي من أواخر السور وهذا بعيد جداً، ومخالف للروايات المتواترة التي مرّت الإشارة إليها، خصوصاً على روايات القوم، حيث رووا بشارة العشرة بالجنة واعتمدوها. فالصحيح أَنَّ المراد عدم العلم بما يحدث في المستقبل من حوادث الدنيا.

ويمكن أن يقال: إنها أيضاً كانت معلومة له ﷺ بالوحي؛ فهو كان عالماً بأنه سينتصر على المشركين مثلاً؛ بل أخبر بحوادث كثيرة تحدث بعده، وقد جمعت الأحاديث الغيبية في كتاب بهذا الاسم، وقد وقع كثير ممّا ورد فيها. ولكن لا يبعد القول هنا بعدم العلم بالتفاصيل أيضاً، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكُنْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا

١. صحيح البخاري ٤: ٤٦٤، باب الدخول على الميت.

٢. الدر المنثور ٦: ٣٨.

٣. الفتح (٤٨): ٢.

نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ^١، فمما لا شك فيه بمقتضى الآيات، أن الرسول ﷺ ما كان يعلم الغيب بذاته، وإذا أخبر بالغيب فإنما هو وحي أنزل عليه أو أخبر به بوجه آخر لا نعلمه.

والله تعالى لا يخبره عن كل الغيب، فإن ذلك ليس من صالحه ولا من صالح الأئمة. قال تعالى: ﴿وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾^٢، وقال أيضاً: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَارْتَأَيْنَاهُمْ فَلَتَرْتَهُمْ بَسِيسَاهُمْ وَفَلَتَرْنَاهُمْ فِي خَنِّ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يُعَلِّمُ أَعْمَالَكُمْ﴾^٣. وهناك فرق بين المعرفة بالسيما والهيئة والمعرفة بلحن القول. ويتبين من الآيتين وغيرهما، أنه ﷺ ما كان يعرف كل المنافقين والأعداء، أو أنه يعرف بعضهم بلحن القول مما لا يوجب علماً قطعياً.

والحاصل أن الرسول ﷺ وكذلك الأئمة عليهم السلام إنما يعلمون بعض الغيب بإذنه تعالى، كما هو الحال في سائر الأنبياء عليهم السلام، فهناك آيات تدل على إخبارهم بالغيب كقول عيسى عليه السلام: ﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾^٤، وهناك آيات تنفي علم الغيب عنهم، كقوله تعالى نقلاً عن سيدنا نوح عليه السلام: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ﴾^٥. فالجمع بين الآيات يقتضي أنهم عليهم السلام ما كانوا يعلمون الغيب بأنفسهم، وإنما كانوا يعلمون بالوحي من الله تعالى، كما أن قدرة الأنبياء على الإعجاز أيضاً ليست منهم، وإنما هو بإذنه تعالى، كما قال خطاباً لعيسى عليه السلام:

١. الأعراف (٧): ١٨٨.

٢. التوبة (٩): ١٠١.

٣. محمد (٤٧): ٣٠.

٤. آل عمران (٣): ٤٩.

٥. هود (١١): ٣١.

﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾^١، والأمر لا يختص بعلم الغيب ولا بالمعجزات؛ فكل ما يحدث في الكون لا يتم إلا بإذنه تعالى، وإنما يقال ذلك بالنسبة لعلم الغيب والإعجاز، لدفع توهم أنهم عليه السلام لهم قدرة ذاتية على معرفة الغيب وفعل المعجزات.

وبذلك يندفع الإشكال على الأنبياء والأئمة عليهم السلام أنهم كيف كانوا يعملون ما يتضررون به لو كانوا يعلمون الغيب، كشرب الإمام السمّ وتعرض بعضهم للقتل أو المرض؟! ومن الغريب ما قال بعضهم - تأييداً لما ورد من الحديث: «ما منّا إلا مسموم أو مقتول»^٢ - إن النبي والإمام لا يمكن أن يموت بمرض، لأنّه يعلم بكل شيء يضره، فلا يرتكبه، فلم يبق طريق لموتهم عليهم السلام إلا القتل. وهذا باطل قطعاً، لأنهم كثيراً ما كانوا يمرضون ويتعالجون، وربما يطول بهم المرض وهذا وارد في روايات كثيرة.

وورد في بعض الأحاديث إشارة إلى ما ذكرناه من الوجه؛ فقد روى الكليني رحمته الله بسنده عن الحسن بن الجهم، قال: «قلت للرضا عليه السلام: إن أمير المؤمنين عليه السلام قد عرف قاتله والليلة التي يقتل فيها والموضع الذي يقتل فيه، وقوله لما سمع صياح الإوز في الدار صوائح تتبعها نوائح، وقول أمّ كلثوم: لو صليت الليلة داخل الدار وأمرت غيرك يصلي بالناس، فأبى عليها وكثر دخوله وخروجه تلك الليلة بلا سلاح وقد عرف عليه السلام أن ابن ملجم لعنه الله قاتله بالسيف،

١. المائدة (٥): ١١٠.

٢. بحار الأنوار ٢٧: ٢١٧؛ ٤٤: ١٣٩.

كان هذا ممّا لم يجز تعرّضه، فقال: «ذلك كان ولكنه خير في تلك الليلة لتمضي مقادير الله عزّ وجلّ».

وقوله عليه السلام: «خير في تلك الليلة» قرئ بالحاء المهملة، فيكون المعنى أنّه أبهم عليه الوقت في تلك الليلة، فكان يعلم عليه السلام أنّ استشهاده في تلك الليلة، ولكن لا يعلم الوقت بدقّة، وهذا هو ما ذكرناه. وأمّا بناءً على نسخة الخاء، فمعناه أنّه خير بين لقاء الله والشهادة؛ فاختار الشهادة ولكن هذا الأمر يدفع عنه عليه السلام، إشكال عدم التعرّض لقاتله، بمعنى أنّه لم يجب عليه شرعاً التعرّض له لحفظ نفسه، ولكن يبقى الإشكال في أنّه بناءً عليه يكون هو عليه السلام قد شارك في قتل نفسه ولكن لم يكن محرماً عليه وهو بعيد جداً، خصوصاً في مثل شرب الإمام الحسن عليه السلام للسمّ الذي دفعته إليه زوجته، فيكون قد أقدم على قتل نفسه، ولكنه كان مخيراً شرعاً، فلا يبقى وجه لكلّ ما يقال من كونه مظلوماً ومسموماً.

هذا مضافاً إلى أنّ الوارد في الحديث، تعليل التخيير بمضي مقادير الله عزّ وجلّ، وهذا التعليل لا يناسب التخيير، إذ كان بإمكانه عليه السلام اختيار البقاء، وإنّما يناسب إبهام الوقت عليه لئلا يدافع عن نفسه؛ فتقضي مقادير الله تعالى. وبذلك يتبيّن أنّ الصحيح هو القراءة بالحاء المهملة. ومهما كان، فسد الرواية ضعيف.

وللعامة الطباطبائي رحمته الله بحث فلسفي في تفسير «الميزان» حول هذا الأمر، وحاصله أنّ العلم الغيبي في هذه الموارد يتعلّق بالحادث بعلمه المستوجبة لتحقيقه في الخارج بالضرورة، فلا يمكن أن لا يتحقّق. وليس كالعلم المتعلّق بالسبب فقط، المؤثر في الإرادة، بحيث يتمكّن العالم من ترك الفعل؛ فهذا العلم هو جزء

من العلة التامة للحادث، فالإمام عليه السلام كان يعلم أن ابن ملجم رافع سيفه وأنه سيضربه وأنه سيقتل بهذه الضربة؛ فالعلم متعلق بالمجموع وليس كالعلم المتعلق بنفس رفع السيف فقط، فيؤثر في إرادته ويمكنه المنع، ليجب عليه الدفاع عن نفسه. ولا يمكن أن يقع هذا العلم في سلسلة العلل؛ لأن المفروض تحقق العلة التامة والعلم الغيبي متعلق بمجموع السلسلة.^١

ثم قال: «مثله كمثل أهل الجحود والعناد من الكفار، يستيقنون بأن مصيرهم مع الجحود، إلى النار، ومع ذلك يصرّون على جحودهم، لحكم هواهم بوجوب الجحود وهذا منهم هو العلم العادي بوجوب الفعل. قال تعالى في قصة آل فرعون: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾.^٢ وبهذا يندفع ما يمكن أن يقال: لا تصوّر علم يقيني بالخلاف، مع عدم تأثيره في الإرادة، فليكشف عدم تأثيره في الإرادة عن عدم تحقق علم على هذا الوصف. وجه الاندفاع: أن مجرد تحقق العلم بالخلاف، لا يستوجب تحقق الإرادة مستندة إليه وإنما هو العلم الذي يتعلّق بوجوب الفعل، مع التزام النفس به، كما مرّ في جحود أهل الجحود وإنكارهم الحق، مع يقينهم به. ومثله الفعل بالعناية؛ فإن سقوط الواقف على جذع عال منه على الأرض، بمجرد تصوّر السقوط لا يمنع عنه علمه، بأن في السقوط هلاكه القطعي».^٣

ومعنى ذلك، أن الإمام عليه السلام كان يعلم أن ابن ملجم خلفه وهو رافع سيفه، ولكن علمه لا يتعلّق به فحسب، فليس كعلم الرسول ﷺ بأن اللحم مسموم مثلاً

١. راجع: الميزان في تفسير القرآن ١٨: ١٩٢ - ١٩٣.

٢. النمل (٢٧): ١٤.

٣. الميزان في تفسير القرآن ١٨: ١٩٣.

حيث تركه ولم يأكله، بل الإمام كان يعلم أنه سيقتله بهذه الضربة ولا يمكنه الدفاع، لأن هذا العلم الغيبي لا يمكن أن يؤثر في إرادته ليقوم بالدفاع عن نفسه. يقول العلامة: لأن العلم الذي يحقق الإرادة هو ما يتعلّق بوجوب الفعل، مع التزام النفس به، وهنا لا يتحقّق الالتزام، كما لم يتحقّق في الذين جحدوا بالرسالة، مع تيقّنهم بأنّها حقّ وأنّ الجحود موجب لهلاكهم.

ولكن يبقى السؤال في ما هو الموجب لعدم التزام النفس، فإنّ عدم التزام الجاحدين بمقتضى علمهم، إنّما كان متابعة الهوى، فما هو الموجب هنا؟ هل هو التخيير من الله تعالى، كما ورد في رواية «الكافي» السابقة على إحدى النسخ، فيكون الإمام عليه السلام قد أثر لقاء الله تعالى على البقاء، والمفروض جواز تعرّضه للموت بوجه خاصّ؟ فإن كان هذا هو السبب، فيكون ذلك انتحاراً جائزاً شرعاً وهو أمر مستغرب جداً.

ولا يقاس ذلك بالتخيير الذي ورد في مقتل الحسين عليه السلام، فقد روى الكليني بسنده عن عبد الملك بن أعين، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «أنزل الله تعالى النصر على الحسين عليه السلام حتّى كان [ما] بين السماء والأرض، ثم خيّر: النصر أو لقاء الله، فاختر لقاء الله تعالى». ^١ فإنّه عليه السلام كان يجاهد القوم وإنّما خيّر بالنصر بالملائكة على فرض صحّة الحديث، وليس كالتخيير بين الدفاع عن النفس والتسليم للقتل. وأوضح منه، شرب السمّ كما في قضية الإمام الحسن عليه السلام.

ومن جهة أخرى، هذا التخيير لا يوجب عدم إمكان تأثيره في الإرادة، كما ذكره العلامة أولاً وإنّما يوجب اختياره. قال عليه السلام: «فلو فرض حصول علم بحقائق

١. الكافي ١: ٨/٢٦٠، باب أنّ الأئمة يعلمون متى يموتون.

الحوادث على ما هي عليها في متن الواقع، لم يؤثر ذلك في إخراج حادث منها وإن كان اختيارياً عن ساحة الوجوب إلى حدّ الإمكان^١. فالمفروض أن يبقى تحقق القتل ضرورياً ولا يتبدّل إلى الإمكان، بالرغم من علم الإمام عليه السلام بوقوعه ولا يكون ذلك إلا مع عدم تمكّنه من الدفاع. فالسؤال أنّه ما هو الموجب لعدم التمكن؟ مع أنّ غاية ما ذكره في آخر كلامه عدم اللزوم، كما هو مقتضى التعبير بعدم التزام النفس ومقتضى التمثيل بجحود الكافر، مع تيقّنه؛ إذ لا ريب في تمكّنه من عدم الجحود.

وأما ما ذكره الله من التشبيه بجحود الكافر، مع علمه بأنّه موجب للهلاك، فليس من قبيل عدم التأثير بالعلم أو عدم تأثيره في الإرادة. فإنّ الكافر وغيره يرجّح المعصية على الطاعة، إمّا لعدم علمه بعظم العقاب وإن علم بأصله، أو لمخادعته نفسه، بأنّه سيتوب في آخر الأمر، أو لأنّه يستبعد المؤاخظة أو شدّتها، أو لا يهتمّ بها لتأخّر موعدها، ويرجّح الفائدة أو اللذة المستعجلة، كما هو الحال في كثير من البشر، حتّى بالنسبة للتبعات القطعية في الدنيا، كمن يستعمل التدخين أو المخدّرات مع علمه بالضرر البالغ، أو لغير ذلك، ومهما كان فالإنسان على كلّ حال، يراجع نفسه ويلاحظ معلوماته ويرجّح الفعل أو الترك على ضوءها.

وأما ما أشار إليه في آخر كلامه الله من التشبيه بالفاعل بالعناية، فهو - على ما ذكره في الفلسفة - كالواقف على شاطئ؛ فإنّه إذا نظر إلى الأرض وتصور السقوط، فإنّه يسقط وهو فعل اختياري، ينشأ من نفس التصوّر وإلا فإنّه لو راجع

نفسه ولاحظ أن مكانه أكثر أمناً من السقوط، لم يبادر إليه. قالوا: ومثله الحيوان إذا رأى سبعاً فجأة، فإنه يحدث أنه يذهب إليه بدلاً من الفرار، وعبروا عنه بالاستسباع، قالوا: وهذا يفعله الحيوان بالإرادة، ولكن من دون ملاحظة تجاربه ومعلوماته السابقة وترجيح الفعل على الترك.

ولكنه ﷺ رد ذلك في «نهاية الحكمة» واعتبره من الفعل بالقصد، وعلّله «بأنّ تصوّر السقوط ممّن قام على جذع عال، مثلاً علم واحد موجود في الخائف الذي أدهشه تصوّر السقوط، فيسقط، وفيمن اعتاد القيام عليه بتكرار العمل فلا يخاف ولا يسقط، كالبناء مثلاً فوق الأبنية والجدران العالية جداً. فالصاعد فوق جدار عالٍ القائم عليه، يعلم أنّ من الممكن أن يثبت في مكانه، فيسلم أو يسقط منه فيهلك، غير أنّه إن استغرقه الخوف والدهشة الشديدة وجذبت نفسه إلى الاقتصار على تصوّر السقوط، سقط بخلاف المعتاد بذلك، فإنّ الصورتين موجودتان عنده من دون خوف ودهشة، فيختار الثبات في مكانه فلا يسقط. وفقدان هذا الفعل العنائي للغاية الصالحة العقلائية، لا يوجب خلوه من مطلق الداعي، فالداعي أعمّ من ذلك»^١.

وهذا على افتراض أن يكون هذا الفعل إرادياً، ومن الواضح أنّه لا يمكن معرفة ذلك، ومن الممكن أن يكون ذلك أمراً غير اختياري، فيكون سقوطه غير اختياري لا أنّه يُسقط نفسه.

﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾، ﴿إِنْ﴾ نافية، أي أنّه ﷺ لا يخطّط لمستقبله، المرتبط بمستقبل الأُمّة والرسالة، وإنّما يتبع ما يوحى إليه من ربّه؛ وهذا هو المائر بين

الرسول وغيرهم، وهو أمر عظيم جدّاً، وربما يستصغره بعض الناس جهلاً، نظراً إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾،^١ فيتوهم أن الرسول وفقاً لهذه الآية، لا يختلف عن سائر البشر، ولكن هذه غفلة عن الفرق الكبير والهوة السحيقة، التي بين الوحي وعدمه، فهو بشر له كلّ خصائص البشرية، إلا أنّه بلغ من الكمال حدّاً يرتبط بالسماء مباشرة وينزل عليه الوحي من الله تعالى، وأين هذا ممّن هو عاجز من أن يرتبط بالسماء من جانب واحد، فيعبد الله تعالى كأنّه حاضر أمامه، يشعر بعطفه ورضاه. فكيف بتلقي الأوامر والإرشادات مباشرة؟!

إنّ الفاصل كبير بين الرسول وغيره من البشر، والواقع أنّ ما نجده من الفروق والمميّزات كلّها، نتيجة هذا الفارق الذي يعبر عنه في القرآن بجملة قصيرة: ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾؛ فهو بذلك يأتي بالمعجزات ويمتلك العصمة الإلهية، وينبئ عن الغيب ويعلم ما لا يعلمه بشر ويشفع المذنبين يوم القيامة ويصعد مدارج الكمال، فيبلغ مقاماً لا تبلغه الملائكة المقربون.

﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، النفي والاستثناء يدلان معاً على الحصر، فهو تحديد لدور الرسول في مرحلة التبليغ، وهو الإنذار، مع أنّه لا يختصّ به واقعاً، فإنّه مضافاً إلى ذلك، يبشر بالجنة، بل يأتي بالشرعية والأحكام، بل يطبّقها وينفّذها؛ فالتركيز على الإنذار وحده، يتضمّن تهديداً وليس في مقام الحصر الحقيقي، بل الغرض بيان أنّ أهمّ ما يحمله الرسول للبشرية، هو الإنذار بما هو آتٍ لا محالة وهم غافلون عنه، فهو حصر إضافي. وتوصيفه بالمبين باعتبار أنّه لا ينذر بإجمال، بل يفصّل القول في ما ينذر به ويفصّل القول في ما يترتّب على المخالفة، وفي ما

يمكن به تفادي العقوبة وتجنبها وغير ذلك من الشؤون.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَأَمَنْ وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾. قوله: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾، أي «أخبروني» والضمائر في «كَانَ» و «بِهِ» و «مِثْلِهِ»، تعود إلى القرآن الكريم، وقوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾، عطف على الجملة الشرطية، والوجه في عطف هذه الجملة، الإشارة إلى إتمام الحجّة عليهم بوجود شاهد على مثله. والشرط هنا، ليس على حقيقته؛ لأنّ مضمون الشرط أمر واقع وليس مقدّراً، وإنّما المراد، التنازل عن الإصرار على كونه أمراً واقعاً إلى افتراض أنّه قد يكون واقعاً؛ فإنّه أمر ممكن على أقلّ تقدير.

وجواب الشرط مقدّر، تدلّ عليه الجملة التالية، أي فإن كان ذلك واقعاً - وهو واقع فعلاً - ماذا أنتم فاعلون بعد ما يتبيّن الحقّ وينكشف الغطاء والحال أنّكم قد كفرتم به، مع وجود شاهد حجّة، وقد آمن هو به، أو يقدر الجزاء: «فمن أضلّ منكم» ونحو ذلك.

والهدف من الآية بعث الشكّ والريب في قلوب المشركين. وهذه مرحلة من الدعوة، تخصّ المعاندين المستكبرين، الذين يكذبون الرسالة، دون أيّ بحث وتمحيص، أو حتّى توقّف وإمعان، كما كان دأب العرب الجاهلي، ويبدو أنّ طبيعة الصحراء أيضاً مؤثّرة في هذه النفسية العنيدة؛ ففي مثل هذا الحال ينبغي أن يثار في قلوبهم الشكّ، وأنّ نزول القرآن من عند الله، أمر محتمل على الأقلّ ليتأمّلوا ويتريثوا، ولا يبادروا بالكذب والعناد؛ فإنّ الإنسان بطبعه يوازن بين أهميّة المحتمل وقوّة الاحتمال، وإذا كان المحتمل أمراً خطيراً جداً، فإنّه يهتمّ بأقلّ احتمال منطقي، ولا خطر أعظم من الشقاء الأبدي.

وقد وقع الكلام في المراد من هذا الشاهد، ففي «تفسير القمي» - لو صحّت نسبة الكتاب إليه - أنّ المراد به أمير المؤمنين (عليه السلام) واستشهد بقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ﴾^١ حيث ورد في روايات كثيرة أنّ المراد بالشاهد أمير المؤمنين (عليه السلام)^٢. ولكن هذا الاحتمال مردود قطعاً لتصريح الآية بأنّه من بني إسرائيل.

وقال بعض المفسّرين إنّ المراد به موسى (عليه السلام)، وإنّ المراد بمثله المشهود عليه هو التوراة؛^٣ وهذا أيضاً غير صحيح، لوجوه عديدة؛ منها أنّه لا يصحّ أن يعتبر موسى (عليه السلام) شاهداً للمشرّكين وهم لم يشهدوه ولم يعلموا به إلا في ما يرويه أتباعه. وقال جمع كثير منهم: إنّ المراد به عبد الله بن سلام ورووا في ذلك روايات عديدة من طرق أهل السنّة، كما أنّهم رووا في فضله كثيراً واعتبروه مورداً لنزول آيات أخرى أيضاً، ولكن شيئاً من ذلك لم يصحّ عن طرفنا، والتأريخ يشهد بأنّه من دعائم الحكم الأموي وممن حاول الوضّاعون من أتباعهم رفع شأنه، والظاهر أنّه من الإسرائيليين الذين مكروا بالإسلام وأهله. ومهما كان، فتفسير الآية به غير ممكن، لأنّ السورة مكّيّة وهو ممّن أسلم في المدينة. ولكن مفسّري العامّة أصرّوا على ذلك وتبعهم بعض المحقّقين من الشيعة غفلةً عن حقيقة الرجل، وقالوا بأنّ كون الآية المدنيّة ضمن سورة مكّيّة ليس بعزيز. ولكن كيف يمكن أن تكون الآية مدنيّة وهي تخاطب المشرّكين وفي سياق مخاطبات مكّة، كما هو واضح؟!

١. هود (١١): ١٧.

٢. راجع: تفسير القمي ٢: ٢٩٧.

٣. راجع: أطيب البيان في تفسير القرآن ١٢: ١٤٠؛ الميزان في تفسير القرآن ١٨: ١٩٤.

وقيل: إنها مكّة، ولكنها تستشهد بالمستقبل، لأنّه محقق الوقوع؛ ولكنه أيضاً غير صحيح؛ فإنّ الخطاب لمشركي مكّة، فكيف يخاطبون بما سيحدث في المدينة ويستشهد به، وهو لم يتحقّق بعد؟!

ولذلك قال بعضهم: إنّ المراد به بعض أهل الكتاب الذين آمنوا في مكّة. ورُدّ هذا القول بأنّ هذا الرجل غير معروف، ولو كان فهو من عامّة الناس، وليس من أكابرهم وأخبارهم، ليصحّ أن يقال: إنّّه شاهد على رسالة الرسول ﷺ وعلى كون القرآن منزلاً من عند الله تعالى.

ولكن يبدو من آيات أخرى أنّ من اليهود ومن علمائهم، من آمن وشهد برسالة الرسول ﷺ قبل الهجرة، فمنها قوله تعالى في سورة الشعراء وهي مكّة أيضاً: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾،^١ وسياق الآيات يأبى أن تعتبر الآية مدنيّة، وتدلّ على أنّ الذين شهدوا بمعرفة القرآن، مجموعة من علماء اليهود وليس شاهداً واحداً.

وعلى هذا، فيمكن أن يقال في هذا الموضع: إنّ المراد بالشاهد جنسه، بمعنى أنّ هناك من يشهد منهم ويؤمن به ولا يحدّده بالعدد، بل ورد في التأريخ أنّ كثيراً من علماء أهل الكتاب كانوا يبشّرون به ﷺ قبل البعثة، وفي القرآن أيضاً ما يدلّ على ذلك، كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾؛^٢ فقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ﴾ إشارة إلى أنّ اليهود كانوا قبل البعثة إذا

١. الشعراء (٢٦): ١٩٧.

٢. البقرة (٢): ٨٩.

قاتلهم المشركون أو آذوهم، يهدّدونهم بأنّ الله تعالى سيعيث رسولاً في هذه المنطقة، فينتصرون به، ولكنّهم على ما يبدو كانوا يرجون أن يكون الرسول منهم، لتصورهم أنّ النبوة لا تكون إلاّ فيهم، وهذا هو السّرّ في هجرتهم إلى يثرب. فإنّ كلّ قبيلة منهم كانت تأمل أن يكون النبيّ الموعود منها، فلمّا رأوا أنّه من أولاد إسماعيل عليه السلام ورأوا فيه ﷺ علامات النبيّ الموعود والصفات التي رأوها في كتبهم واعترفوا بها قبل ذلك، كفروا به بغياً منهم.

والحاصل أنّ اعتبار الآية مدنيّة لا يناسب السياق ولا الخطاب، فهو غير صحيح؛ فإنّ أمكن حمله على علماء اليهود، الذين شهدوا بصدق الرسالة قبل الهجرة، بل الذين بشّروا بها قبل البعثة فهو، وإلا فلا وجه لحملها على يهود المدينة خاصّة أو على فرد واحد منهم. وذلك لأنّ الآية لا تخبر عن وجود شاهد بالفعل، وإنّما تفرضه فرضاً كما تفرض كونه من عند الله فرضاً أيضاً؛ ليرتّب عليه كونهم في غاية الضلال على هذا الفرض. فيمكن أن لا يكون إشارة إلى فرد خاصّ، بل إلى مجمل شهادة القوم به وهي معروفة منهم.

وفي الآية الكريمة سؤال آخر، وهو أنّه لم يقل: «شهد عليه»، بل شهد على مثله، فما هو المراد بالمثل وكيف يكون ذلك، شهادة على صحّة الرسالة؟

والجواب: أنّ العالم منهم، لا يمكنه أن يشهد مباشرة بصحّة الرسالة، إلاّ بمعنى ما يشهد به غيره ممّن لا خبرة له بالكتب السابقة، وإنّما يشهد بمقتضى إيمانه بالمعجز، فما يختصّ به العالم بالكتب السابقة، هو أنّه يتمكّن من الشهادة على مثله، بمعنى أنّه يشهد بأنّ مضمون هذه الآيات وارد في الكتب السابقة، ليكون دليلاً على صدق كونه نازلاً من عند الله سبحانه. وفي قوله تعالى: ﴿فَأَمَّنَ

وَاسْتَكْبَرْتُمْ» إشارة إلى أن عدم إيمانهم بالرسالة ليس لعدم اقتناعهم بها وعدم ثبوت الإعجاز في القرآن، بل ليس إلا لاستكبارهم وعنادهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. هذه الجملة — كما مرّ — تدلّ على الجملة الجزائية المحذوفة وتعلّل مضمونها، فالتقدير: «فمن أضلّ منكم» أو ما يفيد معناه. وهذه الجملة تعلّل ضلالهم بأن الله لا يهديهم، ومن لا يهديه الله فما له من هادٍ، وإنّما لا يهديهم الله تعالى لظلمهم وعدوانهم، وقلنا - مراراً - : إنّ الظلم لا يحتاج لصدقه إلى وجود مظلوم؛ فكلّ عمل مخالف للحقّ ظلم وعدوان. والظلم وضع الشيء في غير موضعه، والذي لا ينصاع للحقّ مع وضوحه ظالم، فلا حاجة إلى القول بأنّه ظالم لنفسه أو لمجتمعه.

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ
فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۖ وَهَذَا
كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ
قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٠﴾ أُولَٰئِكَ
أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾. اللام في قوله: ﴿لِلَّذِينَ
آمَنُوا﴾، للتعليل، ومعناه أنهم قالوا ذلك في شأنهم، وليس الخطاب لهم، كما هو
واضح. وقد مر مثله في قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ
مُبِينٌ﴾، أي قالوا ذلك في شأن الحق. والضمير في قولهم: ﴿كَانَ خَيْرًا﴾، يعود إلى
الإيمان، والمعنى أن الإيمان لو كان خيراً لكانا سابقين له، كما نحن سابقون في
كل خير.

والمراد بالذين كفروا كفار مكة، كما هو مصطلح القرآن في هذا التعبير؛
فالقول بأن المراد كفار أهل الكتاب غير صحيح، وإنما قاله من توهم أن المراد
بالذين آمنوا، عبد الله بن سلام ومن آمن معه من اليهود، وهو في حد ذاته مردود
لما مر من أن الآية مكية، مضافاً إلى أن عبد الله كان عظيماً في قومه، فلا يناسبه ما
ورد في هذه الآية من تحقير.

فالصحيح أن الآية تشير إلى قول كفار مكة حول الذين آمنوا بالرسول ﷺ،
حيث إن أكثرهم كانوا من الفقراء والضعفاء والعبيد؛ فاعتبر المستكبرون إيمانهم
بهذا الدين دليلاً على ضعفه، وأنه ليس شيئاً يعتمد عليه، وهذا شأن المستكبرين
في كل عهد، كما قال الكفار من قوم نوح عليه السلام: ﴿وَمَا تَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا

بَادِي الرَّأْيِ»، فأجابهم نوح عليه السلام في ما أجابهم: «وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤَيِّتَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ»^١.

وهذا في الواقع غلو في الإعجاب بالنفس لدى المستكبرين وأصحاب الجاه والثراء، فيزعمون أنهم هم أصحاب الرأي الثاقب، وأن الفقراء ليس لهم إدراك قوي، مع أن الذكاء والغباء لا يرتبط بالجاه والمال، بل ربما يكون الغالب في أصحاب الثراء وخصوصاً في الجيل المتأخر، الذي حصل على الثراء بالإرث، هو الغباء والحمق، بسبب توغلهم في الرفاه والراحة ممّا يوجب فقدان النشاط الفكري لديهم، كما هو مشهود بوضوح.

وأغرب من ذلك، أننا نجد عامة الناس يهتمون بآراء أصحاب الجاه والمال أكثر من غيرهم، وكأنّ المقياس في حصافة الرأي هو المال والجاه، وكلّما تنزّلت الثقافة العامة في المجتمع رأيت هذا الداء فيهم أعمّ وأدوم، حتّى أنّهم ينتخبون لمجالسهم النيابية أصحاب الثراء، دون إلتفات إلى مدى ثقافتهم.

﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَمَسِيْقُولُونَ هَذَا إِنْكَ قَدِيمٌ﴾. ﴿إِذْ﴾ للتعليل، أي حيث إنهم لم يهتدوا به لاستكبار في نفوسهم، بحثوا عن ذريعة لعنادهم، فسيقولون هذا إفك قديم، ليكون حجة لهم في عدم التسليم للدين، كما قالوا في موضع آخر: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، وهم بذلك يعلنون كفرهم بجميع الديانات السماوية، وإن كانوا يظهرون أنّهم إنّما يكذبون الرسول ﷺ في رسالته ولا يكفرون بالله تعالى، ولكنهم يكذبون في ذلك، كما قال تعالى في: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ

١. هود (١١): ٢٧.

٢. هود (١١): ٣١.

فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ^١، كما أن قولهم: ﴿إِنَّا قَدِيمٌ﴾ يدل على أنهم يعتبرونه امتداداً للرسالات السابقة ويعتبرونها بأجمعها إفكاً، ومثله قولهم: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾؛ بل حكي عنهم في القرآن كفرهم بالتوراة صريحاً، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوَيِّ مِثْلَ مَا أُوَيِّ مُوسَى أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوَيِّ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ^٢﴾.

﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾. لعل الجملة في معنى الحال، أي أنهم يقولون في القرآن ذلك، مع أن الذي قبله - وهو المشار إليه بقولهم إفك قديم - كتاب موسى عليه السلام، أي التوراة، ولعل التعبير عنه بكتاب موسى للتنبيه على دور الرسول في إتيان الكتاب، كما أتى لهم الرسول ﷺ بالقرآن، وقوله: ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾، حالان من الكتاب.

والإمام هو القدوة. والتعبير عن الكتاب السماوي بالإمام، باعتبار أنه يخطط للمؤمن سبل حياته، بحيث يكون عمله مرضياً عند الله تعالى، والإمام هو المقتدى، ولذلك يعبرون عن شاقول البناء بالإمام، وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾^٣، في إشارة إلى صحيفة عمل الإنسان، التي بموجبها يتحدد مساره وطريقه ويتعين مقامه ومنزلته.

والكتاب السماوي رحمة أيضاً في نفس الوقت، لما يشتمل عليه من الآيات التي تبعث في الإنسان الإيمان والطمأنينة، وتنير له الطريق وتبين له خيره وشره

١. الأنعام (٦): ٣٣.

٢. القصص (٢٨): ٤٨.

٣. يس (٣٦): ١٢.

في الدنيا والآخرة، وتشفيه من الأمراض النفسية، كالجهل والكبر والحسد ونحو ذلك.

﴿وهذا كتاب مُصدقٌ لساناً عربياً﴾. تكرر هذا المضمون في القرآن الكريم، للتأكيد على أن هذه الرسالة امتداد للرسالات السابقة، وأن هذا الكتاب على نفس الصراط والطريق، الذي رسمته الكتب السماوية القديمة، فالقرآن يصدق ما نزل في التوراة والإنجيل، كما أن الإنجيل يصدق للتوراة. ولا اختلاف بين أصول الشرائع أساساً، كما مرّ في تفسير سورة الشورى. وفي التنويه على كونه عربياً، إيمان على القوم وإتمام للحجة عليهم بأن الكتاب نزل بلغتكم، فلا عذر لكم. وقوله: ﴿لساناً عربياً﴾، حال من الكتاب.

﴿لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَيُبَشِّرَ لِلْمُحْسِنِينَ﴾، بيان للهدف من إرسال الكتاب والرسالة، وهو إنذار الظالمين بعذاب ينتظرهم وبشرى للمحسنين. و﴿بُشْرَى﴾، مفعول لأجله، معطوف على محل ﴿لِيُنْذِرَ﴾. وقد مرّ الكلام حول الظلم، وأنه لا يتوقّف في صدقه على وجود مظلوم؛ بل هو وضع الشيء في غير موضعه، فمن لم يتبع الحقّ وعانده، فهو ظالم وإن لم يتعدّ على حقّ أحد، ولذلك قوبل بالمحسنين. والإحسان: الإتيان بالأعمال الحسنة. ولا يخرج من المجموعتين إلا من لم تتمّ عليه الحجة مطلقاً وهو قليل.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. هذه الآية تشير إلى مصداق واضح للمحسنين وهم الذين قالوا ربّنا الله ثمّ استقاموا، ففي قولهم: ﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾ حصر للربوبية فيه تعالى، حيث لا يعترفون بأيّ ربّ غيره، ولا يدينون لأحد إلا له تعالى. واستقاموا على هذه العقيدة في مرحلة العمل، وهذه هي

المرحلة الصعبة في الإيمان، فهناك من الناس من يعلن كلمة التوحيد ويتشدق بها، ويعلن دفاعه عنها، بل ربما يدافع بلسانه ويأتي بالأدلة والحجج الدامغة لإثباتها، ولكنه في مرحلة العمل وفقاً لها ضعيف الإيمان، فلا يتحمل في سبيل الله المشاق، بل ربما لا يتحمل في سبيل إطاعته التنازل عن شيء من المال، كما نجده في كثير من الناس، وأصعب منه بذل النفس في سبيله وفي سبيل أحياء دينه، فقلماً تجد مؤمناً يستقيم في هذه المرحلة، بل يحاول الأكثر - لو لم نقل الجميع - اختلاق المعاذير للتهرب من المسؤولية، بل الغالب ذلك، حتى لو لم يتوقف الأمر على بذل النفس، فيتهرب الإنسان عن أدنى مشقة وتعب في سبيل العقيدة. وكثير من الناس ينكر الحكم الشرعي أو يستنكره، حتى لو كان صريح القرآن في ما إذا عارض مصالحه.

فالاستقامة والثبات على الدين في مرحلة العمل هو الشرط الأساس للفوز، ولذلك عطف على أصل الاعتقاد، واعتبر شرطاً في صفة المؤمن الذي لا يخاف ولا يحزن، أي لا يخاف من سوء العاقبة؛ فإن عاقبته مضمونة بما وعده ربه من الحسنى، ولا يحزن على ما فاته من متاع الدنيا؛ فإنه يعلم أنه لا قيمة له في قبال ما يحصل عليه من فضل ربه وأهمه رضوان الله تعالى.

والعطف بـ ﴿ثم﴾ لإفادة التراخي، فإن المراد بالاستقامة، الثبات في مقام العمل - كما قلنا - وهو متأخر عن الاعتقاد، وهو المراد بقولهم: ﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾، إذ لا يراد به التلقظ فحسب، فإن المنافق أيضاً يقول، ولكنه لا يفيد، فالمعتبر الاعتقاد الراسخ بربوبيته ووحديته تعالى، بحيث يستوجب الثبات في مرحلة العمل، وهذا التوحيد يستلزم نفي ما عدا رضاه تعالى من الدواعي في العمل. والاستقامة التامة

لا تتحقق إلا من المعصوم. وقد تقدم بعض الكلام في نظيرة هذه الآية في تفسير سورة فصلت، الآية ٣٠.

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، تأكيد على أن الإنسان مجزي بعمله، فالمقربون أيضاً لم يقربهم إلى الله شيء إلا أعمالهم. والعبرة ليست بحجم العمل، فربما يعيش المؤمن قرناً أو أكثر وهو صالح ويعمل الصالحات، ولكن لا يقاس عمله بعمل أحد المقربين الذي يترك الدار الدنيا — وهي دار العمل — في عنفوان شبابه، كما اتفق لجمع من الأنبياء والأئمة عليهم السلام ولسيدتنا الزهراء - سلام الله عليها-، فالعبرة بالنية والخلوص والاستقامة، وهنا يصعب الاختبار ويشتد البلاء، بحيث يؤثر أحداً أو كلنا حرمانه من تلك المنازل والمراتب على الابتلاء بما يوصله إليها.

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ۚ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفَصْلُهُ
ثَلَاثُونَ ۚ يَهْرَأُ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ
نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلَحْ لِي فِي
ذُرِّيَّتِي ۚ إِنَّي تَبَتُّ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٤٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ
مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ۖ وَعَدَ الصَّٰدِقُ الَّذِي كَانُوا
يُوعَدُونَ ﴿٤٥﴾

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾. لعل المناسبة بين هذه الآية وما سبقها، أنه بعد أن بين أن القرآن ينذر الذين ظلموا ويبشّر المحسنين، ثم بين صفة الموحدين الذين استقاموا على التوحيد في كل أعمالهم، بين هنا صفة أصحاب اليمين وأصحاب الشمال، ولكنه جعله في إطار الوصية بالوالدين، للإشارة إلى أن العامل الأساس في نشأة المجتمع الصالح هو التربية الصالحة تحت ظل الوالدين الصالحين. ولكن الآية تنبه على أن التربية الصالحة وصلاح الوالدين لا يكفيان لنشأة الجيل الصالح، فيذكر هنا نموذجين من البشر، تربى كل منهما في بيئة مؤمنة صالحة، ولكن أحدهما تبع طريق الوالدين والآخر خالفهما.

والوصية بمعنى العهد، والأصل فيها الوصل، كأن من يوصي بشيء يوصل الكلام إلى الموصى إليه، والمراد بما أوصاه الله تعالى ما فرضه على البشر. وقوله: ﴿إِحْسَانًا﴾ لا يبعد أن يكون بتقدير: «أن يحسن إليهما إحسانًا». وقد مرّ الكلام حول الوصية بالوالدين في سورتي العنكبوت ولقمان، وقلنا: إن الآية الكريمة تخبر أن الله تعالى قد أوصى الإنسان - بصورة عامّة - بالإحسان إلى الوالدين

والاهتمام بشأنهما، ولم يقل: «نوصيه»، فيكون إنشاءً، فالظاهر أنه إخبار عن وصية سابقة وقد خوطب بها جنس الإنسان لا قوم خاص، ولا صنف خاص؛ ففعل المراد بهذه الوصية هو ما أودع في الإنسان من نداء الفطرة، أو المراد أنه تعالى أوصى بذلك في جميع شرائع السماء.

وهنا يبدو سؤال واستغراب من جهة أن الله تعالى أكد على حق الأبوين على الأولاد، ولم ينبّه على ما للأولاد من حقّ عليهما، مع أنه أيضاً مذكور في الشرع، ووردت الإشارة إلى بعضه في القرآن، ولكن لم يرد هذا التأكيد عليه؛ ويلاحظ أن هناك من الأبوين من لا يراعي حقوق أولاده، بل يظلمهم ويتجنّب عليهم، بل منهم من يستحقّ الإعدام لجرائمه بالنسبة إلى أولاده ولكن هذا نادر جداً. والحالة العامة هو أن الآباء والأمّهات يعطفون ويحنّون على أولادهم بدافع ذاتي وهو حنان أودعه الله تعالى في فطرة الإنسان والحيوان عامة، مضافاً إلى بعض الدوافع المادية، التي يتوقّعها الإنسان من أولاده في المستقبل وإن كان ذلك في الغالب مغفولاً عنه، ولكنّه ربما يكون من الدوافع الارتكازية في اللا شعور.

وأما احترام الأولاد للأبوين وحبّهما والعطف عليهما، فيختلف ذاتياً حسب مراحل حياة الإنسان ويمكن تقسيمها إلى ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: مرحلة حاجته إليهما في أيام صغره وضعفه، فحبّه وحنانه إليهما في هذه المرحلة أمر طبيعي، حيث إنه لا يجد مأوى أدفأ من حضنهما، بدون منّة عليه وتوقّع أمر يثقل على كاهله، فلا شك أنه يحترمهما ويحبّهما.

والمرحلة الثانية: مرحلة استغنائه عنهما مع عدم احتياجهما إليه، وتبادل الحبّ والحنان في هذه المرحلة أمر طبيعي أيضاً ويؤكدّه حاجات الطرفين وشعور كلّ

منهما بالراحة والاطمئنان باللجوء إلى الآخر.

والمرحلة الثالثة: مرحلة حرجة جداً، وهي مرحلة احتياجهما إليه بعد بلوغهما الكبير، وعدم تمكّنهما من تأمين الحوائج إلا بمساعدة من يحنّ عليهما، فهما بحاجة إلى قوّة الشباب، بل ربما إلى المال أيضاً وأحوج ما يحتاجان إليه الحبّ والحنان والكلمة الطيبة والشكر، لما أسدياه من جميل للأولاد طيلة الحياة وهنا تبدأ المشكلة، فالولد ليس له في الغالب دافع ذاتي للإحسان إليهما وتحمل المتاعب في سبيل إسعادهما، خصوصاً أنّ الإنسان في الكبر بحاجة إلى عناية مركّزة ومساعدة في جميع الحالات، وهو أكثر حاجة من الطفل وأضعف، والعناية به أشقّ على الإنسان وأصعب، والدوافع الذاتية بالنسبة إليه تكاد تكون معدومة، ومن هنا فإنّ الوضع بحاجة إلى حثّ وتحريض شديد من الله سبحانه، لإيجاد دافع عرضي، يعتمد على وعد من الله تعالى بالجزاء في الدنيا والآخرة.

ومن هنا أوصى الله الإنسان بأبويه وأكد على احترامهما في زمان الكبر والحاجة، حتّى منع من التضجّر منهما وقال: ﴿فَلَا تَقُلْ هُمَا أَفٌّ﴾، ولم يرد مثل هذا التأكيد في التوصية بالأولاد وإن كان لهم أيضاً حقوق على الأبوين، كحقّ النفقة والحضانة والتربية وغير ذلك، ولكن ليست بهذه المثابة من الأهميّة.

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾، خصّ الأمّ بالذكر بعد الإيضاء بهما معاً، وفيه إشارة إلى أنّ حقّها أكبر وشأنها أعظم، وإن كانت الولاية في الصغر للأب وليس للأمّ، ولكنّ الإحسان إليها وإرضاءها أهمّ، وإذا تعارض رضاها فرضا الأمّ مقدّم على رضا الأب، كما دلّت عليه الروايات الواردة في كتب الفريقين، منها

صحيحة هشام بن سالم، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله من أبر؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أباك»^١.

والمراد بحمله كرهاً، ليس الكره حين العلوق بالطبع، بل أثناء الحمل، والمراد بكونه كرهاً تحقق أمور تكرهها وإن كانت راضية، بل فرحة مسرورة بأصل الحمل، فهي طيلة هذه المدة تلقى مصاعب كثيرة؛ فإن الجنين لا ينمو في بطن أمه إلا باستنزاف قواها، وذلك بالطبع يؤدي إلى تضررها وتدهور صحتها وضعفها، كما قال تعالى في سورة لقمان: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ﴾^٢ والوهن هو الضعف، والمراد أنها تزداد ضعفاً على ضعف، كلما تكامل الولد وتطور في مراحل الجنينية، وهذا أمر طبيعي وتضعه أيضاً على كره، لأنها تتحمل ألماً شديداً، وتخطر بنفسها حين الوضع، وكم من والدة لم تر ولدها بعد الوضع أو لم تشع من رؤيته.

﴿وَحَمَلُهُ وَفَصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾. وهكذا تستمر الأم في إسداء الخدمة لولدها، فترضعه إلى الفصال، وهو القطع، والمراد بيان مدة الحمل والرضاع، وإنما عبر بالفصال، لأنه آخر الرضاع، والغالب فيه هو الإكمال عامين، ويستحسن أن تفتطمه حينئذ ويجوز قبل ذلك. قال تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةَ﴾^٣، ويظهر من الآية أنه لا تنبغي الزيادة عليهما. قيل: وفي ذلك إشارة إلى أن مجموع الحمل والرضاع ينبغي أن لا يزيد على

١. الكافي ٢: ٩/١٥٩، باب برّ الوالدين.

٢. لقمان (٣١): ١٤.

٣. البقرة (٢): ٢٣٣.

ثلاثين شهراً، وأنه إذا كان الحمل تسعة أشهر، فالرضاع التام واحد وعشرون شهراً. وهذا بعيد جداً، بل غير صحيح؛ لأنه يستلزم أن يحمل قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ على خصوص ما إذا كان الحمل ستة أشهر وهو فرض نادر.

والآية وردت في مورد الطلاق مع وجود الولد وحاجته إلى الرضاع؛ فتدل على أن الأمر في مدة الرضاع بيد الوالد وهو المراد بقوله: ﴿لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ وأنه إذا أراد الإتمام، فمدته الكاملة حولان. وإذا طرحنا الحولين من ثلاثين شهراً بقيت ستة أشهر، ولذلك ورد في أحاديثنا أن أقل الحمل ستة أشهر، وهو المفتى به في الفقه ويظهر الأثر الشرعي في ما إذا ولدت المرأة بعد ستة أشهر من أول لقاء مع زوجها، فإن الولد يلحق به شرعاً ولا يلحق به إذا كانت المدة أقل من ذلك.

ولكن الداعي إلى التنبيه على هذا الأمر هنا ليس هو الحكم الشرعي، بل الإشارة إلى المدة الطويلة التي تسهر فيها الأم، وتضحى بعصارة جسمها لكي يبقى هذا الطفل الوليد وينمو، فتمده بما يحتاج إليه من العناصر، لتكون الجسم أيام الحمل عن طريق الدم مباشرة، وبعد الولادة عن طريق اللبن. هذا مع سائر ما تستلزمه الرعاية والحضانة من تنظيف وتداوٍ وتدفئة وتعليم وتربية وغير ذلك، فأقل ما تستلزمه هذه العناية من زمان ثلاثون شهراً وإن كان الغالب أكثر من ذلك، لأن مدة الحمل غالباً تسعة أشهر وربما يزيد. وأمّا ما يقال من أن أكثره أربع سنين، بل أكثر منه - كما في كتب العامة - فهو كلام باطل ومضحك، وإنما قصد بذلك تنزيه ساحة بعض من ولدوا بعد آبائهم بهذه المدة من الاتهام بعدم شرعية النسب.

ننقل هنا كلام أحدهم وهو الشيخ ابن عثيمين، قال في شرح «زاد المستقنع»: «وقوله: «أو دون أربع سنين» بناءً على المشهور من المذهب أن أكثر مدة الحمل أربع سنين، وسيأتينا - إن شاء الله - في كتاب العدد، ولا دليل على أكثر الحمل، لكن قالوا: لأن هذا أكثر ما وجد، فنقول: تقييد الحكم بالوجود يحتاج إلى دليل؛ لأنه قد تأتي حالات نادرة غير ما حكمنا به، وهذا هو الواقع، فقد وجد من لم يولد إلا بعد سبع سنين! ولد وقد نبتت أسنانه، ووجد أكثر من هذا إلى عشر سنين، وهو في بطن أمه حياً، لكن الله - عز وجل - منع نموه، فالصحيح أنه لا حَدَّ لأكثره وأنه خاضع للواقع، فما دمنا علمنا أن الولد الذي في بطنها من زوجها وما جامعها أحد غيره، وبقي في بطنها أربع سنين، أو خمس سنين أو عشر سنين فهو لزوجها»^١.

ورروا في ذلك روايات، فمن ذلك ما رواه البيهقي بسنده عن داود بن رشيد: «قال سمعت الوليد بن مسلم يقول: قلت لمالك بن أنس إنني حدثت عن عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت: لا تزيد المرأة على حملها على سنتين قدر ظل المغزل. فقال: سبحان الله من يقول هذا؟! هذه جارتنا امرأة محمد بن عجلان، امرأة صدق وزوجها رجل صدق حملت ثلاثة أبطن في اثنتي عشرة سنة، تحمل كل بطن أربع سنين»^٢. وروى في نفس الصفحة، عن محمد بن عمر بن واقد، في ذكر مالك بن أنس أن أمه حملت به في البطن ثلاث سنين!!!

﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾، أي استمر في النمو والرشد جسماً وروحاً

١. الشرح الممتع ١٣: ٣١١.

٢. السنن الكبرى ٧: ٤٤٣.

إلى أن بلغ الأشد. واختلفوا في معنى الأشد، بل اختلفوا في كونه جمعاً مفرداً الشدة أو أنه جمع لا مفرد له أو مفرد لا جمع له. وقال بعضهم: إن المراد به بلوغ ثمانية عشر سنة، وبعض آخر اعتبره بلوغ الثلاثين. وقيل: إن بلوغ الأربعين في الآية عطف تفسيري، وقيل غير ذلك.

ويظهر بمراجعة الاستعمالات القرآنية، أن معناه يختلف حسب الموارد، فقد ورد هذا التعبير كشرط في دفع أموال اليتيم إليه، كما في سورة الأنعام والإسراء وهما مكيّتان: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾.^١ وقد فسر ذلك في سورة النساء وهي مدنية بقوله تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾.^٢ فيتبين من بلوغ النكاح في هذه الآية، أن المراد ببلوغ الأشد في تلك الآيتين البلوغ الجنسي، مضافاً إلى الرشد في الأمور المالية. وإنما أخرج التفسير إلى السورة المدنية، لعدم الحاجة بالفعل إلى هذه الأحكام في مكة قبل الهجرة، فاكتمني بالإشارة المبهمة الإجمالية. والظاهر أن المراد بالبلوغ الجنسي هو سنّ التكليف الشرعي.

وورد التعبير ببلوغ الأشد أيضاً في مورد بعث الرسل أو إيتائهم الحكم والعلم، قال تعالى في شأن سيدنا يوسف عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.^٣ وفي شأن سيدنا موسى عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.^٤ ولعل المراد به هنا، تكامل قواه العقلية والجسمية، ولعل هناك أموراً أخرى دخيلة في هذا

١. الأنعام (٦): ١٥٢؛ الإسراء (١٧): ٣٤.

٢. النساء (٤): ٦.

٣. يوسف (١٢): ٢٢.

٤. القصص (٢٨): ١٤.

الشأن. ومهما كان، فلا شك أن العبارة هنا لا يمكن حمله على ما أريد في المورد السابق.

وعلى ضوء ما مرّ، وهو اختلاف المعنى حسب الموارد، يمكن أن يقال: إن المراد به هنا هو الكمال العقلي، فإنه هو الشرط لمعرفة بالحقائق التي يبتني عليها صدور الكلام التالي منه. وإنما اشترط ذلك لعدم كفاية بلوغ الأربعين؛ إذ لعله يكون فاقد العقل والبصيرة، فإذا كمل عقله وبلغ أربعين سنة، حيث تكمل قواه الجسمية، ويكتسب في هذه السنين خبرة وتجربة، ويحصل على رصيد وافر من العلوم والمعارف المختلفة من هنا وهناك، لو لم يكن طالب علم، ومن جهة أخرى تدعوه فطرته إلى التوحيد والتوجه إلى الرب، مضافاً إلى تربيته في بيئة صالحة، فحينئذ ينتبه إلى ربه ويدعوه: ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾. قيل: إن معنى أوزعني: ألهمني، وقيل: أولعني. والغالب في استعمال الوزع هو الكف والمنع، وله استعمالات أخرى؛ منها التوزيع بمعنى التقسيم، ويمكن أن يكون ذلك أيضاً من هذا الباب باعتبار منع إعتداء كل من الموزع عليهم على نصيب الآخر. ومنها الجمع، كما في قوله تعالى: ﴿وَوُحِّشَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾، أي يجمعون على أحد الاحتمالين، ولعله باعتبار منعهم من التفرق. وأمّا هنا، فلعله من جهة أن الإلهام أو الحث من الله تعالى، يمنع الإنسان من ترك الشكر. ومهما كان، فالمعنى هنا - كما في أكثر التفاسير - ألهمني أن أشكر نعمتك أو أبعثني وأولعني على ذلك، فالمراد الاستعانة بالله تعالى على شكره.

والشكر ليس بمعنى التحدث بالنعمة وحمده تعالى على ما أنعم، وإن كان ذلك نوعاً من الشكر، ولكن ما وصفه الله تعالى بقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾، هو العمل بمقتضى ما أمر الله تعالى به بالنسبة إلى كلٍّ من هذه النعم، فلا يستخدم العين واليد وغيرهما من الأعضاء إلا في ما أمر به ويعمل بهداياته ووصاياه، التي أنزلها في كتبه وعلى لسان رسله؛ فإنها أيضاً من نعمه تعالى. وإرسال الأنبياء ونصب أئمة الهدى - عليهم جميعاً سلام الله تعالى - من أكبر نعمه وألطافه. وشكره على ذلك بمتابعتهم وإظهار الحبّ والولاء لهم، وعدم تقديم غيرهم عليهم.

ثم إنه كما يهتمّ بما أنعم الله عليه ويشكره عليها، يهتمّ أيضاً بما أنعم على والديه ويشكره عليها، إمّا لأنّ تلك النعم تسري بوجه من الوجوه إليه خصوصاً، إذا لاحظنا أنّ الاهتمام منصبّ على نعمة الدين والإيمان بالله وكتبه ورسله، ولا شكّ أنّ إيمان الأبوين يؤثّر تأثيراً عميقاً في إيمان الأولاد. وإمّا لأنّه يريد أن يتحمّل شطراً من مسؤولية الوالدين تجاه النعم الإلهية؛ فالإنسان مهما عمل وأخلص العبادة، فإنّه لا يبلغ شكر جزء يسير من النعم الإلهية المعلومة لدينا، وما خفي أعظم. وينبغي للمؤمن البارّ بوالديه، إن يشركهما في عباداته وطاقاته، ويطلب من الله تعالى أن يبعث ثواب عباداته إليهما، خصوصاً بعد وفاتهما، فهما أحوج إلى البرّ والإحسان حينئذٍ.

والحاصل أنّ الآية لا يبعد أن تكون إشارة إلى إشراك الأبوين في ثواب العبادات والطاعات، نظراً إلى أنّ الشكر لا يقصد به الشكر اللفظي فحسب.

﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾. قوله: «صَالِحًا» صفة للمفعول المقدر، أي أعمل عملاً صالحاً، و﴿تَرْضَاهُ﴾ جملة وصفية للعمل أيضاً. وهذه حاجة أخرى يطلبها من ربه وهي أن يبعثه على أن يعمل عملاً صالحاً يرضاه الله تعالى، فرضاه هو غاية المقصود. والصلوح - كما قلنا مراراً - يختلف باختلاف الموارد، وقوله: «تَرْضَاهُ» يحدّد الصلوح هنا، فالمراد العمل الذي يصلح لكسب مرضاته تعالى.

﴿وَأُضْلِخْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾، أي واجعل الصلاح في ذرّيتي. يطلب بذلك استمرار الصلاح في ذرّيته، ليتصل الإيمان والصلاح جيلاً بعد جيل، والتعبير بكون صلاح الذرّية له، يدلّ على مدى تأثر الآباء بصلاح أولادهم، وهذا النموذج الصالح، كما عمل الصالحات لأبويه يطلب من الله تعالى أن يستمرّ ذرّيته على العمل الصالح بعده، ليثاب هو عليه؛ فإنّ التربية الصالحة هي التي تؤثر في متابعة الأولاد لأبائهم في سلوك طريق الحقّ ومنهج الصلاح، وهذا خير عمل للآباء، وهذا كما ورد في الحديث: «من سنّ سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، من غير أن ينقص من أجورهم شيء»^١.

﴿إِنِّي ثَبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾. سياق الآية يفيد أنّ هذه الجملة تعليل لما سبق، فالذنوب هي العوائق من انتشار الصلاح في المجتمع وانتقاله إلى الأجيال التالية، وهذا النموذج الصالح يتخلّى ويتبرأ من ذنوبه ويتوب إلى الله تعالى، ليصلح أن يكون همزة وصل بين الجيل الصالح السابق «الوالدين» والجيل التالي المرجوّ صلاحه. والإنسان غير المعصوم لا يخلو من ذنوب، فلا بدّ من التوبة باستمرار.

ثم إنه يعلن أنه من المسلمين، ولا شك أنه لا يريد به الإسلام الظاهري الذي يتحقق بالشهادتين ويتفرع عليه أحكام الإسلام؛ فإن المناقق أيضاً مسلم بهذا المعنى، بل يريد بهذا القول أنه أسلم أمره إلى الله تعالى، فحق له أن يتوقع من ربه أن يصلح له في ذريته ويوفّقهم لهذا الإسلام والتسليم لأمر الله تعالى. ولم يقل: «إني مسلم»، بل اعتبر نفسه جزءاً من مجموعة المسلمين، لئلا يعجب بنفسه، كأن له ميزة على الناس وهذا نظير قوله تعالى: ﴿وَكَاثَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾^١.

وهذا يذكرنا بوصية إبراهيم ويعقوب عليهما السلام، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغُبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين * ووصى بها إبراهيم بنبيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون^٢. فقله تعالى: ﴿وَوَصَّى بِهَا﴾، يعود الضمير فيه إلى إسلامه الذي أعلنه لربه وهو الإسلام الواقعي، أي التسليم المطلق لما يريد به الله تعالى والرضا به. وهذا هو الدين الحق الذي اصطفاه الله تعالى لأتباعه، وهو الذي نطلبه من الله تعالى في الأدعية المأثورة، كما في دعاء كميل: «وتجعلني بقسمك راضياً قانعاً»^٣.

ويتبين من سياق الآيات وما تليها أن الغرض — كما أشرنا إليه — بيان نموذجين من البشر صالح وطالح، مع أنهما معاً تربيا في بيئة مؤمنة، وليست الآيات واردة في مورد خاص بعينه، ولكن جهاز وضع الأحاديث راقٍ له أن يصنع حديثاً في أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر بدليل أنه لم يكن في الصحابة

١. التحريم (٦٦): ١٢.

٢. البقرة (٢): ١٣٠ - ١٣٢.

٣. مصباح المتعبد ٢: ٨٤٥.

غيره من أسلم هو وأبواه وأولاده جميعاً. وهذا - مع أنه كذب محض وهناك كثير من الصحابة بهذا الوصف - لا يدلّ على هذا الاختصاص، مضافاً إلى أن أبا قحافة إنّما أسلم يوم الفتح والآيات نزلت بمكة.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾. ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى الإنسان المذكور في أول الآية السابقة، والإشارة باسم الجمع باعتبار أن المراد به جنس الإنسان مع هذه الصفات. قيل: إنّ التقبّل يدلّ على قبول مع جزاء. وقيل: إنّ أبلغ من القبول. ولكنّ الظاهر عدم الفرق، لقوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾.^١ و«عن» هنا بمعنى «من» وليست للمجازة، بدليل قوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^٢ وغيرها، فلا وجه لما حاول بعضهم فيها من التأويل. ولعلّ الإتيان باسم الموصول يفيد الحصر، ولكن ليس معناه أن هذا الجزاء خاصّ بمن يقول هذه الكلمات، بل المراد من يكون من الإيمان بهذه المنزلة.

ويقع السؤال في وجه اختصاص القبول في هذه الآية ونظائرها بأحسن الأعمال، دون كلّ ما هو حسن من الأعمال. وأجيب بأنّ المراد بأحسن ما عملوا، أعمالهم الواجبة والمستحبة، وأمّا الأعمال المباحة فهي قد تكون حسنة، ولكنها لا تتقبّل لعدم كونها مقرّبة إلى الله تعالى؛ فمفاد الآية أنّ المؤمن قد تنقسم أعماله إلى ثلاثة أنحاء، عمل سيئ فيتجاوز الله تعالى عنه، وعمل حسن في مقابل السيئ، ولكنه ليس من الواجبات والمستحبات، بل هو مباح، فلا معنى لقبوله من الله تعالى، وعمل أحسن وهو الواجب والمستحبّ وهو ما يتقبّله الله.

١. آل عمران (٣): ٣٧.

٢. آل عمران (٣): ٣٥.

وهذا الجواب وإن تلقّوه بالقبول، إلا أنّه خلاف الظاهر؛ فإنّ الأحسن من الأعمال ظاهر في كونه أحسن من جميعها، حتّى الواجبات والمستحبات، مضافاً إلى أنّ مناط الحسن عند الله تعالى ليس إلا قصد التقرب إليه، فالأحسن من الأعمال ما يكون القصد فيه أقرب إلى الإخلاص الكامل، والمباحات ليس لها شيء من الحسن، إذ لا تشتمل على التقرب.

وقد مرّ مثل هذا السؤال في سورة الزمر في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَجْزِيهِمْ أَجْرُهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^١، وقلنا: إنهم ذكروا وجوهاً في ذلك؛ منها: أنّ الله تعالى يجزي كلّ أعمالهم بجزء أحسنها، فيجعل ذلك مقياساً لثواب كلّ عمل. ومنها: أن يكون من باب الإضافة إلى غير الجنس، أي بجزء أحسن ممّا كانوا يعملون، كما قال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾^٢، ولكنّ الوجهين لا يأتيان هنا، لأنّ المذكور هنا قبول العمل لا الجزاء.

وذكرنا هناك أنّه يمكن أن يكون الجزاء مبيّناً لدرجة قربهم وهو الجزاء الأوفى، أي أنّه تعالى يجعل درجة قربهم لديه على أساس أحسن ما كانوا يعملون، فهو مقياس تعيين درجة كلّ واحد منهم وإن كانوا يجزون على كلّ أعمالهم، وهذا يمكن القول به في هذا المقام أيضاً، بل هذه الآية أولى بهذا الوجه، لأنّ المذكور هنا هو القبول وهو أمر آخر غير الجزاء، فلا مانع من أن يجزى الإنسان بكلّ عمل أتى به بقصد القربة، ولكنّ القبول يختصّ ببعضه، ويؤيد ذلك ما ورد في الحديث من أنّ الله تعالى لا يقبل من الصلاة إلا

١. الزمر (٣٩): ٣٥.

٢. النمل (٢٧): ٨٩.

ما كان العبد مقبلاً فيه على ربه.

روى الكليني رحمه الله بسند صحيح عن محمد بن مسلم، قال: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إن عمار الساباطي روى عنك رواية، قال: «وما هي؟» قلت: روى أن السنة فريضة، فقال: «أين يذهب؟! أين يذهب؟! ليس هكذا حديثه، إنما قلت له: من صلى فأقبل على صلاته، لم يحدث نفسه فيها، أو لم يسه فيها، أقبل الله عليه ما أقبل عليها، فربما رُفِع نصفها أو ربعها أو ثلثها أو خسها، وإنما أمرنا بالسنة ليكمل بها ما ذهب من المكتوبة»^١. ولعل المراد بالتقبل في الآية المباركة هو ما عبّر عنه بالإقبال في هذه الصحيحة.

﴿وَتَجَاوَزْ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾، التجاوز عن الذنب تركه وعدم المؤاخذه به، والسيئات كلّ ما لا ينبغي فعله وتشمل المعاصي الصغيرة والكبيرة إلا أن قوله تعالى: ﴿إِنْ تَحْتَسِبُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾^٢، يقتضي أن يكون هؤلاء ممن يجنب الكبائر، وأن السيئات التي تجاوز عنها الله تعالى هي الصغائر فحسب.

﴿فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾ حال من الضمير في قوله: ﴿تَقَبَّلُ عَنْهُمْ﴾، أي حال كونهم في أصحاب الجنة، والظرفية مجازية، أي يدخلون في سلكهم.

﴿وَعَدَ الصَّدَقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾، الظاهر أنه منصوب بفعل مقدّر، أي نوفي لهم وعد الصدق الذي كانوا يوعدون به عن طريق الرسل والكتب السماوية. والصدق مصدر بمعنى اسم الفاعل، والإضافة من قبيل إضافة الموصوف إلى الصفة، أي الوعد الصادق وهو الوعد الذي يتحقّق في الخارج، فيصدق وينطبق.

١. الكافي ٣: ٣٦٣.

٢. النساء (٤): ٣١.

وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِي أَنْ أَخْرَجَ وَقد خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَعْجِلَانِ اللَّهَ وَبَلَكَ ءَامِنٌ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٥٨﴾
 أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ آيَاتِ وَالْإِنْسِ
 إِيَّاهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ عَمَلًا وَلِيُؤْفِقَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا
 يَظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا
 وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ
 وَمِمَّا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٦١﴾

﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا﴾، الظاهر أنه مبتدأ خبره: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمْ﴾،
 والإشارة للجمع بلحاظ تعدد المصدق. وهذا هو النموذج الثاني من البشر
 يضرب الله به المثل، والمفروض أن النموذجين تربيا في بيئة إسلامية، وبين
 أبوين مؤمنين صالحين واختلفا في العقيدة والعمل. والآية تصور وقاحة هذا
 الإنسان قبل شركه وكفره، فهو يتضجر من دعوة أبويه إياه إلى الإيمان بالله
 واليوم الآخر، وبكل وقاحة يعلن تضجره وسأمه منهما بقوله: ﴿أَفٍّ لَّكُمَا﴾. و﴿أَفٍّ﴾
 كلمة تقال عند التبرم والتضجر، وفيه نوع من التحقير والإزدراء بهما، بل قيل:
 إنها في الأصل بمعنى الأوساخ، ويقال تعبيراً عن كراهة الشيء، وربما يكون في
 الأصل اسم صوت للتعبير عن التبرم بالشيء، كما هو المتعارف، ثم أطلق
 بالمناسبة على كل ما يتفر من الإنسان كالأوساخ.

﴿أَتَعِدَانِي أَنْ أَخْرَجَ﴾، أي أنخوفاني من الخروج من القبر، والحال أن قروناً من
 البشر ماتوا قبلي ودفنوا ولم يسمع بأحدهم خرج من القبر، يريد بذلك أن ينفي

احتمال قيام القيامة وحياة الإنسان بعد موته، مع أن المدعى ليس هو الحياة في الدنيا، بل في مرحلة من التكوين متكاملة، غير هذه المرحلة وهذه الحياة وهذا العالم. هكذا ذكره المفسرون في شرح مراده من قوله: ﴿وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾.

ويمكن أن يراد به استبعاد إحياء ملايين الملايين من البشر، الذين ماتوا من قبل وأصبحوا تراباً ولم يبق لهم عين ولا أثر، ولا يمكن معرفة أجزائهم المنتشرة والمتناثرة في الأرض والمتبدلة إلى عناصر أخرى، وقد مرت على الكرة الأرضية وحياة الإنسان عليها من القرون ما لا يعلم حدّه وحصره أحد من البشر. أو استبعاد كون الإنسان محاسباً بما عمل في هذه الدنيا، ولا يمكن محاسبة أعمال الملايين الذين ماتوا ولا يعلم عن أعمالهم أحد.

وعلى هذه الاحتمالات، يمكن حمل قول فرعون على ما في سورة طه: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾^١، ولذلك ردّ عليه موسى عليه السلام: ﴿قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾^٢، فإنّ الخطأ الكبير الذي يرتكبه الإنسان في هذا المجال هو قياس صفات الله تعالى بصفاته، وعلمه تعالى بعلمه.

﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾، الوالدان لا يتحملان سماع هذا الكفر والعناد من ولدهما من جهتين، فمن جهة يستعظمان صدور ذلك من أيّ إنسان كان، حيث يشتمل على الكفر، ومن جهة أخرى يشفقان على ولدهما من عذاب يوم القيامة فيستغيثان الله، أي يطلبان منه تعالى أن يغيثهما، أي ينصرهما

١. طه (٢٠): ٥١.

٢. طه (٢٠): ٥٢.

ويعينهما في مهمتهما، وهي هداية الولد. والغوث هو النصر، ويقولان للولد: ﴿وَيْلَكَ أَيْمَنَ﴾ وكلمة ويل اسم فعل بمعنى قبحاً لك، فهما يستقبحان منه هذا الكفر والعناد والوقاحة، وفي نفس الوقت يطلبان منه بإصرار أن يؤمن بالله واليوم الآخر. والسياق والتعبير يصوران حالة الأبوين وتضرعهما، وهما يطلبان منه الإيمان بالله تعالى شفقة منهما عليه. ويستدلان على قيام القيامة ومحاسبة الإنسان بأعماله على الوعد الذي تكرر بواسطة الرسل والكتب السماوية: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾، فلا يمكن ردّ هذا البيان بأيّ استبعاد، فإنّ الله تعالى إذا وعد شيئاً فهو كائن لا محالة، ولا شيء يتأبى على قدرته غير المتناهية ولا يمكن أن يخلف الله وعده؛ إذ لا يخلف الوعد إلا ضعيف أو جاهل.

﴿فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، ولا يكون من هذا الإنسان المعاند الذي نجد من أمثاله الكثير الكثير إلا الاستمرار في العناد والجهل، فيستكف من قبول الحق، ويصف الآيات النازلة من السماء على رسل الله تعالى بأنها أساطير الأولين، وأنّ ما قيل في هذا الباب لا يدعمه دليل علمي ولم يكتشفه البشر بمجاهره ومناظيره. والأسطورة ما سُجِّلَ وسُطِّرَ. وأساطير الأولين يطلق على الخرافات القديمة التي لا يقبلها عقل البشر المتحضر.

﴿أَوَلَيْكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾، الموضوع في الآية السابقة وإن كان مفرداً إلا أنّه عنوان ينطبق على مصاديق كثيرة وكثيرة جداً؛ فأتى باسم الإشارة الخاصة بالجمع، فالموضوع عام لا يختص بفرد، وإنّما ذكره بصورة مثال فردي ليكون أكثر تأثيراً. وقوله تعالى: ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾، أي ثبت وانطبق عليهم، والمراد بـ «القول» ما وعده الله تعالى من العذاب

يوم القيامة لكفرهم وعنادهم واتباعهم لإبليس وجنوده في الدعوة إلى الكفر والضلال. وقوله تعالى: ﴿فِي أُمَمٍ﴾ حال، أي حال كونهم دخلوا بذلك في أمم كثيرة من البشر، الكافرة طيلة القرون. وقوله: ﴿مِنَ الْجِنِّ﴾ يدلّ على أنّ الجنّ أيضاً يموتون وأنهم أيضاً محاسبون كالإنس وأنهم مختلفون، فمنهم مؤمن ومنهم كافر، كما ورد في آيات أخرى.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ وهذه هي الخسارة الكبرى، ولذلك ورد في الحديث: «المؤمن كَيْسٌ فَطِنٌ حَذِرٌ». فإنه يقدم خير الآخرة على الدنيا، والجاهل المغفل يحسبه إنساناً بسيطاً لا يعرف خيره من شرّه، لأنّه يشتغل بالعبادة ولا يهتمّ بجمع الأموال وتشيد العمارات.

﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا﴾. المعروف والمتداول بين المفسرين تفسير الآية بأن لكلّ إنسان من الفريقين درجته الخاصة به، فالنتيجة أنّ أهل الجنّة وأهل النار ليسوا في مرتبة واحدة، بل يوضع كلّ إنسان موضعه اللائق به، ومنشأ اختلاف الدرجات هو الأعمال و«مِن» في قوله: ﴿مِّمَّا عَمِلُوا﴾ لبيان المنشأ. وقالوا: إنّ الدرجات وإن كانت خاصّة بأهل الجنّة ويقال في مراتب أهل النار دركات، إلا أنّ الإطلاق هنا من باب التغليب.

ولا شكّ في صحّة أصل المعنى، وهو اختلاف منازل أهل الجنّة والنار؛ إذ لا يمكن أن يكون الصالحون من عامّة المؤمنين في درجة الأنبياء والأئمة المعصومين - عليهم جميعاً سلام الله - كما لا يمكن أن يكون المذنب الخاطي أو الكافر من عامّة الناس في نفس الموضع الذي يليق بالمعاندين والطغاة الظلمة في النار.

ولكن سياق الآية يأبى ذلك، بل ظاهرها الاختصاص بالأُمم الخاسرة من الجن والإنس، حيث جاءت عقيب التعرّض لحالهم، مع أنّ الآية لو شملت أهل الجنّة لدلّت على أنّ المؤثّر في اختلاف درجاتهم هو العمل فقط دون النوايا، والصحيح أنّ درجات الصالحين في الجنّة تختلف باختلاف النوايا أيضاً وليست كمراتب أهل النار، لأنّهم ليس لهم منازل في القرب لدى الله تعالى، وإنّما تختلف درجات عقابهم.

والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾، فإنّ الآية تدلّ بوضوح على أنّ الإنسان محاسب بما يخفيه في نفسه، فإذا ضمّنا هذه الآية إلى ما دلّ من الروايات على أنّ الله تعالى لا يؤاخذ الإنسان بما نوى إن لم يتلبّس بالعمل، تحصّل أنّ ما ينويه الإنسان ويركّز عليه - لا مجرد الخطور الخارج عن الاختيار - يؤثّر في منزلته ودرجته عند الله تعالى، فإنّ ذلك مقتضى الجمع بين محاسبته على ما يخفيه في نفسه وعدم معاقبته عليه؛ إذ لا يبقى له أثر إلا أن يكون دخيلاً في تحديد منزلته ورتبته عند الله تعالى.

ولا ينافي ذلك قوله تعالى: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾، إذ يمكن أن يختصّ ذلك بما أبداه، وأمّا ما أخفاه فإنّه يغفر له. هذا مع أنّه يمكن أن يكون من النوايا ما لا يغفر كالعجب والرياء، إنّما الكلام في التعميم المستفاد من الآية الكريمة.

ومما يؤيّد هذا الاستنتاج أنّ النوايا والأهداف - حتّى لو لم تصل إلى مرحلة

العمل - تؤثر في نفسية الإنسان وتكوين شخصيته، ولنضرب مثلاً حياً، وهو أن الحسد وهو غيظ الإنسان وحقده على غيره، لتفوقه في جهة من الجهات، سواء كانت مادية أو معنوية، ربما يصل بالإنسان إلى مرحلة العمل على وفقه، فيضرب بالمحسود إمّا بيده أو بلسانه، ويحاول إسقاطه من أعين الناس. وهذا إثم يعاقب عليه وربما لا يصل إلى هذا الحد، ولكن باطنه يغلي حقداً وحسداً، ويغض ذلك الإنسان أشدّ البغض، ولكنّه خوفاً من الله أو من الناس لا يبدى شيئاً، فلا يكون معاقباً في الآخرة إلا أن هذه الحالة تؤثر في تكوين شخصيته، وبالتالي تؤثر أيضاً في منزلته عند الله تعالى.

بل يمكن أن تكون الخواطر أيضاً مؤثرة، لأنها وإن كانت غير اختيارية إلا أن مبادئها اختيارية، فالإنسان الصالح الذي لا يسرح باختياره في الأهواء الشيطانية والنوايا الفاسدة، قلّما يقع فريسة للخواطر الشيطانية، التي تهجم على الإنسان من دون اختيار، وبعبارة الإنسان الذي يسرح دائماً وفي الخلوات وعند الفراغ الفكري في الأفكار الشهوانية والشيطانية، ويصنع لنفسه من الأوهام والأحلام قصوراً وأموالاً هائلة، فإنّ الشيطان يتمكّن من نفسه وسيطر على أفكاره وأمنيّاته، ولذلك تجد المؤمن الصالح لا يتمنّى إلا الخير والصلاح والتقرب إلى الله تعالى، وكلّ أفكاره تحوم حول هذا المحور، وأمّا غيره حتّى لو لم يكن فاسداً في مرحلة العمل، فإنّ أمنيّاته تحوم حول محور المال والجاه وسائر الشهوات الدنيئة. ونستنتج ممّا مرّ أنّ درجات أهل الجنة تحدّد، لا بخصوص الأعمال، بل بكلّ ما يكون شخصية الإنسان، وأمّا درجات أهل النار فلا يحددها إلا أعمالهم، لأنّ درجاتهم ليست بمعنى منازل القرب أو البعد، بل ليس لهم درجات بهذا المعنى،

وإنما درجاتهم بمعنى نوعية عقابهم، والله تعالى لا يجازيهم إلا بأعمالهم، فإنه تعالى وعد أن يجزي المحسنين بأضعاف ما عملوا، وأما السيئة فلا تجازى إلا بمثلها، كما ورد في آيات عديدة، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۖ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾^١، فالإنسان بوجه عام رهين بعمله إلا أصحاب اليمين، فإن جزاءهم ليس مرهوناً بأعمالهم، بل إن الله تعالى يضاعف لهم الجزاء بما لا عين رأت ولا أذن سمعت، فتقييد الدرجة بالعمل خاص بأهل النار، وأما المتقون فمن جهة تحديد الدرجة والمنزلة عند الله تعالى لا يختص التحديد بالعمل، بل يحاسب عليه كل ما في نفسه، حتى لو أخفاه، بل لا يبعد أن الذنوب التي تاب منها تؤثر أيضاً في ذلك، فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له في الثواب والعقاب، لا في منزلته وقربه لدى الله تعالى، ومن المستحيل أن تتساوى منزلة المعصومين والمذنبين التائبين، وأما من جهة الجزاء فالمتقون لا يتحدد جزاؤهم بأعمالهم، بل يضاعفه الله تعالى أضعافاً مضاعفة، بخلاف مرتكبي السيئات.

وأما قولهم: إن الدرجات خاصة بأهل الجنة والدركات بأهل النار، فغير واضح من حيث المدلول اللغوي، فإن الدرجة في الأصل مأخوذة من الدرج، بمعنى المضي في الشيء ولا اختصاص له بالصعود، بل يشمل مراتب الحركة، ويفهم الصعود أو النزول من القرائن ولا دليل على اختصاصها بالصعود، بل الدليل على خلافه، وهو القرينة السابقة وما بعدها في الآية الكريمة، ومثلها قوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ حَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا

كَافِرِينَ * ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رُبُّكَ مُهْلِكَ الْقَرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ * وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ بِمَا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ»^١، والدرجات هنا أيضاً خاصة بأهل النار على ما هو واضح من السياق، وإن ذهب المفسرون إلى التعميم أيضاً.

﴿وَلِيُوقِفَهُمْ أَهْلَاءَهُمْ﴾، وهذه قرينة أخرى على الاختصاص بأهل النار. فإنّ المتقين لا يجازون بأعمالهم فحسب كما مرّ. والتوفية إيصال الشيء بكامله دون نقص، واللام للتعليل، والظاهر أنّه علّة لجعل كلّ أحد في درجته ومنزلته الخاصّة، والعطف بالواو يدلّ على أنّ هناك عدّة أهداف تترتب على ذلك؛ منها توفية الأعمال، ومنها بالطبع مجازاة المسيء، ومنها الانتقام للمظلومين وشفاء صدورهم، ونحو ذلك ممّا يترتب على عقاب الطغاة والكفرة.

والآية تدلّ على تجسّم الأعمال، وأنّ الإنسان يجازى بنفس عمله إلا أنّه بصورته الكاملة، فنحن الآن لا نرى مدى تأثير أعمالنا، فلكلّ عمل صداه وتأثيره في المجتمع وفي الكون، ولكنّ الإنسان غافل عنه، فهناك آثار طبيعية تغفل عنها، فكيف بالآثار الغيبية، وكم من كلمة أورثت حروباً طاحنة، والمتكلّم لا يعلم بأثرها، وكم من عمل يستتبع تقليد الآخرين ممّا يستوجب فساد أمة، بل ربما يستمرّ الفساد قروناً متتالية، وها نحن الآن نشهد تمزّق الأمة الإسلامية وضعف كيانها لجملة واحدة قالها رجل حينما طلب الرسول ﷺ دواة وكنفاً ليوصي الأمة بما يحفظ وحدتها وعزّتها وكرامتها واستمرار سيرها على النهج القويم.

ومن الكلام ما يؤثّر في الكون ونحن لا نشعر به، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ

دَعُوا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا^١، هذا حال الكلام فكيف بسائر الأعمال؟!

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، تأكيد على أنَّ عقابهم ودرجتهم ليس إلا نفس أعمالهم يتلقونها كاملة، مع كلِّ ما يترتب عليها من آثار سيِّئة، وليس الجزاء وضعياً حتَّى يقال: إنَّ الجزاء لا يناسب العمل، بل هو أعظم منه بكثير، فالجزاء الوضعي هو الذي يمكن أن يقال فيه ذلك. وأمَّا إذا كان العمل بنفسه جزاءً، فلا يمكن أن يكون ظلماً إلا أنَّ العمل في الدنيا لا يتجلَّى بصورته الحقيقية، فلا يشعر الإنسان إلا بما يتلذَّذ به. ولو كان الإنسان يشعر بحقيقة ما يعمل، لتعذَّب به في الحياة الدنيا، فكان ذلك حافزاً على تركه، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً^٢﴾. وقد ثبَّه الله سبحانه وتعالى على كيفية تعذَّب الإنسان بعمله في الدنيا، مع أنَّه لا يتجلَّى بصورته الكاملة، حيث شبَّه يوم القيامة بالضمير الإنساني، قال تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ^٣﴾.

ثمَّ إنَّ قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ يدلُّ أيضاً على أنَّه لو لم يجعل الله تعالى لكلِّ إنسان درجة، وكان يخلط الظلمة والفساق كما ربما يتوهم، كان ذلك ظلماً لكثير منهم.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾، الظرف يتعلَّق بفعل مقدر، أي واذكر يوم يعرض. قيل: بل الفعل المقدر هو القول للجملة التالية، أي يوم يعرض يقال لهم أذهبتم. وسيأتي الكلام فيه إن شاء الله تعالى.

١. مريم (١٩): ٨٨ - ٩١.

٢. النساء (٤): ١٠.

٣. القيامة (٧٥): ١ - ٢.

والعرض في الأصل ما يقابل الطول، والمراد بهذا التعبير إراءة عرض الشيء لأحد، كما يقال عرض الجند على الأمير. ومن هنا وقع الكلام في معنى العرض في الآية من جهة أن المعروض عليه ليس من ذوي العقول. ففي «الكشاف» أن المراد به نفس التعذيب بالنار، من قبيل ما يقال: عرض بنو فلان على السيف، حيث تضرب أعناقهم، فالمراد يوم يدخلون النار يقال لهم كذا^١. ولكن هذا لا يناسب - كما في تفسير «الميزان»^٢ - قوله تعالى في آخر السورة: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، حيث فرع الأمر بتذوق العذاب، على العرض، وما يجري هناك من الحديث مما يدل على أن العرض أمر يحدث قبل الدخول في النار.

وقال بعضهم: إن العرض هنا مقلوب، فإن المعروض واقعاً هو النار، تعرض على الذين كفروا، كما في قوله تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾^٣؛ فإن الأشياء تعرض على الإنسان ولا يعرض الإنسان على الأشياء. وقال آخرون: إن جهنم لا تعتبر من غير ذوي العقول لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾^٤.

ولكن الظاهر أن هذا وأمثاله كقوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾^٥، تعبير أدبي لا يتوقف على كون

١. راجع: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ٤: ٣١٣.

٢. راجع: الميزان في تفسير القرآن ١٨: ٢٠٥.

٣. الكهف (١٨): ١٠٠.

٤. ق (٥٠): ٣٠.

٥. الأحزاب (٣٣): ٧٢.

المعروض عليه عاقلاً واقعاً، بل يفترض كونه عاقلاً ولو في الإدعاء، فلا موجب لدعوى القلب.

والحاصل أن الظاهر من الآية إراءتهم إياها مقدّمة لتعييرهم أو تكميل محاسبتهم ببيان سبب العذاب والحرمان عن الطّيّبات، وهو في حدّ ذاته لا يخلو من تعذيب نفسي. وينبغي أن يعلم أن المراد بالتعذيب في الآخرة ليس هو الانتقام، فالله تعالى غني عن عذاب الخلق ومنزه عن التشفّي، بل هو بمعنى ظهور الحقائق التي توجب عذاب الإنسان.

﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾، المعروف أن هذه الجملة خطاب من الله تعالى لهم وأنّ التقدير: «يقال لهم حين العرض: أذهبتم طيباتكم...»، ولكن لا يبعد أن يكون المراد تفسير العرض بهذه الجملة بمعنى أن هذا العرض يفهم منه هذا الخطاب، وكثيراً ما يدلّ الفعل على معنى مقصود بأصرح من اللفظ وأبلغ.

وظاهر قوله: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ﴾ إفناؤها بإنفاقها والانتفاع بها. ولكن السؤال الوارد هنا: ما المراد بالطّيّبات التي تنفق ويستمتع بها في الدنيا، بحيث يكون سبباً للحرمان في الآخرة؟

قيل: إنّ المراد بها النعم الإلهية التي يمكن استخدامها في الحلال والحرام، كالمال والشباب والقوّة والعقل والحواس، فاستخدامها في الحرام هو الموجب للحرمان يوم القيامة.

وإنّما قيل بذلك، لأنّ التمتع بالطّيّبات ليس محرّماً وممنوعاً بذاته، ولكنّ الظاهر أن المراد بها كلّ تمتّع بالنعم حتّى لو لم يكن في حدّ ذاته محرّماً، إلا أن

استفادها في التمتع بنعم الدنيا وعدم ادخار شيء للآخرة هو الموجب لذلك، فالمال إذا صرف بعضه على نفسه وأنفق بعضه في سبيل الله تعالى بقي له شيء في الآخرة، وهكذا سائر ما أوتي الإنسان من نعم، فالمبالغة في الاستمتاع يوجب الحرمان. والكافر لا يدخر شيئاً نهائياً، لأنه لو أنفق لا ينفق في سبيل الله تعالى، بل ينفق لشأن من شؤون الدنيا حسب معتقده.

ومن هنا يتبين أن الإنسان كلما ترك الاستمتاع بنعمة طلباً لمرضاة الله تعالى، فهو موجب لتنعمه في الآخرة، وكلما تنعم بنعمة زائدة على حاجته، فقد خسر ما يعادل الإنفاق به في الآخرة، وهكذا يتبين وجه ما ورد في الحديث من تزهد النبي ﷺ والأئمة المعصومين عليه السلام عن الأطعمة اللذيذة ونحوها من متاع الدنيا، فكل ما تأكله وتنفقه على نفسك فقد خسرت، وكل ما أنفقته في سبيل الله فقد ربحته.

قال أمير المؤمنين - سلام الله عليه - في كلام طويل في زهد النبي ﷺ وسائر الأنبياء عليه السلام: «وَلَقَدْ كَانَ يَأْكُلُ عَلَى الْأَرْضِ، وَيَجْلِسُ جِلْسَةَ الْعَبْدِ، وَيُخَصِّفُ بِيَدِهِ نَعْلَهُ، وَيَرْقَعُ بِيَدِهِ ثَوْبَهُ، وَيَرْكَبُ الْجِمَارَ الْعَارِيَّ وَيُزِدُّ خَلْفَهُ، وَيَكُونُ السِّرُّ عَلَى بَابِ بَيْتِهِ فَتَكُونُ فِيهِ النَّصَاوِيرُ، يَقُولُ: يَا فَلَانَةُ - لِإِحْدَى أَزْوَاجِهِ - غَيْبِي عَنِّي فَإِنِّي إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْهِ ذَكَرْتُ الدُّنْيَا وَزَخَارِهَا». وقال عليه السلام: «وَاللَّهِ لَقَدْ رَفَعْتُ مَذْرَعَتِي هَذِهِ حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَاقِعِهَا، وَلَقَدْ قَالَ لِي قَائِلٌ: أَلَا تَنْبِيْهُمَا عَنْكَ؟ فَقُلْتُ: اغْرُبْ عَنِّي، فَمِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ السُّرَى^١. والسرى أي السير ليلاً، فالذي يسير طول الليل يتعب، ولكنه إذا أصبح ووجد نفسه قد بلغ المقصد يشني على ما فعل، وهكذا من يتحمل الشدائد في

هذه الحياة الزائلة تقرباً إلى الله تعالى، فإنه سيجد نتيجة عمله يوم القيامة ويفرح بما تحمّل.

وفي حديث: «أَيُّ النَّبِيِّ ﷺ - بَخِيصٌ، فَأَبَى أَنْ يَأْكُلَهُ» فقيل: أتحرمه؟ فقال: «لَا وَلَكِنِّي أَكْرَهُ أَنْ تَتَوَقَّ إِلَيْهِ نَفْسِي»، ثم تلا الآية: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾.^١ والخبيص نوع من الحلواء. والخبيص هو الخلط.

وفي «مجمع البيان» في ذيل الآية الكريمة: «قد روي في الحديث أن عمر بن الخطاب قال: استأذنت على رسول الله ﷺ فدخلت عليه في مشربة أم إبراهيم، وأنه لمضطجع على خصفة وأن بعضه على التراب، وتحت رأسه وسادة محشوة ليفاً، فسلمت عليه، ثم جلست فقلت: يا رسول الله أنت نبي الله وصفوته وخيرته من خلقه وكسرى وقيصر على سرر الذهب وفرش الديباج والحريز، فقال رسول الله ﷺ: «أولئك قوم عَجَلَتْ طَيِّبَاتُهُمْ وَهِيَ وَشِيكَةُ الْإِنْقِطَاعِ، وَإِنَّمَا أُخِّرَتْ لَنَا طَيِّبَاتُنَا».^٢ والخصفة: جُلَّةُ التمر التي تنسج من خوص النخل.

وفي حديث عائشة: «أَنَّهُمْ ذَبَحُوا شَاةً، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا بَقِيَ مِنْهَا؟»، قَالَتْ: مَا بَقِيَ مِنْهَا إِلَّا كَتَفُهَا. قَالَ: «بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرَ كَتَفِهَا».^٣

والأحاديث في هذا الباب كثيرة جداً.

﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾، أي حيث استفدتكم كل طيباتكم للتمتع في الدنيا ولم تدخروا شيئاً للآخرة، فالיום تجزون العذاب. والهون: المذلة والخفة. ولا شك أن نتيجة الاستكبار في

١. محاسن البرقي ٢: ٤٠٩.

٢. مجمع البيان في تفسير القرآن ١٠ - ٩: ١٣٣.

٣. سنن الترمذي ٤: ٥٨.

الأرض هو الهوان والذلّ يوم القيامة، حيث تتجسّم الأعمال وتبرز الحقائق. والفسق هو الخروج، والمراد الخروج عن طاعة الله تعالى. وقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ يدلّ على الاستمرار والإصرار.

وقيل: إنّ قوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، توضيح وليس تقييداً؛ فإنّ الاستكبار لا يكون بحق، ولكن يمكن أن يكون تقييداً أيضاً؛ لأنّ الاستكبار هو طلب الرفعة والعلو، وهو في حدّ ذاته غير مذموم، بل هو غريزة بشرية يترتب عليها تقدّم الحضارة الإنسانية. وإنّما المذموم أن يطلب الإنسان رفعة وعلوّاً على الآخرين بغير حق، كمن يطلب السلطة على رقاب الناس من دون أن تكون له ولاية من قبل الله تعالى، فلو كان يطلب الرفعة بعلم أو بفنّ أو بقوة جسمية وكمال يكتسبه، لم يكن استكباراً بغير الحق، وأمّا من يطلب الرفعة على الناس من دون أن تكون له مؤهلات خاصّة، فهو استكبار بغير حق، لا أقول: إنّ من له العلم والقوّة يحقّ له أن يستعلي على الناس ويتوقّع من غيره الخضوع له، بل أقول: إنّ طلب العلم والقوّة ونحو ذلك في حدّ ذاته طلب للرفعة والعلو حقيقة وهو مطلوب وليس مذموماً.

والعلامة الطباطبائي رحمه الله اعتبر الاستكبار في الآية إشارة إلى الذنب المتعلّق بالاعتقاد، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾، إشارة إلى الذنب المتعلّق بالعمل^١. وهذا يتمّ في ما إذا كان المراد، الاستكبار أمام الله تعالى، لا في قبال الخلق، وهناك كثير من البشر يستكبر في مقابل الله تعالى، فمنهم من يصرّح به وهم الفراعة الطغاة، ومنهم من لا يصرّح إلاّ أنّه يأبى من التسليم لحكم الله تعالى

وشرعه ويستكف من الخضوع والطاعة لأمره ونهيه.

ولكن الشأن في انطباق الآية، فإن ظاهر قوله تعالى: ﴿تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ﴾، أي في المجتمع البشري وفي مقابل الخلق، كقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَكْبِرُ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾^١ ومثله الكبرياء في الأرض، كقوله تعالى حكاية عن فرعون: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ﴾^٢ والعلو في الأرض، كقوله تعالى: ﴿وَلِإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ﴾^٣ ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَايِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾^٤ فعبّر عن استكبارهم أمام الله تعالى باستكبارهم في أنفسهم.

١. القصص (٢٨): ٣٩.

٢. يونس (١٠): ٧٨.

٣. يونس (١٠): ٨٣.

٤. الفرقان (٢٥): ٢١.

• **وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٨﴾** قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ إِنَّمَا أَعْلِمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبْلِغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَنْ يَكُنِّي أُرْسِلُكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمَطَّرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤١﴾ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٢﴾

﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾. أمر الله رسوله أن يذكر قوم عاد وما جرى عليهم بعد الإنذار والتكذيب، ليتذكر قومه ويتنبهوا ويعلموا عاقبة تكذيب الرسل، وفي ذلك أيضاً تسلياً للرسول ﷺ وللمؤمنين لثلاثين عرجوا من تكذيب القوم واستهزائهم. و﴿عَادٍ﴾ قوم كانوا يسكنون الجزيرة العربية وكانت آثارهم باقية في عهد الرسالة، قال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِينِهِمْ﴾^١ بل هي باقية إلى الآن، وإنما غمرتها الرمال وقد اختلف في موضعهم، وورد في القرآن الكريم أنهم هم الذين بنوا مدينة إرم، وأنها كانت ذات أعمدة كثيرة لم يخلق مثلها في البلاد، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾^٢ وقد اكتشفت آثار مدينة قديمة بهذا الوصف في صحراء اليمن وهناك شواهد لعلها تدلّ على أنها هي التي سميت بإرم في القرآن الكريم؛

١. العنكبوت (٢٩): ٣٨.

٢. الفجر (٨٩): ٦ - ٨.

ولكن كثيراً من المفسرين قالوا: إن إرم اسم جدّهم، وسيأتي الكلام فيه إن شاء الله تعالى.

وربما يستغرب أن يكون موضعهم في هذه الصحراء القاحلة لقوله تعالى في شأنهم: ﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَيْنَ * وَجَنَاتٍ وَعُيُونٍ﴾،^١ ممّا يدلّ على أنّ بلدّهم كان في منطقة مليئة بالأشجار والأنهار، وأين هذا من الربع الخالي؟! ولذلك قال بعضهم: إنّ الأحقاف اسم جبل بالشام، وهذا ليس له مستند. ولكنّ الغريب أنّ الاكتشافات الحديثة تؤيّد وجود أنهار في المنطقة عفيت آثارها بالرمال، فما هو وجه التعبير عنها بالأحقاف؟! وهي جمع حقف - بكسر الحاء - أي الكتيب الرملّي المرتفع الذي فيه انحناء وتعاريج.

هذا مع أنّه من المستبعد جداً أن تكون هذه المدينة العظيمة والحضارة التي لم يكن لها مثيل في ذلك العصر، في قلب الصحراء الرملية! والظاهر أنّ التعبير عنه بالأحقاف إنّما كان بلحاظ زمان نزول الآية، وظاهر التعبير أنّها علم للمنطقة وهو مقتضى لام التعريف، فلا ينافي كونها منطقة خضراء في عصور سابقة.

والتعبير بالأخ عن الرسول ورد في عدّة موارد من الكتاب العزيز، وربما يقال بأنّ الوجه فيه هو كونه من نفس القوم، ولكنّه لا ينطبق على لوط عليه السلام على ما في الروايات. وربما يقال: إنّ إشارة إلى عطفه وحنانه عليهم، ولكن هذا الوجه لا يصحّح التعبير عن القوم بالإخوان، كما ورد في قوم لوط أيضاً: ﴿وَعَادَ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ﴾.^٢ والصحيح أنّه تعبير عن كلّ نوع من المشاركة والمصاحبة، كقوله

١. الشعراء (٢٦): ١٣٣ - ١٣٤.

٢. ق (٥٠): ١٣.

تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلْتَ أُمَّةً لَعَنْتُ أَخْتَهَا﴾^١، وقوله تعالى: ﴿وَمَا تُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾^٢. والتعبير العربي مشحون بذلك، كأخي الجهد في شعر امرئ القيس:

عشية جاوزنا حماة وسيرنا

أخو الجهد لا يلوي على من تعذراً^٣

ويقصد به السير بجهد. وكذلك تعبيرهم بأخي الخير وأخي الشر ونحو ذلك. ﴿وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾. خلت أي مضت، فيقتضي أن يكون المراد بالجملة، بيان أن إنذاره لم يكن شيئاً جديداً مستغرباً، فقد سبقه النذر وهو جمع نذير أو جمع إنذار، ولكن وقع الكلام في المراد بقوله تعالى: ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾، فقال بعضهم: إن المراد بهم من كانوا قبله ومن جاءوا بعده، وقال بعضهم بالعكس، وحاولوا تأويل المعنى بحيث يلائم المضي المفهوم من قوله: ﴿خَلَّتْ﴾، والصحيح أن المراد بهم جميعاً من كانوا قبله إلا أن بعضهم كان في الماضي القريب، فعبر عنهم بمن بين يديه، وبعضهم كان في الماضي البعيد.

﴿الَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾، مهما كان النذر، فالمنذر به شيء واحد وهو حصر المعبودية في الله تعالى، وهذا روح الرسائل وجوهرها وهو الهدف الأسمى من الخلق والتكوين، وهذا يشمل على جزء سلبي وجزء إيجابي أن لا يعبد الإنسان غير الله تعالى وهذا هو الحرية الحقيقية، وغير الله لا يختص بالأصنام ولا بالبشر المتسلط، كالطغاة الفراعنة، بل يشمل الأهواء والآمال وكل قوى الشر والفساد في داخل الإنسان وخارجة، فالمطلوب من الإنسان أن يكون حراً طليقاً لا

١. الأعراف (٧): ٣٨.

٢. الزخرف (٤٣): ٤٨.

٣. لسان العرب ١٤: ٢٣.

يتحكم في إرادته إلا أمر الله تعالى ونهيه، وهذا التحكم هو الجزء الإيجابي من التوحيد؛ فإن الإنسان لا بد له من أن يتبع شيئاً، فهل الصحيح أن يتبع هواه أم عقله أم غيرهما؟ الصحيح أن لا يتبع شيئاً إلا ما أمر الله تعالى به.

ورواد الحضارة والتقدم العلمي اليوم وإن دعوا إلى الحرية حسب الظاهر إلا أن الدعوة في الواقع وعند التأمل الدقيق، تشمل على أسوأ أنواع العبودية وهي عبودية الهوى والميول؛ فالإنسان المتحضر في هذا العصر ليس حراً كما زعموا وأعلنوا في وسائل الأعلام، بل هو عبد ذليل يقوده هواه إلى الردى والهلاك، وإنما هو أسوأ، لأنه يتصور نفسه حراً طليقاً فلا يقاوم، بل لا يتألم من سياط الاستعباد.

﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، الظاهر أن المراد به عذاب الاستئصال في الدنيا لا عذاب يوم القيامة، بقرينة الآيات التالية وما جرى بينهم وبينه من الحديث. وتوصيف اليوم بالعظمة باعتبار كون العذاب فيه مهولاً أو كونه يوماً مصيرياً يحسم فيه أمرهم، كما عبر عنه في سورة الحاقة بقوله تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾^١.

﴿قَالُوا اجْتَنِبْنَا لِنَأْكُلَ مِنْ أَمْنِهَا﴾، هذا ردّ منهم على دعوته إلى ترك عبادة غير الله تعالى. والاستفهام للاستنكار، فكأنه ارتكب جريمة: ألهذا جئت؟! والإفك هو الصرف والتحويل، أي أجنبنا لتصرفنا عن عبادة الأصنام التي تعودنا عليها؟! والإنسان الجاهل متمسك بما دأب عليه واعتاد، لا تختلف في ذلك العصور والحضارات. والتغيير في العادات الاجتماعية من أصعب الأمور، ولذلك نجد أن

التحول في العقائد والمذاهب لا يحصل في المجتمعات البشرية إلا بتطورٍ بطيء جداً. نعم ربما تحصل الطفرة نحو الانحلال الخلقي في كثير من المجتمعات، وذلك لموافقته مع الأهواء والميول الحيوانية، ثم يستتبع ذلك الابتعاد عن العقائد والإيمان بالغيب. وأمّا العقائد الخرافية التي دأب عليها الناس وورثوها من أسلافهم، فلا يزالون متمسكين بها مهما تحضروا واختلفت أنماط حياتهم المادية ودرجوا في مدارج العلم، ولذلك تجد في أتباع المذاهب الخرافية كثيراً من العلماء والمخترعين والأطباء وأمثالهم!!!

﴿فَأَتَيْنَا بِآبَاءِ تَعْدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾، جواب منهم على تهديده ﷻ بعذاب يوم عظيم. ومعنى كلامهم أننا مستمرّون في عبادتنا للأصنام، فإن كنت صادقاً في تهديدك بالعذاب، فنزله علينا من دون تأخير. وهذا جهل آخر منهم يدلّ على توغّلهم في الحمق والسفاهة، فإنّ احتمال ترتّب العذاب العظيم الذي يستأصل المجتمع، يكفي للتربّث والتأمّل، فكيف به إذا حذّرهم منه إنسان صالح من قومهم لم يعرفوا منه إلا الصدق والأمانة، ولم يروا منه إلا النصّح والإرشاد، وهو مع ذلك يخبر به من عند ربّهم العزيز الجبار المقتدر؟!

وإنّما استعجلوا به تكديماً للرسول أو استخفافاً بعذاب الله تعالى أو بوعيده، كما هو شأن كثير من البشر، حيث لا يعتبرون بمن قبلهم وما نزل عليهم ويغفلهم ما يشعرون به من الإهمال، ولا يتفطّنون إلى كونه استدراجاً لهم. ولذلك نجد أنّ هذا الكلام أو ما يشابهه ممّا تداولته الأقسام طيلة التاريخ باختلاف لغاتهم وحضاراتهم، فكأنّهم تواصلوا بذلك، كما قال تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَٰغَوْنَ﴾^١.

﴿قَالَ إِنَّا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾، جوابه الذي على استعجالهم للعذاب أنني لا أعلم موعد استحقاقكم، بل ولا أصل نزول العذاب، فإن ذلك ليس بيدي ولست موكلًا بالتعذيب، وإنما أنا رسول أبلغكم ما أرسلت به وأنذركم أن هذا النهج يوجب استحقاق العذاب. وأما تنفيذه وموعده، فلا علم لي به، وإنما العلم عند الله، أي العلم بذلك خاص به تعالى قد استأثر به ولم يعلمه أحداً. وهو الذي لم يعلن ورود العذاب بصورة حتمية وإنما أبدى تخوفه من ذلك، إما لأنه لم يبلغ إلا أصل الاستحقاق أو لأنه لم يبلغ بالعذاب أصلاً، وإنما تخوف منه بملاحظة حال الأقوام السابقة وما آل إليه أمرهم وهو كافٍ في التخوف.

﴿وَلَكِنِّي أَزَاكُمُ قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾، أي أنا أعمل بواجبي وهو التبليغ، ولكنني أراكم قوماً تجهلون ولا تتأثرون بهذا الإنذار، ولعل المراد بالجهل ما يقابل العقل والحكمة لا العلم، فهم أناس سفهاء، لا تهتمهم المصالح والمفاسد، وإنما يتبعون الأهواء والتقاليد والخرافات. ويمكن أن يراد به ما يقابل العلم باعتبار أنهم يجهلون دور الرسل، وأنه ليس إلا التبليغ والإنذار باستحقاق العذاب، ولم يوكل إليه الإخبار بالهتمية، ولا تعيين الوقت أو النوع. وإقحام كلمة القوم للتنبيه على أن هذا ميزة مجتمعهم الفاسد ولا يختص ببعض دون بعض.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطِيرٌ﴾، الظاهر أن الضمير في ﴿رَأَوْهُ﴾ مبهم، يفسره عارضاً وهذا أفصح وأعرب - كما قال الزمخشري^١ - من القول بأنه يرجع إلى ﴿بِمَا تَعِدُّنَا﴾، وهو واضح، لمن ألم بالعربية وطرق البيان فيها. والعارض: السحاب الذي يعرض في الأفق. والحاصل أنهم ابتهجوا لما رأوا

سحاباً تبدو عليه أمارات الإمطار، ولعلّ منها كونه عارضاً على الأفق وابتهجوا أيضاً، لما رأوه يستقبل أوديتهم ممّا يشعر بنزول المطر على مزارعهم ومراتعهم، ولعلّهم - كما قيل - أصيبوا بالجفاف والجذب مدة طويلة، ولعلّهم أيضاً خرجوا من بيوتهم يستقبلون المطر، مسرورين فرحين وهم يقولون: هذا عارض ممطرنا أو هو لسان الحال، كما أنّ الجواب كذلك وإن قيل: إنّ من كلام هود عليه السلام:

﴿بَلْ هُمْ مَوَاسْتَعْجِلُونَ بِرِيحٍ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي السحاب الذي رأيتموه ليس إلا العذاب الذي استعجلتم به، حيث قلتم: فأتنا بما تعدنا. وقوله: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يدلّ عنه. ووصفَ الريح بأنّ فيها عذاباً أليماً، كأنّ الريح تحمل معها العذاب فهي ظرف له. وفي هذا الكلام تقرير لهم، حيث استعجلوا بالعذاب إن كان كلاماً لهود عليه السلام ولا يبعد أن يكون بياناً للواقع وتعليقاً من الله تعالى على توهّمهم أنّه سحاب ممطر.

وفائدة هذا التعقيب تنبيه الآخرين بأمرين: الأول: أنّ هناك من أمور الدنيا ما يواجههم بصورة مستحسنة، وظاهر أنيق بديع وهو يحمل في طياته عذاباً أليماً، ليكونوا على حذر ولا ينخدعوا بظواهر الأمور. والثاني: أنّ هذه عاقبة استعجال العذاب والاستخفاف به.

﴿تَدْمَرُ كُلُّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾، الريح العاصفة الشديدة بطبيعتها تقلع الأشجار وتدمر كثيراً من المباني، ولكنّها لا تدمر كلّ شيء، وهناك كثير من البشر يحتمون بما يتمكّنون منه ويسلمون من البلاء والحيوانات، غالباً ما تعلم بالعاصفة قبل حدوثها وتغادر مكان النكبة، ولكن هذه الريح تختلف عن مثيلاتها بأنّها مأمورة بتدمير كلّ شيء باستثناء آثار المساكن - على ما يبدو - كما في الآية، فلا يبقى إنسان

ولا حيوان ولا شجر ولا زرع ولا مبنى ولا مصنع. ومع ذلك، فهناك أشياء لم تتدمر كالجبال والحجارة ووجه الأرض، فما هو مغزى التعبير بكل شيء؟
الجواب: أن هذا التعبير يستخدم لبيان أن كل ما من شأنه أن يُدمر بالعاصفة، فقد دُمِر ولم يبق مجال لفرار الإنسان والحيوان، ولم تبق المباني على حالها، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾^١ في حكاية كلام الهدهد بشأن ملكة سبأ، فإن المراد أنها أُوتيت كل مستلزمات الملوك وليس المراد كل شيء بالطبع.

والحاصل أن العاصفة المذكورة لم تبق شيئاً على وجه الأرض إلا آثار مساكنهم للعبرة. وأما هود عليه السلام ومن آمن معه فقد نجّاهم الله تعالى قبل نزول العذاب، كما قال: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَّعْنَا ذَاِبِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾^٢. وهكذا سنته تعالى في سائر الأقوام، حيث لا ينزل عذاب الاستئصال إلا بعد إخراج الرسل ومن آمن معهم.

وقد ورد تفصيل عذابهم في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوهَا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ اغْبَارُوا نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾^٣. والصرصر: الريح شديدة الهبوب، والأصل فيه شدة الصوت وتكرره. والعاتية: شديدة العصف. والحسوم، أي الأيام التي حسم فيها أمرهم ومصيرهم.

وهكذا العذاب الإلهي عذاب الاستئصال، يقلع المجتمع وكل ما أسسه من

١. النمل (٢٧): ٢٣.

٢. الأعراف (٧): ٧٢.

٣. الحاقة (٦٩): ٦ - ٨.

الحضارة من جذورها ولا يبقى لهم إلا آثاراً يستدلّ بها على وجودهم وسبق
كينونتهم على الأرض، لتكون عبرة للأجيال الآتية.

﴿فَاضْبَحُوا لَا يَرَىٰ إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ﴾، المراد بالإصباح الصيرورة؛ إذ لم ينزل العذاب
ليلاً، بل نهاراً، فإنهم رأوه عارضاً مستقبلاً أوديتهم، بل بقي العذاب سبع ليال
وثمانية أيام، والظاهر أنّ المقصود من المساكن آثارها لا أصلها.

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾. الظاهر أنّ هذا التعقيب تهديد للمخاطبين وهم
كفار مكة ومن حولها، وتنبية لهم بأنّ سنة الله تعالى لا تختصّ بهم، فالعذاب
يستحقّه المجرمون أينما كانوا وفي أيّ زمان، ولذلك أتى بالفعل المضارع.
وإقحام كلمة القوم للإشارة إلى أنّ هذا عذاب المجتمع الفاسد، لا كلّ مجرم،
والإجرام لا يصدق على كلّ معصية ولا على كلّ جريمة اجتماعية؛ فإنّه في
الأصل بمعنى القطع، فإذا أطلق على عمل يخالف قانون المجتمع فلا بدّ من أن
يكون موجباً لقطع الصلة بينه وبين المجتمع، ولا يطلق على كلّ ما يخالف
القانون، وإذا أطلق في الشرع، فالمراد به ما يوجب قطع العلاقة بين العبد وربّه.

وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرَ وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا تَجْحَدُونَ بِقَايِسِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَةَ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءِلهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾. «ما» موصولة و﴿إِن﴾ نافية، والتمكين جعل الشيء مستقرّاً في مكان وهو كناية عن جعل أحد قادراً على أمر أو مسلطاً على شيء، فالمعنى أنا بسطنا لقوم عاد القدرة على أمور وسلطانهم على موارد في الطبيعة لم نجعل لكم مثلاً. والخطاب لأهل مكة وهو واضح، فإن أهل مكة ما كانوا يملكون من مستلزمات الحضارة السائدة آنذاك شيئاً، فلم يكن لديهم أنهار ولا غابات ولا صناعة ولا زراعة، بينما كان قوم عاد في عهدهم أصحاب حضارة قوية ومتينة، وآثارهم الباقية في عهد الرسالة تدلّ على ذلك. وهذه الآية تكمل التهديد الذي انطوت عليه الجملة السابقة: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾.

وقال بعضهم: إنّ المعنى مكّناهم في مثل ما مكّناكم فيه، وهو غير صحيح. والقرآن يؤكّد مراراً أنّ الأقسام السابقة كانوا أكثر من أهل مكة قوةً وآثاراً في الأرض وهو واضح.

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً﴾، هذا متمم للمعنى السابق، فلو مكّن الله تعالى قوماً من الموارد الطبيعية ولكن لم يجعل لهم قوةً جسمية يتمكنون بها من التصرف في الموارد الطبيعية، لم يحصلوا على شيء، فالمراد أنّهم تمكّنوا من

استخدام الموارد الطبيعية لبناء حضارتهم، ولكن كل ذلك لم يمنهم من عذاب الله تعالى، فكيف بكم وأنتم محرومون من تلك الموارد وتلك الحضارة والقوة؟! والسمع مصدر يراد به آلة السمع، ولذلك يستوي فيه الجمع والمفرد، فلا فرق بين السمع والأسماع. والأفئدة بمعنى القلوب ويراد بها آلة التعقل والإدراك وليس بمعنى مضخة الدم.

﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾. «من» زائدة وتفيد التأكيد، أي لم تغن عنهم شيئاً، بل جزءاً من شيء. والإغناء: الكفاية، أي لم تنفعهم هذه الحواس شيئاً في دفع العذاب عن أنفسهم. وهذا تنبيه وعبرة للمخاطبين، فإن هؤلاء لم ينقصهم إدراك ولا حواس، فماذا كان السبب في عدم إغناء ذلك عنهم شيئاً؟ ولماذا لم يتمكنوا بقوةهم وعقولهم أن يمنعوا أنفسهم ويحفظوها من البلاء الذي ألمّ بهم وداهمهم؟ الجواب في الجملة التالية.

﴿إِذْ كَانُوا يَحْجِدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾. «إذ» ظرفية تفيد معنى التعليل، فالمعنى أنهم لم ينتفعوا بسمعهم وأبصارهم وبما مكّاهم فيه، لأنهم كانوا يجحدون بآيات الله تعالى وينكرونها. والجحود ضد الإقرار — كما في «العين»^١ — فهو إنكار مع علم. وفعل «كَانُوا» يدلّ على الاستمرار، ومعنى ذلك أن الجحود أصبح عادتهم، وهذا ليس إلا عناداً مع الحقّ ومكابرة، فلذلك غضب الله عليهم وأنزل عليهم العذاب وحقّ بهم ما كانوا به يستهزئون، فلم تنفعهم أسماعهم وأبصارهم وعقولهم وعلومهم وحضارتهم؛ إذ لم يكن ما نزل من البلاء أمراً طبيعياً، بل كان عذاباً من الله تعالى.

و﴿حَاقٌّ﴾، أي نزل به عاقبة فعله أو مكروه، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمُكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَفْلِهِ﴾^١. ولا يبعد أن يكون أصله حقّ، فقلب إلى حاق نحو زلّ وزال، كما في «المفردات»^٢. وقيل: إنّه بمعنى أحاط به وعليه، فلعلّه مأخوذ من الحقوق وهو بمعنى الإحاطة، فقلب ياءً. والمراد بقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ العذاب الإلهي، حيث قالوا لرسولهم باستهزاء: ﴿فَأَتَيْنَا بِهَا بَعْدَئًا﴾، وهذه الجملة معطوفة على قوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَجْحَدُونَ﴾، وجزء من العلة والظرف، أي أنّ عدم إغناء السمع والأبصار تحقّق بسبب جحودهم المستمرّ المستتبع للعذاب الإلهي، فمجموع السبب والمسبّب علة عدم الإغناء، ولو لم يستتبع العذاب لم يصدق عدم الإغناء.

وفي «الميزان» أنّ المعنى: «لم تغن عنهم ولم تنفعهم هذه المشاعر والأفئدة شيئاً عند ما جحدوا آيات الله، فما الذي يؤمنكم من عذاب الله وأنتم جاحدون لآيات الله»^٣. وحاصله أنّ قوله: ﴿إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ﴾ بمعنى الظرفية لا التعليل، أي أنّ السمع والأبصار لم تنفعهم يوم جحدوا بآيات الله، ونزل عليهم العذاب بسبب ذلك، بمعنى أنّهم لم يتمكنوا من تخليص أنفسهم من العذاب في ذلك اليوم. ولكنّه لا يناسب الإتيان بفعل ﴿كَأَنَّهُمْ﴾، الدالّ على استمرار الجحود، وإنّما يصحّ ما ذكره لو كان الجحود يوم نزول العذاب.

وفي «المجمع» وغيره أنّ المراد بالآية، أنّا جعلنا لهم السمع ليسمعوا كلام الله ورسالاته، والأبصار ليبصروا آياته وعبر الماضين، والأفئدة ليدرکوا عظمة الخالق

١. فاطر (٣٥): ٤٣.

٢. مفردات ألفاظ القرآن: ٢٦٦.

٣. الميزان في تفسير القرآن ١٨: ٢١٣.

من خلال التأمل في الآيات، ولكنهم حيث جحدوا بآيات ربهم فما أغنت عنهم سمعهم ولا أبصارهم، بمعنى أنهم لم يستخدموها في المجال المخصص له.^١ ولكنه لا يناسب عطف الحيق عليه.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى﴾، الظاهر أن في قوله: ﴿حَوْلَكُمْ﴾، تقديرًا، أي حول قريتهم. وهذا خطاب آخر لأهل مكة، ينبههم أن القرى والمدن التي كانت حول قريتهم في قديم الزمان وكانت مسكنًا لأقوام من البشر، أهلكناهم بعذاب الاستئصال ولم يموتوا حتف أنوفهم ولا بعوامل طبيعية، بل بمؤثرات طبيعية عليها أمارات العذاب الإلهي، كما أسلفنا بيانه؛ أليس في هذا عبرة لكم. ولعل المراد بالقرى - مضافاً إلى مدينة عاد المعبر عنها بإرم ذات العماد - مدينة سدوم التي كان يسكنها قوم لوط عليه السلام، والحجر الذي سكنها ثمود، قوم صالح عليه السلام، ومدين مسكن قوم شعيب عليه السلام، فكل هذه المدن كانت في المنطقة العربية يعلم بها وتاريخها أهل مكة. والقرى جمع قرية، بمعنى المكان الذي يجتمع فيه الناس، وبمعنى الناس المجتمعين أيضاً من قرى الشيء، أي جمعه.

﴿وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، التصريف هو التغيير، أي لم نكتف بآية واحدة، بل أتتهم آيات كثيرة مختلفة في الأداء وفي المدلول؛ فمنها ما تدل على عظمة الله تعالى وقدرته، ومنها ما تدل على رسالة الرسول وأن الله تعالى يريد من البشر متابعتة، وغير ذلك، لعلهم يرجعون عن كفرهم وعنادهم. وهذا أيضاً تنبيه لأهل مكة بأنكم إنما تتبعون سننهم، حيث تواجهون الآيات بعناد أشد، فانتظروا مصيراً كمصيرهم.

﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾، «لولا» للتوبيخ، أي أن آلهتهم حسب معتقدكم يجب أن ينصروهم، فلماذا لم يفعلوا؟! وقوله: ﴿قُرْبَانًا﴾ إما حال، أي اتخذوهم آلهة متقربين بهم إلى الله تعالى، أو مفعول لأجله، أي للتقرب إليه. وقربان مصدر يحتمل الأمرين، و﴿آلِهَةً﴾ مفعول ثانٍ، والأول هو الضمير العائد إلى الموصول، أي الذين اتخذوهم آلهة، ولا يمكن أن يكون قرباناً مفعولاً ثانياً، إذ لا يستقيم المعنى؛ فإنهم لم يتخذوهم قرباناً من دون الله، أي بدلاً عنه، بل اتخذوهم آلهة من دونه.

والحاصل أن الأقوام المذكورين كانوا مثلكم يعتمدون على آلهتهم، ويظنون أنهم سينصرونهم إذا أراد الله بهم سوءاً، وأنهم يمنعونهم من الحوادث والبلايا، وكانوا يتخذونهم آلهة كما أتم عليه، ويرونهم شفعاء لهم عند الله ويعبدونهم بزعم أنهم يقربونهم إلى الله تعالى، كما قال عن لسانهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لَيَقَرَّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾^١. ومن الغريب أنهم أعرضوا عن عبادة الله تعالى وهي لا تليق إلا به، وتقرّبوا بعبادة غيره إليه، من دون أن يكون قد أمرهم به أو أجازهم لهم أو أنزل به سلطاناً وحجة. والآية هنا تؤنبهم بأن الآلهة الشفعاء لم تنصرهم ولم تشفع لهم، أليس في ذلك حجة عليكم وأنتم تتبعون نفس النهج وتتخذون نفس الآلهة قرباناً إلى الله تعالى؟! إلى الله تعالى!

﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِنْكُتُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَرُونَ﴾. الضلال بمعنى الضياع وعدم الاهتداء للطريق. و﴿بَلْ﴾ للإضراب، أي أنهم لم ينصروهم كما توقعوا، بل فوق ذلك ضلّوا عنهم، كما هو مقتضى طبيعة كونهم جمادات لا عقل لها. والتعبير

بالضلال عنهم، كناية عن عدم انتباههم لهم. وفي التعبير تهكم، فإن الأصنام ليست مورداً للضلال والهداية، ولكن دعوى كونها آلهة تستلزم كونها ذوات عقل وتدبير، فعبر بذلك تهكماً واستهزاءً من دعوى الألوهية والشفاعة لما لا يعقل شيئاً. وهذا هو الوجه أيضاً في التعبير عن الأصنام بالاسم الموصول الخاص بذوي العقول وهكذا الضمائر. وقوله: «ذَلِكَ» إشارة إلى دعوى كونهم آلهة ينصرونهم، فهذا إفكهم وكذبهم وافترائهم الذي يتبين لهم فساد ذلك اليوم. والإفك في الأصل بمعنى الصرف والتحويل، ومنه قوله تعالى: «فَأَنَّى يُؤفَكُونَ»^١. ويعبر به عن الكذب، لأنه صرف للكلام عن موافقة الواقع وهو الأصل فيه. والافتراء - كما في «العين»^٢ - بمعنى اختلاق الكذب، لا النطق به مطلقاً.

١. الزخرف (٤٣): ٨٧.

٢. كتاب العين ٨: ٢٨٠.

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا
فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ ﴿٨٨﴾ قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن
بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٩﴾ يَنْقُومَنَا
أُجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٩٠﴾
وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ؕ
أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩١﴾

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾. قيل: إن هذه الآيات لتنبية الكفار بأن هذا القرآن أثر في نفوس الجنّ - فضلاً عن البشر - تأثيراً عميقاً، فانظروا كم أنتم بعيدون عن الحقّ ومعاندون له؟! ولكنّه بعيد، فإنّ التأثير في الجنّ وإيمانهم به ليس أمراً محسوساً حتّى يحتاج به عليهم، فالأرجح أن يكون بياناً لحقيقة تفيد المؤمنين. ولعلّ تلك الحقيقة التنديد بالبشر المشرك والكافر في معاندتهم للحقّ مع أنّ الجنّ آمنوا به، بل أخذوا يدعون إليه.

و﴿إِذْ﴾ متعلّق بمقدّر، أي: «واذكر إذ صرفنا...». والصرف — كما في «المفردات»^١ — ردّ الشيء من حالة إلى حالة. فالمعنى أنّهم أتوا إلى الرسول ﷺ بتأثير غيبي من الله تعالى، حيث أوجد في نفوسهم الداعي إلى ذلك، ولا ينافيه أنّهم أتوه بداعي طبيعي؛ فقد ورد في الحديث أنّهم كانوا يبحثون عن سبب منعهم من السماء أو أيّ داعٍ آخر، كما هو الحال في سائر الموارد، فالله تعالى ينسب هجوم الملك الآشوري نبوخذ نصر — وهو كافر — على بني إسرائيل وسحقهم

– وهم مؤمنون – إلى نفسه، قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾، مع أنه إنما قام بذلك بداعي الطغيان والعدوان؛ فالقلوب كسائر الأشياء كلها بيده تعالى يقبها كيفما شاء.

والنفر يطلق على مجموعة من الناس، وإطلاقه على الجنّ من التوسّع، ولا يختصّ بما بين الثلاثة والعشرة كما قيل. والجنّ – على ما يبدو من الآيات – موجود ذو شعور وإدراك، غائب عن الأبصار، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْهُمْ﴾^١، ومن هنا سمّوا بالجنّ وهو بمعنى الشيء المستور عن الحواس. وقد ورد ذكر بعض خصائص الجنّ في القرآن وفي الروايات، ومرّ بعض الكلام حوله في تفسير سورة سبأ، وسيأتي بعضه في تفسير سورة الجنّ إن شاء الله تعالى. والروايات مليئة بأمور خرافية، هي من صنع الوضّاعين.

وقوله: ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ حال من النفّر أو صفة لهم وفي المعنى تعليل، أي صرفناهم ليستمعوا. والآية هنا تذكر حادثة ورود جمع منهم إلى مكان، حيث كانوا يسمعون الرسول ﷺ وهو يقرأ القرآن. ومنه يعلم أنهم كانوا يفهمون الكلام ويدركون معانيه؛ فلعلّهم كانوا يفهمون لغة العرب لقربهم منهم.

﴿فَلَمَّا خَصَّروُوهُمْ قَالُوا أَنْصِتُوا﴾، أي حضروا الرسول ﷺ وهو يقرأ القرآن أو حضروا القرآن أي قراءته. ويتبيّن من هذه الجملة تأثرهم العميق بالتلاوة الكريمة وبمفاهيم الآيات ولحنها وصوت الرسول ﷺ، فقال بعضهم لبعض: ﴿أَنْصِتُوا﴾، والإنصات – كما في «العين»^٢ – السكوت لاستماع شيء.

١. الإسراء (١٧): ٥.

٢. الأعراف (٧): ٢٧.

٣. راجع: كتاب العين ٧: ١٠٦.

﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾. ﴿قُضِيَ﴾، أي انتهى، والضمير يعود إلى القرآن، بالمعنى المصدري كما مرّ. و﴿وَلَّوْا﴾ أي أدبروا ورجعوا إلى قومهم. والقوم الجماعة من الرجال، وإنما أطلق على الجنّ توسّعاً، كما مرّ في التعبير بالنفر. و﴿مُنْذِرِينَ﴾ حال.

ويبدو من هذه الجملة، أنّهم بمجرد سماع الآيات ودرك المفاهيم آمنوا بالرسالة وعلموا أنّ ما سمعوه إنّما هو من آيات الله سبحانه، فلم ينتظروا لحظة بعد انتهاء الرسول ﷺ من التلاوة، بل ولّوا مسرعين إلى قومهم لينذروهم بعذاب الله إن لم يؤمنوا بالرسالة الجديدة.

﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾. بهذه الكلمات أو ما يفيد معناها بدأوا بإنذار قومهم. ويتبين من بيانهم أنّهم كانوا يؤمنون بالرسالات السابقة، فلم يكن خبر الدين الجديد غريباً عليهم، ولكن حيث أخذ الله ميثاق النّبيين أن يؤمن أتباعهم بكلّ رسالة متأخرة، علموا أنّ من واجبه الإيمان بالكتاب الجديد، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَضْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَضْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾^١.

وربما يستغرب من ذكرهم موسى عليه السلام مع أنّ الإنجيل نزل بعد التوراة، فيمكن أن لا يكونوا عالمين بذلك أو أنّهم لم يذكروه، لأنّ الإنجيل لا يشتمل على شريعة جديدة، بل يأمر بمتابعة التوراة، وإنّما نزل بتغييرات طفيفة وكان الغالب فيها هو رفع العقوبات عن بني إسرائيل، حيث إنّهم لكفرهم وبغيهم وعنادهم

المستمر ابتلاهم الله تعالى بأحكام شاقة جزاءً لهم، فلما بعث عيسى عليه السلام رفع عنهم العذاب. قال تعالى: ﴿فَإِظْلَمِ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾^١، وقال: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾^٢، وقال أيضاً: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيِّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَا حِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾^٣.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيِّ﴾. «مُصَدِّقًا» حال للكتاب. و«ما بين يديه»، أي ما تقدمه من الكتب السماوية. وهذه ميزة تدل على كون الكتاب من عند الله تعالى، ومعنى كونه مصدقاً أنه بخطوطه العريضة يدعو إلى نفس المنهج ونفس الدعوة. وأصل الدين في جميع الشرائع أمر واحد، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾^٤.

﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. يبدو أنهم كانوا أهل علم ومعرفة بالدين الحق وبالطريق المستقيم، حيث وجدوا في مضامين هذا الكتاب أنه يهدي إليهما. والحق هو الأمر الثابت ويقابله الباطل. والطريق المستقيم، أي الطريق الذي يهدي إلى الكمال المطلوب الذي أراد الله تعالى لخليفته في الأرض أن يحاول الوصول إليه، وتقابله الطرق المنحرفة التي لا توصل، بل كلما ازدادت

١. النساء (٤): ١٦٠.

٢. الأنعام (٦): ١٤٦.

٣. آل عمران (٣): ٥٠.

٤. الشورى (٤٢): ١٣.

فيها توغلاً، ازدادت بعداً عن الكمال المطلوب.

ولا يصحّ ما قيل من أنّ سائر الطرق أيضاً توصل إلى نفس الهدف ولكنها ملتوية وتسير بخطوط منحنية، فيطول الطريق ويبعد الهدف ويتعب الإنسان. قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾^١ ولو كانت كلّها تنتهي إلى نفس الهدف، لكانت تصل في النهاية إلى سبيله. وتوغل في الضلال من قال: إنّ كلّ الطرق مستقيمة. وقد مرّ بعض الكلام حول هذا الموضوع في تفسير الآية ٥٢ من سورة الشورى.

﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَتُجْزَى مِنْ عَذَابِ إِلِيمٍ﴾.

الظاهر أنّ المراد بالداعي، هو الرسول ﷺ وأضيف إلى الله تعالى، لأنّه يدعو إليه أو لأنّ الله تعالى هو الذي بعثه ليدعو الناس. ومن ذلك يعلم أنّ الرسول ﷺ مبعوث للإنس والجنّ، وأنّه يجب على الجميع أن يؤمنوا به وبرسالته، ولا يكفي إيمانهم بالله وبالرسالات السابقة، ولذلك لم يكتفوا بالأمر بإجابة الداعي بما أنّه داعٍ إلى الله تعالى، بل يجب الإيمان به كرسول تجب إطاعته ومتابعته. وهذا بناءً على عود الضمير في ﴿وَآمِنُوا بِهِ﴾ إلى الداعي، لبعد احتمال رجوعه إلى الله، لأنّ الظاهر أنّهم كانوا مؤمنين بالله تعالى وبرسالة موسى عليه السلام. ولا منافاة بين عود هذا الضمير إلى الداعي وعود ضمير الفاعل في قوله: ﴿يَغْفِرَ لَكُمْ﴾، إلى الله تعالى. ومعنى ذلك أنّه يترتب على إجابة الدعوة والإيمان بالداعي أنّ الله تعالى يغفر ذنوبكم ويجيركم من عذاب أليم، والمراد به عذاب يوم القيامة؛ والإجارة الإعاذة مأخوذة من الجوار، أي يجعلكم في جواره، فإنّ الجار يحتمي بجاره.

وهل أن ﴿مِنْ﴾ زائدة، فيغفر الله تعالى كلَّ ذنوبهم إذا آمنوا - كما هو مقتضى أن الإسلام يجب ما قبله - أم هي تبعيضية - كما هو ظاهر اللفظ - فيغفر بعض ذنوبهم؟

فيه كلام في التفاسير، ولكن لو فرضت تبعيضية فليس معناها أنه لا يغفر بعض الذنوب، إذ ليس له مفهوم فيصدق مع غفران الكل أيضاً؛ فيمكن أن يكون التعبير بلحاظ احتمال عدم الغفران في ما إذا تعلّق بحقوق الآخرين أو لأيّ جهة أخرى، فإنّ غفران الذنوب ليس أمراً حتمياً، والعبد يجب أن يكون بين الخوف والرجاء. وسيأتي تفصيل الكلام فيه إن شاء الله تعالى في تفسير سورة نوح في قوله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾^١.

﴿وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾، أي أنه لا يعجز الله تعالى من محاسبته ومعاقبته في الدنيا والآخرة. وقوله: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾، تأكيد على عدم وجود المهرب، أي أن الأرض على رحبها ليس فيها مهرب له، فأين ما ذهب فهو تحت السيطرة، وليس معناه التحديد بالكرة الأرضية، بل لا مهرب له في الكون كله، وإنّما هو تعبير عن ضيق الخناق عليه أين ما كان.

﴿وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ﴾، أي لا يمكنه الفرار بنفسه وليس هناك من ينصره من دون الله. والولي هنا بمعنى الناصر، ومعنى الجملة: أنه لا ناصر له إلا الله وهو لا ينصره، فإنّ معنى ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ أي غيره وبدلاً عنه، فلو كان له ناصر فهو الله تعالى وهو لا ينصره، وذلك لأنّ النصرة في مواجهة عقاب الله تعالى وإرادته غير ممكن لأيّ شيء؛ إذ كلّ ما في الوجود مخلوق له وتحت إرادته وسلطانه، فلا يقاوم

إرادته شيء ولا يمكن لأي شيء ولاي أحد أن يسير في اتجاه غير ما أَرَادَهُ اللهُ تعالى وأذن به إذناً تَكُونِيّاً.

﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، المراد بالشار إليه من لا يجيب داعي الله تعالى من الجنّ والإنس، وهو يتوهم أنّ هناك في الكون مفراً ومهرباً من عذاب الله تعالى ومحاسبته. والإتيان باسم الإشارة للجمع باعتبار المصاديق وإن كان التعبير مفرداً قبل ذلك. وإنّما كانوا في ضلال واضح، لأنّهم يتوهمون أنّ بإمكانهم مقاومة إرادة الله تعالى ولم يعلموا أنّ كلّ ما يفعلونه من خطأ وصواب ليس إلا تحت السيطرة ولا يمكنهم فعل شيء إلا بإذنه.

ويبدو من البيان أنّ من الجنّ أيضاً من هو بهذه الدرجة من الغباء ويخفى عليه هذا الأمر الواضح، فمن الخطأ الفادح ما يتوهمه بعض المغفلين من أنّ الجنّ لا يخفى عليهم شيء، ويحسبون أنّ لهم قدرة خارقة في معرفة الأشياء والتصرف فيها، ولذلك عمدوا إلى التوسّل بهم لحلّ مشاكلهم. قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾^١، وقال أيضاً: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾^٢.

١. الجنّ (٧٢): ٦.

٢. سبأ (٣٤): ١٤.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَغْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ
يُخْجِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٦﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ
أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٦٧﴾
فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا
يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٦٨﴾

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَغْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُخْجِيَ
الْمَوْتَىٰ﴾. الضمير في ﴿يَرَوْا﴾ يعود إلى كفار مكة، والسياق يعود إلى ما ابتدأ به
السورة من خطاب المشركين المنكرين للمعاد، بدعوى عدم إمكان الإحياء بعد
الموت. والمراد بالرؤية العلم، إذ ليس هذا الأمر من المبصرات، بل يدرك
بالتأمل والمقايضة إلا أن المعلوم إن كان واضحاً جداً يعبر عن العلم به بالرؤية،
كأنه من شدة وضوحه محسوس ومبصر. والأمر هنا كذلك، فإن القادر على
إيجاد الأشياء من العدم وإبداعها من غير مثال يحتذى، قادر على إعادة الحياة
إلى الأموات بطريق أولى. والسموات والأرض - كما قلنا مراراً - تعبير عن
الكون كله، ولا شك في أنه أوجد بعد إن لم يكن موجوداً. والله تعالى خلق
الكون من دون أن يؤثر فيه ذلك شيئاً، فهو لا يعجز ولا يتعب ولا يتحير، وبكل
ذلك فسر العبي.

﴿بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. ﴿بَلَىٰ﴾ يؤتى بها جواباً للنفي وتفيد نفي النفي، كقوله
تعالى: ﴿الَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾، أي أنت ربنا، والنفي هنا وإن ورد على الرؤية،

ولكنّ المعنى: أليس الله بقادر؛ ولذا أتى بالباء على الخبر، والباء زائدة يؤتى بها للتأكيد على خبر النفي نحو وما هو بميت».

والنتيجة التي تحصل من ملاحظة خلق الكون من دون أيّ تأثر هو عموم القدرة على كلّ شيء، والمراد بالشيء هنا كلّ ما يمكن أن يوجد في حدّ ذاته. والاعتراف بوجود الله تعالى ملازم للاعتراف بعموم القدرة، لأنّ قولنا هذا الشيء يمكن أن يوجد مساوق للقول بأنّ الله تعالى قادر على إيجاده؛ إذ لا وجود إلاّ منه، فإمكان وجوده مساوٍ لقدرة الله عليه.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾، أي واذكر يوم يعرض. وقد مرّ الكلام في معنى العرض في تفسير الآية ٢٠ من نفس السورة، وأنّ المراد إراءة النار لهم لا الدخول فيها، والإتيان بالجملة التالية: ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ من دون أن يذكر قبلها: «قيل» مثلاً، لبيان أنّ العرض كان لذلك، فلا بدّ من تقدير القول.

والاستفهام هنا للتقرير، وأخذ الإقرار منهم بعد أن كانوا ينكرونها ويصرونّ على الإنكار مستكبرين، وفي هذا تحقير وتهكّم وتعذيب، وقد مرّ أنّ المراد بالتعذيب ظهور الحقائق جليّة ممّا يتعذّب منها الإنسان بالطبع، ومنها ظهور العذاب ومصدره، أي جهنّم، فهم يتعذّبون من نفس ظهور الحقيقة التي أنكروها. والغرض من بيان ذلك منع الإنسان من التسرّع إلى إنكار ما لا يمكنه دركه، فإنّه يتعذّب بظهوره يوم القيامة أو قبلها، كمن ينكر ظهور الإمام المهدي - سلام الله عليه - لا لشيء إلاّ لأنّه يستحيل عنده بقاء الإنسان حيّاً طيلة هذه المدّة، أو أنّه يستغرب وجود إنسان لا يعلم بمكانه أو بشخصيته أحد، أو أنّه يرى أنّ ذلك ينافي الحكمة!!! وكلّ هذا من جهل الإنسان بمقام ربّه، وهذا الإنكار ليس إلاّ

كإنكار يوم القيامة لاستبعاد إحياء كلِّ هذا البشر الذي مرّت على موتهم وفنائهم القرون.

﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾، لماذا الحلف وهو واضح بالبيان؟ قيل: كأنّهم يحلفون طمعاً في النجاة، وهو بعيد، ويمكن أن لا يكون هناك استفهام ولا جواب ولكنّ العرض بنفسه يقتضي السؤال والجواب، وكذلك يقتضي الحلف، فإنّه في الواقع يشتمل على أمرين؛ التأكيد على الأمر الواقع وأنّهم قد أدركوه ولا يسعهم إنكاره، والثاني: الإقرار بالربوبية، وكلّ هذا يظهر منهم بوضوح، حتّى لو لم ينطقوا به، فليس كلّ ما يعبر عنه بـ «القول» يوم القيامة نطق وقول، كما هو المعمود، بل هو بروز الحقّ من الشيء كأنّه يقوله، بل هو أبرز وأقوى دلالة من القول. ومنه ما ينسب من القول إلى جهنّم وإلى الأصنام مثلاً، ومن ذلك أيضاً ما ينسب من القول إلى الكفّار، فهم يعترفون بكلّ وجودهم - لا باللسان فحسب - بأنّ الله تعالى ربّهم، وهم يجدون ويشعرون بكلّ وجودهم أيضاً أنّ ما حصل لهم ليس إلّا مقتضى ربوبية ربّهم، وأنّ ما يعذبون به هو النتيجة الطبيعية لعملهم.

﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، الضمير في ﴿قَالَ﴾ يعود إلى الربّ جلّ وعلا. وهذا أيضاً من قبيل ما سبق ذكره، فإنّ هذه الجملة قد لا تكون خطاباً في الحقيقة من الله تعالى في ذلك اليوم، وإنّما هي كناية عن بروز هذه الحقيقة، أي تذوّقهم للعذاب بسبب كفرهم، فإنّ ظهور الحقائق لمن كان يكفر بها موجب لتذوّق العذاب وهو أمر طبيعي، ونحن لا نشعر في هذه الحياة مدى تأثير هذه الأمور في تعذيب الإنسان، وإنّما يتبيّن هذا في ذلك اليوم الذي تظهر فيه الحقائق بصورتها الواقعية.

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعِزِّ مِنَ الرُّسُلِ﴾، أي حيث إنّ الحقائق ستظهر في ذلك اليوم، فاصبر على كفرهم وعنادهم وتكذيبهم، كما صبر الرسل من قبلك. وفي هذه الجملة تسليّة للرسول ﷺ وتطمين لخطاره الشريف، وفي نفس الوقت تأكيد على أنّ الدعوة إلى الله تعالى طريق شائك، لا بدّ فيه من الصبر والمقاومة، وقد أدّب الله تعالى رسوله وملاً قلبه صبراً وقوّة، فكان يصبر على إيذاء الجهال والفساق من قومه صبراً عظيماً حتّى بلغ غايته، وتمكّن من نشر دعوته بالرغم من قساوة أعدائه وشقائهم.

والسؤال هنا: من هم أولوا العزم من الرسل؟ وما هو المراد بالعزم؟

قال: هم أصحاب الشرائع، نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ونبينا - سلام الله عليهم - وقد ورد التصريح به في عدّة من الروايات، وعلى ذلك يكون المراد بالعزم الشريعة - باعتبار شمولها - على ما يجب العمل به قطعاً. والعزم في اللغة القطع، ويقابل العزيمة الرخصة. وقد ورد ذكر هذه المجموعة من الرسل بما يلوح منه أنّهم هم أصحاب الشرائع في سورة الشورى، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾^١. وورد ذكرهم بالخصوص بعد ذكر النبيين عامّة في سورة الأحزاب: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَنُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾^٢.

هذا، ولكن لم يرد في القرآن توصيفهم بأولي العزم. وأمّا الروايات التي أشرنا

١. الشورى (٤٢): ١٣.

٢. الأحزاب (٣٣): ٧.

إليها، فلا يصح شيء منها سنداً، والأنسب بالمعنى اللغوي للعزم وهو القطع أن يكون المراد بالعزم في الآية الكريمة العزيمة والجد. وقد ورد العزم بعد ذكر الصبر في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾^١، ومثلها قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾^٢. وقوله: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾^٣. وهنا أيضاً ورد بعد الأمر بالصبر - مما يدل بوضوح - على أن المراد بالعزم ما يناسب الصبر، فلا يختص بأصحاب الشرائع من الرسل، بل كل من كان منهم صابراً على ما أُوذي في سبيل الله تعالى، ولذلك قال بعضهم: إن «من» بيانية وليست تبعيضية، وذكر المفسرون في تحديد أولي العزم وجوهاً من دون مستند.

ومع ذلك، فلا مانع من توصيف من ذكر من الرسل بأولي العزم، بمعنى أصحاب الشرائع لما ذكرناه. إنما الكلام في حمل الآية على هذا المعنى، والأنسب بالأمر بالصبر هو أن يكون المراد بالعزم الجد وتحمل المشاكل. وهذا الأمر مشهود في سيرة كثير من الرسل، بل كلهم، ولا يختص بأصحاب الشرائع، بل لعله ظهر من بعض الرسل من غيرهم أكثر مما ظهر من بعض أصحاب الشرائع.

﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبُثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ﴾. خطاب للرسول ﷺ مترتب على الأمر بالصبر والعزم، أي لا تستعجل لمجازاتهم، فإن يوم القيامة ليس بعيداً كما يتوهمون، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً * وَرَأَهُ

١. آل عمران (٣): ١٨٦.

٢. لقمان (٣١): ١٧.

٣. الشورى (٤٢): ٤٣.

قَرِيباً^١، والآية تصوّر حالة الإنسان يوم القيامة — وهو اليوم الذي يرون فيه ما يوعدون، أي نتائج أعمالهم في الدنيا، فهم في ذلك اليوم يشعرون أنهم لم يلبثوا إلا ساعة من نهار.

والساعة تطلق على أيّ جزء من الزمان، قليلاً كان أو كثيراً. وتقييد الساعة بكونها من نهار، لعله للتنبيه على كونهم إيقاظاً متبهرين لما يدور حولهم، فليس عدم إحساسهم بطول الزمان ناشئاً من نومهم طيلة هذه المدّة، كما حصل لأصحاب الكهف. ومثلها قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُخْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ^٢﴾.

والكلام هنا في أنّه ما هو المراد من اللبث، هل المراد بقاء الإنسان في الحياة الدنيا أم بقاؤه في عالم البرزخ بعد الموت إلى قيام الساعة؟

يمكن أن يقال بالأوّل باعتبار أنّ الذي يلاحظ الأبدية عند قيامه يوم القيامة لا يعتبر أمد الحياة الدنيا بأسرها زماناً طويلاً مهما طالّت المدّة، أو باعتبار أنّ كلّ إنسان يلاحظ مدّة بقائه شخصياً، وهو زمان قصير جداً، ولا يلاحظ معه زمان بقائه في البرزخ، لأنّ قيامه كلّ إنسان تتحقّق بموته.

ولكنّ الظاهر أنّ المراد بالآية تقليل الفاصلة بين الدنيا والآخرة، أي عالم البرزخ لا اعتبار زمان الدنيا قليلاً بالنسبة إلى الآخرة. فإنّ الإنسان يتوهّم أنّ الأمد بعيد إلى يوم القيامة، حيث مرّت القرون على القرون السابقة ولم تقم القيامة، وسيمرّ علينا أيضاً قرون، وغريب أمر هذا الإنسان الظلوم الجهول أنّ طول الأمد

١. المعارج (٧٠): ٦ - ٧.

٢. يونس (١٠): ٤٥.

يغريه ويغويه، مع أنه لو عقل الأمر لم يكن يهتم به؛ فإذا كان المفروض أن الحساب واقع لا محالة وأن الإنسان باقٍ إلى الأبد، فلا فرق بين كونه بعيداً وقريباً. ولكن هكذا يَمْنِي الإنسان نفسه، والله تعالى يبين له في هذه الآية وغيرها أن الأمد ليس بعيداً، وأن هذه القرون تعبر على الإنسان من دون أن يشعر بها، فإذا قامت القيامة ورأى ما وعده ربه يجد أنه لم يمكث طويلاً بعد موته.

وهذا المعنى ورد في آيات أخرى أيضاً؛ منها آية سورة يونس التي مرّت آنفاً، ومنها قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾^١ وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا * يَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾^٢ وقوله تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ * قَالَ إِنَّ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^٣ وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^٤ وقوله تعالى: ﴿كَانَتْهُمْ يَوْمَ يَرْزُومُهُمْ لَا يَلْبَثُوا إِلَّا عِشِيَّةً أَوْ صُحَاهاً﴾^٥. ومرّ الكلام حولها في تفسير سورة الروم، وحاصل ما ذكرنا أن الآيات - على الظاهر - تشير كلها إلى حقيقة واحدة وهي أن الإنسان يتوهم في هذه الحياة أن القيامة بعيدة وأن الآلاف من السنين، بل لعل

١. الإسراء (١٧): ٥٢.

٢. طه (٢٠): ١٠٢ - ١٠٤.

٣. المؤمنون (٢٣): ١١٢ - ١١٤.

٤. الروم (٣٠): ٥٥ - ٥٦.

٥. النازعات (٧٩): ٤٦.

الملايين منها تمرّ علينا قبل أن تقوم القيامة. ولكنّه يصطدم يوم الحشر بأمر غريب، وهو أنّه يجد ويشعر أنّه لم يمض عليه إلا زمان قصير، عبّر عنه في القرآن في موضع بأنّه يوم، وفي موضع أنّه عشية أو ضحاها، وفي موضع أنّه ساعة من النهار.

ويبدو من بعض الآيات أنّ ذلك مجرد توهم وليس على وجه الحقيقة، كما هو ظاهر الظنّ في قوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾^١، وأيضاً آية سورة الروم؛ فإنّ المعنى على الظاهر أنّ أهل العلم والإيمان، وهم الأنبياء والأئمّة المعصومون عليهم السلام يتبّهون الناس أنّهم بقوا في تقدير الله تعالى ما شاء الله إلى يوم البعث، ولا يعلم أمدّه إلا هو، والناس على ما ورد في الآيات والروايات مختلفون؛ فبعضهم عند ربّهم يرزقون، وبعضهم يعرضون على النار بكرة وعشيّاً، وأكثر الناس يمرّ عليهم الزمان وهم في غفلة، ولذلك يظنّون أنّهم ما لبثوا غير ساعة أو يوماً أو عشرّاً، وبذلك يتبيّن وجه التشبيه في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ وأنّ ذلك بلحاظ توهمهم، وليس أمراً واقعياً، ومهما كان فالزمان يمرّ عليهم وهم لا يشعرون.

وقد ورد في «الكافي» عدّة أحاديث متقاربة المعنى وبعضها معتبرة سنداً؛ منها رواية أبي بكر الحضرمي قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «لَا يُسْأَلُ فِي الْقَبْرِ إِلَّا مَنْ عَخَّصَ الْإِيمَانَ عَخْصاً أَوْ عَخَّصَ الْكُفْرَ عَخْصاً، وَالْآخَرُونَ يُلْهَى عَنْهُمْ»^٢.

والمفسّرون غالباً يفرّقون بين الآيات، فيفسّرون بعضها على أنّ المراد مقدار

١. الإسراء (١٧): ٥٢.

٢. الكافي ٣: ٢٣٥.

الحياة في الأرض، وبعضها على أن المراد عالم البرزخ أو مجموع المرحلتين، ولكن حمل الآيات على الحياة الأرضية لا يصح، لأنهم يعلمون مقدار الحياة الدنيا إلا إذا كان المراد أنهم يقارنون بين زماني الحياتين الدنيا والآخرة، ويجدون أن الحياة الدنيا كأنها ساعة بالنسبة إلى الحياة الأبدية هناك. ولكن هذا المعنى لا يناسب ما يظهر من الآيات من أنهم يظنون ذلك ويشعرون به، وكذلك ما يظهر منها من أن هذا التقدير يبرزونه بمجرد الحشر والحضور في تلك النشأة، مع أن المقارنة لا تتم إلا بعد الشعور بالأبدية وطول المدة.

مضافاً إلى أنه لم يظهر للتنبيه عليه هنا وجه. وأما ما ذكرناه، فإن وجهه - كما ذكرنا - تسلية الرسول ﷺ، بعدم استعجال العذاب لهم، فإن العقاب الأخروي ليس بعيداً عنهم كما يظنون، فإنهم لا يشعرون بمرور القرون، بل يرونها يوماً واحداً. وأما أن حياتهم في الدنيا مهما طالت فإنها قصيرة بالقياس إلى الأبدية، فإنه لا يناسب عدم الاستعجال.

﴿بَلَاغٌ فَهَلْ يُبْلَغُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾، ﴿بَلَاغٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أي هذا بلاغ، وهو إما مصدر من بلغ يبلغ بلوغاً وبلاغاً، ومعناه الكفاية، والمعنى أنه أي القرآن أو هذا البيان غاية في الوعظ، فلا يمكن الوعظ بأبلغ منه، فهو كافٍ لمن كان له قلب واعٍ، وأطلق المصدر للمبالغة، وإما اسم مصدر من الإبلاغ والتبليغ، فالمعنى أنه إبلاغ وتبليغ للجميع. والاستفهام بعده للإنكار، أي لا يهلك إلا القوم الفاسقون.

والهلاك في الأصل - على ما يبدو - بمعنى السقوط، كما في «معجم

المقاييس»^١، فيطلق على الموت، كقوله تعالى: ﴿إِنْ أَمْرُؤُ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ﴾^٢، ويطلق على الزوال والانعدام أيضاً، كقوله تعالى: ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ﴾^٣، ويطلق على سوء العاقبة في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما معاً، كقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾^٤، والإهلاك هنا بهذا المعنى وفاعله هو الله تعالى. والفسق من مصطلحات القرآن ولم يرد في كلام العرب وصفاً للإنسان. وإنما قالوا: «فسقت الرطبة»، إذا خرجت عن قشرتها، ولعل المصطلح القرآني ناظر إلى خروج الفاسق عن طاعة ربه، فلا يختص بالكافر والمشرک كما قيل.

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على نبيينا محمد وآله الطاهرين.

١. معجم مقاييس اللغة ٦: ٦٣.

٢. النساء (٤): ١٧٦.

٣. الحاقة (٦٩): ٢٩.

٤. الأنعام (٦): ٢٦.

تفسير سورة محمد ﷺ
والله وسائر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ﴿٣﴾

هذه السورة مدنيّة كما هو واضح من سياق آياتها، وسميت سورة محمد ﷺ لذكر اسمه الشريف في بدء السورة، وتسمى سورة القتال أيضاً، لما ورد فيها من الأمر بالقتال، بل هو الطابع العام لها، وفيها أيضاً تعرّض لحال المنافقين وصفاتهم وموقفهم من الحرب، ولها صبغة خاصّة حيث تكرّر التعرّض للفرق بين الإيمان والكفر، والمؤمنين والكافرين وصفاتهم وجزائهم يوم القيامة، وكذلك المؤمنين والمنافقين، ولذلك ورد في الحديث عن أهل البيت عليهم السلام أنها نزلت آية فينا وآية في عدونا^١، وروى بعض العامة عن أمير المؤمنين عليه السلام أنها نزلت آية فينا وآية في

بني أُمَيَّة، ولعل المقصود انطباق آياتها بوضوح في الموردين وإن كانت عامة شاملة.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾. تبدأ السورة بمقارنة بين مشركي مكة والمؤمنين الصالحين. والعنوان في كل من الفريقين يشير إلى الاختلاف الجوهرى بينهما، فالمشركون ميّزتهم الكفر والصدّ عن سبيل الله تعالى. والمؤمنون ميّزتهم الإيمان والعمل الصالح والإيمان بالرسالة وبالحق.

وتشير الآيات إلى ما يترتب على هذا الفرق، فالقسم الأول عملهم باطل هباء، حتّى لو كان في حدّ ذاته خيراً، والقسم الثاني تظهر أعمالهم الصالحة وتُمحى سيئاتهم كأنّهم لم يرتكبوها، فشتان ما بين الفريقين.

ويُتّضح من السياق أنّ السّرّف في البدء بهذه المقارنة، مع التصريح بتأييد المؤمنين وتفنيد كيد الكافرين، هو التمهيد للأمر بالقتال وتحريض المؤمنين وتقوية شوكتهم وصلابتهم وعزيمتهم لمواجهة جنود الشيطان، الذين لا يرتدعون ولا يبعون في الأرض إلا الفساد.

ويبدو من موارد إطلاق هذا العنوان: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في الكتاب العزيز، أنّ المراد بهم مشركو مكة، الذين ناصبوا العداء والحرب للإسلام، ولم يتركوا الرسول ﷺ يستمرّ في دعوته ويمارس واجبه الإلهي، حتّى بعد أن تركهم والتجأ إلى يثرب.

والصدّ يستعمل في معنيين: الإعراض والمنع. وكلاهما ينطبقان عليهم، فهم أعرضوا عن سبيل الله تعالى وآتبوا سبيل الهوى والفساد في الأرض، وهم أيضاً

كانوا يمنعون الناس من التوجه إلى الرسول ﷺ والاستماع لكلامه والإيمان به. وكانوا يبذلون غاية جهدهم ولا يتوانون عن أي عمل في سبيل منع الناس من الالتفاف حوله ﷺ، سواء قبل الهجرة وبعدها، وكانوا يمنعون القبائل من التوجه إلى الرسول ﷺ ويقطعون الطرق ويصرفون الأموال في سبيل ذلك.

وظاهر الآية هو الشمول لكل من يصدّ عن سبيل الله، على اختلاف طرقهم ومشاربهم، وقيل: إنها نزلت في أشخاص بعينهم؛ لأنهم نحروا الإبل في تأليب الناس لحرب بدر وتسابقوا في ذلك وتفاخروا.

والمراد بسبيل الله، السبيل الذي عيّنه الله تعالى للناس، ليسلكوه في شؤون حياتهم، أي الشريعة أو السبيل الذي يوصل إلى رضاه والزلقى لديه تعالى. وإضلال الأعمال، بمعنى جعلها تضلّ طريقها ولا تصل إلى الهدف المقصود بها، فكانت قافلة ضلّت الطريق في الصحراء.

وأما الأعمال، فيحتمل أن يكون المراد بها كل ما يعتبرونه عملاً صالحاً ومفيداً يأملون أن ينالوا به الخير في الدنيا، بل حتّى في الآخرة على تقدير وجودها وإن كانوا لا يؤمنون بها. وإضلالها يتم في الدنيا بعدم نيلهم الخير الذي يتوقعون؛ وفي الآخرة بإحباطها، فكانت لم تقع من أصلها، كما ورد في آيات عديدة، كقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَثُورًا﴾^١.

ويحتمل أن يكون المراد بها جهودهم التي كانوا يبذلونها لإخماد نور الإسلام والإطاحة بقدرة الرسول ﷺ. وإضلالها يتم بعدم بلوغها أهدافها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُفْقَهُمْ ثُمَّ تَكُونُ

عَلَيْهِمْ حَسْرَةٌ ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ^١. وهذا المعنى أقرب وأنسب لآيات القتال وحالة الحرب المعلنة.

ولكن ربما يقال: إن المعنى الأول أنسب بالمقابلة، لتكفير السيئات للمؤمنين، وذلك على أساس أن إضلال أعمال الكفار، بمعنى أن أعمالهم الحسنة تضل وتمحى وتبطل في ظلمات كفرهم وسيئاتهم بخلاف المؤمنين، فإن سيئاتهم تنمحى في ظل إيمانهم وأعمالهم الصالحة.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾.

تبيّن من السياق أن السورة إنما نزلت لتحريض المؤمنين على القتال ومع ذلك فالقرآن لا يترك الدور التربوي، الذي هو الهدف الأسمى من الرسالة، فلا يعبر عن فريق المؤمنين بالذين آمنوا فقط، حيث يشمل كل من آمن ظاهراً وبائع الرسول ﷺ، بل يقيّد الإيمان بالعمل الصالح لإخراج المنافقين والذين في قلوبهم مرض، بل حتّى ضعفاء الإيمان، حيث لا يظهر أثر الإيمان بارزاً في عملهم.

ثم إن التقييد بالإيمان بما نزل على محمد ﷺ، مع أنه جزء من الإيمان المذكور قبله على الظاهر؛ لعلّه للتأكيد على أن الإيمان بالله تعالى لا يكفي في سلوك سبيل الله تعالى والانخراط في الصفّ المقابل للصفّ الكافر، بل لابد من الإيمان بالرسول والرسالة معاً، كما يشير إليه توصيف الرسالة والكتاب بأنه نُزِّلَ على محمد ﷺ.

ومن هنا يتبين الوجه في التصريح بالاسم الكريم دون التعبير برسول الله والنبى ونحو ذلك، كما هو الحال في سائر المواضع. ويبدو من هذا الأمر أن النفاق في ذلك العهد كان مشابهاً لما في هذا العهد، حيث يحاول بعض المنافقين من الاستهانة بدور الرسول ﷺ، بل النيل من شخصيته الكريمة، وأنه لم يكن إلا وسيطاً في الإبلاغ، وأن من يسمع كلام الله تعالى عن طريقه، قد يكون أدقّ فهماً لمغزى الكتاب من الرسول الذي جاء به!!! فكما نجد اليوم أشخاصاً من هذا القبيل كذلك كان في عهد الرسول ﷺ.

والجملة المعترضة: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ لتلليل إيمانهم بذلك، فهم لايمانهم برّبهم يؤمنون بكلّ ما ينزل من قبله. والألف واللام في قوله: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ لإفادة الحصر، والمراد به الحصر الإضافي، فالثقافات الدينيّة الموجودة في ذلك العهد، كلّها باطلة إلا ما نزل على الرسول ﷺ ولا ينافي كون الشرائع السابقة حقّاً نازلاً من عند الله تعالى.

هذا، والعلامة الطباطبائي رحمه الله اعتبر التقييد بالإيمان الثاني تقييداً احترازياً بدعوى أن الإيمان الأوّل إيمان بالله تعالى، فلا يختصّ بالمؤمنين بالرسالة ولكنّه بعيد؛ لأنّ المراد بالذين كفروا في مصطلح القرآن مشركو مكّة، كما صرح به العلامة نفسه في عدّة موارد، ويقابلهم المؤمنون بالرسالة، لا كلّ من آمن بالله تعالى، كما صرح أيضاً بأنّ المراد بالذين آمنوا في مصطلح القرآن، كلّ من آمن بالرسول ﷺ.^٢

١. راجع: الميزان في تفسير القرآن ١٨: ٢٢٣.

٢. راجع: الميزان في تفسير القرآن ٩: ١٤١.

نعم، لو لم يقيد بالعمل الصالح، أمكن القول بأن التقييد بالإيمان الثاني لإخراج المنافقين ونحوهم، حيث إنهم لم يؤمنوا بكل ما نزل على الرسول ﷺ وإن أسلموا ظاهراً، ولكن يكفي في إخراجهم التقييد بالعمل الصالح.

وتكفير السيئات بمعنى سترها، وقد ورد تكفيرها في مواضع متعددة من الكتاب العزيز، والمراد أن الله تعالى بسبب بعض الأعمال يستر السيئات عن المؤمنين، مضافاً إلى تجنبهم العقوبة يوم القيامة، حتى لا يصيبهم الخجل ولا يفتضحون بسبب أعمالهم السيئة.

وليس المراد بالسيئات كل عمل محرّم وكل جريمة وجناية، بقرينة مقابلتها بالكبائر في قوله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾^١.

ويحتمل أن يكون المراد به هنا — بمناسبة أن الهدف من السورة المباركة الحث على الجهاد — ستر الأعمال غير الصالحة التي تنافي الاستعداد للمواجهة، ويتمّ التكفير بمنعها من البروز والتأثير في نفوس المجاهدين.

واختلف في معنى «البال»، فقيل: إنه بمعنى الحال الذي يكثر به ويهتمّ. وعليه فيمكن أن يراد بإصلاحه، جعله صالحاً لبلوغ المقصد والغاية. وهذا يشمل كلّ الجوانب التي يحتاج المجتمع الرسالي إلى إصلاحها قبل دخوله الصراع، مع المناوئين للرسالة التي تحمّل أعباء تبليغها، سواء كان من الجانب المادي أو المعنوي، ولذلك فإنّ كلّ مستلزمات الانتصار على الأعداء كانت مهية للمجتمع الإسلامي، آنذاك بفضل الله ورحمته.

ويمكن أن يراد ما هو أعمّ من ذلك، أي لا يختصّ بشؤون مواجهة الأعداء،

فيكون إصلاح بال المؤمنين بمعنى إصلاح أحوال الأشخاص من الجهات النفسية والمعنوية؛ فإنّ المؤمن لإيمانه بالله تعالى وركونه إلى القدرة اللامتناهية ووثوقه بها لا يهزّ كيانه شيء ولا تزعزع إيمانه الأباطيل ولا ينتابه اليأس والقنوط. وأمّا الشؤون الماديّة، فتتبع معرفة الإنسان بالعوامل الطبيعيّة والأسباب التي جعلها الله تعالى، وتتبع أيضاً همّته وإرادته.

وقيل: معنى البال، رخاء العيش ومعنى إصلاحه واضح، إلاّ أنّه لا يناسب آيات القتال.

وقيل: معناه الشأن وهو معنى عامّ وهو المراد حين يقال: ما بالك؟ كما قال تعالى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾.^١ وإصلاحه يشمل ما مرّ في تفسيره بالحال المكثّر به. ولعلّ التفسيرين يرجعان إلى معنى واحد.

وفي «معجم المقاييس»: «البال بال النفس، يقال ما خطر ببالي، أي ما ألقى في روعي. ومن هذا الباب تفسيره بالخاطر ونحوه»^٢ وعليه فالمراد بإصلاحه إلهامهم الطمأنينة والاستقرار وثبات القلب وهو أنسب بآيات القتال.

والظاهر أنّ كلّ ما قيل في تفسيرها صحيح، فهي كلمة لها معانٍ متعدّدة حسب موارد الاستعمال.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾، تعليل للتفصيل المتقدّم و﴿ذَلِكَ﴾ مبتدأ وما بعده خبره. قيل: هذا التعليل توضيح لتعليل مفهوم من نفس الكلام السابق وهو ما يسمّيه علماء البيان تفسيراً، وذلك لأنّ قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْيَاهُمْ﴾، يشعر بأنّ العلة في الإضلال،

١. طه (٢٠): ٥١.

٢. معجم مقاييس اللغة ١: ٣٢١.

هو الكفر والصدّ، كما أنّ الجملة التالية تشعر بأنّ العلة في التكفير وإصلاح البال، هو الإيمان والعمل الصالح؛ فهذه الجملة التعليلية تبين ما انطوت عليه الآيتان من التعليل وتفسّره.

وهذا غير صحيح وينافي ما ورد بعد الجملة التعليلية، من أنّ هذا ضرب للأمثال وبيان للقاعدة الأساسية للناس، حتّى يطبقوها على أنفسهم، ويعلم بذلك أنّ الحكم لا يختصّ بذلك العصر وبالكافرين والمؤمنين، فالسبب الحقيقي لإضلال أعمال الكافر وإصلاح بال المؤمن، هو أنّ الكافر يتبع الباطل والباطل ذاهب وزاهق، لا أساس له ولا جذور. وربما يكون له ظاهر أنيق ولكن باطنه فاسد؛ والمؤمن يتبع الحقّ الذي يأتيه من ربّه، والحقّ هو الأمر الثابت الذي يعتمد على ما أنزله الله تعالى من البيّنات؛ فلذلك ضلّت أعمال الكافر وصلاح بال المؤمن وسترّت سيئاته. وعلة الحكم تعمّم وتخصّص؛ فإنّ المناط ليس هو الكفر والإيمان، بل متابعة الحقّ والباطل.

بيان ذلك، أنّ الذي يتبع الحقّ يستهدف بعمله هدفاً صحيحاً واقعياً ويسلك طريقاً صحيحاً موصلاً؛ فلا شكّ أنّه يصل إلى هدفه وهو الحقّ؛ والذي يتبع الباطل يرى سراياً وخيلاً وأمرأً موهوماً. ولو فرض أنّه رأى هدفاً واقعياً صحيحاً، إلا أنّه يسلك طريقاً معوجاً منحرفاً، يبعده عن الهدف كلّما توغل فيه. وفي الواقع من لا يؤمن بالله ليس له هدف طويل الأمد، فهو لا يرى الآخرة، وإنّما يستهدف بأعماله الغايات الدنيئة الزائلة في الحياة الدنيا، وهي ليست في الواقع هدفاً يناسب الإنسان وكرامته وعقله ومواهبه وإنّما تناسب الحيوانات، فالإنسان يوم القيامة حينما تنكشف له الحقائق، يعلم أنّه إنّما كان يركض وراء خيال وسراب، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً

وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ^١.

وهناك من يؤمن بالله تعالى وباليوم الآخر فهدفه حق، ولكنه يسلك طريقاً خاطئاً، فلا يتبع الرسول ولا يأتمر بأوامره ولا ينتهي عن نواهيه أو يدعي متابعتة، ولكنه يأخذ الشريعة عن غير الطريق الذي عيّنه الرسول من بعده؛ فإن كل هذه الطوائف يتبعون الباطل، ونحن نعلم أن رسولنا الكريم ﷺ قال وقد تواتر عنه: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً، وإني لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»^٢. فمن سلك غير طريق العترة الطاهرة ﷺ فإنه يتبع الباطل وإن آمن بالله ورسوله واليوم الآخر. والحكم في الآية وإن كان معلقاً على الكفر، إلا أن الجملة التالية تعممه.

﴿كَذَلِكَ يُضَرِّبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَنْثَاهُمْ﴾، الضمير يعود إلى الناس واسم الإشارة إلى ما مرّ من بيان حال الكفار والمؤمنين، والأساس الذي ابتنى عليه حالهم؛ فالكافر يضلّ عمله، لأنه يتبع الباطل، والمؤمن يصلح باله وتستتر سيئاته، لأنه يتبع الحق من ربه، فهذا هو الأساس والقاعدة؛ وعليه فالحكم لا يختص بالمجموعتين: كفار مكة والجزيرة العربية من جهة، والذين آمنوا بالرسول ﷺ من جهة أخرى، بل يشمل كل من يتبع الحق أو يتبع الباطل، سواء كان ضمن المجموعتين أو خارجهما، وهذه الجملة لتعميم الحكم.

والأمثال جمع مثل بفتحيتين، ما ينصب علامة لأمر ما. والأصل فيه المشول والقيام، والمراد هنا أن ذكر الكافرين والمؤمنين في هذا الموضع من باب التمثيل لأمر عام يشمل جميع الناس.

١. النور (٢٤): ٣٩.

٢. بحار الأنوار ٢: ١٠٠.

فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا
بَعْدَ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآنْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن
لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ۖ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١١٦﴾
سَيَرْثِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿١١٧﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿١١٨﴾

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾. من هنا يبدأ بيان الحكم في القتال وهو
المقصود بالذات في السورة. والفاء للتفريع، فالحكم بالقتال في مواجهة الكفار
والشدّة في التعامل معهم في الحرب، متفرّع على أن الله تعالى وعد المؤمنين بأنّه
يصلح بالهم، وأنّه يُضِلُّ أعمال الكافرين ويُفَنِّد كيدهم.

واللقاء يراد به المواجهة في الحرب، وهذا تعبير عربي متعارف، يعبرون عن
يوم الحرب بيوم اللقاء، ومن الغريب ما ينسب إلى بعض المعادين للإسلام،
استناداً إلى هذه الآية أن الإسلام يأمر بقتل الكافر، بمجرد اللقاء به.

وضرب الرقاب، مصدر سدّ مسدّ الفعل، فهو مفعول مطلق بتقدير «اضربوا»،
أي اضربوا رقابهم وهو كناية عن القتل، وليس المراد خصوص هذا النوع من
القتل. وإنّما عبّر به تشبيهاً لهم وتأكيذاً على عدم الإبقاء؛ فإنّ ضرب العنق يؤوّل
إلى الموت لا محالة، ففي الآية تأكيد على عدم الإمهال وعدم المداينة معهم.

ثم إنّ الآية لا تحثّ على الحرب ابتداءً، وإنّما يأمر بالقتل والإبادة إذا
حصلت المواجهة. والمراد بالذين كفروا - كما مرّ - هم مشركو مكّة الذين
استمروا في منع الرسول ﷺ من نشر رسالته حتّى بعد الهجرة.

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾. الإثخان: الإثقال. والثقل كناية عن عدم

التمكّن من الحركة. يقال: أثختته الجراح، أي منعه من النهوض والحركة، والمراد أنّه إذا قتلتم منهم مقتلة عظيمة، بحيث لا يستطيعون بعده النهوض للصدّ عن سبيل الدعوة؛ فشدّوا الوثاق وهو كناية عن الأسر. والوثاق ما يوثق به من حبل ونحوه. والمراد بالجملة، أنّه لا يؤسر أحد قبل الإثخان والقتل العظيم الذي يوجب منعهم من الحركة.

والسبب في هذا التشدّد معهم والإصرار على إبادتهم على ما يبدو، هو أنّ الحجة قد تمّت عليهم، بحيث لا يحتمل بعد ذلك إيمانهم واقعاً بالرسالة؛ فلو آمنوا فإنّما يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ويزيدون عدد المنافقين لا المؤمنين؛ فالغرض الأصلي يجب أن يكون منعهم من التحرك ضدّ الدعوة، فلا يجوز الاستعجال في الأسر، بل لا بدّ من إفناء أكبر عدد ممكن، ولا يلجأ إلى الأسر إلا بعد الوثوق من عدم وجود خطر من بقائهم.

وهذا ليس حكماً خاصاً بغزوة بدر، كما يقال، بل ولا بالوضع القائم في الجزيرة العربية آنذاك، بل هو حكم الرسل والأنبياء جميعاً، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَشْرَى حَتَّى يُثْخَنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؛ أي لا يليق بالأنبياء أن يأسروا أحداً في الحرب قبل استئصال الفساد. والسّرّ فيه أنّ الملوك والجبابرة ومن يحذو حذوهم، كانوا يقاتلون من أجل الأسر والاستعباد وكان لهم في ذلك غرض اقتصادي، فالعبيد كانوا يشكلون قوّة رخيصة للعمل وهذا ليس شأن الأنبياء؛ فهم لا يأسرون للاستعباد ولا يحقّ لهم أن يريدوا عرض الحياة الدنيا، كما ورد في الآية؛ فلا يأسر النبي

إلا بعد أن أئخذ في الأرض، بمعنى أنه قطع دابر الكافرين وأمن شرهم، فالأسر هنا له دوافع أخرى.

والتعبير بالإئخذ في الأرض، يوحي بأنه لا يتوقف الحكم بالإئخذ في الحرب الواقعة حالياً، بل يجب أن يستمر القتل إلى أن يؤمن من شرهم في الأرض. وليس معنى ذلك إبادتهم جميعاً، بل كسر شوكتهم بحيث لا يتمكنون من الصدّ عن سبيل الله.

وتبين بذلك ضعف ما قيل من أن الآية بصدد بيان حكم عسكري للمسلمين وهو أنه لا يجوز الاشتغال بجمع الأسرى والغفلة عن القتال مع الأعداء إلا بعد إئخذهم.

﴿فِيمَا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾. ﴿مَنَّا﴾ و﴿فِدَاءً﴾ مصدران، سداً مسدّ الفعل، كما مرّ في ضرب الرقاب، أي إمّا أن تمنّوا عليهم ممّا بعد الأسر، فتطلقون سراحهم، وإمّا أن يفدوا أنفسهم فداءً، إمّا بالمال وإمّا بالمبادلة مع أسرى من المسلمين.

والملفت في هذه الجملة أنه لم يذكر من الخيارات الاسترقاق ولا القتل. ولكن العلامة الطباطبائي رحمه الله اعتبر الاسترقاق أحد وجوه المنّ عليهم؛ ولعل الوجه في ذلك أنه يستحقّ القتل بمحاربته للإسلام؛ فإذا أبقِيَ عليه ولو بالاستعباد، فهو أيضاً نوع من المنّة عليه. وهذا لا بأس به في حدّ ذاته إلا أنه بعيد عن الآية، بلحاظ مقابلة المنّ بالفداء. فلو أريد به مجرد الإبقاء لم تصحّ المقابلة، إذ الفداء أيضاً وجه للإبقاء عليه؛ فلا بدّ من حمل المنّ على إطلاق السراح بلا مقابل.

وأما ما ورد في السيرة والروايات من أن الرسول ﷺ قتل بعض الأسرى، فلا

ينافي الآية، وذلك لوجهين:

الأول: أنه كان قبل الإنخان في الأرض، فلم يتحقق موضوع الآية.
والثاني: أن الذين قتلوا كانوا محكومين بالقتل قبل الأسر، لأعمال إجرامية أخرى. ومشاركتهم في القتال الذي انجرّ إلى الأسر، لا توجب مزية لهم ليُعفوا من القتل قطعاً.

وأما الاسترقاق، فلم نجد في السيرة مورداً أمر فيه الرسول ﷺ باستعباد الرجال من أسرى الحرب، وإنما ورد في الذراري والنساء وهو خارج عن مورد الآية الكريمة ولعلّه كان لمصلحة خاصة.

﴿حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾. الوزر هو الثقل. وأثقال الحرب، إمّا معدّاته أو الجرائم التي لا ينفك عنها والمصائب والمصاعب التي يستتبعها، ومهما كان، فهو كناية عن انتهاء الحرب. والظاهر أنه غاية لكل ما سبق من الحكم، فالمعنى أنه يجب أن تضرب الرقاب حتى تنتهي الحرب. ويعمّ السلام ليتمكن الدعاة من نشر الدعوة إلى الله تعالى، وعليه فهذه الآية مساوقة لقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾^١.

﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾. ﴿ذَلِكَ﴾، إشارة إلى ما مرّ من حكم القتال مع الكفار وهو متعلّق بمحذوف، أي خذ ذلك أو الحكم ذلك أو افعلوا ذلك ونحو ذلك. وفسّر الانتصار هنا بالانتقام، ولذلك عدي بـ «من». ومهما كان، فالمراد بالانتصار هنا ليس الانتصار بغيره تعالى، بل بسطوته وقهره، فيفيد معنى الانتقام.

وحيث كانت الجملة السابقة تفيد - كما ذكرنا - أن القتال يجب أن يكون مستمراً إلى أن يضعف الكافرون ولا يتمكنوا من صدّ الدعوة إلى الله تعالى، وكان ذلك موهماً أن الله تعالى بحاجة إلى قتال المؤمنين لصدّ الكافرين، استدرك الأمر بهذه الجملة، ليبين أنه تعالى غني عن كل شيء، ولو أراد لأهلكهم بعذاب من عنده، كما أهلك من قبلهم. وإنما يأمر بالقتال لامتحان الناس.

والبلاء هو الامتحان والاختبار، وكلّ ما في هذه الحياة من خير وشرّ امتحان للإنسان، وليس معنى الاختبار أنه تعالى يريد بذلك معرفة الناس وجواهرهم وأحوالهم وإيمانهم؛ فإنه لا يعزب عن علمه شيء، وإنما يعني ذلك بروز خبايا الناس ودفائن نفوسهم وحدود إيمانهم وقابلياتهم؛ فإن الأثر المقصود من تربية الإنسان، لا يترتب على نفس القابلية الدفينة، بل على بروزه وظهوره.

والثواب والعقاب أيضاً لا يترتبان على طيب النفس وخبثه، بل على العمل السيئ والصالح.

والمراد بابتلاء بعض الناس هنا ببعض آخر، ابتلاء الكافرين بالمؤمنين وبالعكس؛ فالكافر يتبين خبث طبيئته وسوء سريرته بالتعامل السيئ مع المؤمنين ومخالفته لأمر ربّه، والمؤمن تتبين قوّة إيمانه وعزيمته بامتثاله لأوامر ربّه ومقاومته للأعداء.

ولا تقتصر نتيجة الابتلاء بالأعداء والأمراض والمشاكل الاقتصادية والاجتماعية وسائر مشاكل هذه الحياة في بروز الحقائق الدفينة ومعرفة جواهر الرجال، بل هذه المصاعب والمصائب هي التي تكون شخصية الإنسان وتنمي

النفس الإنسانية وتربيتها وتمنحها قوة المقاومة، كما أن ابتلاء الجسم بالجرائم الموجبة للأمراض، ومن ثم مقاومة الجسم لها هو العامل الضروري لنمو الجسم وتكامله على ما يقال.

وهذا الأمر لا يختصّ بالفرد أيضاً، بل هو كذلك على الصعيد الاجتماعي؛ فالمجتمع الذي ينعم بالرفاه والراحة وأكل المال بدون تعب، مجتمع متخلف ضعيف، لا يمكنه أن يستقلّ علمياً ولا اقتصادياً ولا سياسياً ولا عسكرياً. وإذا ابتلي بالحروب والفقر وحاول إنقاذ نفسه من المشاكل بنفسه، فسيكون مجتمعاً قوياً مستقلاً متكاملاً، وينتصر على أعدائه حتى لو قُلت أفراده في مقابل العدو.

﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَاهُمْ﴾. ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، ليس قيداً لقتلهم، فإنه فعل القاتل وهو لم يقتلهم في سبيل الله، وليس قيد المقتولية؛ لأنه ليس فعل الشهيد أيضاً، وإنما هو شيء أوقع عليه وقد لا يكون قاصداً إياه؛ وإنما هو قيد لخروجه إلى الجهاد ومقاتلته مما أدى إلى مقتله، وهذا لا يختصّ بالمحارب، بل يشمل كل من يعمل عملاً في سبيل الله مما يثير غضب أعدائه تعالى فيقتلونه، ولذلك قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَبِزُفَتُهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ هُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾^١. وهذا هو نفس الرزق الذي ذكر في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾^٢.

وقد مرّ الكلام في إضلال العمل، وأنه بمعنى جعله تائهاً لا يوصل إلى المطلوب، سواء في الدنيا أم في الآخرة؛ فالمراد هنا أولاً: أعمالهم الفردية التي

أتوا بها للتقرب إلى الله تعالى كالعبادات. ولعل المراد بعدم إضلالها، أن الله تعالى يكفر كل سيئة من شأنها أن تحبط الأعمال، فيبقى العمل الصالح سليماً مؤثراً في تحديد مرتبته ومقامه عند ربه.

وثانياً: نفس هذا العمل الذي قاموا به في مقابلة الأعداء، حيث جاهدوهم وقتلوهم حتى قتلوا؛ فالله تعالى يعدهم أن هذه المجاهدات لن تذهب سدى ولن تضل في الدنيا أيضاً، كما لا تضل في الآخرة؛ فستنتج النتيجة المطلوبة وهي غلبة الحق على الباطل وإقامة دين الله في الأرض ولو بعد حين.

«سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ». ربما يتوهم أن الهداية تختص بهذه الحياة، فالإنسان بعد انتقاله منها ليس في مسير وتكامل، حتى يهتدي إلى طريق الحق ويتجنب الباطل، بل تنكشف الحقائق بعد الموت، فلا تحير ولا ضلال ولا هداية، ولعله لذلك قرأ بعضهم الكلمة في الآية السابقة بالألف، أي «قاتلوا»، ولكن الصحيح أن الإنسان كغيره من الموجودات لا يستغني من هداية الله تعالى في أي عالم من العوالم، ولكن الهداية هنا ليست بمعنى إراءة الطريق، بل الإيصال إلى المطلوب. وقد مر معنى إصلاح البال إلا أن المراد في المورد السابق إصلاحه في الدنيا، وفي هذه الآية إصلاحه في الآخرة أو في عالم البرزخ، حيث دلت الآية الآنفه الذكر على أنهم أحياء بعد الموت عند ربهم يرزقون.

والعلامة الطباطبائي رحمته الله اعتبر إصلاح البال عطفاً تفسيرياً على الهداية، وقال: «إن المراد به إحيائهم حياة يصلحون بها للحضور عند ربهم بانكشاف الغطاء»^١ واستفاد ذلك من ضم هذه الآية بالآية المذكورة آنفاً. ولعل مراده أنه حيث

اعتبرهم في تلك الآية أحياء وأنهم عند ربهم، فاستنتج أن الإحضار لهذا المعنى هو المراد بالهداية وإصلاح البال في هذه الآية. ولكن لا يبعد شمول إصلاح البال لما ذكره ولغيره، ومنها الرزق المذكور في الآية ولا يعلم حقيقته إلا الله تعالى.

﴿وَيُذْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ﴾. قوله: ﴿عَرَفَهَا هُمْ﴾، جملة استثنائية. وقيل: حالية بتقدير «وقد». ولعل المراد بالتعريف توصيفها في الكتاب والسنة.

ويمكن أن يخصهم الله تعالى بتعريف آخر خاص بجنتهم الخاصة؛ وقد ورد في بعض الروايات أن المؤمن يرى موضعه من الجنة، منها: ما رواه الصدوق مرسلًا عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «ما يخرج مؤمن من الدنيا إلا برضاً منه وذلك أن الله تعالى يكشف له الغطاء حتى ينظر إلى مكانه من الجنة».^١

وقيل: المراد بالتعريف التحديد وأن لكل أحد جنة تخصه. وقيل: التعريف من العرف - بضم العين - أي الرائحة الطيبة.

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿١٢٤﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
فَتَعَسَا لَهُمُ الْآصْلُ أَعْمَلُهُمْ ﴿١٢٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَأَخْبَطُوا أَعْمَلَهُمْ
﴿١٢٦﴾ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَنِقَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ
عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ﴿١٢٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا
مَوْلَى لَهُمْ ﴿١٢٨﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾. المراد بنصرة المؤمنين
لله تعالى، نصره دينه وهو واضح. والمراد بنصرة الله تعالى للمؤمنين، هو تهئية
الوسائل في الجهات الخارجة عن اختيارهم، لיתمكنوا من الظفر على أعدائهم.
وذلك لأن الإنسان مهما كان قوياً وشديد العزم والإرادة وأعد للحرب عدته، فإن
هناك من الأسباب ما هو خارج عن اختيار البشر، وبذلك ربما تتغير المعادلة
وينهزم الجيش الأقوى.

هذا مضافاً إلى أن الثبات وقوة الإرادة والعزيمة أيضاً إلهام من الله تعالى،
ومضافاً إلى أن كل نصر من الله تعالى والهزيمة أيضاً منه وكل شيء منه. قال
تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾.^١

وهذه الآية وعد صريح بأنه تعالى ينصر المؤمنين إذا قاتلوا في سبيله، فإذا
وجدنا من ينصر الله ظاهراً ولم ينصره الله تعالى، فلعل السبب فيه أنه لم ينصر الله
حقاً، فهذا يتبع قصده؛ وكثير من المقاتلين في صف المؤمنين يقصدون الوصول
إلى أهداف مادية شخصية أو اجتماعية، وكثير من الحروب التي تقام باسم

الدين لا يراد بها إلا المزيد من الفتوحات وتوسعة رقعة الحكم والسلطة. والتأريخ يسجلها بأحرف بارزة ويعتبرها فتوحات إسلامية ولم يكن الهدف منها إقامة دين الله تعالى، حيث إن زعماء الحرب وأصحاب الراية لم يكونوا بأنفسهم ملتزمين بأحكام الله تعالى، ناهيك عن الحروب التي تقام باسم الوطن أو القومية العربية ونحوهما.

وثبات الأقدام في الحرب كناية عن الصبر والمقاومة حتى النهاية؛ فالحرب لا بدّ فيها من التضحية، ومن توقع أن يقلّ القتلى في جانبه حتى يكون هو المنتصر، فقد أخطأ؛ وإنما المنتصر هو الجيش الصابر حتى النهاية مهما اشتدّ الموقف عليه وكثر فيه القتلى.

وذكر تثبيت الأقدام بعد النصر، لعلّه من ذكر الخاصّ بعد العام؛ فإنّ التثبيت من عوامل الانتصار. ومن هنا يعلم أنّ الهزيمة في بعض الحروب — كما حدث في أحد — لا ينافي النصر الإلهي في النهاية. وأمّا ما حدث لبعض الأنبياء والأئمة عليهم السلام من القتل، فهو كالقتل الذي أصاب بعض المجاهدين في غزوات الرسول ﷺ ولا ينافي أنّ النصر النهائي كان لهم ولكلمتهم وهدفهم.

ويمكن أن يشمل تثبيت الأقدام ما بعد الانتصار، فيكون المراد التثبيت على العقيدة والإيمان وعدم البطر والإفراط في الفرح بالنصر وبالغنائم والأموال التي يحصل عليها الجيش المنتصر. وهكذا كانت تدور الدوائر على الحضارات المستحدثة، سواء الدينية وغيرها. والمسلمون أيضاً لم يشدّوا من هذه القاعدة، فالانتصارات والفتوحات والأموال الطائلة التي حصلوا عليها بالاستيلاء على البلدان، كانت هي منشأ الداء العضال الذي انتشر في المجتمع الإسلامي وهو

الرفاهية والانحياز إلى الراحة، والبطر، حتى جُرَّ البساط من تحت أرجلهم وهم لا يشعرون.

فلعل الآية الكريمة تشير إلى أن تثبيت الأقدام على النصر الواقع، يرتبط أيضاً ببقاء المجتمع على تعهده بالاستمرار في نصر الله تعالى ونصر دينه وشريعته وأحكامه.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَصْلٌ أَعْمَاهُمْ﴾. قال في «العين»: «التعس ألا ينتعش من صرعته وعثرته وأن يُنكَّس في السفال»،^١ أي ينحدر مقلوباً. وهذا إما دعاء عليهم، كقوله تعالى: ﴿فَاتَّلهُمْ اللهُ﴾،^٢ أو بتقدير قضى الله لهم تعساً ونكساً. والدعاء من الله تعالى هو القضاء أيضاً، لأنه تعالى لا يطلب ذلك من غيره وإنما يقضي عليهم التعاسة تكويناً.

ومهما كان، فهذا أيضاً جزء من نصره تعالى للمؤمنين، حيث إنه يتعس الكافرين في مواجهتهم ويقضي لهم صرعة وعثرة على وجوههم لا يقومون منها. ويذكر تعاسة الكافرين في مقابل تثبيت أقدام المؤمنين في الآية السابقة.

وقد مرَّ الكلام في إضلال الأعمال، ولعل المراد بأعمالهم في مقام نصر المؤمنين، هو ما يكيدونه ضدهم في الحرب. والإضلال هو الإبطال وهو يتحقق في هذا المقام بعدم السماح لأعمالهم الكيدية بالتأثير والإيصال إلى المطلوب، فتفند بذلك حيلهم وينتصر المؤمنون.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ﴾. هذا التعليل هو القاصم للظهر؛ فالمؤمنون أيضاً

١. كتاب العين ١: ٣٢٥.

٢. التوبة (٩): ٣٠؛ المنافقون (٦٣): ٤.

يجب أن ينتبهوا بأن الله تعالى لا يعادي قوماً من البشر إلا لمواقفهم وأعمالهم، فالسبب في القضاء عليهم بالتعاسة والنكس هو أنهم كرهوا ما أنزل الله تعالى من الرسالات. وهذا الامتحان والابتلاء هو أساس الحكمة في التشريع، فإن الله تعالى لا يحتاج إلى عبادة منا ولا إلى شروط فيها، ولكنه يتلي بذلك عباده؛ وليس كل حكم شرعي مناسباً لأذواقنا وأهوائنا بالطبع، فإن كرهنا حكماً من أحكام الله تعالى وشرائعه فإن مصيرنا هو نفس المصير التعس الذي قضاه الله للكافرين ولا نفعنا ما ندعيه من الإيمان.

والجدير بالذكر أنه تعالى لم يعلق الحكم على مرحلة العمل، بل على مرحلة الحب والكراهة؛ فمجرد كراهة حكم الله تعالى توجب هذا الانحطاط والتعاسة، حتى لو عملت به على مضض.

﴿فَاخْبَطْ أَعْمَالَهُمْ﴾. الحبط في الأصل داء يصيب الدابة ويوجب انتفاخها بالأكل فتموت. ولعل التعبير بحبط الأعمال الوارد في القرآن الكريم، لتشبيه العمل الباطل الذي لا يفيد صاحبه شيئاً بالانتفاخ في الدابة الموهوم للسمن، وهو في الواقع لا يفيد، بل يضر. ومنه عمل المرائي مثلاً، فقد يكون حجم العمل كبيراً وظاهره جميلاً ولكنه في الواقع يوجب الهلاك في المعايير الإلهية.

والكافر أيضاً ربما تكون له أعمال حسنة، وإذا كان معتقداً بالله تعالى، فلعله يعمل بعض الأعمال لوجهه تعالى، وكان المشركون يستغفرون الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾^١ والآية لم ترد في المؤمنين، كما ربما يتوهم، بل موردها كفار مكة، كما هو واضح من السياق.

وهذه الأعمال لا تنفعهم في الدنيا ولا في الآخرة لشركهم ولكراحتهم ما أنزل الله تعالى من الرسالات، سواء في العقيدة أو الأحكام، ولا ينافي ذلك ما ورد في الآية المذكورة من عدم العذاب لاستغفارهم؛ فإنّ عذاب الاستئصال له حكم خاصّ، فلا ينزل على القوم والرسول بينهم حتّى لو كانوا يؤذونه، ولا ينزل عليهم ما داموا يستغفرون الله تعالى.

وبذلك يتبيّن أنّ المراد بالأعمال المُحِبَّة في هذه الآية غير الأعمال المذكورة في الآية السابقة التي أضلّها الله تعالى؛ فإنّ المراد بها في الآية السابقة، كلّ ما يعملونه للوصول إلى هدف دنيوي، والإضلال يمنعها من الوصول. والمراد في آية الحبّ أنّ أعمالهم التي يمكن أن تكون مفيدة لهم في الحياة الدنيا على الأقلّ تُحبّط بمجرد كراحتهم لما أنزل الله تعالى ممّا لا يناسب أهواءهم، فيحبّط الله كلّ ما عملوه من خير واستغفار وتوجه إلى الله تعالى، فلا يبقى لهم ما يشفع لهم، فيقضي الله عليهم بالتعاسة والهلاك في مواجهة المؤمنين.

وإذا لاحظنا قوله تعالى في ما سبق من السورة: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾، بدا واضحاً أنّ الحكم لا يخصّ الكفّار؛ فعلى المؤمنين أن يلاحظوا أنفسهم ويراقبوا ويحاكموها ويتساءلوا فيما بينهم: هل هم أيضاً يكرهون ما أنزل الله تعالى ويضيقون به ذرعاً إن لم يناسبهم؟ فإن كانوا كذلك، فلا يحقّ لهم أن ينتظروا نصراً من الله تعالى، بل نكساً وتعاسة.

وليعلم أنّ هناك ممّن آمن بالرسول ﷺ ظاهراً من أعلن عدم موافقته مع بعض الأحكام الشرعية أمام الرسول ﷺ، كمتعة الحجّ، حيث قال الرجل: يا

رسول الله نخرج حجاجاً ورؤوسنا تقطر؟! فقال له الرسول ﷺ: «إِنَّكَ لَنْ تَؤْمِنَ بهذا أبداً».^١

ومنهم من استنكف من نصب علي عليه السلام ولياً وإماماً بعد الرسول ﷺ، حَتَّى نَزَلَتْ فِيهِ الْآيَةُ: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾،^٢ حسب بعض الروايات،^٣ وإن استبعدنا ذلك بمقتضى سياق الآيات ولأنَّ السورة مَكِّيَّة.

ومنهم من رفضه ولم يستسلم له بعد وفاته ﷺ بحجَّة أنَّ العرب لا تسلَّم أمرها إلى شابٍّ أو أنَّهم يكرهون أن يجمعوا الرسالة والملك في أسرة واحدة، وأمثال ذلك من المعاذير. وكلُّ هذا يدخل تحت عنوان كراهة ما أنزل الله تعالى. ولذلك ورد في بعض الروايات عن الإمام الباقر عليه السلام أنَّ المراد بقوله تعالى: ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ ما أنزله في علي عليه السلام.^٤ وهذا من باب الجري والتطبيق، وليس من شأن النزول.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ؛ اسْتَفْهَامَ تَقْرِيرِي، أَي أَنَّهُمْ قَدْ سَارُوا فِي الْأَرْضِ. وَالَّذِينَ سَارُوا فِي الْأَرْضِ بَعْضُ الْقَوْمِ طَبْعاً إِلَّا أَنَّهُ يَكْفِي لاطِّلَاعِ الْجَمِيعِ عَلَى الْآثَارِ الْبَاقِيَةِ مِنَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ، وَهَمْ كَانُوا يَخْرُجُونَ فِي تِجَارَتِهِمْ إِلَى الشَّامِ وَيَمْرُونَ عَلَى مَدَنٍ أَصَابَهَا الْعَذَابُ الْإِلَهِي، كَمَدِينَةِ سُدُومَ وَهِيَ مَسْكَنُ قَوْمِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالْأَيْكَةُ وَهِيَ مَسْكَنُ قَوْمِ شَعِيبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوْ بَعْضِهِمْ. وَقَدْ قَالَ تَعَالَى بَعْدَ ذِكْرِ مَا جَرَى عَلَيْهِمَا: ﴿وَلِيَّامَا لَيْلِئَامٍ مُّبِينٍ﴾.^٥ والإمام

١. الكافي ٤: ٦/٢٤٩، والحديث صحيح.

٢. المعارف (٧٠): ١.

٣. راجع: الميزان في تفسير القرآن ٦: ٥٥.

٤. راجع: تفسير القرآن الكريم: ٣٠٥؛ تأويل الآيات الظاهرة ٢: ٦/٥٨٣.

٥. الحجر (١٥): ٧٩.

الطريق؛ فالمدنيتان الخربتان كانتا على طريق المارة بين الشام والحجاز، وهم يشاهدون الآثار، فكان عليهم الاعتبار. وهو في نفس الوقت حثٌ للسير في الأرض وملاحظة عاقبة الكافرين قبلهم - كما ورد في موارد عديدة - لتنبيههم على نماذج من عقاب الاستئصال.

والعاقبة من كل شيء آخره مأخوذ من العقب، أي مؤخرة القدم. وفي التعبير بها تنبيه للبشر أن لا يغترون بما أنعم عليهم الله تعالى في وضعهم الحالي من رغد العيش وسعة الرزق؛ فقد لا تكون عاقبة أمرهم خيراً، كما كانت كذلك في الأمم السالفة.

وقوله تعالى: ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، جملة استينافية، تبين عاقبة السابقين. والدمار: الهلاك، دَمَرَ القومُ أي هلكوا. ودَمَرَ أي أهلك، والمفعول محذوف، أي دَمَرَ عليهم مساكنهم، فلم يكن مجرد هلاك بمرض أو حرب، بل دَمَرَت بيوتهم واستؤصلوا استئصلاً، ولم يبق منهم ومن أولادهم وحضارتهم شيء إلا بعض الآثار للعبرة.

﴿وَالْكَافِرِينَ أَتْمَلَّأُ﴾؛ الضمير يعود إلى العقوبة أو العاقبة. والمراد بالكافرين كفّار مكة والجزيرة العربية، أي ثبت للكفار أمثال تلك العقوبة التي نزلت بالسابقين أو أمثال تلك العاقبة؛ فيكون تطبيقاً لما نبّه عليه من الاعتبار بآثار السابقين وتحذيراً للقوم بأنهم يستحقّون أن ينزل عليهم أمثال تلك العقوبات. ولعلّ جمع المثل باعتبار أنّهم يستحقّون وجوهاً من عذاب الاستئصال وإن كان المتحقّق وجه واحد لا محالة.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾. لعلّ اسم الإشارة يعود

إلى الفرق بين المؤمنين والكافرين في العاقبة، حيث يتبين بما تقدّم أنّ الله تعالى ينزل عذاب الاستئصال على الكافرين دون المؤمنين، حتّى في الأقوام السابقة، وقد ورد في موارد أخرى أنّ الله تعالى ينجي الرسل والذين آمنوا معه، ثمّ ينزل العذاب؛ والسبب في ذلك أنّه تعالى مولى المؤمنين، وأمّا الكافرون فلا مولى لهم ينصرهم وينجيهم من عذاب الله؛ إذ لا يمكن لأيّ مخلوق أن ينصر أحداً إذا أراد الله به سوءاً.

والمراد بالمولى الذي يتولّى أمورهم ويسدّد خطاهم ويهديهم ويصلح بالهم، فلا ينافي قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾^١ فإنّ المراد بالمولى هناك، الربّ والمتصرّف في شؤونهم.

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴿٢٥﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ
قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿٢٦﴾ أَفَمَنْ
كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿٢٧﴾ مَثَلُ الْجَنَّةِ
الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ
مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ
رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَلِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿٢٨﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾. في هذا المقطع، يبين الله تعالى الفارق الكبير في النتيجة بين الفريقين ليتبين أن الفرق ليس في ما ينزل في هذه الدنيا من عذاب الاستئصال، بل الفارق الأكبر في العاقبة يوم القيامة، والله يريد الآخرة وإن كان الإنسان لضيق نظره ينظر إلى العاجل ويهتم به أكثر، حتى أن كثيراً من المؤمنين يستغربون من حسن حال الكفار في الدنيا وتمتعهم، ويحسبون أن ذلك إكرام من الله تعالى، فهذه الآية تدفع هذا الاستغراب وتبين أن العاقبة للمؤمنين. ولكنه هنا يفرق بين الناس، لا على أساس الفريقين المؤمنين والكافرين – كما مر في الآية السابقة وما قبلها – بل على أساس الإيمان الواقعي الذي يستتبع العمل الصالح؛ فيتبين منه أن هناك فرقاً من المؤمنين في الظاهر يدخلون في فريق الكفار يوم القيامة وإن شملتهم الرحمة الخاصة بالمؤمنين في الدنيا.

ومن الملفت أن التعبير هنا لم يركز على دخول الجنة، كما في كثير من

الآيات، بل عبّر عن ذلك بأنّ الله تعالى هو الذي يدخلهم، ولذلك قدّم اسم الجلالة لإظهار أنّ الاهتمام من هذه الجهة، وهذا التعبير يوحي بأنّ هذا إكرام لهم من عنده تعالى، وهذه هي النعمة الكبرى التي يسعد بها الإنسان، غاية السعادة إذا شعر به، سواء كان في الدنيا أم في الآخرة.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى هُمْ﴾. وفي المقابل ليس للكافرين إلا الأكل والتمتّع في الدنيا، كأكل الحيوان وتمتّعه. وفيه إشارة إلى أنّ أكل المؤمن وتمتّعه ليس كأكل الكافر؛ فهو يتحرّى في أكله أن لا يكون حراماً، بل ربما يكون هادفاً، فلا يأكل إلا بمقدار الحاجة ويتصدّق بالفضل، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾^١.

والكافر حيث لا يعتقد بالله ولا بالحياة الآخرة، فلا يهتم إلا بطنه وتمتّعاته وشهواته. ولا فرق بينه وبين الأنعام والبهائم.

وتشبيه أكلهم بأكل الأنعام ليس من حيث الكثرة، فليسوا كلّهم كذلك، بل من حيث إنّهُ هو الهدف، حتّى لو لم يعترفوا به، بل أظهروا خلافه، فإنّ أعمالهم وطريقتهم في الحياة تظهر بوضوح أنّ الأكل - والمراد مطلق التمتع بالدنيا وحبّ المال والجاه - هو الغاية لكلّ نشاط لهم، ومن هنا يتبيّن أنّ كثيراً من المؤمنين في الظاهر يدخلون تحت هذا العنوان.

ثمّ وبعد ذلك عاقبتهم النار؛ فهم شرّ مكاناً من الأنعام، كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾^٢. والمثوى مكان الإقامة.

١. البقرة (٢): ٢١٩.

٢. الأعراف (٧): ١٧٩.

﴿وَكَايْنٍ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ مِنْهَا مُبْتَدَأً خَبْرَهُ﴾ (أَهْلَكْنَاهُمْ)، والغرض تسلية الرسول ﷺ والمؤمنين، وتهديد كفار مكة وإنذارهم بعذاب ينزل عليهم من السماء أو بأيدي المؤمنين؛ وذلك بالاستشهاد بالمجتمعات الكافرة طيلة التاريخ، حيث أفسدوا في الأرض وقتلوا النبيين أو أخرجوهم وقتلوا المؤمنين؛ فأنزل الله عليهم عذاب الاستئصال وأفناهم عن آخرهم ولم يكن لهم من ينصرهم من بأس الله وهم كانوا أشد قوة من أهل مكة، كما يشهد به بقايا حضاراتهم، مما كان أهل مكة يشاهدونها في أسفارهم إلى الشام وغيرها.

قيل: والمراد بالقرية أهلها بقرينة قوله: ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾، ولكن الظاهر أنه يصح إطلاقها على الناس وعلى الموضع، بل لعل إطلاقها على الناس أولى، لأنها في الأصل - كما في «معجم مقاييس اللغة»^١ - مأخوذة من قرى، بمعنى جمع، والاجتماع صفة للناس في الحقيقة، وإنما يطلق على الموضع؛ لأنه مكان اجتماعهم.

وأما الإتيان بالضمير المفرد المؤنث، أي قوله: ﴿هِيَ﴾ وقوله: ﴿أَخْرَجْنَاكَ﴾ بلحاظ لفظ القرية. وتوصيفهم بأنهم أخرجوا الرسول ﷺ باعتبار أنهم ضيقوا عليه وعلى المؤمنين حتى اضطروا إلى الخروج.

وفي إضافة القرية إلى الرسول ﷺ وتوصيفها بأنها أخرجته، مع أنها قريته أي وطنه، تعريض للمشركين بأنهم لم يراعوا حق المواطنة والقرابة، وهو في نفس الوقت إشارة إلى الظلم الذي وقع عليه ﷺ. ويبدو منه أنه كان يشعر بالضمير

والضيق لهذا السبب، وإن كان في مدينته المنورة في غاية العزة والمنعة والكرامة.

والتذليل بقوله: ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ تفريع على إهلاكه تعالى لهم؛ فإنّ المشركين كانوا يعولون على أنّ العرب من حولهم يمنعونهم من كلّ اعتداء وينصرونهم في الحروب إكراماً للبيت العتيق وسدنته. والآية الكريمة تنبّههم بأنّ الإهلاك إن كان من الله تعالى فلا ناصر لهم، والإتيان بلا النافية للجنس يؤكّد أنّه لا يوجد ناصر لهم بتاتاً.

﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتِيٍّ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾. عود إلى بيان الفرق بين الفريقين؛ ففريق يعتمد الأدلة الواضحة البينة المبيّنة النازلة من ربهم التي تثير لهم الدرب؛ فهو يسير بخطى واثقة مطمئنة، يعرف طريقه ويعرف مصيره لا يشوبه أدنى شك ولا ريب، وفريق يعمل السيئات ويتبع هواه، وهو يحسب نفسه مثقفاً عالماً، وأنّه اختار الطريق الأصح في الحياة، فلا يجد الطريق الصحيح ولا يهتدي بهدى الله تعالى ولا يظنّ بنفسه الضلال، لبحث عن الحق، لأنّه يرى عمله السيئ حسناً وليس معذوراً في جهله هذا، لأنّه أصيب به بسوء اختياره.

والاستفهام للإنكار، أي ليس الفريقان متماثلين. والفاء للاستئناف، وأتى بالضمير المفرد في قوله: ﴿زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ بلحاظ لفظ الموصول، فإنّه مفرد، وأتى بالجمع في قوله: ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ باعتبار المصاديق. وهذا الاختلاف حسب الاعتبارين إنّما يأتي لغرض ما، ولعلّه هنا رعاية التناسب في آخر الآيات؛ فإنّ روعة التعبير مقصودة في القرآن.

والبيّنة: الحجّة الواضحة والموضّحة. والاستعلاء مجازي، كأنه على طريق واضح يسير فيه، فهو لا يشك في صحّة طريقه، وذلك لأنّه من ربّه، وليس كلّ وثوق بالطريق حجّة، فلا يغرّن الإنسان مجرد كونه واثقاً مطمئناً؛ فإنّه ربما يثق بمن لا معرفة له بسبل الخير، كما نجد كثيراً ممّن يتخبّطون في شؤون الحياة، وهم واثقون من صحّة طريقهم إلى أقصى الحدود، بحيث تهوّن عليهم أنفسهم في سبيل غايتهم، مع أنّها ممّا لا يقبله العقل السليم، كمن يتحرّ وهو مسلم من أجل إبادة المسلمين حتّى الأطفال والنساء والمرضى والشيخوخ، فمثل هذا الوضوح لا يفيد الإنسان وليس حجّة له؛ لأنّه ليس من ربّه.

وتزيين الأعمال ورد هنا مبنياً للمجهول، وفاعله الشيطان، كما قال تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾.^١ وسيأتي في هذه السورة أيضاً: ﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ﴾^٢ وينسب إلى الإنسان نفسه أيضاً، كقوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾.^٣ وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي﴾^٤ والتسويل: التزيين.

وبالطبع فإنّه كسائر الحوادث ينسب إلى الله تعالى خالق الكون، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾.^٥ قيل: إنّ قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ لبيان النتيجة وأنّ التزيين سبب لمتابعة

١. النمل (٢٧): ٢٤؛ العنكبوت (٢٩): ٣٨.

٢. محمّد (٤٧): ٢٥.

٣. يوسف (١٢): ١٨ و ٨٣.

٤. طه (٢٠): ٩٦.

٥. النمل (٢٧): ٤.

الهوى، ولكن الظاهر أن العكس هو الصحيح ومتابعة الهوى سبب لتزوين العمل السيئ، فإنه في حد ذاته أمر غريب وغير طبيعي، حيث إن الله تعالى زوّد الإنسان بجهاز الإدراك ليدرك الأمور على واقعها، فكيف ينقلب الأمر ويترأى له العمل السيئ جميلاً مزيناً؟!

السبب أن جهاز الإدراك يتأثر بالعادات السيئة، فإن اعتاد الإنسان متابعة هواه فإنه تدريجاً يفقد إدراكه للحسن والقبح، وذلك لأنه في أول مرة يدرك قبح الفعل، ولكنه لشدة تعلقه بهواه لا يكبح جماح نفسه فيفعله مدرّكاً قبحه، وبالطبع فإنه مقدّمة لإتيانه، لا بدّ له من أن يبرّر عمله بعذر يضفي على العمل نوعاً من الحسن ولو من جهة الضرورة أو الحرج أو عدم القدرة على المقاومة ونحو ذلك من الأعذار الواهية، وإذا تكرّر الأمر يضعف عنده إدراك القبح، وهكذا بالتدريج تبدّل لديه المقاييس، حتّى يتصوّر الشيء القبيح حسناً، بل يرى الشيء الحسن قبيحاً. وللأعلام المنحرف عن الحق أيضاً دور كبير في ذلك.

وهذا الأمر مشهود ومحسوس لدينا جميعاً في جميع شؤون الحياة، فكم من أمر كنّا نعتبره قبيحاً لا نطبق رؤيته وأصبحنا اليوم نمرّ عليه مرّ الكرام لا يثير فينا أقلّ درجة من الاستياء ولا نهى عنه، بل ربما نتحدّث إلى صاحبه بكلّ حفاوة وارتياح، ولم يحصل هذا التحوّل فجأة، وإنّما حصل بالتدريج بسبب التعود على هذا الوضع المزري، وهذا أمر خطير جدّاً ينبغي التنبّه له، ولا يمكن حلّه إلا بالابتعاد عن المجتمعات الفاسدة أو عدم الانخراط معهم لو اضطررنا للبقاء فيهم.

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾.

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ مبتدأ خبره ﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ﴾، وفي الجملة تقدير الاستفهام الإنكاري، أي: أمثل الجنة كمن هو خالد في النار؟ ولا بد من تقدير آخر ليتكافأ طرفا المقارنة، فإما أن يقدّر: أمثل ساكن الجنة كمن هو خالد... أو يقدّر: أمثل الجنة كجزء من هو خالد...؛ وعلى كل تقدير فجملة: ﴿فِيهَا أَثَرٌ﴾ جملة وصفية. وفي حذف همزة الاستفهام دلالة أخرى مضافاً إلى إنكار المماثلة، فهناك فرق بين أن تقول لأحد في مقام الإنكار: «هل يستوي لديك العالم والجاهل؟» وأن تقول مستكراً ومتعجباً: «يستوي لديك العالم والجاهل؟» بتقدير الهمزة؛ فإنك في الجملة الثانية توهم أنك تثبت عليه ما تستكره. وكذلك الآية الكريمة فإن حذف الهمزة يوهم أنّ المخاطبين وهم الغالب من البشر يساوون بين المصيرين الخلود في الجنة والخلود في النار؛ لأنّ هذا هو الذي يتبين من عملهم وسيرتهم وإن لم يعترفوا به لساناً.

والمشهور في تفسير الآية - كنظائرها في القرآن - أنّه توصيف حقيقي لما في الجنة من ملذّات ومناظر حتّى أنّ بعضهم فسّر كلمة مثل بالصفة، فالمعنى أنّ صفة الجنة أنّ فيها أنهاراً من ماء غير آسن و...

والآسن: الماء الذي تغيّرت رائحته فلا يشربه أحد من تنته، وأمّا إذا لم يبلغ هذا الحدّ يقال له آجن.

قالوا: وإنّما ذكر هذه الأمور الأربعة لأنّها التي يحتاج إليها الإنسان في حياته الدنيا؛ فأول شيء يبحث عنه هو الماء العذب النقي، ثمّ الغذاء المناسب، ثمّ ما يتذوّقه للتلذّد ورفع الهموم، ثمّ ما يتداوى ويتقوّى به؛ فالتعبير يوحى بأنّ كلّ ذلك مهياً له في الجنة بوفور وبكيفية خيالية لا يمكن مثلاً في الدنيا إلا في

التصورات والأحلام والأمانى، فهناك أنهار من ماء لا تتغير رائحته ولا طعمه وليس كالماء في الدنيا حيث تتغير رائحته وطعمه بأدنى مماسة للمواد الخارجية، ويصبح آسناً يضر ولا يفيد.

واللبن غذاء صحي طبيعي، ولكن الإنسان يحتاج لتحصيله إلى حلب البقرة ونحوها، ثم يحتاج إلى حفظه من التغير، ومع ذلك فهو قليل يحتفظ به في علب؛ وأما هناك فاللبن يأتيه من دون حلب وفي أنهار ولا يتغير طعمه أبداً؛ ولعل تعدد النهر باعتبار الأفراد، فلكل في جنته نهر من لبن أو باعتبار تعدد الأنواع، وكذلك في العسل والخمر، بل وحتى الماء.

والخمر يشربه الإنسان أو يحب أن يشربه ليتلذذ وينسى هموم الدنيا وهو هناك ليست له هموم ولكنه يحب التلذذ، ولعله كان معتاداً بالخمر فتركه لنهيهِ تعالى. والعرب قبل الإسلام كانوا مهتمين بها جداً، بل بعده أيضاً.

وقد حكى أن الأعشى جاء مادحاً الرسول ﷺ قاصداً الإسلام فانتبه شياطين قريش أنه سيمثل دعاية قوية لخصمهم فاعترضوا طريقه وقالوا له: أين أردت يا أبا بصير؟ قال: أردت صاحبكم هذا لأسلم، قالوا: إنه ينهاك عن خلل ويحرمها عليك وعدوا له أموراً فاستهان بها، فقالوا: الخمر. قال: أوه! أرجع إلى صباغة قد بقيت لي في المهراس فأشربها. وانطلق إلى بلده، فلما كان بقاع منفوحة رمى به بعيره فمات.^١

هكذا كانت الخمر عندهم، ولذلك تدرج الدين في النهي عنه، كما هو معروف. واللذة في قوله تعالى: ﴿لَذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ﴾ إمّا صفة مشبهة مؤنث اللذة

كالصعب، أو مصدر وصفت به الخمر من باب المبالغة.

والعسل الذي هو شفاء وغذاء أيضاً يأتيه في أنهار، فلا حاجة له إلى تعقّب النحل ليتناول منه العسل بعد انتظار طويل، حيث تذهب إسراب النحل إلى الأزهار لتناول الشهد منها، ثم تعود ليخرج من كلّ واحدة قطرة من عسل ويصبر الإنسان ليجتمع منه ما يملأ به إناءً أو أكثر، بل يأتيه هناك بكلّ أنواعه في أنهار ولا يحتاج أيضاً إلى تصفية، بل هو مصفّى من الشوائب ومن الشمع.

هذا هو التفسير المشهور، ولكنّ هنا احتمالاً آخر في معنى المثل، وهو أنّ هذه الأوصاف تمثّل وتقرّب إلى الأذهان ما يوجد في تلك الحياة من اللذائذ المادية والمعنوية، وقد لا يكون المراد نفس هذه المواد بذاتها، بل المراد توصيف الجنة وما فيها بذكر ما يماثل أوصافها تقريباً ولو في بعض الجهات من الصفات المعروفة للإنسان والحاضرة لديه في هذه الحياة لتقريب مفهوم جنة الخلد التي وعد المتّقون إلى الأذهان؛ فإنّه مفهوم غير مأنوس للبشر، وعنوان الجنة لا يكفي لتصورها حتّى إجمالاً، فهي ليست كسائر الجنان التي نشاهدها، ولذلك قيدها بالتّي وعد المتّقون.

والسرّ في التقريب أنّ الجنة أعلى وأرفع مكاناً من أن يحيط بها اللفظ، فالألفاظ موضوعة لهذه الموادّ الدنيوية ولا يمكنها أن تعبّر عن تلك الشؤون ولا طريق إلى بيانها وتوصيفها إلا التقريب، ولذلك قال تعالى عنها: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^١.

ولعلّ ذكر الخمر في الجنة من هذا الباب أيضاً، فالتعبير يلاحظ فيه ما يهتمّ به

المخاطبون، وإلا فليس ما يعبر عنه بالخمير في الجنة كالخمير هنا كما هو واضح، فهي خمر لا تضر كما قال تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزِفُونَ﴾^١ والغول: الهلاك التدريجي بحيث لا يشعر به الإنسان، ومنه القتل غيلة. وقال تعالى: ﴿لَا يُصْذَعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ﴾^٢ بل هي لا توجب سكرًا أيضًا. كما أن سائر ما ذكر ليس كما هو موجود في الدنيا، وكيف يمكن أن يجري اللبن في النهر ولا يتغير؟!

والحاصل أنه بناءً على هذا الاحتمال لا يراد بهذه التعابير إلا الإفصاح عن حقيقة غريبة عن أذهان المخاطبين وتصوراتهم، ولا شك أن الإنسان تتغير نفسياته وتوقعاته وملذاته باختلاف مراحل العمر وباختلاف مراحل التكامل المعنوي، فالإنسان في طفولته يتلذذ بأمور تناسب روحه وجسمه وهو لا يهواها ولا يتلذذ بها في الكبر، بل كلما تقادم به العمر تغيرت أهواؤه وملذاته. وهكذا التحول في الكمال المعنوي، فإذا تدرج الإنسان في مدارج العلم، سواء كان مادياً أو معنوياً، فإنه يتلذذ بالوصول إلى أي معلومة يكتشفها أكثر من أي لذة مادية، وإذا وصل الإنسان إلى معرفة الله تعالى، وتدرج في مدارجه، فإنه يشعر بلذة ما مثلها لذة ولا يمكن توصيفها ولا تقريبها إلى الذهن، وخصوصاً إذا شعر الإنسان بلطف من الله تعالى يغمره، بل حتى لو أحس الإنسان بضربة موجعة منه تعالى لتأديبه ومنعه مما لا يناسب شأنه، فإن في ذلك لطفًا وعناية خاصة وإشعاراً بالاهتمام به، والله تعالى لا يؤدب من لا حاجة له فيه، كما ورد في الحديث.

١. الصافات (٣٧): ٤٧.

٢. الواقعة (٥٦): ١٩.

روى الكليني رحمه الله بسنده عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «قال رسول الله ﷺ: لا حاجة لله فيمن ليس له في ماله وبدنه نصيب»؛ أي من لا تصيبه مصيبة في ماله ولا بدنه، وإنما اعتبر ذلك نصيباً لله تعالى، لأنه يتبلى الإنسان بما يصيبه في بدنه وماله فتكون زكاة له.

ويوم القيامة ينكشف الغطاء للإنسان ويدرك حقائق ما كان يمكنه إدراكها في هذه الحياة حتى يتلذذ بها، فهو يحظى هناك بلقاء الله تعالى، وأي سعادة أعظم منه؟! ولقاؤه تعالى يحصل للإنسان في مراحل ودرجات، فأول مرحلة منه يحصل لكل إنسان، وذلك حين الموت، فإن الموت أول مراحل تخلص الإنسان من سجن الطبيعة ومن سجن الجسم ومن قيود المادة والزمان والمكان، ومن الغريب أن الإنسان يكره الموت أشد كراهة حتى مع إيمانه بالحياة الأبدية بعده، مع أنه بالموت يخرج إلى عالم فسيح وهو فيه حرّ طليق، وأعظم ما فيه أنه يحظى بلقاء ربه، قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^١، ومثل الإنسان في هذه الدنيا كطفل يولد في السجن ولم يشعر بما في خارجه من المناظر البهيجة، فإذا أخبر أنه سيخرج من بين من أنس بهم طيلة حياته فإنه ينزعج، ومهما يحدث عن زينة الدنيا فإنه لا تنقطع علاقته بما حوله.

وفي مرحلة أخرى، إذا فاز الإنسان بدخول الجنة فإنه يحظى برضوان من الله تعالى، وهو أعظم ما في الجنة من ثواب، بل ليس في الجنة ما يقاس به، والمؤمنون في ذلك درجات وبذلك تتحدد درجات الجنة ومراتبها ويبعد جداً

١. الكافي ٢: ٢١٤/٢١، باب شدة ابتلاء المؤمن.

٢. العنكبوت (٢٩): ٥.

أن يكون هناك اختلاف في اللذائذ المادية، فالله تعالى أكرم من أن يمنع أوليائه من هذه اللذائذ، وقد قال تعالى: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾^١ فلا يبعد أن يكون اختلاف الدرجات في اختلاف القرب والحظوة لديه تعالى، ونحن لا نشعر ولا ندرك هنا وفي هذا السجن الرهيب مدى أهمية هذه الدرجات، ولذلك نزهد فيها ونقنع بأن ندخل الجنة إن كنّا أهلاً لها وإن كان ذلك في أدنى مراتبها. ولا يبعد أن يكون في الاختلاف المشار إليه في الفاكهة والعيون ونحو ذلك أيضاً إشارة إلى هذا الاختلاف، كما ورد في سورة الرحمن والواقعة والإنسان والمطففين وغيرها بيان لطيف جداً لا يشبع الإنسان من تكراره.

قال تعالى في سورة المطففين: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ * تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ * خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ * وَمِرَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾^٢؛ والرحيق هو الخمر، وقيل: هو أحسنه، والظاهر أن كونه مختوماً إشارة إلى نفاسته والاهتمام به، كما هو الشأن في خمور الدنيا وغيرها، ولكن الختام هناك ليس من الطين أو غيره من المواد التافهة، بل من المسك؛ ويمكن أن يكون بمعنى أن ما يختتم به الشرب رائحة لطيفة كالمسك، بخلاف خمور الدنيا. ولكن المهم في ذلك أنه مع نفاسته ومع أن الله تعالى يدعو إلى التنافس في تحصيله إلا أنه يمزج بما هو أعلى منه وأنفس، وهو ما يؤتى به من عين في الجنة سمّاه الله هنا تسنيماً، وهو مأخوذ من السنام بمعنى الرفعة، وهي عين يشرب بها المقرَّبون، وهنا يتبين الفرق بين

١. ق (٥٠): ٣٥.

٢. المطففين (٨٣): ٢٢ - ٢٨.

الفريقين الأبرار والمقربين. ويبعد جداً أن يكون الفرق في لذائذ مادية، وأنه تعالى يخل على الأبرار بتلك العين.

ويشهد لذلك أن نفس هذا الفرق بين الفريقين عبّر عنه في سورة الإنسان بوجه آخر وباسم آخر، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا * يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾؛^١ فالعين الخاصة بعباد الله تعالى هنا هي الكافور، ويمزج بها ما يشرب به الأبرار، وأضاف إلى ذلك أن عباد الله هم الذين يفجرون العين تفجيراً، فهم صنّاع العين في الجنة، والظاهر أنه حكاية حالهم في الدنيا بقرينة قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾؛ وسيأتي إن شاء الله تمة الكلام في تفسيرها.

ويمكن أن يكون التدرّج في ذكر هذه النعم أيضاً للإشارة إلى مراتب الاختلاف في القرب لدى الله تعالى؛ فالماء غير الآسن مرحلة نازلة، ثم يصل إلى مرحلة اللبن الذي لم يتغيّر طعمه، وهناك فرق كبير بين ماء لم تتغيّر رائحته ولم ينتن وبين لبن لم يتغيّر طعمه، ثم يأتي بعد ذلك الخمر الذي يتلذذ به الشارب، ثم إلى العسل المصفّى.

ويحتمل أن يتكامل الإنسان في تلك المرحلة من التكوين أيضاً، وإن لم يمكن ذلك بلحاظ عمله فقد انتهى وقت العمل إلا أن رحمة الله تعالى قد ترفع بالإنسان إلى مدارج الكمال من دون عمل هناك، ولذلك صحّ من المؤمنين الدعاء، قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا أَنْتُمْ لَنَا نُورٌ﴾،^٢ فيحتمل أن يكون العسل المصفّى

١. الإنسان (٧٦): ٥ - ٧.

٢. التحريم (٦٦): ٨.

آخر مرحلة للكمال البشري يحصل عليه بعد أن هام في حبّ ربّه وشرب من الخمر الطهور، كما قال تعالى: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً﴾^١، وزالت عنه كلّ العلائق حتّى ما يتعلّق بنعيم الجنّة، فله بعد ذلك أن يتلذّذ بالعسل المصفّى ويصل إلى معدن العظمة ويتعلّق روحه بعزّ قدسه، كما في المناجاة الشعبانية.

﴿وَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾؛ أي الفواكه. والتعبير عن طعام أهل الجنّة بالفواكه، لأنّها لا تؤكل لسدّ الجوع، بل للتلذّذ. والجنّة ليس بها جوع. والجملة تدلّ على أنّ المتّقين بأجمعهم لا يُمنعون من أيّ نوع من الثمرات، وهو مقتضى قوله تعالى: ﴿هُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا﴾ كما مرّ. مع أنّه تعالى في سورة الرحمن خصّص الجنّتين الأوليين الخاصّتين بالمقرّبين بأنّهما تشتملان على كلّ فاكهة، قال تعالى: ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ رَوْحَانٌ﴾^٢، وأمّا اللتين من دونهما فقال عنهما: ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُومَانٌ﴾^٣، والجمع بين الموردين يقتضي ما لم نستبعده آنفاً من أنّ المراد بما ورد في سورة الرحمن بيان الاختلاف في درجات القرب لدى الله تعالى، فلا منافاة بين قوله تعالى هنا أنّ لهم جميعاً من كلّ الثمرات وبين التفصيل المذكور في سورة الرحمن.

﴿وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾، يظهر من ذكر المغفرة في هذا السياق أنّها من النعم المستمرة التي يتنعم بها أهل الجنّة. ومما لا شكّ فيه أنّ المغفرة لا بدّ منها مقدّماً على دخول الجنّة؛ إذ لا يدخلها الإنسان إذا لم تغفر له ذنوبه، فما هو المراد بالمغفرة التي توفى عليهم باستمرار في الجنّة مع أنّهم في دار القدس ليس فيها

١. الإنسان (٧٦): ٢١.

٢. الرحمن (٥٥): ٥٢.

٣. الرحمن (٥٥): ٦٨.

ذنب ولا قبيح. الظاهر أن المراد ستره تعالى على عيوبهم التي كانوا عليها في الدنيا حتى لا يتذكرها أحد منهم؛ لا بالنسبة إلى نفسه فيتأذى من وخز الضمير ويتنقص عيشه، كما هو الحال في الدنيا، ولا بالنسبة إلى غيره فينتقص من قدر أحدهم في عيون إخوانه.

﴿كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ﴾، أي أَمَلُ ساكن الجنة كمن هو خالد في النار سجين فيها أبداً لا يفارقها؟! على ما مرّ بيانه. وبدلاً من تلك الأنهار التي مضى وصفها وصف حال هذا البائس بأنه يسقى من ماء حميم، أي حار شديد الحرارة يقطع أمعاءهم، وهم بحاجة إلى الماء بسبب النار. وكل ذلك أيضاً لا يبعد أن يكون توصيفاً لحالة من العذاب الشديد لا يمكن توصيفه في هذه الدنيا وحسب مفاهيمها ولغتها إلا بهذا التعبير، فالنار هناك ليست كالنار هنا وقد وصفها الله تعالى بأنها تطلع على الأفئدة، قال تعالى: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفئِدَةِ﴾^١، والمراد بها الأرواح فهي تحرقها قبل الأجسام والروح لا يحترق بنار الدنيا. وهكذا سائر ما ورد في وصفها ووصف الماء الذي يسقون والطعام الذي يؤتون، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الْأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾^٢، وقد مرّ بعض الكلام حوله في تفسير سورة الصافات الآية ٦٢ وسورة الدخان الآيات الآتية الذكر.

١. الهمزة (١٠٤): ٦ - ٧.

٢. الدخان (٤٤): ٤٣ - ٤٦.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ فَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُنَهُمْ ﴿١٨﴾ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرَ لِذَنْبِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾. يظهر بوضوح من سياق الآيات أن المراد بهذا القوم المنافقون، فهم الذين كانوا يخالطون المسلمين ويحضرون مجلس الرسول ﷺ، ولكنهم لم يكونوا مؤمنين في الواقع. إنما الكلام في مرجع الضمير، فإنه لم يسبق لهم ذكر وإنما سبق ذكر الكفار والمسلمين. فقيل: إن الضمير يمكن إرجاعه إلى الكافرين باعتبار أن المنافقين منهم واقعاً، ويمكن إرجاعه إلى المسلمين باعتبارهم منهم ظاهراً، فيكون الغرض من الآية التنبيه على أن الذين آمنوا ظاهراً ليسوا كلهم على وتيرة واحدة وإن كانوا جميعاً يعتبرون من صحابة الرسول ﷺ، ويحضرون صلاته ومجالسه ويستمعون كلامه ويقاثلون في صفوف المؤمنين. ولكن الظاهر أنه لا حاجة إلى إرجاع الضمير إلى الكفار أو المؤمنين، بل يعود الضمير إلى الناس أو إلى من هم حول الرسول ﷺ، فالغرض التنبيه على وجود المنافقين في صفوف من يحضرون عنده.

والقرآن مشحون بالتنديد بالمنافقين وتحذير المؤمنين من مكائدهم، لأنهم شر من الكفار وخطرهم أكبر من خطرهم، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي

الدُّرُكُ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ)،^١ وبالفعل فإن الإسلام تمكن من السيطرة على الكافرين وردّ كيدهم إلى نحورهم، ولكنهم دخلوا في ملايس النفاق وتمكّنوا من تشتيت المسلمين وتفريق كلمتهم، بل تناولوا على أعظم كلمة في الدين بعد التوحيد والرسالة، وهي الكلمة التي على أساسها كمل الدين وتمّت النعمة ويئس الذين كفروا من الإسلام ومن النيل منه، فحاولوا حذف هذه الكلمة وهي كلمة الولاية من قاموس الإسلام ولم يتمكنوا ولكنهم تمكنوا من منع تأثيرها في السواد الأعظم، ولولا التضحيات التي قدّمها أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم لتمكّنوا من طمس آثار النبوة وتحريف أساس الدين، كما كانت هي المكيدة التي أرادوها، فقد صرّح بعضهم بلزوم دفن اسم الرسول ﷺ حتّى لا يذكر على المنابر والمنابر، ولكن الله تعالى أهلكه ولم يبلغه مراده.

ومن التنديد الوارد بالمنافقين ما أشير إليه في هذه الآية وهو العمى والصمم الذي أصابهم نتيجة لمتابعة الهوى، فكانوا بالرغم من القرب إلى الرسول ﷺ والحضور لديه وهو منبع النور كأنهم لا يرونه، وكانوا يستمعون إليه وكأنهم لا يسمعون كلامه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْإِطْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾^٢، والتعبير الوارد في الآية يدلّ على أنّهم يظهرون أنفسهم حين الحضور بمظهر الاهتمام لكلامه ﷺ، فإنّ ذلك هو المفهوم من الاستماع، ومع ذلك كانوا إذا خرجوا من عنده سألوا أهل العلم من الصحابة ماذا قال آنفأ؟

١. النساء (٤): ١٤٥.

٢. الأعراف (٧): ١٧٩.

وأنفأ ظرف؛ أي في الوقت السابق القريب منا. وأنف كل شيء طرفه وأوله، ومنه العضو المعروف في الوجه.

وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال وهو أنه ما السبب في التنديد بهم إذا جهلوا معنى كلام الرسول ﷺ فسألوا أهل العلم عن ذلك؟! ومن هنا ذهب بعضهم إلى أن السؤال لم يكن على وجه الاستعلام حقيقة، وإنما كان تحقيراً أو استهزاءً بالرسول ﷺ وبكلامه، كأنهم يريدون بذلك أن يظهروا عجبهم من اهتمام الصحابة بكلامه المقدس ﷺ مع أنه لا يحتوي على أمر مفهوم. ولكن يمكن الاعتراض على هذا الوجه بأنه لو كان كذلك فلا وجه لتخصيص السؤال بالذين أوتوا العلم من الصحابة، بل المناسب حينئذ أن يوجه السؤال إلى أهل الهوى والذين في قلوبهم مرض أو المغفلين والبسطاء من الناس ليتمكّنوا من زرع بذور الشك في نفوسهم.

والحاصل أن السؤال من أهل العلم يقتضي أن يكون على وجه الاستعلام حقيقة وهو ليس عيباً. ولكن الظاهر أن السؤال ليس عن الغرض أو مغزى الكلام أو تفسيره، وإنما كانوا يسألون عن نفس القول، فالمراد أنهم حاضرون ويستمعون، ولكن لا يسمعون القول من جهة عدم اهتمامهم بما يقوله الرسول ﷺ.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾. في هذه الجملة يبين الله سبحانه السرّ في عدم فهمهم ووعيمهم، وهو الطبع على قلوبهم، والمراد بالقلب ليس هو العضو الذي يضخّ الدم في الجسم، بل هو النفس الإنسانية التي تدرك الحقائق، والتعبير يشبه النفس بوعاء يحتوي المعارف والعلوم. والطبع إنما يكون

بعد الإغلاق، فقلوبهم ونفوسهم مغلقة لا يدخلها شيء من المعلومات، بل هي مطبوعة عليها، فلا يمكن فتح أغلاقها. والطبع من الله تعالى، وما أغلقه الله وطبع عليه فمن ذا الذي يفتحه؟! والتعبير بالختم على القلوب والطبع عليها وارد في موارد كثيرة من الكتاب العزيز.

وهذا بدوره يثير سؤالاً، وهو أنه لماذا يطبع الله على قلوبهم فهم لا يفقهون؟ وأنه لو كان ذلك من الله تعالى، فما ذنبهم إذا لم يفقهوا كلام الرسول ﷺ وهم من هذه الجهة بحكم المجانين حيث لا تكليف عليهم؟ والجواب يأتي في الجملة التالية: ﴿وَاتَّبِعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ نظير ما مرّ في قوله تعالى: ﴿كَمْ زُنَ لَهُ سُوءٌ عَمَلِهِ وَاتَّبِعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾، وهما من باب واحد، فالسبب في الطبع على القلوب أيضاً منهم وهو متابعة الأهواء، ويأتي فيه التوضيح الذي ذكرناه هناك؛ وذلك لأنّ الطبع ليس بمعنى أنّه لا يفهم أيّ شيء، بل ربما يكون من أذكى الناس ويكون خبيراً في مجال واسع ودقيق من العلوم البشرية، ولكنّه لا يفهم شيئاً ممّا يتعلّق بما وراء الطبيعة والغيب، وإنّما يؤمن بما يراه بعينه، مع أنّه بإمكانه أن يفهم تلك الحقائق، فإذا رفض الانصياع للكلام المشتمل على هذه الأمور مع إدراكه أنّه حقّ وأنّه من الله تعالى، وإنّما رفض لأنّه لا يناسب ما يهواه، فإنّه يطبع على قلبه، فلا يدرك الحقائق بعد ذلك أبداً، بل ولا يسمع الكلام، وربما لا يرى الرسول ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ﴾^١، ويظهر من القرآن الكريم أنّ هذا الطبع يحصل في أوّل مرّة يمتنع الإنسان من

١. محمّد (٤٧): ١٤.

٢. فصلت (٤١): ٥.

الإيمان بالغيب مع إدراكه للحق، ولا يحتاج إلى التكرار كما اسلفنا في تزيين العمل، وذلك لقوله تعالى: ﴿وَقُلُّبٌ أَفْئِدَتُهُمْ وَابْصَارُهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾^١ ويختص ذلك بالطبع بمن يكون جحوده عناداً فهو لا يرجع عن عناده، وإذا شوهده من بعضهم التظاهر بالإيمان فهو نفاق.

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾. المقابلة بين هذه الآية والتي قبلها تبين بوضوح أن الله تعالى لا يهدي ولا يضل إلا بعد أن يبدأ الإنسان بمحاولة الاهتداء إلى الحق أو يبدأ بمعاندة الحق، فالمهتدون هم الذين يتقبلون الحق إذا بدا لهم واضحاً ولا يعاندونه إذا خالف هواهم، وهؤلاء يزيد الله تعالى في هدايتهم، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾^٢ ويفتح الله تعالى عليهم أبواباً من العلم. ومن الناحية العملية يبعث في قلوبهم التقوى وهو في الواقع حصيلة الإيمان والمعرفة، فكلما زاد الإنسان معرفة بمقام ربّه زاد منه قرباً وزاد في قلبه الخشوع والتقوى، بل يزيد حباً لله تعالى فيتقّيه حباً لا خوفاً وهو المقام الأرفع. وذهب بعضهم إلى أن المراد بإيتاء التقوى إيتاء ثوابه، كأنه استعظم أن يكون التقوى من الله تعالى وهو خطأ عظيم، فكل شيء من الله تعالى، والتقوى - كما قلنا - يحصل في القلب نتيجة للإيمان بالله وعرفان مقامه، وكل ما يحصل كنتيجة طبيعية فهو من الله تعالى.

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾. الفاء لتفريع هذا الأمر المستغرب على الإنذار الذي اشتملت عليه الآيات السابقة بمحاسبة الأعمال يوم

١. الأنعام (٦): ١١٠.

٢. العنكبوت (٢٩): ٦٩.

القيامة. وقوله: ﴿يَنْظُرُونَ﴾، أي ينتظرون، والضمير يعود إلى البشر عامة والاستفهام إنكاري، أي لا ينتظرون إلا الساعة وهم بالطبع لا ينتظرون الساعة، بل ربما لا يعتقدون بها فضلاً عن انحصار انتظارهم فيها، فالمراد بيان حالتهم الواقعية التي هم غافلون عنها وهو المستقبل الأكيد، فكأنهم لا يترقبون أمراً إلا قيام الساعة؛ والمراد بالساعة يوم فناء العالم بقرينة حدوثه بغتة، أي مفاجأة، لا يوم قيام القيامة حيث يقوم الناس. ويحتمل أن يكون المراد ساعة الموت.

وقوله: ﴿أَنْ تَأْتِيَهُمْ﴾ بدل من الساعة، أي ينتظرون مجيء الساعة. وقوله: ﴿بَغْتَةً﴾ حال من مجيء الساعة وليس قيداً للانتظار، كما هو واضح، والمراد تحذيرهم من عاقبة الأمر، فإن الساعة تأتي بغتة ولا فائدة للتذكّر بعد مجيئها، فعليه أن يتنبّه للخطر الداهم قبل وقوعه.

وغريب أمر هذا الإنسان، فهو يحسب لكلّ خطر محتمل على حياته في الدنيا حسابه ويأخذ حذره، مع أنّه أمر محتمل وليس قطعياً وليس بتلك الأهمية، فهو ميّت في النهاية لا محالة ولا يحسب للخطر الداهم الدائم وهو آتٍ لا محالة، مع أنّه يكفي الاحتمال!!! حتّى أنّ المؤمنين الذين يحسبون له الحساب ويهتمّون به ويتّقون ربّهم، فإنّهم أيضاً لا يهتمّون به كاهتمامهم بسلامتهم في الدنيا، فتجد الكثير، بل الأكثر ترتعد فرائصه ويصفرّ لونه، بل ربما يموت فجأة إذا أُخبر بأنّ الورم الذي في جسمه - مثلاً - ورم سرطاني، مع أنّه من المحتمل معالجته، ولا تجده يهتمّ ذلك الاهتمام البالغ إذا احتمل كون ما يعملُه والمسير الذي انتخبه مورداً لسخط الله تعالى. وهكذا الأمر بالنسبة لمن يحبه، فإذا أُخبر بأنّ ابنه نقل إلى المستشفى لحادث خطير تجد الارتباك والاضطراب باديين عليه، وأمّا إذا

أخبر أنه ارتكب محرماً فلا أثر يبدو على وجهه.

والأشراط جمع شرط بفتحيتين بمعنى العلامة، أي أنهم لم يتذكروا ويتنبهوا برؤية أشراط الساعة وعلاماتها، فلم يبق إلا أن يتنبهوا عند مجيئها وذلك لا ينفعهم، فالفاء في قوله: ﴿فَقَدْ جَاءَ﴾ لتعليل عدم انتباههم للساعة إلا عند حدوثها، وهذا هو المفهوم من انتظارهم للساعة، فالمعنى أن العلامات تحققت فلم يتنبهوا لها فيبدو أنهم لا يتنبهون إلى أن تأتيهم بغتة ولا ينفعهم الانتباه آنذاك.

والكلام هنا في ما هو المراد بعلامات الساعة، فيحتمل أن يكون المراد علامات قرب وقوعها وهو الظاهر من استغراب عدم تنبه الإنسان لها، مع أنه لم يبق إلا وقوعها، فمعنى ذلك أنها قد قربت.

وهناك آيات من القرآن تدلّ على قرب الساعة، كقوله تعالى: ﴿أَزَقَّتِ الْأَرْقَةَ﴾^١، وقوله: ﴿إِقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ﴾^٢، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً * وَتَرَاهُ قَرِيباً﴾^٣، ولكن ما هي العلامات التي جاءت لتدلّ على قربها؟ ظاهر آية القمر أن شقّ القمر من علامات قربها. وقد ورد في حديث مشهور: «يا معشر المسلمين إنّي إنّا بعثت أنا والساعة كهاتين»، قال: «ثمّ ضمّ السابحتين»^٤، وفي نقل آخر: «وجمع بين سبّابتيه»^٥، وفي بعض الروايات «بين السبابة والوسطى»^٦، ومعنى ذلك أن رسالة

١. النجم (٥٣): ٥٧.

٢. القمر (٥٤): ١.

٣. المعارج (٧٠): ٦ - ٧.

٤. أمالي المفيد: ١٨٨.

٥. بحار الأنوار ١٦: ٢٥٦.

٦. بحار الأنوار ٦: ٣١٥؛ الجعفریات: ٢١٢.

السماة النهائية بنفسها من علامات قرب الساعة، وذكر من أشراف الساعة نزول القرآن باعتبار أنه آخر الكتب السماوية، وذكرت أمور أخرى لم تثبت كونها علامات ولا أنها وقعت.

ولكن السؤال لا ينتهي بناءً على هذا الاحتمال، فإن المراد بالقرب أيضاً غير واضح، لأن القرب والبعد أمران إضافيان، والواقع أن القرب لا يمكن أن يلاحظ بالنسبة إلى عمر المخاطبين بأن يكون المقصود أن وقوعها قريب منهم بحيث تقوم الساعة عليهم، فإنها لم تقم وقد مضت القرون عليهم، فربما يكون المراد قربها بلحاظ عمر الطبيعة بمعنى أن ما بقي من عمر الطبيعة أقل بكثير مما مضى، كما ورد في بعض أحاديث العامة، ولكن هذا الأمر لا أثر له بالنسبة للمخاطبين، والأولى أن يقال في توجيه القرب بأحد وجهين:

الأول: أن الموت هو أول مراحل الساعة بالنسبة لكل إنسان، فإنه بموته ينقطع عن الدنيا ويكون رهيناً بعمله، وقد انتهت فرصته للعمل والتوبة، ولذلك ورد أن من مات فقد قامت قيامته.^١

الثاني: أنهم بعد الموت لا يشعرون بمضي زمان طويل، فتقوم الساعة عليهم وهم يظنون أنهم ما لبثوا إلا عتبة أو ضحاها؛ كما ورد في عدة من الآيات. ويحتمل أن يكون المراد بالساعة ساعة الموت، فإنها أيضاً كثيراً ما تأتي بغتة وعلاماتها تختلف حسب الأشخاص ولا أقل من مشاهدة موت الآخرين؛ ويحتمل أن يكون المراد بالأشراط علامات أصل ثبوت الساعة وهي الأدلة التي تقتضي ذلك، ويؤيده أنها هي التي ينبغي أن تكون منبهة للإنسان، فلا حاجة إلى

عدّ ما يتحقّق قبيل الساعة وإثبات أنّها من علاماتها، مع أنّ الساعة لا يعلم موعدها إلا الله تعالى ولا دخل للعلامات القريبة، فإنّ الإنسان ينبغي أن يتذكّر بمجرد ما ثبت له هذا الواقع العظيم ولا يختلف طول الزمان وقربه، ومما يدلّ على ثبوته الآيات البيّنات التي نزلت في الكتب السماوية، ومنها ملاحظة عدل الله تعالى وعلمه وحكمته وقدرته، فإنّ العقل يحكم بأنّه لا بدّ من مرحلة من التكوين بعد هذه الحياة ينال كلّ أحد جزاءه من خير وشرّ، فإنّ المشهود في هذه المرحلة هو عدم نيل الجزاء وعدم وضع كلّ أحد موضعه، وهذا ينافي حكمة الله تعالى وعدله وعلمه وقدرته.

﴿قَاتَىٰ هُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾، الفاء للتفريع والاستنتاج بعدم الجدوى لتذكّرهم ذلك اليوم. و﴿أَنَّى﴾ أداة استفهام بمعنى أين وكيف، وهي خبر مقدّم، وذكرهم مبتدأ. وجملة: ﴿إِذَا جَاءَتْهُمْ﴾ معترضة، أي كيف يذكرون بعد أن جاءتهم. والمراد أنّه لا ينفع التذكّر حينه، كما قال تعالى: ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَىٰ ۖ يَقُولُ يَالَيَّتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾^١، فلا يبقى لديه إلا التمنيّ، بل لا يفيد التذكّر قبله، فالإنسان إذا جاءه الموت لا تنفعه التوبة لقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَصَرَ أَحَدُهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾^٢، كما لا ينفع حين نزول العذاب الإلهي، ولذلك لم يقبل من فرعون توبته وإيمانه، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَذْرَكَ الْأَعْرَاقُ قَالَ أَتِمَّنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۖ الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتُ قَبْلُ وَكُنْتُ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾^٣.

١. الفجر (٨٩): ٢٣ - ٢٤.

٢. النساء (٤): ١٨.

٣. يونس (١٠): ٩٠ - ٩١.

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾، الظاهر أنه تفريع على ما يعلم إجمالاً من مجموع ما سبق من أن الأمر بيد الله تعالى، فهو الناصر وهو الخاذل وهو الذي يطبع على قلوب المنافقين ويزيد في هداية المهتدين ويؤتيهم تقواهم، فعلى الإنسان أن يستشعر ذلك في نفسه ويطمئن بربه، ويعلم أنه لا ملاذ إلا إليه، فالأمر كله بيده، فلا يعبد غيره ولا يطيع غيره ولا يقصد غيره لحاجته، بل لا يطلب غيره، فإنه غاية مراد المريرين.

وأول سؤال يتبادر إلى الذهن من هذه الجملة أنه كيف يؤمر الرسول ﷺ بأن يعلم ذلك وقد علمه وعلمه الآخرين؟

والجواب أولاً: أن الخطاب قد لا يكون متوجّهاً للرسول ﷺ خاصة، بل لكل من يسمع أو يقرأ.

وثانياً: أن المقصود الثبات والاستمرار على الإيمان بالتوحيد وتعميمه وتعميقه، فالتوحيد بكل معنى الكلمة لا بد من تكريره والتأكيد عليه ليستقر في القلب ويدخل في عامة شؤون الحياة، حتى لا يطلب الإنسان حاجته إلا من الله تعالى، بل لا يتوجّه في أي عمل من أعماله إلا إليه تعالى، بل لا يطلب في مسيره إلا الله تعالى، فيكون هو منتهى أمله وغاية مناه؛ فإن الإله لا يختص بالعبادة بالمعنى الأخص وهي طقوس خاصة تتبناها كل فرقة حسب دينه ومذهبه، بل الإله هو الصمد الذي يصمد إليه الناس في حاجاتهم، بل هو الذي يجب أن يقصده الإنسان في كل شؤونه ويقصد رضاه ويتوجّه نحوه، بل هو المطلوب الذي يبحث الإنسان عنه في كل حياته جاداً كادحاً.

ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَى

عَلِمَ،^١ وهذا يصدق على أكثر الناس، ولكنهم لا يعبدون الهوى بمعنى أنهم يسجدون له، وإنما يعتبرون من عباد الهوى، لأنه هو المطلوب الأساس لهم، فالإله هو المطلوب والمحبوب، وهذا المعنى منحصر عند أهل المعرفة في الله تعالى، والتوحيد الكامل هو الانقطاع إليه، ولذلك ورد بعده أمر الرسول ﷺ بالاستغفار لذنبه، وسيأتي إن شاء الله تعالى أن ذنبه ليس إلا في هذا المجال.

هذا وما كان يعلمه الرسول ﷺ من الحقائق إنما علمها بتعليم من الله تعالى وينزل الآيات القرآنية، وهذا أيضاً قد حصل قبل هذه الآية، ولكنه أمر هام لا بد من التنبيه والتأكيد عليه في كل مناسبة، ولهذا قلنا: إنه لا بد فيه من التعميم والتعميق، فالتعميم بحيث يشمل كل جوانب الحياة والتعميق بال تكرار حتى لا يغفل عنه الإنسان.

﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾، يتفرع أيضاً على معرفة مقام الرب لزوم الاستغفار من الذنوب. والرسول ﷺ معصوم من الذنب بالمعنى المعروف إلا أن الذنب بالمعنى اللغوي له معنى واسع وهو تبعة العمل، سواء كانت في الدنيا أو في الآخرة، وسواء كانت تبعة مجعولة كالعقوبة والجزاء أو تبعة طبيعية أو عرفية، وبذلك نفسر قوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾،^٢ ويشهد له قوله تعالى في حكاية قول موسى عليه السلام: ﴿وَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾^٣ وما فعله عليه السلام لم يكن ذنباً، بل كان واجباً شرعياً ولذلك اعتبره عليه السلام ذنباً لهم عليه، وبعد أن غفر

١. الفرقان (٢٥): ٤٣.

٢. الفتح (٤٨): ٢.

٣. الشعراء (٢٦): ١٤.

الله تعالى له: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي نَعَمْتُ عَلَيْكَ فَلَنْ أُكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ﴾، أي أنه يستمر في مواجهته للكفار، فالتعبير عنه بالذنب بمعنى أنه تبعة لعمله حسب قانونهم ونظامهم ومعتقدهم، ولذلك أيضاً قلنا: إن المغفرة في هذا المورد وفي سورة الفتح بمعنى حفظه والستر عليه من التبعات الدنيوية وما يقصد به الأعداء من السوء.

والحاصل أن الذنب بهذا المعنى يتعلّق بأفعال المعصومين عليه السلام، بل هم عادة في معرضه، لأنهم يواجهون الأعداء في مسيرتهم. وله بالنسبة لهم معنى آخر وهو معروف أيضاً وهو ما يعبر عنه بأن حسنات الأبرار سيئات المقربين.

ولتوضيحه نقول: إن كثيراً من عبادتنا، بل أكثرها لو لم يكن كلّها خالية عن التوجّه الكامل والخلوص الكامل، فمن جهة التوجّه لا نتمكن من التركيز على ما بدأنا به من النية ونغفل عن أننا متوجّهون إلى الله تعالى وأتينا بحضرته، وكثيراً ما نفقد الخشوع والخضوع، وإنما نأتي بالعمل صحيحاً للاعتياد، ومن الجهة الثانية لو لم يتدخل في تبتنا قصد الرياء والعجب، فلا أقلّ من أننا نقصد بلوغ المآرب الدنيوية بصلاتنا وسائر عبادتنا، بل هي المقصد الأسمى لأكثرنا. والأولياء المخلصون لا يقصدون بعملهم حتّى النعم الأخروية، كما مرّ الكلام حوله. وحينئذٍ إذا تمت لنا صلاة مع الخشوع والتوجّه والخلوص بدرجة متدنية، فإنها تعدّ من أحسن حسناتنا، وهي بالنسبة للرسول والأئمة المعصومين عليهم السلام تعتبر سيئة، لأنهم لا يتوقّع منهم أن يفقدوا التوجّه الكامل حتّى لحظة واحدة، ولا يتوقّع منهم أن يقصدوا بعملهم حتّى المنافع الأخروية وإن لم يكن ذلك ذنباً وقيحاً، فإذا برز

منهم ذلك فإنهم يستغفرون ربهم منه، وحق لهم الاستغفار والتوبة، ولذلك فإن الله تعالى يمتدح رسله بأنهم أوابون، أي يكثر منهم الرجوع إلى الله تعالى. وليعلم أن المعصومين إنما عصموا من الذنوب التي يتلى بها عامة الناس وليسوا معصومين من الذنب بهذا المعنى، وهم مع ذلك مختلفون في درجات القرب، فيختلفون في درجات التوقع، والله تعالى يطلب كل أحد حسبما أنعم عليه، فكما أنه لا يتوقع ممن تربى في بيئة كافرة كما يتوقع ممن أبواه مؤمنان لاختلاف ما أنعم الله عليهما، كذلك لا يتوقع من كل واحد من الرسل كما يتوقع من سيد المرسلين ﷺ، ولذلك كان كثير العبادة والخشوع والبكاء، فإذا سئل عن السر في ذلك مع أنه قد غفر ذنبه ما تقدم وما تأخر، قال: «ألا أكون عبداً شكوراً»^١.

هذا، وفي الأمر بالاستغفار للمؤمنين والمؤمنات إشارة إلى حاجتنا إلى استغفاره ﷺ لنا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾^٢ وهذا يدخل في باب الشفاعة، ويتبين منه أنه لا يكفي المؤمنين أن يستغفروا لأنفسهم، بل عليهم أن يلوذوا بالرسول ﷺ ويطلبوا منه الاستغفار. والمغفرة أهم الحاجات، فإذا جاز ذلك جاز طلب سائر الحاجات بواسطته بأن نطلب منه أن يطلب من ربه حاجتنا، وهو معنى التوسل والاستشفاع والرسول حي يرزق من دون ريب، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أحيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾^٣، فإذا كان

١. الكافي ٢: ٩٥.

٢. النساء (٤): ٦٤.

٣. البقرة (٢): ١٥٤.

المقتول في سبيل الله حياً فالرسول ﷺ أولى بذلك.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾، تذكير للمؤمنين مرة أخرى بهذه الحقيقة المغفول عنها، وهي أن الله تعالى محيط بهم وشاهد لكل أعمالهم فليتقوا ربهم وليحذروه. وقد اختلف المفسرون في معنى المتقلب والمثوى، فقيل: إنه التصرف في الدنيا والاستقرار في الآخرة، وقيل: التقلب من الأضلاب إلى الأرحام والسكون في الأرض، وقيل: التصرف في اليقظة والسكون في المنام، وقيل: التصرف في المعاش والأعمال والاستقرار في المنازل.

وقال العلامة الطباطبائي رحمه الله: المتقلب بمعنى الانتقال من حال إلى حال، والمثوى بمعنى الاستقرار والسكون، فالمراد أنه يعلم كل أحوالكم من الأحوال المتغيرة والثابتة. وقال: إن هذا المعنى أظهر وأعم مما ذكره.

وهذا صحيح، ولكن مناسبة الحال تقتضي أن يراد هنا معنى خاص وهو تقلب الإنسان في عقيدته وإيمانه وعاقبة أمره، فالإنسان يتحول كثيراً طيلة حياته، فيوماً مؤمن قوي الإيمان شديد الخشوع، ويوماً متردد وشاك، ويوماً فاسق فاجر، وربما يبلغ الكفر، وهكذا يتحول من حال إلى حال، ولكنه يستقر في عاقبة أمره على حالة، فلهذا المراد بالمشوى عاقبة الإنسان من حيث العقيدة والعمل.

ولعل السر في التذكير به الخطر المحدق بالإنسان في عاقبة أمره، فكم كان من الناس من جاهد في سبيل الله تعالى وتحمل المشاق وانتهى الأمر به إلى الارتداد أو النفاق، والسبب في ذلك هو متابعة الهوى والتوغل في المعاصي، ولذلك لا بد من الاستغفار والتوسل بالرسول ﷺ وأهل بيته الطاهرين عليه السلام.

لضمان المستقبل والعاقبة الحميدة.

واللطيف في الآية الكريمة أنها تجمع بين التوحيد من جهة، والتوسّل والاستشفاع من جهة أخرى، ليعلم الإنسان أنه لا تنافي بين التوحيد وحبّ أوليائه تعالى، لأننا لا نحبّهم ولا نتولّاهم إلا لأنهم أولياؤه تعالى والمقرّبون لديه، فحبّهم من حبّ الله وولايتهم من ولايته تعالى، كما أنّ التوحيد واعتقاد أنّ الله تعالى هو القادر وهو الشافي والرازق والقاضي للحوائج، وأنّه لا مؤثّر في الوجود غيره تعالى لا ينافي التوسّل بأوليائه والتمسك بهم للتوسّط في قضاء الحوائج، بل لا ينافي طلب الحاجة منهم بما أنّهم عباد الله المخلصين الذين آتاهم الله القدرة على قضاء الحوائج بإذنه تعالى، كما منح عيسى عليه السلام القدرة على إحياء الموتى وشفاء المرضى بإذنه.

توصف بذلك اكتفاءً بالجملة التالية لئلا يتكرر الوصف، فالمراد بتقديم هذه الجملة التنبيه على أن تقاعس المنافقين عن الحرب بعد الأمر به من قبل الله سبحانه لم يكن بعد أمر ابتدائي ليشقّ تحمله، بل جاء الأمر بالحرب في ظروف خاصة استوجبت مطالبة المجتمع الإسلامي بذلك، حيث طلبوا من ربهم أن ينزل عليهم سورة يأمرهم فيها بالقتال مع الأعداء. وقد وقع مثل ذلك لبني إسرائيل، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلِإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ ائْتِنَا مَلِكًا يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾^١، فالآية الكريمة هنا تنبه على وقوع مثل ذلك في هذه الأمة أيضاً.

﴿فَإِذَا أَنْزَلْتُ سُورَةَ مُحْكَمَةً وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾، المحكم من الحكمة بمعنى المنع، وهو ما لا يدخله الشكّ فهو واضح وصريح، كأنه منع من ورود الشكّ والشبهة، ويقابله المجلّم والمتشابه، فالغرض من هذا التوصيف التنبيه على أن الأمر بالقتال ورد صريحاً واضحاً غير قابل للتأويل.

والظاهر أن المراد بالذين في قلوبهم مرض المنافقون، ولكن بوصف كونهم ممن في قلوبهم مرض، ولعلّ اختيار هذا التعبير للإشارة إلى أن حالة الهلع والخوف الذي تبدو على وجوههم ليست طبيعية، وإنما يبدو عليهم ذلك لمرض في قلوبهم وهدف فاسد يقصدونه وهو تثبيط عزائم المؤمنين الخالصين. والدليل

على الاختصاص بالمنافقين قوله تعالى في الآية ٢٩: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَائَهُمْ﴾، فالأضغان أي الأحقاد - كما سيأتي إن شاء الله - يدل على أن المراد بهم المنافقون، حيث كانوا يطنون العداء للإسلام والمسلمين، وأما ضعفاء الإيمان فما كانوا يحملون حقداً للمؤمنين. والآيات التالية صريحة في أن المراد بهذه المجموعة من الآيات من هم من أشد المنافقين حقداً وبغضاً للرسول ﷺ وللمسلمين.

ولكن في تفسير «الميزان» أن المراد بهم ضعفاء الإيمان دون المنافقين،^١ وهذا لا دليل عليه في الآية ولا وجه له، وحمل الآية على ذلك يوجب خروجها عن سياق الآيات التي تتعرض لموقف المنافقين من الجهاد، وإنما اختاره العلامة رحمته لما يظهر من بعض الآيات في غير هذا المقام من جعل المنافقين مقابلاً للذين في قلوبهم مرض، فالمقابلة بين الفريقين تدل على اختلافهما. ولكن الظاهر في هذه الموارد أنه من قبيل ذكر العام مع الخاص، فالذين في قلوبهم مرض عنوان عام يشمل المنافقين وغيرهم، فإن النفاق أيضاً مرض من الأمراض التي تصيب القلب، أي النفس والروح البشرية.

والمراد بالمغشي عليه من الموت المحتضر في أواخر حالاته، حيث يغشى عليه وتبقى عيناه مسمرتين، كأنه ينظر بهما إلى نقطة خاصة لا يتجاوزها، وهذه الحالة تحصل لبعض الناس في الخوف الشديد الذي يسيطر على مشاعر الإنسان وأحاسيسه، فتجده واجماً لا يتحرك ولا يستطيع القيام بأي رد فعل في مقابل الخطر الداهم، والتعبير يصور الجماعة كأنهم بلغ بهم الذعر إلى هذه الحالة

١. راجع: الميزان في تفسير القرآن ١٨: ٢٣٩.

التعيسة، ولا يمكن تصوير الخوف والهلع أكثر ممّا يصوّره هذا التعبير. ولكن هل كان ذلك واقعياً أم كانوا يتظاهرون به للتأثير في نفوس المؤمنين؟ التعبير يحتمل الأمرين ولكنّ السياق أوفق بالثاني.

﴿فَأُولَىٰ هُمْ * طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾. اختلفوا أيضاً في تفسير هذه القطعة؛ فمنهم من اعتبرها جملة واحدة، والمعنى واضح على ذلك، أي أنّ الأولى لهم أن يطيعوا وإن يقولوا قولاً معروفاً، والمعروف في مقابل المنكر بمعنى القول المناسب للمقام عرفاً.

ولكنّ الأكثر على أنّهما جملتان، فالجملة الأولى قوله تعالى: ﴿فَأُولَىٰ هُمْ﴾ ومثله قوله: ﴿أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ * ثُمَّ أُولَىٰ لَكَ فَأُولَىٰ﴾، وجملة ﴿أُولَىٰ لَكَ﴾ جملة معروفة بين العرب وردت في أشعار الجاهلية، و﴿أُولَىٰ﴾ مأخوذ من «ولي» بمعنى قرب، فمعناها أقرب لك وهو خبر لمبتدأ محذوف، وحكي عن الأصمعي أنّه قال معناها «قاربك ما يهلكك»، فقيل: إنّ يفيد التهديد والوعيد، وقيل: إنّ دعاء على المخاطب. ولا يبعد أن يكون المعنى مختلفاً حسب الموارد، ولكنّ الغالب فيه التهديد، كما يشاهد ذلك في اللهجة العامية؛ وفي لغات أخرى حيث يستعمل كتهديد مبطن لكلّ من يواجه الإنسان بصلاية وعناد، فيهدّده بإبهام لأسباب مختلفة. وبناءً على هذا فقوله: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ جملة مستقلة أيضاً، والتقدير أمرهم وشأنهم طاعة معروفة وقول معروف، أو طاعتهم طاعة معروفة وقولهم قول معروف. وهذا كناية عن أنّهم معروفون بعدم الطاعة وبالقول الفاسد، وإنّ من الواضح لدى الجميع كونهم مخادعين.

والذي يشبه هذه الآية في القرآن قوله تعالى: ﴿وَأَنفُسُكُمُ بِاللهِ جَاهِدُ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^١ وهذه الآية قرينة على المراد من هذه الجملة هنا، فإن الصحيح في تفسير تلك الآية أن قوله: ﴿طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ﴾ تعريض بهم، ومعناه أن طاعتهم طاعة معروفة بمعنى أن من المعروف لدى الجميع أنهم لا يطيعون أوامر الله ورسوله ﷺ، فالأقرب في معنى الآية هنا أيضاً أنهما جملتان وأن الأولى تهديد أو دعاء عليهم، والثانية تنديد بهم من جهة خداعهم ومكرهم ونفاقهم، فهم يدعون الطاعة ويقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، فتقدير الجملة طاعتهم طاعة معروفة وقولهم قول معروف. والمراد أن نفاقهم أمر واضح ومعروف لا حاجة إلى التنبيه عليه. وأمّا القول بأنهما جملة واحدة فينافي التشدد والاستنكار الذي تحفل به الآية، إذ التعبير بأن الأولى لهم أن يطيعوا وأن يقولوا قولاً معروفاً لا يناسبه وإن كان ذلك ربما يناسب الجملة التالية.

﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾، العزم هو الجدّ، أي إذا جدّ الأمر ولزم القتال فخير لهم إن يكونوا صادقين في إيمانهم بالله تعالى ولزوم إطااعته. ومن الواضح أن الخير هنا ليس بمعنى كونه أفضل وأولى، بل بمعنى أن الخير في ذلك فحسب. والمراد بالصدق الوفاء بالعهد، فإن الإيمان بالله عهد من العبد بالإطاعة، وهذا العهد مأخوذ من كلّ إنسان بالفطرة، كما تدلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا

بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ^١، ومأخوذ أيضاً من كلِّ مؤمن بتشَّهده الشهادتين، ومأخوذ أيضاً ممَّن آمن بالرسول ﷺ في ذلك العهد بالبيعة، فالعهد على تلك الجماعة مأخوذ ثلاث مرَّات، فيجب أن يكونوا صادقين في عهدهم أوفياء به.

وعليه فقوله: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ﴾ جواب الشرط في قوله: ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأُمُورُ﴾. وقيل: إنَّ جوابه محذوف، أي فإذا عزم الأمر كرهوا الحرب أو تهاونوا ونحو ذلك، والجملة التالية مستأنفة تدلُّ على المحذوف. وهذا التفسير لا يناسب السياق بناءً على ما ذكرناه في تفسير قوله تعالى: ﴿فَأُولَىٰ هُمْ * طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾، وإنَّما يناسب تفسيره بأنَّ المراد أنَّ الأولى لهم أن يطيعوا ويقولوا قولاً معروفاً، فإذا عزم الأمر فالأولى لهم أن يثبتوا. ولكن كلَّ ذلك لا يناسب السياق الذي يظهر منه التشديد عليهم والاستنكار.

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾، الاستفهام للاستنكار، و﴿عَسَيْتُمْ﴾ لبيان المقاربة والتوقع، أي هل المتوقع منكم إن أعرضتم عن الدين وارتددتم أن تفسدوا في الأرض وتقطَّعوا أرحامكم، كما كنتم في الجاهلية، ومعنى ذلك أنَّه هو المتوقع وهو مستنكر وليس معنى ﴿هَلْ﴾ التحقيق كما يقال، بل هو الاستنكار ولكن لا يستنكر إلا ما هو واقع، إلا أنَّ ﴿عَسَى﴾ يخفَّف الأمر فلا يواجههم في الخطاب بشدَّة بأن يحكم عليهم بالفساد قطعاً، ولكنَّه المتوقع، لأنَّه طبيعة القوم؛ وإنَّما منعهم من الاستمرار فيه تظاهرهم بالدين. وقد مرَّ مرَّاً أنَّ التعبير بـ«عسى» و«لعلَّ» في القرآن الكريم، بل في كلِّ تعبير

ليس بمعنى الترجي أو الاحتمال حتّى يستغرب صدورهِ من علام الغيوب، ويأولُ بأنّه من الله يدلّ على الثبوت والوجوب كما قيل، بل هو بمعنى أنّ هذا هو المتوقع منكم، وأنّ الجاهلية تحقّق الأرضية المستعدّة للفساد في الأرض وقطع الأرحام.

والكلام مستمرّ حول المنافقين الذين حاولوا التأثير على عزيمة المؤمنين في الجهاد، وهنا يعود السياق إلى مخاطبتهم بعد أن كان الحديث عنهم غائباً ليكون أبلغ في التأثير وألصق بهم. ويبدو من الآية أنّ بعضهم كانوا يشيعون في الناس أنّه لا ينبغي محاربة مشركي مكّة، لأنّه من الفساد في الأرض وقطع الأرحام، ويبدو منه أنّهم كانوا ممّن لهم قرابة فيهم فلعلّهم من بعض المهاجرين، ولا يستغرب وجود منافقين فيهم وسيأتي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُم مَّكَذِبِينَ﴾^١ أنّ النفاق كان في مكّة ومن أوائل الإسلام.

وتبيّن بما ذكرناه أنّ المراد بالتوكلي هو الإعراض عن الدين والرجوع إلى الجاهلية، وهو الأنسب بالسياق وبما سيأتي من توصيفهم بالارتداد الذي هو الأمر المناقض لقوله: ﴿قَلَوْا صَدَقُوا اللَّهَ﴾ في الآية السابقة، فالمعنى أنّكم إن أعرضتم ولم تصدقوا الله تعالى وعُدتُم إلى جاهليّتكم الأولى فالمتوقع منكم أن تعودوا إلى صفاتكم وعاداتكم في الجاهلية من الفساد في الأرض بالقتل والغصب وقطيعة الرحم وغيرها من الجرائم والكبائر.

وقيل: إنّ المراد بالتوكلي الأخذ بزمam الحكم، وورد في بعض الأحاديث أنّه خطاب لبني أميّة، ولعلّ ذلك من باب الجري والتطبيق، فإنّهم تولّوا الأمور

وأفسدوا في الأرض أيما فساد، وقتلوا المؤمنين الصالحين وقطّعوا الأرحام، لأنّ بني هاشم من أرحامهم فقتلهم وشرّدوهم. ولكن حمل الآية على هذا المعنى بعيد جدّاً ولا يناسب سياق الآيات.

والرحم موضع الجنين في بطن المرأة، والمراد بالأرحام من يشارك الإنسان في رحم مع كونه في نفس الوقت يعدّ من الأقارب عرفاً، فيشمل الوالدين والإخوة والأعمام والأخوال وأولادهم وغير ذلك، والمراد بقطع الرحم ترك المواصلّة معهم بالإحسان إليهم حين الحاجة والتفقد عنهم وزيارتهم إن اقتضته المناسبة، وعيادة مرضاهم وحضور جنازتهم وقضاء حوائجهم، فترك المواصلّة قطع للرحم فضلاً عن الإساءة إليهم وقتلهم والتكيل بهم، كما فعلت بنو أمية وبنو العباس.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ﴾، الإشارة إلى الذين تولّوا وأعرضوا عن إطاعة الله ورسوله، واللعن هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله تعالى، وهذا إنّما يتمّ في من لا مجال لهدايته، ولذلك فرّع عليه إصمام آذانهم وإعماء أبصارهم، فهم لا يسمعون آيات الله تعالى فيعونها ولا يبصرونها فيؤمنوا بها، وهذا الجزاء إنّما يلحق بمن عاند الحقّ ولم يؤمن به بالرغم من إتمام الحجّة عليه. ولعلّ السبب في لعنهم وإعماهم هو الارتداد، ويشهد له قوله تعالى بعد ذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ﴾، فالظاهر أنّ المراد بهم نفس المذكورين سابقاً. والارتداد شرّ من عدم الإيمان من البداية. ولم يكن السبب في ارتدادهم الشكّ المستند إلى عدم الاقتناع، بل السبب هو متابعة الأهواء وحبّ الدنيا بعد أن رأوا الآيات وعلموا أنّها الحقّ، ولذلك حقّت عليهم العماية والصمم واللعن،

ويشهد لذلك أن الارتداد من عوامل الطبع على القلوب، كما هو الظاهر من قوله تعالى في المنافقين: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾^١. هذا ما يقتضيه التأمل، ولكن المفسرين ذكروا أن الإشارة إلى المفسدين وقاطعي الأرحام، وحيث إن هذا الأمر بمجرد لا يوجب الطبع والختم على الأبصار والأسماع حاولوا توجيه ذلك بحيث يكون المصدق من يستحق هذا الجزاء وتبين بما ذكرناه أنه لا حاجة إلى التأويل.

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَفْقَالُهَا﴾، التدبر هو النظر في دبر الشيء أي آخره وما يترتب عليه، والمراد التعمق في مقاصد القرآن وعدم الاكتفاء بما يبدو من ظاهره، ويمكن أن يكون المراد هنا التعمق فيه من جهة خاصة وهي كونه معجزة تهدي الإنسان إلى الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر ليكون مناسباً للإعراض والارتداد الذي يتعرضون له، ومثله قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾^٢، فإن قوله: ﴿لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ﴾ يرشد الإنسان إلى ما يقتضي كون القرآن كتاباً منزلاً من عند الله تعالى.

والاستفهام للاستنكار، فالحاصل أن الآية الكريمة تستنكر منهم عدم التدبر في حقيقة القرآن لينتهوا بذلك إلى الإيمان بالله تعالى وبالرسالة، ثم قابل ذلك بعدم تمكنهم من التدبر، لأن قلوبهم مغلقة وعليها أقفال، وعليه فـ ﴿أَمْ﴾ هنا متصلة، والسؤال الذي يقصد به الاستنكار أنهم هل تركوا التدبر مع تمكنهم أم أنهم تركوه للأفقال، وهم على كلا التقديرين محكوم عليهم باللعن والطرْد؛ أما

١. المنافقون (٦٣): ٣.

٢. النساء (٤): ٨٢.

على الأول فواضح، وأمّا على الثاني، فلأنّ القلوب إنّما أُغُلِّقت وأُقفل عليها، لأنّهم اتَّبَعُوا أهواءهم وعاندوا الحقَّ بعد مواجهتهم للآيات البينة الواضحة، كما مرّ بيان ذلك.

وهنا سؤالان: الأول عن الوجه في تنكير القلوب حيث يتوهم أنّ الأولى أن يقال: أم على قلوبهم أفعال؟ والثاني عن إضافة الأفعال إلى القلوب.

والجواب عن الأول أنّه يحتمل فيه الإبهام لثلاثيهم جميعهم، ونظير ذلك ما يرد في كثير من الموارد في القرآن الكريم من نسبة الجهل والعناد إلى الأكثر دون التعميم، وهذا من أدب القرآن ومن الدقّة في التعبير. وعلى هذا الأساس يمكن أن يشمل غيرهم أيضاً ممّن يكون فيه نفس المناط، فهذا التنكير يفيد التخصيص والتعميم. ويحتمل - كما قيل - أن يكون التنكير للتفخيم، أي على قلوب قاسية أيّما قساوة. وأمّا إضافة الأفعال إلى القلوب فللتنبية على أنّها أفعال خاصّة بها تنشأ من معاندتها للحقّ.

وفي الآية دلالة - كما في مجمع البيان^١ - على بطلان القول بعدم جواز تفسير شيء من القرآن إلا بخبر وسمع. وأوضح منه في حثّ الجميع على التفكّر في الآيات والتعمّق فيها قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾^٢.

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَزْنَدُوا عَلَىٰ أَذْبَارِهِمْ﴾. الارتداد هو الرجوع. والأدبار جمع دُبر، ودُبر بمعنى الخلف، أي رجعوا القهقري، وهذا التعبير ربما يراد به الارتداد عن الدين،

١. راجع: مجمع البيان في تفسير القرآن ١٠ - ٩: ١٥٨.

٢. ص (٣٨): ٢٩.

الكفر والخروج عن ريقة الإسلام جهاراً، بل المراد أنهم كانوا يظهرون ما يخفونه من الكفر في كلامهم وفي أفعالهم مع أنهم كانوا في نفس الوقت يظهرون الإسلام كقول عبدالله بن أبي: ﴿لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾،^١ وقول بعضهم للنبي ﷺ ﴿هُوَ أَذُنٌ﴾^٢ وغير ذلك من الأفعال والأقوال مما ورد في الكتاب العزيز وفي التاريخ وكتب السيرة وهي كثيرة جداً، يظهر منها بوضوح كفرهم في الباطن، فكل ما يبدو منهم شيء من ذلك يعتبر ارتداداً، ثم إذا دخلوا في صفوف المسلمين وصلّوا معهم وأظهروا الإيمان اعتبروا مسلمين وهكذا.

﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى﴾، وهذا بيت القصيد ومناط الشقاء والتعاسة، فإن ارتدادهم إنما كان بعد تبين الهدى، فلم يكن كفرهم عن جهل وعدم اقتناع أو من تأثير الإعلام المضاد، بل إنما ارتدّوا عن الإيمان ومستلزماته، لأنه كان مناقضاً لأهوائهم وأمنياتهم، ومنهم من تمكّن من الإخفاء أكثر من المنافقين الذين أعلنوا عداوتهم مراراً حتى سنحت لهم الفرص، فغيروا دين الله وحرّفوا معاني الكتاب وغيّروا سنن الرسول ﷺ وأخذوا ثأرهم منه بقتل ذريته، كما صرّح به سفهاؤهم وأخفاه حلماؤهم، وهؤلاء أجدر بأن يوصفوا بالنفاق، حيث إنّ الذين عرفوا به سقط قناعهم وأصبحوا - حسب النصّ القرآني - فرقة في قبال المؤمنين؛ وأمّا هؤلاء فقد اندسّوا في صفوف المؤمنين، وربما اعتبروا من كبرائهم جهلاً بحالهم ولم يرد على الإسلام والمسلمين أدهى ممّا كادوهم به،

١. المنافقون (٦٣): ٨.

٢. التوبة (٩): ٦١.

حيث فرّقوا صفوفهم وقتلوا سادتهم وخيارهم وبدّلوا دينهم ودسّوا في أحاديثهم واستأجروا الوضّاعين ولو أمهلهم الله تعالى لحرفوا كتابهم.

«الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ»، الجملة خبر لـ «إِنَّ»، والتسويل هو تزيين الفعل القبيح، وأصله - كما في بعض كتب اللغة^١ - قد يكون من السؤل أي الأمنية، فخفّف إلى الواو، والمعنى أنّه جعل الفعل القبيح سؤلاً وأمنية لهم. ولكن في «الكشاف»: «سؤل لهم: سهّل لهم ركوب العظائم، من السؤل وهو الاسترخاء، وقد اشتقّه من السؤل من لا علم له بالتصريف والاشتقاق جميعاً»؛^٢ وما ذكره أيضاً وجه ولكن لا وجه للتشنيع على القول الأوّل. ويختلف المعنى قليلاً على القولين، فعلى كونه من التسهيل يكون الشيء بذاته سؤلاً وأمنية للفاعل، ولكنّه يستعظمه فيتجنّبه، والشيطان أو غيره يغويه بسهولة الأمر؛ وعلى كونه من السؤل قد لا يكون الفعل أمنية للفاعل ذاتاً لا أنّه يتمناه ويستعظم نتائجه، فالشيطان يزبّن له الفعل ليتمنّاه، وهذا المعنى أنسب من جهة كثرة التعبير بالتزيين في القرآن الكريم.

والإملاء مأخوذ من الملاوة وهي امتداد الزمان، قال تعالى في حكاية قول إبراهيم عليه السلام لأبيه: «وَاهْجُزْنِي مَلِيّاً»^٣ أي زماناً طويلاً، وقال تعالى: «وَأَمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ»^٤ أي أمهلهم زماناً طويلاً، وعليه فالمراد هنا أنّ الشيطان يلقي في قلوبهم أنّ أمامهم متسعاً من الوقت يمكنهم فيه التوبة والرجوع، فلا بأس

١. راجع: مفردات ألفاظ القرآن: ٤٣٧.

٢. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ٤: ٣٢٦..

٣. مريم (١٩): ٤٦.

٤. الأعراف (٧): ١٨٣؛ القلم (٦٨): ٤٥.

بالاستعجال حالياً بما يهوونه. ولكن في بعض التفسيرات أن المراد أنه يمنيهم بالآمال الطويلة والأمانى البعيدة، وهو غير مناسب لمعنى الإملاء ولا للارتداد.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأُمْرِ﴾، يمكن أن يكون ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الارتداد ويكون الغرض من الآية بيان وجه ارتدادهم وأنه في أي مجال ظهر منهم ذلك، فبين أنهم ارتدوا حينما قالوا كذا؛ ويمكن أن يكون إشارة إلى التسويل والإملاء، والمعنى أن السبب في تسلط الشيطان عليهم وتسويلهم هذا القول منهم، لأنهم بذلك خانوا الله ورسوله، فتمكن الشيطان من النفوذ في عقولهم وقلوبهم وتسويل النفاق لهم حتى ارتدوا عن دينهم.

والظاهر أن المراد بالذين كرهوا ما نزل الله، اليهود والمشركون، حيث ينطبق العنوان عليهم جميعاً؛ أما المشركون فلأن القرآن أبطل اعتقادهم وأهان آلهتهم فكرهوه، وقد وصفوا بذلك في الآية ٩ من هذه السورة، حيث قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾؛ وأما اليهود فلأنهم كانوا ينتظرون الرسالة المبشّر بها في كتبهم، وكانوا يعلمون أنها ستكون في هذه المنطقة، ولكنهم توهّموا أن الرسالة لا تكون إلا فيهم، فكل قبيلة منهم توقّعت أن يكون الرسول منها، ولهذا تركوا الأراضي المقدسة وهاجروا إلى هذه المنطقة التي لا يرغب فيها أحد لزعمهم أنهم شعب الله المختار وأن الرسالة لا تكون إلا فيهم، فلما رأوا الآيات مجتمعة في الرسول الأكرم ﷺ كرهوا ما أنزل الله عليه وأنكروا رسالته حسداً وحقداً.

وقول المنافقين لأعداء الرسالة: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأُمْرِ﴾ إنما أرادوا بذلك أنهم يستترون بظاهر الإسلام فلا يتبعون الشرك والكفر ظاهراً، ولكنهم يعملون لهم ولصالحهم في الباطن، وهم فعلاً أطاعوهم في ما أرادوا ووصلوا بذلك إلى

بعض أهدافهم وهو عرقلة مسيرة الرسالة وإن لم يتمكنوا من إطفاء نورها، بل أتمه الله تعالى ليستنير به البشر الطالب للهداية طيلة القرون المتמادية. وقد ورد مثل ذلك في سورة الحشر، قال تعالى: ﴿الْمَ تَرَى إِلَى الَّذِينَ تَأْفَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾^١.

﴿والله يعلمُ إسرارَهُمْ﴾ تهديد وتوبيخ، فالمشكلة لديهم تكمن في عدم إيمانهم بالله تعالى وعدم معرفتهم بأنه علام الغيوب، ومن الغريب أن الإنسان يحاول أن يتغلب على إرادة الله تعالى، فالذين آمنوا به أيضاً تنقصهم المعرفة، قال تعالى في حكاية حال اليهود: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِغَضَمٍ إِلَى بُغْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾^٢ ومثلهم إخوانهم المنافقون، حيث كانوا يظنون أن بإمكانهم التخفي عن الله تعالى والمكيدة به وبدينه، ولا يعلمون أنه تعالى يعلم إسرارهم. والإسرار مصدر بمعنى الإخفاء.

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّيْتُهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَارَهُمْ﴾، أي فكيف حالهم يوم تتوفاهم الملائكة وتقبض أرواحهم، حيث يضربون وجوههم وأذبارهم. وضرب الوجوه والأذبار كناية عن التعذيب والهلك والتحقير، حيث إن الأجسام تفقد الإحساس بعد الموت، وربما يفقد الإنسان معالم جسمه حين الموت، فليس هناك وجوه وأذبار. والتوفي عبارة عن أخذ الشيء كاملاً، وفيه إشارة إلى أن

١. الحشر (٥٩): ١١.

٢. البقرة (٢): ٧٦ - ٧٧.

حقيقة الإنسان متقومة بروحه وهي نفسه الناطقة، والملائكة وكلها الله تعالى لقبض الأرواح البشرية حين الموت تشريفاً للروح الإنسانية، ولكن الإنسان بسوء عمله يوجب لنفسه الهلك والمذلة. وقد ورد نظير هذه الآية في عاقبة الكفار في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَارُهُمْ وُذُقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ﴾^١.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾، ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ضرب الوجوه والأدبار حين التوفي، ويلاحظ أن آية الأنفال الآتية الذكر الواردة في الكفار ذكر فيها تعليل هذا الأمر بأعمالهم وما قدمت أيديهم، فالظاهر أن المنافقين حيث أظهروا الإيمان وشاركوا المؤمنين في بعض الأعمال، فربما يتوهم أن أعمالهم توجب فرقا بينهم وبين الكفار من حيث العاقبة، فالآية هنا تبين أن الله تعالى أحبط أعمالهم، لأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه، فكانت عاقبتهم كعاقبة الكفار.

وفسرت متابعة ما أسخط الله تعالى بمتابعة الأهواء - كما في الميزان^٢ - ولكن الظاهر أن متابعة الهوى بنفسها لا تستلزم دائماً سخط الله سبحانه وإن كانت مذمومة، بل هي أم الفساد، ولكن ليست كل متابعة للهوى بهذه المنزلة حتى توجب حبط الأعمال وإلا لم يبق للمؤمنين عمل، فإن الفائز بترك متابعة الهوى مطلقاً من أخص الخواص، فالظاهر أن المراد بها في هذا المقام متابعة أعداء الدين والمشاركة في المكائد التي كانت تحاك من قبل المشركين واليهود ضد

١. الأنفال (٨): ٥٠ - ٥١.

٢. راجع: الميزان في تفسير القرآن ١٨: ٢٤٢.

الرسالة المجيدة، وإن كانت متابعة ما أسخط الله التي توجب حبط الأعمال أعمّ من ذلك.

ولذلك عطف عليه أنهم كرهوا رضوانه، فهناك فرق بين عدم الاهتمام بتحصيل رضاه تعالى، لأنه يتنافى مع المشتبهات والملاذات، وبين كراهة رضوانه؛ ولا مبرّر للقول بأن المراد كراهة ما يوجب رضوانه من الطاعات والأعمال، كما في التفاسير، فإنهم بناءً على ذلك لا يكرهون الطاعات بما هي طاعة، بل بما أنها تنافي أهواءهم، ومردّد ذلك إلى أنّ الكراهة ليست متعلّقة بالرضوان أساساً، وهو خلاف الظاهر من العبارة، فإنّ الظاهر منها أنّهم كرهوا نفس الرضوان واستحبّوا سخطه، فهم أعداء الله تعالى باطناً وإن أظهروا الإيمان.

وغريب أمر هذا الإنسان كيف يهوي إلى هذا المهوى السحيق، فيعادي ربّه ويغضه ويطلب غضبه، ونحن نجد في زماننا هذا من هذا القبيل أناساً يدعون العلم ويتسلّمون كراسي التدريس في الجامعات وتشمئز نفوسهم من ذكر اسم الله تعالى ويبدلون قصارى جهدهم في إنساء ذكره تعالى، وهناك من الناس من تأثروا بالإلحاد الحديث، يظهر عداؤهم لله تعالى على ألسنتهم وأعمالهم، مع أنّهم يحملون أسامي إسلامية ويعتبرون مسلمين في الهوية الشخصية، فتجد الاهتمام البليغ في أقوالهم وأفكارهم لنشر الإلحاد والكفر في المجتمع الإسلامي، وإضعاف روح الإيمان في الجيل الناشئ والشباب المسلم.

والحاصل أنّ ظاهر الآية الكريمة أنّ المنافقين أعداء الله تعالى، وإن كان هذا العداء يحصل من جهة أنّ الإيمان به تعالى يتنافى مع الأهواء والأمانى، إلا أنّ الأمر وصل بهم إلى حدّ المعاداة لفكرة التوحيد، كما نشاهده في الملحدين

الجدد، وهناك فرق بين عدم الإيمان أو ضعفه وبين معاداة الفكرة والسعي ضدها وبذل الجهد والمال في سبيل إطفاء نورها، وهذا هو ما نلاحظه في بعض الملحدّين الجدد لا كلّهم؛ وفي بعض المنافقين الجدد والقدماء. وهذا العداء حسب هذه الآية تحبط الأعمال، فلو كان لهم عمل صالح واقعاً أو ظاهراً، فإنّ الله تعالى يحبطه لمعاداتهم له تعالى. وقد مرّ بيان حبط الأعمال في تفسير الآية ٩ من نفس السورة، ونتيجة لهذا الحبط يلقون تلك العقابة المشينة والمهينة حين موافاة الأجل.

ثم إنّ إسناد الرضا والسخط إلى الله تعالى يختلف عن إسنادهما إلى غيره، فهو ليس محلاً للعوارض، وقد ورد في الحديث أنّ رضاه وغضبه ثوابه وعقابه، ومعنى ذلك أنّ هذه الصفات التي تدلّ على تبدّل الحالة في الإنسان ونحوه إذا أسندت إلى الله تعالى فإنّما يراد به حدوث الفعل منه، إذ لا تطرأ عليه حالة؛ والسبب واضح، وهو أنّ عروض الحالات وتبدّلها ينشأ من الجهل بالمستقبل، فحيث يجد الإنسان من غيره ما لا يناسب طبعه يغضب منه، كما أنّه إذا وجد منه ما يناسبه يرضى منه، والله تعالى عالم الغيب والشهادة لا تختلف عنده الأزمنة، فالماضي والحال والمستقبل كلّها حاضرة لديه. هذا من جهة، ومن جهة أخرى لا يصحّ إسناد الرضا والغضب إليه تعالى بالمعنى المتعارف وهو تناسب الشيء للطبع وعدم تناسبه، وإنّما يرضى الله تعالى بما هو خير وحسن ويكره الشرّ وفعل القبيح لا لأنّ شيئاً يناسبه وشيئاً لا يناسبه، بل لأنّ الأشياء تختلف بذاتها من جهة كونها واقعة في موقعها المناسب في الكون وعدمه.

وأما تفسير الرضا والغضب بفعل الثواب والعقاب، بمعنى نفى أصل الرضا

والغضب والحب والكراهة ونحو ذلك فهو مخالف لصريح القرآن الكريم الذي ورد فيه إسناد هذه الصفات إليه تعالى في موارد كثيرة، فهناك أناس مقربون رضي الله عنهم ورضوا عنه ويحبهم ويحبونه، وهناك أعمال يرضى بها وأمور لا يرضى بها، قال تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾، وهناك أناس ملعونون مطرودون لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم، فالقرب والبعد لديه تعالى موضع تأكيد من الآيات المباركة، ولا شك أن القرب والبعد يتبع صفات الإنسان وسجاياه وأعماله. نعم لا يحدث من الله تعالى شيء إلا الثواب والعقاب بالمعنى الأعمّ الشامل للقرب والبعد، ولا تطرأ عليه حالة الرضا والغضب ولا أي حالة أخرى.

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿١٨١﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَاعْرِفْتُهُمْ بِسِيمَاهُمْ^١ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ^٢ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿١٨٢﴾ وَلَتَبْلُوَنكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿١٨٣﴾

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾، (أم) منقطعة، ففيها معنى الإضراب والاستفهام، ولعله إضراب عن قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾، حيث يدل على أنهم توهموا أنه تعالى لا يعلم ما يدور بينهم وبين الأعداء المجاهرين بالعداء من اليهود والمشركين، فهنا أضرب عن ذلك وقال: أم أنهم لا يتوهمون ذلك، ولكن يظنون أنه تعالى لا يخرج أضغانهم وأحقادهم أبداً، حيث رأوا أن ما يدور بينهم من إظهار العداء للرسول ﷺ والمؤمنين لم يظهر لهم، فتوهموا أن الله تعالى يستر عليهم إلى الأبد، فهذه الآية تنبهم أنه ليس كذلك. وهناك ظروف تستدعي أن يفضحهم الله تعالى ويخرج أحقادهم، بل ربما يريهم الرسول ﷺ ويعرفه بهم كما ورد في الآية التالية.

ويتبين بذلك أن الاستفهام الذي تدل عليه ﴿أم﴾ إنكارى لتخطئة هذا الحساب، كما يتبين وجه الإتيان بـ ﴿لَنْ﴾ الدالة على نفي الأبد. والمراد بـ «الذين في قلوبهم مرض» المنافقون، فإنهم هم الذين كانوا يحملون حقداً دنيئاً على الرسول ﷺ والمؤمنين، ولا وجه لحمله على ضعاف الإيمان كما في «الميزان»؛^١ إذ لا موجب لحقدهم. ولعل العلامة الطباطبائي رحمه الله إنما فسره بذلك لئلا يختص بالمنافقين الذين عرفوا بالنفاق، نظراً إلى أن عنوان المنافقين خاص

بهم حسب المصطلح القرآني.

وكيف كان، فالظاهر أنّ المراد بهم المنافقون بالمعنى العام، لا خصوص من عرفوا به، بل يشمل غير المعروفين بطريق أولى، كما سيأتي إن شاء الله تعالى. ويمكن أن يكون المراد بأنّ الله تعالى يخرج أضغانهم، أنّها تظهر للناس بصورة طبيعية إذا استمرّوا عليه، كما هو الغالب، أو أنّها تظهر بوحي من الله تعالى. والضعف، الحقد الدفين الذي يحاول صاحبه اخفائه، قال في «معجم المقاييس»: إنّهُ يدلّ على تغطية شيء في ميل واعوجاج.^١ ولكن في «مفردات الراغب»: أنّه خصوص الحقد الشديد.^٢ ولم أجده لغيره.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسَيِّئَاتِهِمْ﴾، السیما مأخوذ من الوسم، أي العلامة، وهذا من تبديل مواضع الحروف، كما يقال: ما أطيبه وما ايطبه. والمراد أنّ الله تعالى لو شاء لأعلم الرسول ﷺ بعلامات محدّدة يميز بها المنافقين عن غيرهم، وظاهر الآية أنّ الله تعالى لم يشأ ذلك فلم يعرفهم بهذا الوجه، وذلك لمكان ﴿لَوْ﴾. وهذه الجملة قرينة واضحة على أنّ المراد بهم ليس خصوص من عرفوا بالنفاق الذين سقط عنهم القناع، بل الأولى أن يراد بهم خصوص من لم يعرفوا به، ولكن الظاهر من الروايات أنّ الرسول ﷺ كان يعرف القسم الثاني أيضاً بأشخاصهم، بل عرفهم لبعض أصحابه، فلعلّ المراد بالمنفي هنا تعريفهم لعامة الناس وإن كان الخطاب له ﷺ ومثله كثير.

﴿وَلَعَرَفْتَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾، اللام للقسم المحذوف، فالمعنى محقّق بكلّ تأكيد

١. معجم مقاييس اللغة ٣: ٣٦٤.

٢. مفردات ألفاظ القرآن: ٥٠٩.

وهو أنّ الرسول ﷺ بل وعامة المؤمنين يعرفونهم في لحن القول، وهذا هو الطريق الطبيعي لبروز الأضغان كما أشرنا إليه، وفي «نهج البلاغة» عن أمير المؤمنين عليه السلام: «ما أضمر أحد شيئاً إلا ظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه».^١

واللحن - كما في المفردات^٢ - صرف الكلام عن سننه الجاري عليه، والمراد به هنا صرفه عن الصراحة إلى التعريض والكنائية، وفي هذا المجال تتبين الأهداف والأحقاد، فالعدو يتحين الفرص ليلقي كلاماً ظاهره معسول وهو يكتني به عن ما يسيء إلى المخاطب ويثير عليه.

﴿وَاللَّهُ يُعَلِّمُ أَعْمَالَكُمْ﴾، ظاهره مخاطبة المؤمنين، ولكنّه تحذير للمؤمنين والمنافقين جميعاً بأنّ الله تعالى يعلم حقائق الأعمال، وكثيراً ما يعمل الإنسان عملاً ظاهره الخير وهو يقصد به البلوغ إلى مقاصد شريرة، وعامة الناس لا يعلمون ذلك فيمتدحونه، وكثيراً ما لا تظهر المقاصد من الأعمال ولا في لحن القول، فالآية تنبّه الجميع أنّه لو فرض عدم التبين من لحن القول، فإنّ الله تعالى يعلم بالنيات ولا يمكن إخفاء شيء عنه فاحذروه. وفي الآية إشارة إلى أنّ النفاق ربما يكون أمراً سارياً في أعمال بعض المؤمنين أيضاً، فلا يكفي مجرد كون الشخص ممّن لم يبرز نفاقه للعامة في خروجه عن معسكر النفاق، بل ربما يكون بعض من يعتبر من المؤمنين من أشدّ المنافقين ضغنًا وحقداً - كما قلنا - ولكنّ الناس يجهلون موضعه الحقيقي فيرفعون من شأنه، ولكنّ الله تعالى يعلم عمله وقصده وخبثه فليحذر ربّه.

١. نهج البلاغة (للصحي صالح): ٤٧٢ / ٢٦.

٢. مفردات ألفاظ القرآن: ٧٣٨.

﴿وَلْتَبْلَوْنَكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾، أي نبتليكم بالحروب وبالمشاكل الاجتماعية والاقتصادية لنتبين المؤمنين عن المنافقين، وهذا الابتلاء ربما يظهر به حقائق الناس للعامة أيضاً، فإنّ المنافق الذي يظهر الإيمان ويبرئ نفسه من النفاق يظهر ضعفه في ميادين القتال، والمؤمن بالله واليوم الآخر حقاً وصدقاً لا يخاف الموت ويلقي بنفسه في أتون الحرب، ولا يحذر من قتل الكفار أعداء الدين والرسالة، ولا يهتم أن تحمل العرب عليه الأحقاد، كما كان أمير المؤمنين عليه السلام ولكنّ المنافق وإن أظهر براءته من المنافقين والمشرّكين إلا أنّك تجده لا يضرب في الحرب سيفاً ولا يخوض المعركة خوفاً من الموت وحذراً من أن يتلى بقتل أحد من الكفار فيحقدوا عليه، هذا إذا لم يكن محباً لهم ومتورعاً عن قتلهم. ولعمري إنّ ميادين الحرب في تلك الحقبة خير مضمار لنتبين لطالب الحقّ من يخلص لله تعالى وللرسول صلى الله عليه وآله ومن يحمل الأحقاد للإسلام والمسلمين ويتربص بهم الدوائر.

والمراد بحصول العلم لله تعالى هو ظهور حقيقة الأمر، كما يتّنا ذلك مراراً، فالله تعالى لا يحدث له العلم ولا غيره من العوارض ولا يختلف عنده ما حدث وما سيحدث، ولكنّ الأثر من الثواب والقرب عند الله تعالى لا يترتب على إمكان الجهاد والصبر أو استعداد الإنسان للتضحية والجهاد، بل إنّما يترتب عليهما بالفعل، فلا بدّ من تحقيق الأرضية التي تتبين بها حقائق الضمائر وجواهر الرجال.

﴿وَلْتَبْلَوْا أَخْبَارَكُمْ﴾، الأخبار الأقوال التي تحكي عن الحوادث ونحوها، وفي التفسير أنّ المراد بها الأعمال، لأنّها ممّا يخبر بها، فالاختبار يتعلّق تارة بذات

الإنسان وأنه مجاهد وصابر أم لا، وتارة بأعماله.

ويلاحظ على هذا التفسير أولاً: أن الاختبار الأول أيضاً يتعلق بالعمل، فيكون تكراراً وتأكيداً وهو خلاف الظاهر.

وثانياً: أن ﴿تَبْلُوْا﴾ عطف على ﴿تَعْلَمُ﴾، فيكون الاختبار الثاني نتيجة للاختبار الأول وليس اختباراً في عرضه.

ولعل المراد بالأخبار هنا الدعاوي التي يتججّح بها الإنسان فيدّعي أنه مؤمن وأنه سيكون صابراً في الضراء والسرء أو يقول لغيره يجب أن تكون كذا وكذا، فهذه الدعاوي تكون منشأ للاختبار ليتبين الصادق في دعواه عن المراوغ المنافق. والأرضية الصالحة لهذا الاختبار هي ميادين الجهاد، ولذلك اعتبر هذا الاختبار نتيجة لاختبار الإنسان في خوض المعارك حيث عطف ﴿تَبْلُوْا﴾ على ﴿تَعْلَمُ﴾. فالمعنى أننا نبلوكم بالحروب ليتبين المجاهدون الصابرون ولنميز من هو صادق في دعواه عن الكاذب.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ
لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالُهُمْ ﴿٣٦﴾ * يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ
وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ
مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٨﴾ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ لَا عَلَوْنَ
وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَبْرِكَنَّ أَعْمَالُكُمْ ﴿٣٩﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ
يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالُهُمْ﴾، يعود السياق إلى ما بدأ به السورة وهو حث
المؤمنين على مواصلة الجهاد ضد الكافرين الذين يصدون عن سبيل الله
ويمنعون من انتشار الدعوة، فالظاهر أن المراد بالذين كفروا مشركو مكة، كما
هو مصطلح القرآن الكريم، ويمكن أن يشمل اليهود وغيرهم ممن اجتمعت
فيهم الصفات، ولكن لا وجه لتخصيصه باليهود كما قيل، والظاهر أن المناط في
لزوم الجهاد والمحاربة هو الصدّ عن سبيل الله والمنع من انتشار الدعوة، وأما
مجرد الكفر فلا يستوجب الحث على المواجهة. والصد: المنع.

والمشاقّة مأخوذ من الشقّ، أي القطعة، وهي كناية عن العداء، والمواجهة
على أساس أن المشاقّة بمعنى كون كلّ منهما في شق غير شق الآخر. وقيل في
وجهه غير ذلك. ومهما كان فالشقاق بمعنى العداء والمخالفة. وأساس التنديد
هنا أن الشقاق والخلاف إنما هو في مقابلة رسول ربّ العالمين بعد تبين الهدى
بمشاهدة المعاجز والآيات البينات، وإن أريد بهم اليهود، فالمراد من تبين الهدى
مشاهدة علائم النبوة الموجودة في ما لديهم من الكتب في الرسول ﷺ.

ومهما كان فهؤلاء وأولئك لن يضرّوا الله شيئاً وسيحبط أعمالهم؛ أمّا عدم الإضرار فواضح، لأنّ الله تعالى هو القاهر فوق عباده ولا يتأبى على إرادته شيء، فلو أراد لأهلك من في الأرض جميعاً، بل لا يضرّون دينه أيضاً ولا يمكنهم منع الدعوة من أن تسير سيرها الطبيعي، والغرض أنّ مشاقّتهم للرسول ﷺ وصدّهم عن سبيل الله تعالى محاولة منهم لمواجهة ربّهم، فهم في الواقع أعداء الله ولكنّهم لا يضرّون بذلك إلا أنفسهم، والله تعالى لا يتضرّر بشيء حتّى لو كفر الناس جميعاً. والظاهر بقريّة السياق أنّ المراد بحبط الأعمال هنا حبط مكائدهم ومحاولاتهم لمنع انتشار الدعوة. وقيل: إنّ المراد حبط أعمالهم الصالحة، فلا يترتّب عليها ثواب، وهو بعيد عن السياق، مع أنّه لا يختصّ بهؤلاء، بل يشمل كلّ كافر حتّى لو كان معاهداً.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾، في هذه الجملة أيضاً عود إلى السياق السابق وهو حثّ المؤمنين على الطاعة في مجاهدة الأعداء وإن كان وجوب الإطاعة عامّاً، ولكنّ التأكيد هنا على الإطاعة في مجال الدفاع عن الدين والعقيدة. ووجوب إطاعة الله ممّا يحكم به العقل، فالأمر به ليس إلا إرشاداً وتنبيهاً لحكم العقل، وليكون مقدمة للحكم بإطاعة الرسول ﷺ، ووجوبها حكم شرعي. والفرق أنّ وجوب إطاعة الله تعالى لا يمكن أن يستند إلى أمره تعالى للزوم الدور الباطل، وإنّما يستند إلى حكم العقل بلزوم اتقاء الضرر الحاصل من معصية الله تعالى حيث تتضمّن أوامره المولوية حكماً جزائياً بالعقوبة - على مبنى سيّدنا الأستاذ السيستاني حفظه الله - أو يستند إلى حكم العقل بوجوب التذلل والخضوع لله تعالى، حيث إنّ الإنسان إذا عرف ربّه مهما

كانت المعرفة فإنه يشعر بلزوم التذلل والإطاعة حباً له أو تعظيماً لمقامه، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَلَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾^١ ولعله للفرق بين الإطاعتين كرر الأمر.

﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾، تحذير للمؤمنين العاملين المطيعين لله ورسوله، فإن المرحلة الخطيرة بعد العمل هي المحافظة عليه، فربما يعمل الإنسان أفعالاً صالحة وبنية خالصة طيلة عمره، ثم يبطلها بأعمال سيئة، وهناك مجموعة من الأمور ورد ذكرها في القرآن واعتبرت محبطة للأعمال؛ منها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾^٢ ومنها ما يبطل بعض الأعمال كالمنة المبطل للصدقة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ﴾^٣ ومنها العجب والرياء حتى لو كان بعد العمل، فإن الكلام ليس في البطالان الموجب للقضاء، حيث ذكر الفقهاء عدم بطلان العمل بالرياء بعده، وإنما الكلام في عدم ترتب الأثر المطلوب عليه؛ ففي الحديث عن الإمام الباقر (عليه السلام): «يصل الرجل بصلة وينفق نفقة الله وحده لا شريك له، فتكتب له سراً، ثم يذكرها فتمحى فتكتب له علانية، ثم يذكرها فتمحى وتكتب له رياءاً»^٤ والنهي عن إبطال العمل - كما تبين - لا علاقة له ببطلان العمل فقهياً، فلا وجه لما ورد في بعض الكتب الفقهية من دلالة الآية على عدم جواز إبطال الفريضة.

١. النازعات (٧٩): ٤٠ - ٤١.

٢. الحجرات (٤٩): ٢.

٣. البقرة (٢): ٢٦٤.

٤. الكافي ٢: ٢٩٦ / ١٦.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾، هذه الآية تبين مصير الكفار المعاندين يوم القيامة وتبعث فيهم الأمل من جهة أخرى، كما هو دأب القرآن الكريم وهو مقتضى الرحمة الإلهية، فبعد كل هذا التهديد والتنديد علّق عدم المغفرة بموتهم حال الكفر، فباب التوبة مفتوح حتّى لهؤلاء المعاندين الصادّين عن سبيل الله.

﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ﴾، الفاء فصيحة تنبى عن شرط مقدّر، أي إذا تبين أنّ الله تعالى موهن كيد الكافرين وأنّهم لن يضرّوا الله شيئاً فلا تهنوا. والوهن هو الضعف. والمنهي هنا هو إظهار الضعف والمذلة، وقوله: ﴿وَتَدْعُوا﴾ عطف على تهنوا فيشمله النهي، ويبدو من السياق أنّ المنهي هو الدعوة إلى السلم وهو الصلح إذا كان منشؤها الضعف أمام طغيان المعاندين وظلمهم، فمن الواضح أنّ الحرب لم يبدأها المسلمون ولم يطلبوها، وإنّما كان همّهم نشر الدعوة ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيّ عن بينة ولم يكن بينهم وبين الطغاة الظالمين ثأر، وإنّما كان المشركون يحاربون الدعوة إلى الله كفرةً منهم وعناداً فلم يجز الصلح معهم.

﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكُمُ أَعْمَالُكُمْ﴾، جمالات حالية، أي لا تدعوا إلى السلم في هذا الحال وأنتم الأعلون، وذلك لأنّ الحرب آنذاك إنّما كان بالقوة البشرية والشجاعة والصبر والإيمان، وكلّ هذه العوامل كانت مجتمعة في معسكر المسلمين، فهم أعلى وأكثر قوّة من الكفار وإن كثر عددهم، وأهمّ ما لديهم هو الشعور بأنّ الله معهم، أي ينصرهم، كما وعد به في هذه الآيات وغيرها والله لا يخلف وعده.

وقوله: ﴿وَلَنْ يَزِيَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾، أي لن ينقص من أعمالكم شيئاً. وهو من الوتر، أي الفرد، يقال: وَتَرَ الرجلَ في أهله وماله إذا قتل قريبه من ولد أو أخ أو نحوهما أو نهب ماله كأنه أفرده عنهم، و﴿أَعْمَالُكُمْ﴾ منصوب بنزع الخافض، أي يتركهم في أعمالكم أو من أعمالكم. ومهما كان، فالغرض حث المؤمنين على مواصلة الجهاد، لأنهم هم الأعلون وأن الله معهم، ولأن كل ما يبذلونه في هذا السبيل لن يذهب سدى، فلا تجزعوا من الموت أو نقص العضو أو الخسارة المادية، فكل ما تبذلونه في هذا السبيل يوف إليكم يوم القيامة أضعافاً مضاعفة ولن ينقص الله من أعمالكم شيئاً.

إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ إِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلَكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْأَلْكُمْوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبَخَّلُوا وَتُخْرِجَ أَصْغَنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَتَأْتُمْ هَتُولَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلْ عَن نَفْسِهِ ۖ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴿٣٨﴾

﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ﴾، تأتي هذه الجملة أيضاً في سياق الترغيب في بذل المال والنفس في سبيل الله، فالذي يمنع الإنسان من التقدم في هذا المضمار هو حب الدنيا والإخلاد إليها، وهذه الآية تنبّه على عدم الركون إليها، فإنّها ليست إلا لعباً ولهواً، وكلّ ما نعمله من الأعمال الخاصّة بهذه الحياة يدخل في هذين العنوانين، وهذا هو مقتضى الحصر المستفاد من ﴿إِنَّمَا﴾، فإنّها تفيد الحصر إذا اقتضته القرينة أو مطلقاً، والسياق هنا قرينة عليه ولا يراد به حصر كلّ ما يحدث في هذه الحياة في اللهو واللعب، إذ من الواضح أنّ الأعمال الصالحة التي يأتي بها الصالحون من البشر ويقصد بها وجه الله تعالى ليس منهما، فالمراد حصر كلّ ما يطلب به شؤون هذه الحياة من دون ارتباط بالآخرة فيهما.

واللعب هو الاشتغال بما لا يترتب عليه مصلحة، وإنّما الداعي إليه الوهم كالألعاب الأطفال ويقابله الجدّ. واللهو كلّ ما يشغل الإنسان عن أمر أهمّ، وحيث إنّ المهمّ هو الحياة الأبدية والسعادة فيها، فلاشتغال بأيّ أمر آخر لا يفيد في الآخرة يعتبر لهواً، أي اشتغلاً بأمر سخيّف عن الأمر المهمّ. وإذا قيست الأعمال التي يقصد بها الدنيا إلى أعمال الآخرة نجد أنّها في الواقع لا تترتب عليها

مصلحة، بل توجب تفويت المصلحة الواقعية، والاشتغال بها ليس إلا لهواً وابتعاداً عن الأمر المهم، فالذي يأخذ الحياة بمأخذ الجد هو الذي يعمل لآخرته فحسب، حتى ما يعمل من أعمال الدنيا أيضاً يقصد بها الآخرة وإلا فهو لهو ولعب.

وهذا يشمل حتى الأعمال المفيدة للمجتمع البشري كالتطور العلمي والخدمات الطبية إذا لم يقصد بها التقرب إلى الله تعالى، فإن غاية ما تفيده هذه الأعمال هو إطالة عمر إنسان أو عمر الإنسان بصورة عامة وتأمين متطلباته في الحياة الدنيا ورفع مستواه المعيشي ونحو ذلك مما يهتم به البشر في هذه الدنيا، وكل ذلك ليس أمراً مهماً إذا قارناها بالعمل من أجل الآخرة، والسر في ذلك أن الحياة هي تلك الحياة وهذه الحياة ليست إلا ممراً ومعبراً، والإنسان فيها كمسافر تمنح له فرصة يسيرة ليتمكن فيها من جمع أكثر ما يمكن جمعه من الزاد لتلك الحياة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا هُوَ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾^١ وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذُّكْرَى * يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾^٢.

ومن هنا فإن كل ما يعمل به الإنسان في سبيل تطوير العيش في الحياة الدنيا يعد في نظر من يلاحظ الحياتين لعباً ولهواً، أي لا هدف له أصلاً أو الهدف منه الاشتغال والالتهاء بأمر تافه عن الأمر المهم، كمن يترك شأنًا هاماً من شؤون الحياة الدنيا كالدفاع عن النفس والأهل والوطن، ويشغل بالخمير والميسر

١. العنكبوت (٢٩): ٦٤.

٢. الفجر (٨٩): ٢٣ - ٢٤.

ونحوهما، فإنّ هذا لا يقبل له عذر عند العقلاء.

﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾؛ استدراك عن دور هذه الحياة في سعادة الإنسان، فالنشاط فيها وإن كان كلّ لعباً ولهواً إلا أنّ الإنسان إذا آمن برّبّه واتقى فإنّه يحصل على أجر عمله في الحياة الأبدية، فلا يكون ما عمله في هذا السبيل لعباً ولا لهواً. ولا يطلب الله تعالى من الناس أن يبدّلوا أموالهم في هذا السبيل حتّى يشقّ عليهم، فالله أعلم بحالهم ويعلم أنّ بذل المال شاقّ عليهم ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها. ولكن يقع السؤال عن أنّ بذل المال واجب شرعاً في الزكاة والخمس والنفقات الواجبة والكفّارات والهدي وما يستوجبه حفظ الثغور وغير ذلك، فكيف التوفيق؟ ويلاحظ أنّ الآية الأخيرة تصرّح بالدعوة إلى الإنفاق في سبيل الله تعالى، فهذه قرينة واضحة على أنّ المراد هنا معنى لا ينافي وجوب بذل المال في هذه الموارد.

وقد اختلف المفسّرون في تأويل الآية ورجّح الأكثر أنّ المراد أنّه تعالى لا يسألكم جميع أموالكم وقالوا: إنّهُ هو الظاهر من إضافة الجمع إلى ضمير الخطاب في قوله: ﴿أَمْوَالَكُمْ﴾، ولكن الظاهر أنّ الإضافة لا تدلّ على الاستغراق، فيصدق ﴿أَمْوَالَكُمْ﴾ على بعضها أيضاً.

وربما يقال: إنّ قوله تعالى في الآية التالية: ﴿فَيُخْفِئُكُمْ﴾ يدلّ على ذلك، لأنّ الإحفاء بمعنى المبالغة في الطلب، فكما يصدق مع الإلحاح في السؤال حتّى لو كان المطلوب قليلاً يصدق مع المبالغة من جهة كثرة المطلوب.

ولكنّه لا يقتضي أن يكون المطلوب جميع الأموال، إذ تصدق المبالغة حتّى مع كونه كثيراً شاقاً على المكلف.

ويبقى على هذا الوجه الإشكال من جهة أن مفهوم الآية بناءً على هذا التأويل هو أنه تعالى يسأل مع عدم الإيمان أو التقوى، فإن الجملة الشرطية لها مفهوم. والترم بهذا المفهوم بعضهم وقال: إن الكافر يؤخذ منه جميع أمواله، ولعل المراد به عدم حرمة ماله على المسلم. ويردّه أن هذا ليس هو المفهوم من الآية، بل مفهومها أن الله تعالى يطلب منه جميع ماله وهذا غير صحيح.

هذا مع أن المفهوم يشمل المؤمن غير المتقي، لأن مفهوم الآية بناءً على هذا التأويل هو: «وإن لم تؤمنوا وتتقوا يسألكم جميع أموالكم»، فيشمل الحكم من آمن ولم يتق الله. ولكن يمكن دفع الإشكال بأن المفهوم انتفاء مجموع الأمرين في الجزاء إيتاء الأجر وعدم السؤال، فيكفي في صدقه أن الكافر وغير المتقي لا يعطى أجراً.

هذا مع أن المطالبة بجميع الأموال أمر مستغرب جداً وغير محتمل، فيبعد جداً أن يمن الله تعالى على المؤمنين المتقين بنفيها.

وقال بعضهم: إن المراد ليس هو الجميع، بل المبلغ الكثير الذي يكون دفعه شاقاً عليهم. ولكنه بعيد، إذ يقتضي أن يكون المراد من أموالكم بعضها من دون نصب قرينة في نفس الجملة على تحديد البعض، والمفروض عدم إمكان إرادة البعض بقول مطلق، فيشمل أقل شيء ممكن لكونه خلاف الواقع.

والأقرب في معنى الآية ما ذكره بعضهم من أنه تعالى لا يسألكم شيئاً من أموالكم كأجر للرسالة، بل هو الذي يؤتيكم الأجر على أعمالكم دون أن يسألكم مالا، وإنما تدعون لتنفقوا في سبيل الله تعالى لمصلحتكم ولحفظ ثغوركم، ومع ذلك فإن الله تعالى يؤتيكم الأجر على ذلك لكون القصد أن يكون في سبيله تعالى،

فيكون نفي المطالبة بمال كأجر للرسالة مقدمة للمطالبة بالمال لمصلحتهم.

﴿إِنْ يَسْأَلُكُمْوهَا فَيُخْفِئْكُمْ تَبَخَّلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾. الضمير يعود للأموال. والإحفاء هو المبالغة في الطلب كما مرّ، والظاهر أنّ المراد به هنا الإيجاب، والله تعالى أعلم بحال خلقه، فهو يعلم أنّه إذا أوجب مالاّ عليهم يدفع للرسول ﷺ ليصرفه على نفسه وفي مصالحه الخاصّة يبخل غالب الناس عن دفعه ويشقّ عليهم ذلك وتبرز منهم الأضغان والأحقاد، كما نجده في موارد مشابهة. ويظهر من التعبير التنديد بهم من جهة البخل أولاً، ثمّ من جهة ضعف إيمانهم بحيث يحقدون على ربّهم أو على رسوله ﷺ إذا طولبوا بالمال، وهذا شأن أبناء الدنيا، والمطلوب من المؤمن أن لا يتعلّق قلبه بزخارفها فضلاً عن أن يقدمها على حبّه لله وللرسول ﷺ.

﴿هَآ أَنتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، ﴿هَآ﴾ للتنبيه وكرّرت للتأكيد، و﴿أَنْتُمْ﴾ مبتدأ خبره ﴿تُدْعَوْنَ﴾ و﴿هَؤُلَاءِ﴾ بدل عن المبتدأ، ولعلّ الإبدال لدفع توهم شمول الخطاب لسيد المخاطبين ﷺ أو للتأكيد. وقيل: ﴿أَنْتُمْ﴾ مبتدأ و﴿هَؤُلَاءِ﴾ خبره والإشارة إلى من ذكر وصفه في الآية السابقة، والجملة التالية مستأنفة. ولعلّه أتى بفعل: ﴿تُدْعَوْنَ﴾ مبنياً للمجهول تعظيماً للداعي أو للإشارة إلى أن المناط هو المدعوّ إليه وهو الإنفاق في سبيل الله ولا يهمّ دور الداعي. والجملة في مقام الاستشهاد لما ورد في الآية السابقة من أنّهم لو أمروا بالإنفاق للرسول ﷺ لبخلوا وخرجت أضغانهم، فيقول ها أنتم تدعون للإنفاق في سبيل الله وللمصلحة العامّة، فمنكم من يبخل، فكيف لو دعيتم إلى الإنفاق كأجر للرسالة؟! وقيل: إنّهُ استشهاد لبخلهم في إنفاق الجميع.

﴿فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلُ فَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَنْ نَفْسِهِ﴾. من حسن أدب القرآن أنّه لم

ينسب البخل هنا إلى أكثرهم أو إليهم على سبيل الإجمال، بل نسبه إلى بعضهم تحقيراً لشأنه وإعلاماً بأنّ الغالب ليسوا كذلك. وحيث كان الهدف من إنزال الكتب وإرسال الرسل هو تربية الإنسان والرفع من شأنه، فالدين يحاول أن يأخذ بيد هذه الفرقة القليلة أيضاً ويزيل عنهم داء البخل، فإنّ شحّ النفس مانع من الكمال، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^١، ولولا ذلك لأمكن أن يؤخذ المال من الناس قهراً، كما تفعله الأنظمة الحكومية البشرية، ولكن نظام الرسالة تحاول هداية الإنسان إلى الطريق الصحيح، فيبيّن له أنّ الإنفاق في هذا المجال إنّما هو لمصلحتك الشخصية، فكما تنفق على نفسك في المأكل والمشرب، فعليك أن تنفق لحفظ دينك وبلدك وعرضك. ولذلك فإنّ من يبخل عن الإنفاق في هذا السبيل إنّما يبخل عن نفسه ويضرّ نفسه، والإنفاق في هذا الوجه أهمّ من الإنفاق في سبيل المأكل والملبس ونحوهما. هذا مضافاً إلى أنّه يضرّ نفسه ضرراً بليغاً حيث يخسر السعادة الأبدية في الدار الآخرة ويمنع نفسه من تحصيل رضوان الله تعالى وثوابه الجزيل.

﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾، هذا تأكيد على أنّ الهدف من هذا الحث والترغيب هو تربية الإنسان ليلبغ الكمال المنشود، والله تعالى هو الغني بقول مطلق، أي لا يمكن فيه أيّ حاجة وفقر. وغناه لا حدّ له وله ملك السماوات والأرض، والخلق كلّهم فقراء والفقير ميزتهم، فكلّ مخلوق محتاج إلى غيره، فالإنسان مثلاً لا يمكنه أن يعيش بنفسه، فهو محتاج إلى طعام وماء وغيرهما، كما هو محتاج إلى غيره من الناس، بل كلّ ممكن الوجود فقير في وجوده إلى علل وجوده، وكلّ

الموجودات مفتقرة إلى الله تعالى في كيانها وبقائها.

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾، قيل: إنه معطوف على ما سبق من قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا وَتَنَقَّبُوا﴾ وأن التولي بمعنى الإعراض عن الإيمان، وعلى هذا فيكون المراد به الارتداد عن الدين، ومثله قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^١

ولكن يمكن أن يكون عطفاً على قوله: ﴿تُدْعَوْنَ لِنُفُوقُوا﴾، وتعبيراً آخر عن البخل في الإنفاق في سبيل الله تعالى، أي وإن تعرضوا عن الإطاعة في الدعوة إلى الإنفاق، فالله تعالى يستبدل قوماً غيركم، أي يهلككم ويأتي بقوم آخرين يؤمنون به وليسوا أولئك من قبيلكم، بل يطيعون ربهم ويقومون بواجبهم في حفظ ثغور المسلمين. والاستبدال على هذا يمكن أن يكون إشارة إلى نتيجة طبيعية للإمساك عن الإنفاق في سبيل الله تعالى، لأنهم إذا أمسكوا عن ذلك فهم عن بذل النفس أبخل، والنتيجة ستكون غلبة الكفار عليهم في شتى المجالات، فإما أن يهلكوا في الحرب معهم أو يبقوا فاقدين لهويتهم الدينية مغلوبين على أمرهم، فيبعث الله قوماً آخرين يرفعون راية الإسلام ويدافعون عن حريمه ويقومون بوظيفة الإبقاء على الرسالة الخالدة وإيصالها سالمة إلى الأجيال المتأخرة.

ويبقى السؤال في أنه هل تحقق هذا الشرط فحرموا من هذا المقام وحاز به آخرون أم أنه مجرد إنذار وترهيب، وأنهم قاموا بالمسؤولية بأحسن وجه وإن

أتى الله بعدهم بقوم لهم تلك الصفات المذكورة في سورة المائدة؟

وقد ورد حديث في كتب العامة - وصفوه بأنه صحيح - أن المراد بهذا القوم الفرس ونحن ننقله عن «روح المعاني» قال: والمراد بهؤلاء القوم أهل فارس، فقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني في «الأوسط» والبيهقي في «الدلائل» والترمذي وهو حديث صحيح على شرط مسلم عن أبي هريرة، قال: تلا رسول الله - صَلَّى الله عليه وسلّم - هذه الآية ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ الخ فقالوا: يا رسول الله من هؤلاء الذين إن تولينا استبدلوا بنا، ثم لا يكونون أمثالنا؟ فضرب رسول الله - صَلَّى الله عليه وسلّم - على منكب سلمان، ثم قال: «هذا وقومه، والذي نفسي بيده لو كان الإيمان منوطاً بالثريا لتناوله رجال من فارس»^١.

وفي تفسير «مجمع البيان» عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «قد والله أبدل بهم خيراً منهم الموالى»^٢ وهذا يدل على أنهم تولّوا ولم يقوموا بالواجب فأبدل الله بالفعل خيراً منهم وهم الموالى، أي غير العرب، والمراد بهم الفرس، كما يظهر من روايات عديدة منها ما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^٣.

ولعل المراد إغراضهم عن أداء الواجب بعد وفاة الرسول ﷺ حيث تركوا نصرة الإمام الذي عيّنه خليفة عليهم بعد أن بايعوه في حياته. بل تركوا نصرة أهل بيته في مقابل أعدائه القدامى حتى قتلوا واستبيحت أموالهم وكرامتهم. والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطاهرين.

١. روح المعاني ١٣: ٢٣٦.

٢. مجمع البيان في تفسير القرآن ١٠ - ٩: ١٦٤؛ راجع: الميزان في تفسير القرآن ١٨: ٢٥٠.

٣. الجمعة (٦٢): ٣.

تفسير سورة الفتح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ
نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا ﴿٣﴾

سورة الفتح سورة مدنية كما هو واضح من مضامينها بمعنى أنها نزلت بعد الهجرة وإن ورد في الروايات أنها نزلت في طريق عودة الرسول ﷺ من الحديبية وتناول السورة قصّة صلح الحديبية وأنه الفتح المبين، وتعرض لما حدث للمسلمين قبله وبعده ولمبايعتهم الرسول ﷺ تحت الشجرة وهي بيعة الرضوان، وتعرض أيضاً للمخلفين من الأعراب وحكمهم، وتنتهي السورة بمدح بليغ للرسول ﷺ والذين معه.

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾، الخطاب للرسول الكريم ﷺ والتعبير بالفتح يدلّ على أنّ هناك انغلاقاً قبل ذلك، ولا شك أنّ التعبير بالفتح كنائي في مثل فتح البلدان بمعنى السيطرة عليها، ولعلّ الأصل فيه أنّ البلد كان له في القديم بوابات، والعسكر المهاجم إنّما يسيطر على البلد إذا تمكن من فتح البوابة، فاعتبر كلّ

سيطرة على البلد فتحاً، ثم كل غلبة في الحرب فتحاً. وفي مورد نزول الآية أيضاً لا بد من أن يكون هناك انغلاق على الرسول ﷺ والمؤمنين ففتح الله تعالى لهم. واللام للتعليل، أي فتحنا من أجلك. و«فتحاً» مفعول مطلق. ووصفه بأنه فتح مبين بمعنى أن كونه فتحاً أمر واضح بين لكثرة فوائده وغنايمه.

والسؤال أنه ما هو هذا الفتح المبين؟

ليس هناك اختلاف في أن السورة نزلت بعد صلح الحديبية وبشأنه، وفي آياتها شواهد على ذلك، والروايات بهذا الصدد كثيرة أيضاً، وإنما الاختلاف في المراد بالفتح في هذه الآية؛ فإن المعروف أن المراد به صلح الحديبية وتدل عليه روايات، ولكن بعضهم كالزمخشري قال: «إن المراد به فتح مكة، وقيل: فتح خيبر، وقيل: الفتح العام والغلبة النهائية، وقيل: الغلبة المعنوية».^١ والسرف في كل ذلك واحد وهو استبعاد أن يعبر عن الصلح بالفتح.

ومن الغريب أن هذا الاستبعاد بدا من بعض الصحابة في ذلك الوقت، ولعله كان بعد تعبير الرسول ﷺ عنه بأنه فتح. فقد روى في «الدر المنثور» عن البيهقي، قال: أقبل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الحديبية راجعاً، فقال رجل من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: والله ما هذا بفتح، لقد صُدِدنا عن البيت وصُدَّ هدينا، وعكف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالحديبية وردَّ رجلين من المسلمين خرجا، فبلغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قول رجال من أصحابه: إن هذا ليس بفتح، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «بئس الكلام، هذا أعظم الفتح لقد رضي المشركون أن يدفَعوكم بالراح [جمع

١. راجع: الكشف عن حقائق غوامض التنزيل ٤: ٣٣١ - ٣٣٣.

راحة أي الأكف] عن بلادهم ويسألوكم القضية ويرغبون إليكم في الإياب، وقد كرهوا منكم ما كرهوا، وقد أظفركم الله عليهم، وردكم سالمين غانمين مأجورين، فهذا أعظم الفتح. أنسيتم يوم أحد: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ﴾^١ وأنا أدعوكم في أخراكم، أنسيتم يوم الأحزاب: ﴿إِذْ جَاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾^٢ قال المسلمون: صدق الله ورسوله هو أعظم الفتوح، والله يا نبي الله ما فكرنا فيما فكرت فيه ولأنت أعلم بالله وبالأمر منا. فأنزل الله سورة الفتح.^٣

ويظهر من الحديث أن ذلك كان رأي جمع كثير منهم، ويظهر من الروايات أن الجوّ العامّ كان جوّ استياء ممّا حدث وشعور بالهزيمة والضيم والمذلة. ويلاحظ أن الأصحاب رجعوا عن رأيهم بعد بيان الرسول ﷺ وخصوصاً بعد نزول الآية، ولكن بعض المفسّرين بقوا على نفس الفكرة واستبعدوا أن يراد بالفتح الصلح، خصوصاً بعد شعورهم بأنّ الصلح فرض على الرسول ﷺ ولم يكن راغباً فيه، مع أن هذا خطأ كبير، والصلح كان هو الهدف الأساس للرسول ﷺ ولكلّ رسول في كلّ زمان، فإنّ الرسول لا يقصد السيطرة على الناس وليست الحكومة هدفاً لأصحاب الرسالات، بل هدفهم نشر هدايات الله تعالى بين الناس وهذا الأمر لا يتمّ إلا في ظلّ الهدوء والسلام والأمن. والرسول لا يطلبون حرباً ابتداءً أبداً، وإنما تفرض عليهم فرضاً فما حصل عليه الرسول ﷺ

١. آل عمران (٣): ١٥٣.

٢. الأحزاب (٣٣): ١٠.

٣. الدر المنثور ٦: ٦٨.

كان أعظم من كلّ ما اغتنمه في سائر الحروب، بل لا يقاس ذلك بالغنائم والفتوح المتعارفة أبداً، فأحسن تعبير عنه هو التعبير الإلهي: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾^١.

ولذلك ورد في حديث عنه عليه السلام «لقد أنزلت عليّ الليلة سورة أحبّ إليّ من الدنيا وما فيها: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾»^٢ وفي «الدرّ المنثور»: «وأخرج البيهقي عن المسور ومروان في قصّة الحديبية قالاً: ثمّ انصرف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - راجعاً فلمّا كان بين مكّة والمدينة نزلت سورة الفتح من أولها إلى آخرها، فلمّا أمن الناس وتفاوضوا لم يكلم أحداً بالإسلام إلا دخل فيه، فلقد دخل في تلك السنين في الإسلام أكثر ممّا كان فيه قبل ذلك، فكان صلح الحديبية فتحاً عظيماً»^٣ وفي «جوامع الجامع» عن الزهري: «لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية، وذلك أنّ المشركين اختلطوا بالمسلمين فسمعوا كلامهم فتمكّن الإسلام في قلوبهم وأسلم في ثلاث سنين خلق كثير كثير بهم سواد الإسلام»^٤.

وفي صلح الحديبية روايات كثيرة ننقل إحداها عن «مجمع البيان» قال: خرج رسول الله ﷺ من المدينة في بضع عشرة مائة من أصحابه حتّى إذا كانوا ببذي الحليف قلّد رسول الله ﷺ الهدى وأشعره وأحرم بالعمرة وبعث بين يديه عيناً له من خزاعة يخبره عن قريش. وسار رسول الله ﷺ حتّى إذا كان بغدير الأشطاط

١. الفتح (٤٨): ١.

٢. راجع: الأمل في تفسير كتاب الله المنزل ١٦: ٤٠٩؛ بحار الأنوار ٣٠: ٥٦٥.

٣. الدرّ المنثور ٦: ٦٨ - ٦٩.

٤. جوامع الجامع ٤: ١٣٢.

قريباً من عسفان أتاه عينه الخزاعي، فقال: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي قد جمعوا لك الأحابيش وجمعوا جموعاً وهم قاتلوك أو مقاتلوك وصادوك عن البيت، فقال ﷺ «روحوا»، فراحوا حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال النبي ﷺ «إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش طليعة فخذوا ذات اليمين». فسار حتى إذا كان بالثنية بركت راحلته فقال ﷺ «ما خلأت القصواء - خلأت: بركت من دون علّة والقصواء اسمها - ولكن حبسها حابس الفيل». ثم قال: والله لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمان الله إلا أعطيتهم إياها، ثم زجرها فوثبت به.

قال: فعدل حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء إنما يتبرّضه الناس تبرّضاً - أي يأخذونه قليلاً قليلاً - فشكوا إليه العطش فانتزع سهماً من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوه في الماء، فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه. فبينما هم كذلك إذ جاءهم بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة، وكانوا عيبة نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة، فقال: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي ومعهم العوذ المطافيل - أي النساء والصبيان، العوذ جمع عائذ: المرأة أو كل أنثى ولدت لسبعة أيام، سميت بذلك لأنّ ولدها يعوذ بها، والمطافيل جمع مُظفل: المرأة التي معها طفلها - وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت، فقال رسول الله ﷺ «إنّا لم نجى لقتال أحد، وإنّا جئنا معتمرين وإنّ قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم، فإن شاءوا ماددتهم مدّة ويخلوا بيني وبين الناس، وإن شاءوا أن يدخلوا فيها دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جئوا - بفتح الجيم وتشديد الميم المضمومة، أي استراحوا - وإن أبوا فالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي - يكنى به عن الموت والسالفة أعلى العنق - أو لينفذن الله تعالى أمره»، فقال بديل: سأبلغهم ما تقول.

فانطلق حتّى أتى قريشاً، فقال: إنا قد جئناكم من عند هذا الرجل، وإنّه يقول: كذا وكذا. فقام عروة بن مسعود الثقفي فقال: إنّه قد عرض عليكم خطّة رشد فاقبلوها ودعوني آتته، فقالوا: آتته، فأتاه فجعل يكلم النبي ﷺ فقال له رسول الله ﷺ نحواً من قوله لبديل - إلى أن قال - ثمّ إنّ عروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ إذا أمرهم رسول الله ﷺ ابتدروا أمره، وإذا توضعوا ثاروا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يحلّون إليه النظر تعظيماً له.

قال: فرجع عروة إلى أصحابه وقال: أي قوم والله لقد وفدت على الملوك ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إن رأيت - أي ما رأيت - ملكاً قطّ يعظّمه أصحابه ما يعظّم أصحاب محمد، إذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضعوا كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يحلّون إليه النظر تعظيماً له، وإنّه قد عرض عليكم خطّة رشد فاقبلوها.

فقال رجل من بني كنانة: دعوني آتته، فقالوا: آتته، فلمّا أشرف عليهم قال رسول الله ﷺ: «هذا فلان وهو من قوم يعظّمون البدن فابعثوها»، فبعثت له واستقبله القوم يلّبون فلمّا رأى ذلك، قال: سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يُصدّوا عن البيت. فقام رجل يقال له مكرز بن حفص، فقال: دعوني آتته، فقالوا: آتته، فلمّا أشرف عليهم، قال النبي ﷺ: «هذا مكرز وهو رجل فاجر»، فجعل يكلم النبي ﷺ فيبينما هو يكلمه إذ جاء سهيل بن عمرو، فقال ﷺ: «قد سهل عليكم أمركم» فقال: اكتب بيننا وبينك كتاباً. فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب، فقال له رسول الله ﷺ: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم» فقال سهيل: أمّا الرحمن فوالله ما أدري ما هو؟ ولكن اكتب باسمك اللهم، فقال المسلمون: والله لا نكتب إلا بسم الله

الرحمن الرحيم، فقال النبي ﷺ: «اكتب باسمك اللهم، هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله» فقال سهيل: لو كنّا نعلم أنّك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب محمد بن عبد الله، فقال رسول الله ﷺ: «إني لرسول الله وإن كذبتُموني»، ثم قال لعليّ: «امح رسول الله»، فقال: «يا رسول الله إنّ يدي لا تنطلق بمحو اسمك من النبوة»، فأخذه رسول الله ﷺ فمحاها.

ثم قال: «اكتب هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو واصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهنّ الناس ويكفّ بعضهم عن بعض، وعلى أنّه من قدم مكة من أصحاب محمد حاجاً أو معتمراً أو يتغي من فضل الله فهو آمن على دمه وماله، ومن قدم المدينة من قريش مجتازاً إلى مصر أو إلى الشام فهو آمن على دمه وماله، وإنّ بيننا عيبة مكفوفة - لعلّه كناية عن عدم الغدر، فالعية الوعاء، ومكفوفة أي معقودة - وآته لا إسلال ولا إغلال - أي لا سرقة ولا خيانة -، وآته من أحبّ أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحبّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه». فتواثب خزاعة، فقالوا: نحن في عقد محمد وعهده، وتواثب بنو بكر، فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم. فقال رسول الله ﷺ: «على أن تخلّوا بيننا وبين البيت فنطوف»، فقال سهيل: والله ما تتحدّث العرب أنّا أخذنا ضغطة ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب.

فقال سهيل: على أنّه لا يأتيك منّا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا، ومن جاءنا ممّن معك لم نرده عليك، فقال المسلمون: سبحان الله كيف يُردّ إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟ فقال رسول الله ﷺ: «من جاءهم منّا فأبعده الله، ومن جاءنا منهم رددناه إليهم، فلو علم الله الإسلام من قلبه جعل له مخرجاً».

فقال سهيل: وعلى أنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة، فإذا كان عام قابل خرجنا عنها لك فدخلتها بأصحابك، فأقمت بها ثلاثاً ولا تدخلها بالسلاح إلا السيوف في القراب وسلاح الراكب، وعلى أن هذا الهدى حيث ما حبسناه محلّه لا تقدّمه علينا، فقال: نحن نسوق وأنتم تردون. فبينا هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده قد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه أن تردّه، فقال النبي ﷺ «إنا لم نقض بالكتاب بعد»، قال: والله إذاً لأصالحك على شيء أبداً، فقال النبي ﷺ «فأجره لي»، فقال: ما أنا بمجير له لك، قال: «بلى فافعل»، قال: ما أنا بفاعل؛ قال مكرز: بلى قد أجرناه؛ قال أبو جندل بن سهيل: معاشر المسلمين أأرد إلى المشركين وقد جئت مسلماً، ألا ترون ما قد لقيت وكان قد عذّب عذاباً شديداً. فقال عمر بن الخطاب: والله ما شككت مذ أسلمت إلا يومئذٍ فأتيت النبي ﷺ فقلت: أأست نبي الله؟ فقال: «بلى»، قلت: أألسنا على الحقّ وعدوّنا على الباطل؟ قال: «بلى»، قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذا؟ قال: «إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري» قلت: أولست كنت تحدّثنا أنا سنأتي البيت ونطوف حقاً؟ قال: «بلى، أناخبرتك أنا نأتيه العام؟» قلت: لا، قال: «فإنك تأتيه ونطوف به»، فنحر رسول الله ﷺ بُدنه فدعا بحالقه فحلّق شعره. الحديث.^١

﴿لِيَعْرِفَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾؛ اللام للتعليل كما هو ظاهر اللفظ. وظاهر العبارة أن الفتح سبب لأربعة أمور: الغفران وإتمام النعمة والهداية والنصر. وحيث استغرب بعض المفسرين أن يكون الفتح سبباً للغفران، حاولوا تأويل

الآية بوجوه ركيكة لا حاجة إلى ذكرها؛ وقد استقصاها العلامة الطباطبائي رحمته الله في تفسير «الميزان» وردّها.^١ والسبب في هذا الاستغراب هو توهم أنّ الذنب هنا بمعناها المتبادر، أي المعصية، وأنّ الغفران بمعنى العفو، فالاستغراب على هذا في محله، فإنّ إسناد المعصية إلى الرسول صلّى الله عليه وآله منافي للعصمة فحاولوا تأويله.

ولكنّ الصحيح أنّ الذنب ليس بمعنى المعصية وإن ورد كذلك في كثير من كتب اللغة، ولكنّ الوجه في التعبير به عن المعصية أو الجريمة هو ما يستتبعه من الذمّ أو الجزاء، قال العسكري في «الفروق»: «الذنب ما يتبعه الذمّ أو ما يتّبع عليه العبد من قبيح فعله، وذلك أنّ أصل الكلمة الاتباع»،^٢ وقال الراغب في «المفردات»: «الذنب في الأصل الأخذ بذنب الشيء، يقال: ذنبته، أي أصبت ذنبه، ويستعمل في كلّ فعل يستوخم عقابه اعتباراً بذنب الشيء، ولهذا يسمّى الذنب تبعه اعتباراً لما يحصل من عاقبته». ^٣ فالمراد به هنا تبعه الأعمال في الدنيا، وقد يكون العمل واجباً شرعياً إلا أنّه يستوجب تبعات غير محمودة للإنسان في المجتمع، ومعنى الغفران ستر هذه التبعات بمعنى المنع من تأثيرها الأثر غير المحمود.

ومثله ما حصل لموسى عليه السلام فإنّه أدّى واجباً عليه وهو نصرة المؤمن على الكافر، وحيث أدّى إلى قتله — ولعلّه لم يقصد القتل — فاعتبر ذلك ذنباً لما يستتبع من مشاكل في المجتمع، فاستغفر ربّه فغفر له، وليس معنى الاستغفار الندم على ما حصل، ولذلك لما غفر له، قال عليه السلام: ﴿رَبِّ بِمَا أَتَعَمْتُ عَلَيْكَ فَلَنْ أَكُونَ

١. راجع: الميزان في تفسير القرآن ١٨: ٢٥٣ - ٢٥٦.

٢. الفروق في اللغة: ٢٢٨.

٣. مفردات ألفاظ القرآن: ٣٣١.

ظَهيراً لِلْمُجْرِمِينَ»؛^١ ومعناه أَنَّهُ سِيَسْتَمِرُّ فِي الدِّفَاعِ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ حَيْثُ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى فِي عَوْنِهِ وَيُدَافِعُ عَنْهُ وَيَحْفَظُهُ مِنْ كَيْدِ الْأَعْدَاءِ. وَلِذَلِكَ أَيْضاً اعْتَبَرَهُ ذَنْباً لَهُمْ عَلَيْهِ كَمَا قَالَ: ﴿وَكُنتُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾،^٢ فَهُوَ ذَنْبٌ فِي نَظَرِهِمْ.

وَالْمُرَادُ هُنَا أَيْضاً مَا صَدَرَ مِنَ الرَّسُولِ ﷺ بِالنِّسْبَةِ لِقُرَيْشٍ فِي مَكَّةَ وَبَعْدَ ذَلِكَ فِي الْمَدِينَةِ مِنْ تَسْفِيهِ آرَائِهِمْ وَتَحْقِيرِ آلِهَتِهِمْ وَالِاسْتِخْفَافِ بِكِبَرَائِهِمْ وَتَقَالِيدِهِمْ، وَدَعْوَتِهِمْ إِلَى التَّوْحِيدِ وَإِلَى الْإِعْتِرَافِ بِنَبَوِّتِهِ، فَالْمُرَادُ بِمَا تَقَدَّمَ هُوَ مَا تَقَدَّمَ عَلَى الْهَجْرَةِ، حَيْثُ كَانَ الرَّسُولُ ﷺ تَحْتَ ضَغْطِ الْمُشْرِكِينَ فِي مَكَّةَ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَأَلْ جَهْداً فِي التَّنْذِيرِ بِأَعْمَالِهِمْ وَتَسْفِيهِ كِبَرَائِهِمْ، وَبِمَا تَأَخَّرَ مَا صَدَرَ مِنْهُ ﷺ فِي الْمَدِينَةِ مِنْ مُحَارِبَتِهِمْ وَكَسْرِ شَوْكِهِمْ فِي الْمَنْطَقَةِ الْعَرَبِيَّةِ.

وَالْمُرَادُ بِالْمَغْفَرَةِ سَتْرُ هَذِهِ التَّبَعَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ بِالْفَتْحِ وَالنَّصْرِ وَالْغَلْبَةِ، فَإِنَّ عَامَّةَ النَّاسِ - كَمَا هُوَ الْمَشْهُودُ - تَبْهَرُهُمُ الْقُوَّةُ وَالْغَلْبَةُ، فَإِذَا قَامَ أَحَدٌ بِثَوْرَةٍ لِتَغْيِيرِ الْمَعَايِيرِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَلَمْ يَنْجَحْ، بَلْ اسْتَوْصَلَتْ ثَوْرَتُهُ وَصَارَ سَبَباً لِقَتْلِ جَمَاعَةٍ وَسَجَنَ آخَرِينَ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْمَشَاكِلِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ الَّتِي تَحْصُلُ فِي الثَّوَرَاتِ، فَإِنَّ عَامَّةَ النَّاسِ، بَلْ حَتَّى الْخَاصَّةَ مِنْهُمْ غَالِباً يَعْيَرُونَهُ وَيَعْتَبِرُونَ مَا قَامَ بِهِ جَرِيمَةً اجْتِمَاعِيَّةً لَا تَغْفَرُ حَتَّى لَوْ كَانَتْ دَعْوَتُهُ حَقَّةً، وَأَمَّا إِذَا تِمَكَّنَ مِنْ قَلْبِ النِّظَامِ وَالسِّيَاطِرَةِ عَلَى الْوَضْعِ وَتَغْيِيرِ الْمَعَايِيرِ، فَإِنَّهُمْ يَعْتَبِرُونَهُ بَطْلاً قَوْمِيّاً وَإِمَاماً مُتَّبِعاً. وَهَكَذَا كَانَ الْوَضْعُ الْعَامُّ لَدَى قُرَيْشٍ وَالْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِالنِّسْبَةِ لِلرَّسُولِ ﷺ.

وَبِذَلِكَ يَرْتَفِعُ الْإِشْكَالُ مِنْ جِهَةِ إِسْنَادِ الذَّنْبِ إِلَى الْمَعْصُومِ وَمِنْ جِهَةِ تَعْلِيلِ

١. القصص (٢٨): ١٧.

٢. الشعراء (٢٦): ١٤.

الفتح بالمغفرة، وذلك لأنَّ الفتح والغلبة يبرِّز ما قام به صاحب الثورة من تغيير للسنن الاجتماعية ومخالفة للتقاليد الموروثة، كما نجده في جميع المجتمعات والعصور، وهذا ما صرَّح به الإمام الرضا عليه السلام في جواب المأمون حيث قال للإمام عليه السلام: فأخبرني عن قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿لِيُغْفَرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ قال الرضا عليه السلام: «لم يكن أحد عند مشركي مكَّة أعظم ذنباً من رسول الله ﷺ لأنهم كانوا يعبدون من دون الله ثلاثمائة وستين صنماً، فلما جاءهم ﷺ بالدعوة إلى كلمة الإخلاص كبر ذلك عليهم وعظم، وقالوا: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إلهاً واحداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ * وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ * ما سمعنا بهذا في المِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنَّ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ»^١ فلما فتح الله عزَّ وجلَّ على نبيِّه مكَّة، قال له: يا محمَّد إنا فتحنا لك مكَّة فتحاً مُبيناً ليغفر لك الله ما تقدَّم من ذنبك وما تأخر عند مشركي أهل مكَّة بدعائك إلى توحيد الله فيما تقدَّم وما تأخر؛ لأنَّ مشركي مكَّة أسلم بعضهم وخرج بعضهم عن مكَّة، ومن بقي منهم لم يقدر على إنكار التوحيد عليه إذا دعا الناس إليه، فصار ذنبه عندهم في ذلك مغفوراً بظهوره عليهم» فقال المأمون: لله درك يا أبا الحسن.^٢

وظاهر الحديث أنَّ المراد بالفتح فتح مكَّة وهو خلاف ظاهر الآية كما مرَّ، ولعلَّه سهو من الراوي، ويمكن أن يعتبر صلح الحديبية فتحاً لمكة أيضاً؛ لأنَّه من مقدماته. ولذلك قال جابر بن عبد الله الأنصاري - رضوان الله عليه - على ما روي: «ما كنَّا نعدّ فتح مكَّة إلا يوم الحديبية».^٣

١. ص (٣٨): ٥ - ٧.

٢. عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٨٠.

٣. جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٢٦.

وفي الآية التفات حيث أسند الفتح إلى ضمير المتكلم مع الغير: «إِنَّا فَتَحْنَا»، ثم أسند الغفران وما بعده إلى الله تعالى: «لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ» وكان مقتضى السياق أن يقال: «لنغفر لك»، ولعل الوجه فيه أن الغفران وما بعده أغراض ومصالح مترتبة ومقصودة لله تعالى بالذات، فكان الأنسب أن يسند إلى الذات المتعالية، وأما الفتح فهو متوقّف على عوامل طبيعية عديدة وأرضية صالحة وإن كان مراد الله تعالى أيضاً، ولكنه لا يتحقّق إلا بأسبابه العادية المؤثّرة بإرادته تعالى، والظاهر أن القرآن الكريم ينسب ما كان كذلك إلى ضمير المتكلم مع الغير، إيذاناً بأنّه أمر طبيعي حدث في موعده المحدّد بأسبابه العادية والعوامل المؤثّرة بإرادته تعالى.

«وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ»، لا يبدو من الآية الاختصاص بنوع من النعم، فيمكن أن يكون المراد النعمة بالمعنى العام، الشامل لكلّ النعم المادية والمعنوية إلا أن مقتضى التعليل أن يكون المراد بالنعمة ما يترتّب على الفتح والغلبة، فلعلّ المراد خصوص ما يتعلّق بانتشار الدعوة واستسلام المشركين في الجزيرة العربية لحكم الرسول ﷺ.

ولكن إذا لاحظنا أن الله تعالى اعتبر نصب أمير المؤمنين (عليه السلام) يوم الغدير ولياً وإماماً للمسلمين إكمالاً للدين وإتماماً للنعمة بقوله تعالى: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً»^١ فلا يبعد أن يكون المراد بإتمام النعمة هنا أيضاً هذا المعنى، وهذه النعمة وإن كانت عامّة لجميع المسلمين والله تعالى منّ عليهم جميعاً بها، حيث قال: «وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ» إلا أن الرسول ﷺ حظي بها أكثر من غيره، كما هو واضح.

والغرض من الآية - بناءً على ذلك - أن هذا الفتح هياً الأرضية الاجتماعية الصالحة لهذا النصب الخطير، حيث كان الرسول ﷺ يحذر الفتنة وعدم تقبل المجتمع لذلك، حتى أنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾^١، وكما كان الفتح علة للغفران الاجتماعي كذلك هو سبب لتقبل المجتمع مثل هذا النصب الإلهي المثير للأحقاد الجاهلية. وقد جاء إعلان هذا النصب المبارك بعد صلح الحديبية وفي حجة الوداع.

﴿وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ الصراط هو الطريق، وأصله السراط أبداً صاداً لتناسب الطاء وهو من سطر الطعام إذا ابتلعه، كأن الطريق يتلغ السائر فيه ويغيبه عن الأنظار. والاستقامة بمعنى عدم الانحراف عن الحق، وليس بمعنى كونه خطأً مستقيماً في مقابل الخطوط المنحنية، وهذا تعبير متعارف عن الطريق الصحيح الذي لا ينحرف عن الحق إلى جهة أخرى.

وقد اختلفوا في المراد بهدايته ﷺ إلى صراط مستقيم، حيث إنه كان مهدياً إليه منذ أن بعث، فقيل: إن المراد الزيادة في هدايته بتشريع أحكام أخرى؛ وقيل: المراد تثبيتته على الصراط؛ والصحيح أن الإنسان مهما بلغ علماً وكمالاً، فإنه لا يستغني عن هداية الله تعالى إلى الصراط المستقيم في جميع شؤونه باستمرار، ومن هنا فإن الواجب على كل مسلم أن يكرر يومياً عدة مرات ضمن صلاته: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ والرسول ﷺ أحوج ما يكون إلى هذه الهداية، فإن أقل خطأ منه في سبيل الدعوة يسبب كارثة في الدين، فاحتياجه إلى هداية الله تعالى

في كل حركة وسكون في هذا المضمار أكثر وأكبر. هذا ولكن مقتضى التعليل أن يكون المراد ما هو مناسب للفتح والغلبة، فالظاهر أنه الصراط المستقيم الموصل إلى المقصود في نشر الدعوة، وهو التمكن من إيصال الرسالة إلى شتى أقطار العالم لتتم الحجة على الناس وإن كانت الحاجة إلى الهداية أوسع من ذلك.

﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نُصْرًا عَزِيزًا﴾. العزيز من العزة وهي القوة والشدة والصلابة، يقال: أرض عزاز إذا لم تؤثر فيها المعاول، ويعبر به عن الغالب الذي لا يمنع من تحقق ما يريده شيء، وعلى الشيء النادر الذي لا يوجد مثله أو قلما يوجد، والظاهر أن توصيف النصر به هنا بهذا المعنى، لأنه نصر لا مثل له أو يندر أن يحصل لأحد، ولعل المراد الانتصار الذي تحقق للرسول ﷺ في فتح مكة، فإن صلح الحديبية مقدمة له، ولعل العزة فيه من جهة أن الله تعالى أذل له الرقاب دون حرب و قتال.

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لَيَرَدَّادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ ۖ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۖ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٢﴾ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ ۚ بِاللَّهِ ظَنِّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٣﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَكِيمًا ﴿٤﴾

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾. السكينة من السكون وهو الاطمئنان والاستقرار. والإنزال من الله تعالى إيجاد للشيء، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثِمَآثِيَّةَ أَزْوَاجٍ﴾^١، ومثله قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾^٢، وكل خلق من الله تعالى إنزال من سماء الأمر والملكوت إلى أرض الخلق.

وكان المؤمنون في سفر العمرة الذي انتهى إلى صلح الحديبية بأمر الحاجة إلى هذه السكينة بعد ما أقلقهم الوضع غير المتوقع، حيث إنهم خرجوا لأجل العمرة وحرّموا منها، وكانوا يتوقعون وفقاً للرؤيا التي رآها النبي ﷺ - كما ورد في آخر السورة - أن يوقفوا للعمرة في تلك السنة، ورأوا ما لم يتوقعوه فمُنِعُوا من الاعتمار، وصالح النبي ﷺ المشركين وتنازل لمندوبهم في كلّ ما أراد في وثيقة الصلح، فمسح بالبسملة، ومسح وصف رسول الله عن اسمه الكريم، ورضي

١. الزمر (٣٩): ٦.

٢. الحديد (٥٧): ٢٥.

أن يردّ إلى المشركين من أسلم منهم، واستجار بالمسلمين، فرأى كثير منهم أنّ هذا الصلح مذكّة، وشكّ بعضهم في الدين وتزلزلت عقائدهم، فأنزل الله السكينة والاطمئنان عليهم ليزول عنهم الشكّ والاضطراب ويزدادوا إيماناً.

﴿لِيَزِدَّادُوا إِيْمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ﴾، اللام للتعليل ويظهر منه أنّ الغرض من إنزال السكينة لم يكن إزالة الشكّ العارض فحسب، بل الغرض أن يزداد إيمانهم. وقد وقع البحث والكلام لدى المفسّرين والمتكلّمين في أنّ الإيمان هل هو ممّا يقبل الزيادة والنقصان أم لا؟ والأكثر يقولون بقبوله الزيادة كما هو واضح، ولكن ذهب جماعة - منهم على ما يقال أبوحنيفة - إلى عدم قبوله للازدياد، وقد عرفوا الإيمان بالتصديق البالغ حدّ الجزم، وقالوا: إنّ الأمر فيه يدور بين السلب والإيجاب ولا معنى لزيادة التصديق، وأولّوا الآية وأمثالها بوجهين:

الأول: أنّ المراد بالازدياد عدم وجود فترات ينعدم فيها الإيمان، فالذي يقلّ إيمانه معناه أنّه يكفر بالله تعالى في بعض الفترات.

وهذا التأويل لا وجه له، لأنّه يستلزم كثرة الارتداد في المؤمنين ممّا لا ينبغي نسبته إليهم، بل يستلزم لوازم فقهية مترتبة على ارتدادهم لا يمكن الالتزام بها. وربما يستشهد لذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾، ولكنّه يدلّ على شركهم حين الإيمان، لأنّ الجملة: ﴿وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ حالية ومقتضاه عدم خلوص الإيمان في أكثرهم ممّا يدلّ على اختلاف المؤمنين في زيادة الإيمان ونقصه. ويدلّ على ما ذكرنا أنّه لو كان المراد بالزيادة ما ذكر لم يصحّ التعبير بأنّه زيادة إيمان إلى إيمانهم، بل هو حدوث إيمان بعد زواله.

الثاني: أن المراد زيادة ما يؤمنون به، فكلّ حكم وكلّ خبر ينزل بالوحي ويؤمنون به يزدادون إيماناً، بمعنى زيادة مورد الإيمان. ومن الواضح أن هذا لا يترتب على إنزال السكينة، بل على إنزال الحكم والحقائق الغيبية، والآية صريحة في أن الإيمان يزداد بإنزال السكينة في قلوبهم ممّا يدلّ بوضوح على أن الإيمان الذي يزداد من جنس السكينة والاطمئنان.

ولكن يبقى الكلام في أنّه ما هو حقيقة الإيمان، هل هو العلم اليقيني أو هو التصديق بالشيء أو هو العلم مع الالتزام وعقد القلب؟ والبحث أشبه ما يكون ببحث لفظي، حيث إنه يدور على معنى الكلمة، وحيث إن الإيمان موضوع لكثير من الأحكام الشرعية، فلا بدّ من القول فيه بأنّه وبمقتضى ظاهر القرآن، بل صريحه أمر يقبل الزيادة والنقصان، فلا يصحّ تأويله بمعنى لا يقبل ذلك.

والصحيح أنّه ليس مجرد العلم بالشيء، بل هو — كما قال العلامة الطباطبائي رحمه الله — العلم مع الالتزام وعقد القلب به، بحيث يترتب عليه لوازمه من العمل، وليس هو نفس العمل، بل العمل من لوازمه، حيث إنه يصدر من المنافع أيضاً، فما ورد من تفسيره بالعمل تفسير باللازم، ويقصد به أن الإيمان لا يصدق إلا إذا كان مؤثراً في مرحلة العمل. والمراد بالعلم الذي هو أحد جزئي الإيمان العلم العرفي لا اليقين القاطع، بحيث لا يكون هناك احتمال للخلاف، فالعرف يطلق العلم على الاحتمال القوي الذي لا يعتنى باحتمال الخلاف فيه، وهذا بنفسه ممّا يقبل الزيادة والنقصان. ونحن نجد من أنفسنا في ما نعلمه من الأمور الخارجية أن الاطمئنان يزيد لدينا كلّما زادت الشواهد حتّى نصل إلى الاطمئنان الكامل بالمشاهدة ونحوها.

ومما يدل على ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُنْجِي الْمُؤْتَى قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لِيْطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾^١، فالآية صريحة في أن الإيمان يزاد برؤية الشواهد التي تدل على الأمر الغيبي وإن كان إبراهيم عليه السلام مؤمناً بقدره ربه بدرجة عالية جداً من الإيمان إلا أنه مع ذلك قابل للازدياد، فالإيمان هو الاطمئنان وسكون النفس وهو ذو مراتب، وكلما زادت الشواهد زاد الاطمئنان.

هذا بالنسبة إلى جزء من الإيمان وهو العلم وانكشاف الواقع، وفيه جزء آخر وهو عقد القلب وهو أمر اختياري، فالإنسان ربما يحصل له العلم بالشيء ولكنه لا يؤمن به، كما كان ذلك دأب المعاندين من الكفار، قال تعالى في شأن قوم فرعون: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ * وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَضَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾^٢ ومن الواضح أن المراد ليس هو الإنكار باللفظ والاعتقاد بالقلب، فإن المؤمن أيضاً قد يضطر إلى ذلك، بل المراد أنهم أنكروا آيات الله مع تيقنهم وعلمهم وانكشاف الأمر لهم، بحيث لم يحتمل الخلاف أو كان احتمالاً ضعيفاً جداً لا يعتنى به، ولذلك وصف الآيات بأنها مبصرة، فهناك أمر اختياري قلبي في الإيمان.

ونظير ذلك الحب والبغض فإنهما يحصلان عادة من دون اختيار، وهذا المعنى لا يمكن أن يتعلق به أمر أو نهي، مع أن الشرع يأمر بحب أولياء الله تعالى وبغض أعدائه، وليس المراد خصوص الإبراز والعمل، بل عقد القلب فالإنسان يمكنه أن يعقد قلبه على حب شيء أو بغضه، وكذلك يمكنه أن يعقد القلب

١. البقرة (٢): ٢٦٠.

٢. النمل (٢٧): ١٣ - ١٤.

على قبول شيء أو رفضه. وهذا الأمر أيضاً قابل للشدة والضعف.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾. الظاهر أن المراد بالجنود العلل والعوامل الطبيعية وغير الطبيعية المؤثرة في الكون، فلعل المراد بجنود السماوات الملائكة وهي الوسائط بين الله تعالى وخلقه، وبنود الأرض العوامل الطبيعية، وكونها لله تعالى واضح، لأنها متقومة به وبإرادته، ولا كيان لها مستقلة عن إرادته تعالى، وكلها تسير وتؤثر بأمره. وتقديم الجار والمجرور يفيد الحصر وهو واضح.

إنما الكلام في الغرض من التنبيه على هذه الحقيقة في هذا الموضع، ولا يبعد أن يكون المراد التنبيه على الحقيقة التي توجب السكينة للمؤمنين، فكان عليهم أن ينتبهوا أن الله تعالى على كل شيء قدير وكل شيء يؤثر بأمره، فلو أراد لأهلك أعداء الرسالة في لحظة، ولكنه عليم حكيم يعلم عواقب الأمور ولا يعمل إلا ما تقتضيه الحكمة. ولو انتبهوا إلى هذه الحقيقة لم يحدث فيهم أي اضطراب وقلق، بل سكنت قلوبهم واطمأنت نفوسهم أن الأمر بيد العليم الحكيم القادر على كل شيء. ولعل التعبير بالجنود للتناسب مع الغلبة على الأعداء.

ومن الطريف تكرار الجملة بعد بيان عاقبة أمر الفريقين وأن فريقاً منهما في الجنة وفريقاً في النار، ليتبين وجه الحكمة في تأخير الغلبة الظاهرية للمؤمنين عليهم، وأن الهدف الأسمى عند الله تعالى ليس هو الغلبة في الدنيا؛ بل هو استحقاق الثواب والعقاب في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾^١ والتعبير بلفظ الماضي ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ مع أنه حقيقة أزلية

أبدية لعلّه للتنبيه على أنّ كلّ ما حدث في ما مضى ممّا أثار فيكم الشكّ كان بعين الله تعالى ونابحاً عن علمه وحكمته، وليس هناك أيّ تغيير وتبديل، مضافاً إلى أنّ «كَانَ» في مثل هذه المواضع قد تكون منسلخة عن الزمان.

﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾. يحتمل أن تكون هذه الجملة تعليلاً لأنزال السكينة باعتباره سبباً لزيادة الإيمان وهو السبب في دخول الجنّة. وأضاف المؤمنات إلى المؤمنين مع أنّ السكينة هنا نزلت على الرجال الحاضرين في تلك الواقعة لدفع توهم اختصاص الجنّة والثواب بالرجال. ويصحّ أن نقول: إنّ نزول السكينة على الحاضرين سبب لزيادة إيمان الغائبين رجالاً ونساءً بعد اطلاعهم على ما حدث لكونه آية من آيات الله تعالى. ويحتمل أيضاً أنّ السكينة نزلت على الجميع الحاضرين والغائبين بعد اشتراكهم في الاستياء ممّا حدث، فيكون ذكر المؤمنين من باب التغليب. ويحتمل أيضاً وجود مجموعة من المؤمنات مع الرجال.

ولكنّ الأولى أن تكون الجملة تعليلاً لمضمون الجملة السابقة ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ﴾ حيث إنّ المراد بها التنبيه على أنّه تعالى ربّ الكون كلّه وأنّ العوامل المؤثرة في السماوات والأرض إنّما تؤثر بإرادته تعالى، فهذا التعليل يدلّ على أنّ خلقه تعالى لهذا الكون وتدبير أموره إنّما هو من أجل حياة أخرى وعالم آخر يعقب هذا الكون يجازى فيه الإنسان بأعماله، فهو نظير قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾^١ على ما سيأتي إن شاء الله تعالى في تفسير الآية المباركة. وبناءً على هذا،

فالجملَة تبيّن العلةَ الغائية لخلق السماوات والأرض وما فيهما من جنود، وليست تعليلًا لنفس السلطة والملكية الإلهية.

ويؤيد هذا الاحتمال عطف تعذيب المنافقين على إدخال المؤمنين الجنة، فإنّه لا يمكن أن يكون نتيجة لإنزال السكينة على المؤمنين إلا أن يقال: إنّ تعليل للتخصيص بالمؤمنين، فيكون المعنى أنزل السكينة على المؤمنين دون المنافقين ليدخل المؤمنون الجنة ويعذب المنافقون وهو بعيد.

ومن الغريب أن العلامة الطباطبائي رحمته الله رفض هذا التفسير هنا، مع أنّه قال في تفسير الآية المذكورة في سورة النجم: «وقوله: ﴿وَلِلّٰهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ إشارة إلى ملكه تعالى للكلّ، ومعناه قيام الأشياء به تعالى لكونه خالقهم الموجد لهم، فالملك ناشئ من الخلق وهو مع ذلك منشأ للتدبير، فالجملة دالة على الخلق والتدبير، كأنّه قيل: والله الخلق والتدبير. وبهذا المعنى يتعلّق قوله: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ إلخ واللام للغاية، والمعنى: له الخلق والتدبير وغاية ذلك والغرض منه أن يجزي الذين أساءوا إلخ»^١. وهذا هو نفس ما مرّ في تفسير هذه الآية وهما من باب واحد، بل مثلهما أيضاً قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾^٢، فإنّ الجزاء ورد في الآية علة لبدء الخلق وإعادته لا للإعادة فقط.

﴿وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾. التكفير هو الستر. وإنما سمّي الكافر كافراً لأنّه يستر الحق وينكره. والعطف لا يدلّ على الترتيب، فلا ينافي كون التكفير قبل دخول

١. الميزان في تفسير القرآن ١٩: ٤٢.

٢. يونس (١٠): ٤.

الجنة، مضافاً إلى ما مرّ في تفسير قوله تعالى، «وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ»^١ من ستر سيئات أهل الجنة بعضهم عن بعض حتّى لا يحتقر بعضهم بعضاً ولو في نفسه، فهو نظير إزالة الضغائن، كما قال تعالى: «وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ»^٢.

«وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً»، «ذَلِكَ» إشارة إلى دخول الجنة. والفوز هو النجاة والاختصاص بالشيء، فالفائز هو الغالب في المسابقة حيث يختص بالجائزة، ولا شك أنّ الفوز العظيم هو الفوز بالجنة، بل هو الفوز فحسب، كما قال تعالى: «فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ»^٣ حيث يظهر منه الحصر. وإنّما قيد ذلك بكونه عند الله تعالى، لأنّ الناس حتّى المؤمنين منهم يهتمون بالظفر والغلبة في الدنيا أيضاً اهتماماً بالغاً لا يقلّ عن اهتمامهم بالجنة، ولذلك قال تعالى: «وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ»^٤ ولكن الله تعالى لا يعير اهتماماً به إلا كسبب لدخول الجنة، كما قال عزّ من قائل: «تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ»^٥.

«وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ» عطف على «يدخل» كما هو واضح، وقد مرّ أنّ الأولى أن تكون الجملتان تعليلاً لقوله تعالى: «وَاللَّهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» وقدّم ذكر المنافقين، لأنّ ضررهم أشدّ على الإسلام وأهله

١. محمّد (٤٧): ١٥.

٢. الحجر (١٥): ٤٧.

٣. آل عمران (٣): ١٨٥.

٤. الصف (٦١): ١٣.

٥. الأنفال (٨): ٦٧.

لكونهم بين ظهرانيهم، ولذلك كان عذابهم أيضاً أشدَّ، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدِّزْلِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾^١

﴿الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنًّا سَوْءًا﴾. المراد بالظنِّ الاعتقاد الذي قد لا يستند إلى دليل وشاهد، ومن خصائص المؤمن المتقي حسن الظنِّ بالله تعالى، وورد في حديث معتبر عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال: «أحسن الظنِّ بالله، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول أنا عند ظنِّ عبدي المؤمن بي إن خيراً فخييراً وإن شراً فشرّاً»^٢. والمتقون إنما يحسنون الظنَّ به تعالى، لأنَّهم يعلمون أنَّه لا يريد بهم إلا الخير حتَّى لو أصابهم أشدُّ المصائب، فإنَّهم يعلمون أنَّ الله تعالى يريد أن يجزيهم جزاءً عظيماً لا يستحقُّونه إلا بالصبر على هذه المصائب، فهم دائماً في راحة بال وسكينة واطمئنان. وأمَّا الكافر والمنافق بل حتَّى ضعفاء الإيمان فإنَّهم حتَّى لو كانوا في بُلْهنية من العيش فإنَّهم يتوقَّعون الشرَّ دائماً، فهم أبداً في قلق واضطراب، لعدم ركونهم في الحياة إلى ركن وثيق، والحال أنَّ الحياة في هذه الدنيا مليئة بالأخطار.

والمراد بظنِّ السوء هنا ما سيأتي في الآية ١٢: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزَيَّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ ظَنًّا سَوْءًا وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾، فإنَّهم إنَّما ظنُّوا ذلك لاعتقادهم أنَّ الله تعالى لا ينصر رسوله، فيعود هذا الظنُّ، إلى سوء الظنِّ به تعالى. وربما يقال بأنَّ اعتبار هذا الأمر من ظنِّ السوء بالله يستلزم إيمانهم به تعالى، وبأنَّ كلَّ ما يحدث فهو منه، وأنَّه هو المؤثِّر في كلِّ شيء، حيث يتوقَّع منه أن ينصر نبيَّه فلم يفعل.

١. النساء (٤): ١٤٥.

٢. الكافي ٣/٧٢، باب حسن الظنِّ بالله.

والجواب أنه لا يستلزم ذلك، لأن ظنهم بعدم نصرة الرسول ﷺ يمكن أن يكون من جهة ظنهم أنه تعالى غير قادر على ذلك، أو من جهة ظنهم أنه تعالى لا يؤثر شيئاً في الكون، فهذا أيضاً من سوء الظن به تعالى وعدم المعرفة بشأنه، كما قال تعالى: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^١ و«السوء» بالفتح مصدر وبالضم اسم للمصدر.

﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾. الدائرة ما يصيب الإنسان من مكروه، كأنه يدور حوله ويحيط به، قال تعالى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾^٢، وقال أيضاً: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾^٣، وإضافة الدائرة إلى السوء بيانية. والجملة هنا دعاء عليهم أو قضاء وحكم من الله تعالى أو إخبار عن مستقبلهم. وعطف قوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ يؤيد كونه قضاءً أو إخباراً. وإذا كان دعاءً فالدعاء من الله تعالى ليس على حقيقته، فإنه المدعو في كل دعاء، فالقصد منه لو كان دعاءً هو الحكم عليهم أيضاً أو التنديد بهم وإظهار الغضب منهم.

﴿وَعُذِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾. مر الكلام مراراً حول إسناد الغضب والرضا إلى الله تعالى. واللعن هو الطرد وهو غاية الغضب الإلهي. والباقي واضح.

﴿وَاللَّهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾. مر الكلام في نظيره

١. الحج (٢٢): ٧٤.

٢. المائدة (٥): ٥٢.

٣. التوبة (٩): ٩٨.

والتكرار من جهة اختلاف المورد، فهناك يبيّن للمؤمنين أنّه تعالى قادر على إنزال السكينة عليهم أو قادر على نصرهم وإهلاك عدوهم، وهنا ينبّه المنافقين والمشرّكين أنّه قادر على إنجاز ما يوعدهم به، ولذلك اختلف التعبير في صفاته تعالى، فالتنبيه على العزّة لبيان أنّه غالب على أمره ولا يمنع من تحقّق مراده شيء، ولكنّه لحكمته يؤخّر العقوبة والانتقام.

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠﴾ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٢﴾

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ الظاهر أن الآيات بصدد ربط المؤمنين المجاهدين بالله تعالى مباشرة، ليستشعروا عظمة الموقف وضخامة المسؤولية الملقاة على عواتقهم، ولا يظنوا أنهم يواجهون مسؤولية بشرية أمام الرسول ﷺ كالمسؤولية أمام أي زعيم اجتماعي، فالموقف هنا خطير جداً والبيعة التي بايعوها إنما بايعوا فيها الله تعالى مباشرة، ودور الرسول ﷺ في هذه البيعة دور الوسيط بالرغم من عظمة مقامه كوسيط بين الله تعالى وخلقه.

وفي المقابل توهم بعض المفسرين أن السياق هنا بصدد تضخيم دور الرسول ﷺ وبيان عظمته وعلو مقامه ليشعر المؤمنون خطورة الموقف من هذه الجهة، وليعلم المعترضون على الرسول ﷺ فداحة خطأهم في التعامل معه. وهذا الاختلاف يؤثر في فهم معنى الآية كما سيأتي.

وقد وصف الله تعالى رسوله الكريم هنا بثلاثة أوصاف: الشهادة والبشارة والإنذار. والمراد بالبشارة والإنذار واضح، فالرسالة الإلهية دائماً تحوم حول هذين الركنين والأهمّ منهما هو الإنذار، حيث إن البشرية كالقطيع الغافل لما حوله من أخطار لا يرى إلا زينة هذه الحياة وآلامها، وواجب الرسل في الأساس هو تنبيههم على أخطار الحياة الآخرة وعواقب أمورهم ونتائج أعمالهم.

إنما الكلام في المراد بالشهادة وقد مرّ بعض الكلام في تفسير قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾^١ وقلنا: إِنَّ الاحتمالات في معنى الشهادة ثلاثة:

١- شهادة القائد السياسي والإمام لأعمال الناس الظاهرة ممّا تنبئ عن خبايا أسرارهم واتجاهاتهم وإيمانهم به وبرسالته أو كفرهم أو نفاقهم. وعلى هذا الاحتمال فالرسول كغيره من زعماء المجتمع يلاحظ من أعمال كلّ أحد وجهة تأثيره الاجتماعي. و ربما يحمل قوله تعالى: ﴿وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾^٢ على ذلك بقرينة أنّ رؤية المؤمنين ليست إلا على هذا الوجه.

٢- أنّ الملائكة تعرض أعمال العباد على الرسول ﷺ وكذلك على الأئمة من بعده ﷺ فهم شهود على خبايا أعمالهم لا على ظواهرها وتأثيراتها الاجتماعية فحسب. وبهذا المعنى وردت روايات تدلّ بعضها على أنّ الأعمال تعرض على الرسول ﷺ حتّى بعد وفاته، وبعضها على أنّها تعرض بعده على الإمام، وأنّ المراد بالمؤمنين في الآية المذكورة هو أمير المؤمنين (عليه السلام) أو الأئمة كلّهم ﷺ^٣، ونحن لا نعلم حقيقة هذا العرض ولا كيفيته وحدوده.

٣- الشهادة بمعنى كونه مثلاً يحتذى به ومقياساً للصالح والعبودية، فالرسول أو الإمام بعمله وسيرته شاهد في الدنيا يقتدى بهم، وفي الآخرة تقاس بهم الأعمال، ومنه ما ورد في الزيارة الجامعة: «أنتم الصراط الأقوم وشهداء دار الفناء وشفعاء دار البقاء»^٤. ويدلّ على كون الإمام شاهداً بمعنى كون عمله مقياساً يوم

١. الأحزاب (٣٣): ٤٥.

٢. التوبة (٩): ١٠٥.

٣. راجع: الكافي ١: ٢١٩، باب عرض الأعمال على النبي ﷺ؛ وبصائر الدرجات: ٤٤٧، باب عرض الأعمال على الأئمة ﷺ.

٤. من لا يحضره الفقيه ٢: ٦١٣.

القيامة قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمامِهِمْ فَمَنْ أُوِيَ كِتَابُهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ قِتِيلًا﴾^١ ويفهم من فاء التفرع أن دعوة الإمام يوم القيامة لتمييز من تبعه واقتدى به ليؤتى كتابه بيمينه، ومنه يظهر أن المراد بالإمام في الآية الإمام الحق والله العالم.

ويستفاد من بعض الآيات أن شهادة الرسل تختص بحال حياتهم، كقوله تعالى في حكاية كلام عيسى عليه السلام يوم القيامة: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾^٢، ولعله يستفاد أيضاً من قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾^٣، وأوضح منه قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾^٤، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾^٥، بلحاظ أن الإشارة لا تكون إلا إلى الموجودين، فالمراد بقوله: ﴿هَؤُلَاءِ﴾ المؤمنون بالرسالة في عصرها.

وفي مقابل ذلك ما ربما يدل على شهادتهم بعد الموت أيضاً – كما دلت عليه بعض الروايات^٦ – كقوله تعالى بشأن عيسى عليه السلام: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ

١. الإسراء (١٧): ٧١.

٢. المائدة (٥): ١١٧.

٣. البقرة (٢): ١٤٣.

٤. النساء (٤): ٤١.

٥. النحل (١٦): ٨٩.

٦. منها رواية سماعة عن أبي عبد الله عليه السلام قال سمعته يقول: «ما لكم تسوءون رسول الله ﷺ؟» فقال رجل: كيف نسوءه؟ فقال: «أما تعلمون أن أعمالكم تعرض عليه، فإذا رأى فيها معصية ساءه ذلك، فلا تسوءوا رسول الله وسرّوه». (الكافي ١: ٢١٩)

قَبْلَ مَوْتِهِ وَنَوْمِ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً^١ بناءً على أَنَّ الضمير في «موته» يعود إلى (أحد)، فَإِنَّ التقدير: وإن أحد من أهل الكتاب، وبناءً على أَنَّ هذه الآية تشمل أهل الكتاب الباقين بعد وفاته ﷺ سواء قلنا بأنه الآن حيّ أو ميّت، فَإِنَّه سيموت لا محالة. ولعلّ وجه الجمع بين المجموعتين من الآيات اختلاف معنى الشهادة، فالرسول ما دام حيّاً يعتبر مسؤولاً عن قومه إن لم يتمّ تبليغ الرسالة، وبهذا المعنى يسأل الله المرسلين يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾^٢ ولا يكون مسؤولاً عمّا يحدث بعده من ارتداد أو تحريف، ولكنّه يعتبر شاهداً على الجميع بالمعنى الثالث، فهو الأسوة والمثل، وأعماله وسيرته شاهد وإمام ومقياس. فالجمع بين الآيات أَنَّ الرسول ليس شاهداً على الأمة بعد وفاته بالمعنى الأوّل ولكنّه شاهد بالمعنى الثالث.

ويشهد لذلك ما ورد في مسألة عيسى ﷺ يوم القيامة وجوابه قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ هُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾^٣ ومعناه أنّه ليس مسؤولاً عن ارتدادهم بعده.

ويستفاد أيضاً من بعض الآيات أَنَّ الشهادة لا تختصّ بالرسل، كما هو صريح

١. النساء (٤): ١٥٩.

٢. الأعراف (٧): ٦.

٣. المائدة (٥): ١١٦ - ١١٧.

الآية المذكورة آنفاً: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ ومثلها قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾^١، وقد ورد في بعض الروايات^٢ أن المراد بهؤلاء الشهداء الأئمة (عليهم السلام)، ولو فرض عدم الاختصاص فيمكن أن يكون المراد بالآية حثّ المخاطبين على الجهاد في سبيل الله حقّ جهاده وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والاعتصام بالله ليكونوا أسوة لمن بعدهم ولسائر الأمم في أصل الالتزام بأحكام الشرع، وليس معناه أنه تعالى جعلهم شهداء على الناس كالمعصومين ليكون عملهم أو قولهم حجة.

وليس معناها أيضاً أن الشهادة صفة لكلّ من كان في عهد الرسالة وإن لم يجاهد في سبيل الله، بل حتّى لو غيّر وبدّل لتكون دليلاً على عدالة جميعهم - كما يتوهم - فإنه يستلزم التناقض وجواز التأسّي بالمجاهدين والقاعدين على حدّ سواء، وهذا غير صحيح قطعاً. وصريح قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾^٣ أن ذلك شأن بعضهم حيث يتّخذ منهم شهداء وهو في حدّ ذاته أمر واضح، إذ منهم المنافقون ومنهم ضعفاء الإيمان ومنهم الذين آذوا الرسول ﷺ ونزلت فيهم آيات الارتداد والنفاق، فكيف يمكن أن يكونوا أسوة؟!

١. المحجّ (٢٢): ٧٨.

٢. راجع: الكافي ١: ٤/١٩١، باب «أنّ الأئمة شهداء الله على خلقه» والسند صحيح.

٣. آل عمران (٣): ١٤٠.

وربما يتوهم التنافي بين الشهادة يوم القيامة وبين قول الرسل: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾، كما ورد في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾^١، والجواب أنه لعل المراد عدم علمهم في مقابل علمه تعالى، فهم لا يعلمون إلا ظاهراً منهم، وأمّا البواطن فلا علم لهم بها إلا بالمقدار الذي أعلمهم الله تعالى بالوحي، وهذا لا ينافي الشهادة بمقتضى علمهم وإلا لم يكن وجه للسؤال، كما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾^٢ بناءً على عدم اختصاص القوم بالموجودين في ذلك الزمان. وبناءً على أن هذا القول يحكي عن شكواه ﷺ يوم القيامة عن أمته. هذا وأمّا الشهادة بمعنى كونه مقياساً يوم القيامة، فلا علاقة لها بجواب الرسل في سورة المائدة كما لا يخفى.

﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي أن الغرض من إرسال الرسول ﷺ شاهداً ومبشراً ونذيراً هو إيمان الناس بالله وبالرسول. ومن هذا التعبير واعتبار الإيمان بالرسول جزءاً من هدف الرسالة تتبين عظمة مقام الرسول وسخافة قول من يقلل من شأنه ويقول: إنه مجرد واسطة ومخبر، ومن يقول بكفاية كتاب الله تعالى، فالإيمان بالرسالة ليس من باب أنه طريق للإيمان بالله تعالى - كما يتوهم البعض - بل هو هدف وغرض أساسي، فالله تعالى يريد من الناس أن يعبدوه عن طريق متابعة الرسول وليس الإيمان به تعالى كافياً حتى لو كان عن طرق أخرى كالإيمان عن طريق العلم والفلسفة. وهناك من الحكماء

١. المائدة (٥): ١٠٩.

٢. الفرقان (٢٥): ٣٠.

والفلاسفة والعرفاء من يحكى عنهم القول بعدم احتياجهم إلى الرسالات وأنهم يصلون إلى الله عن طريق العلم أو تزكية النفس من دون حاجة إلى متابعة رسول وكتاب سماوي. وهذا - مع أنه باطل في نفسه - إيمان غير مقبول عند الله تعالى كما هو صريح آيات الكتاب العزيز.

ولعلّه إنما أتى بضمير الخطاب لأنّ الإيمان بالرسالة مطلوب من الرسول ﷺ أيضاً، ولذلك كان يشهد بذلك في مواضعه كشهد الصلاة على ما روي. ولعلّ من قرأ بالضمير الغائب «ليؤمنوا» استبعد وجوب الإيمان بالرسالة على الرسول ﷺ والمشهور المتبع القراءة بالخطاب.

والتعزير، قيل: هو التفخيم والتوقير، وقيل: هو النصر بتوقير وتعظيم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ^١ وَيَكْثُرَ اسْتِعْمَالُ التعزير في الضرب دون الحدّ، وفي «معجم مقاييس اللغة»^٢ أنّه أصل له معنيان. ولكن لا يبعد أن يكون التعزير في الأصل بمعنى المنع والردّ كما في «تهذيب اللغة»^٣، فيشمل التأديب، لأنّه يمنعه بذلك من ارتكاب الجرم، ويشمل النصر، لأنّه يمنع عنه الأعداء ويردّهم. وتفسير التعزير بالنصر أولى من التوقير بنفسه لئلا يلزم التكرار مع قوله ﴿وَتُوقَرُوهُ﴾.

والتوقير بمعنى التفخيم والتعظيم، قال تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾، أي

١. المائدة (٥): ١٢.

٢. راجع: معجم مقاييس اللغة ٤: ٣١١.

٣. راجع: تهذيب اللغة: ٢٢١.

٤. نوح (٧١): ١٣.

لا تطلبون له عظمة واحتراماً في أعين الناس أو في قلوبكم. وأصل الوقر الثقل قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ﴾^١ والوقار السكون والحلم.

والتسبيح في اللغة التنزيه والتبرئة، وفي «معجم المقاييس»^٢ أنه في الأصل بمعنى الصلاة النافلة، ثم أطلق على تنزيهه تعالى عما لا ينبغي له من الأوصاف. ولم يقل بذلك غيره من أهل اللغة. وقال الأزهري في «تهذيب اللغة»: «ومعنى تنزيه الله من سوء تبعيده منه من قولك: سبحت في الأرض إذا أبعدت فيها»^٣. والظاهر أنه لا يستعمل إلا في تنزيه الله تعالى عن كل ما لا يليق به، ولا يستعمل في تنزيه غيره. وقيل: إنه عام في أصل اللغة وروى ابن دريد في «الجمهرة»^٤ في ذلك بعض الأشعار وقال: إن بعض ما ورد بمعنى البراءة كقول الأعشى: «سبحان من علقمة الفاخر»، ومعناه أنه يتبرأ من فخره؛ وبعضه بمعنى التعجب كقول الشاعر: «سبحان من فعلك يا قطام». ولعله يقصد أن التقدير «سبحان الله»، فإنه يستعمل للتعجب. وفي «الصحاح»^٥ أن ما ورد في شعر الأعشى للتعجب، ولا يبعد وعليه فلا دليل على ورود استعمال التسبيح في تبرئة غيره تعالى في اللغة، كما قال آخرون أيضاً.

والبكرة: الغداة أي أول النهار، والأصل في معناه أول الشيء وبدؤه، ومنه البكر أول ما يولد للرجل. والأصيل: العشيّ ويطلق على آخر النهار وأول الليل

١. فصلت (٤١): ٤٤.

٢. معجم مقاييس اللغة ٣: ١٢٥.

٣. تهذيب اللغة: ١٩٦.

٤. جمهرة اللغة ١: ٢٧٨.

٥. الصحاح: ٣٧٢.

على ما يبدو من كتب اللغة.^١ والمراد بالتسييح في هذين الزمانين الاستمرار على التسييح ليلاً ونهاراً.

ولا شك أن التسييح هنا خاصٌ بالله تعالى حتى لو كان في أصل اللغة عاماً، ولكن حيث كان التوقيف والتعزير أنسب بالرسول ﷺ ذهب جمع من المفسرين إلى اختلاف مرجع الضمائر، واستند بعضهم في ذلك إلى أن الغرض من الآية التنبيه على عظمة الرسول ﷺ كما مرّ، والظاهر أن بعضهم لم يجد من المناسب الأمر بتعزير الله تعالى، أي الدفاع عنه؛ لأنه لا يحتاج إلى دفاع، وأنه لم يرد في الكتاب العزيز التعبير به في موردته تعالى، وبذلك رجّحوا اختلاف الضمائر مع أنه بعيد في نفسه. وقد تبين بما ذكرناه آنفاً أن الغرض من الآيتين وما بعدهما التنبيه على أن الرسول ﷺ وسيط في العلاقة بينكم وبين ربكم، وأن التعامل إنما هو مع الله سبحانه، فلا مانع من إرجاع الضمائر كلها إليه تعالى. والتعزير وإن كان في الأصل بمعنى المنع إلا أن المراد به النصر، وقد اتضح أن نصر الرسول ونصر الدين نصر لله تعالى.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾. يأتي هذا التعبير أيضاً في سياق التنبيه على خطورة الموقف، فالبيعة مع الرسول ﷺ ليست كالبيعة مع غيره من زعماء البشر كما يظنّ بعض الناس، ولعلّ بعض المسلمين حدّثته نفسه بالخذلان، فالآية الكريمة تنبّههم على أن البيعة ليست في الواقع مع الرسول ﷺ وإنما هي بيعة مع الله تعالى. والتعير بالفعل المضارع من جهة أن الحكم لا يختصّ بالبيعة في الحدية وإن كان هو محطّ النظر إلا أن الحكم عام.

١. راجع: كتاب العين ٢: ١٨٨؛ معجم مقاييس اللغة ٤: ٣٢٢.

والبيعة كانت في ذلك العهد تعني الالتزام بالطاعة للزعيم والدفاع عنه وعن مبادئه، وعبر عنه بالبيعة كأنه باع نفسه للزعيم، وكانت تتحقق البيعة عندهم بالمصافحة باليد، كما أن البيع كان كذلك. والمروي أن رسول الله ﷺ كان إذا بايع وضع يده على يد المبايع، فالمبايع هو الذي يمدّ يده أولاً، ثم يضع الرسول ﷺ يده على يده، ولذلك جاءت الآية بهذه العبارة: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾، أي أن اليد التي تبايعهم بها حال كونها، على أيديهم ليست هي يدك، بل يد الله تعالى. وهذا نوع من الاعتبار، نظير ما ورد من أن الحجر الأسود يمين الله في الأرض، ولذلك يستحب أن يستلم ويقبل وتمسح به اليد أو يشار إليه بها.

وقد عبر الله تعالى عن هذا البيع بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ هُمْ الْجَنَّةَ يَفْتَائِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^١ ولعل التصريح بالاشتراء والبيع في هذه الآية إنما هو بالنظر إلى الاعتبار الذي ورد في سورة الفتح من كون يد الرسول ﷺ يده تعالى^٢، فالذي بايعهم في الواقع هو الله، فالاشتراء وقع منه تعالى حقيقة.

﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾. النكث: نقض العهد والبيعة. والفاء للتفريع يعني حيث كانت البيعة مع الله تعالى وهو غني عن عباده فلا يضره نكث من نكث البيعة وإنما يضر الناكث نفسه.

﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وعد جميل من ربّ الكون

١. التوبة (٩): ١١١.

٢. راجع: الفتح (٤٨): ١٠.

والملفت فيه أنه لم يحدّد الأجر ولم يذكر أنه جنّات تجري من تحتها الأنهار، وإنّما وصفه بالعظمة ويكفيه عظمة أن يصفه ربّ الكون بالعظمة، فلا يعلم قدره إلا الله تعالى. وقرأ حفص الهاء في ﴿عَلَيْهِ﴾ بالضم وهي القراءة المشهورة وهو مخالف للمشهور في التلفظ العربي، وقد حاول بعضهم توجيهه بأنّه يسبّب قراءة اسم الجلالة بالتفخيم فيناسب المعاهدة، وهو وجه ضعيف جداً، ولم أجد له وجهاً آخر، ولكنّه على كلّ حال صحيح، لأنّه القراءة المشهورة بين الناس وقد أمرنا الأئمة عليهم السلام باتباعها.

سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا^١
يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ^٢ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ
بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ
يَخْطِبَ الرَّسُولَ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ
ظُرْبَ السُّوءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا
لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ
يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٤﴾

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ
مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾. المخلف هو الذي ترك خلف القوم. والأعراب على ما يبدو
جمع لا مفرد له، وليس جمع العرب، لأنه اسم جنس، وإنما ينسب إليه المفرد
فيقال: «أعرابي» ويطلق على أهل البداوة من العرب الذين لم يتحضروا ويسكنوا
المدن، وفي «التهذيب»: أنه يطلق على غير العرب أيضاً من الموالي إذا كانوا
أهل بداوة.^١ وقولهم: ﴿شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا﴾، أي شغلتنا عن النفير معك، والظاهر
أن المراد بالأموال الإبل والماشية، فإنها تحتاج إلى حفظ ورعاية أو مطلق
الأموال خوفاً من إغارة الأعداء. والأهلون جمع أهل على غير قياس، والإتيان
بالجمع باعتبار أن كل واحد منهم له أهل.

والمراد بهم هنا جمع من القبائل الساكنة في أطراف المدينة ممن أسلموا
ظاهراً ولم يتمكن الإيمان من قلوبهم، فكانوا يتحينون الفرص للمشاركة في

الغنائم دون الحروب، بل تدل الآية على أنهم كانوا منافقين، يقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم، فهذا تصريح بنفاقهم وعدم إيمانهم واقعاً بالرسالة وبلزوم الإطاعة وبأن قلوبهم لا تعترف بلزوم الاعتذار ولا الاستغفار، وستأتي شواهد أخرى على نفاقهم في الآيات التالية، ولكن بعض المفسرين يحاول توجيه كلامهم بأنه لا يدل إلا على ضعف الإيمان دون النفاق.

ولما خرج الرسول ﷺ وأصحابه إلى مكة عام الحديبية مع إعلام أنه يريد العمرة استنفرهم ليخرجوا معه حذراً من قريش أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت، وأحرم الرسول ﷺ وساق معه الهدي ليعلم أنه لا يريد حرباً ورأى أولئك الأعراب - على ما في التفاسير وكتب السيرة والتاريخ - أنه ﷺ سيواجه عدداً كبيراً من قريش وثقيف وكنانة والقبائل المجاورة لمكة والأحباش، فلم يخرجوا معه وقالوا: نذهب إلى قوم قد غزوه في عقر داره بالمدينة وقتلوا أصحابه فنقاتلهم؟! وقالوا: لن يرجع محمد ولا أصحابه من هذه السفرة.

ولما كان الرسول ﷺ في طريق العودة أخبره الله تعالى بهذه الآيات - وهو من الأخبار الغيبية - أن الأعراب المذكورين سيعتذرون إليه عن تخلفهم بهذه المعاذير وهو الاشتغال بالأهل والمال بمعنى أنهم كانوا يخافون على أهلهم وأموالهم من الأعداء، وأنه لم يكن عندهم من يحافظ عليهم، وأنهم يطلبون منه ﷺ أن يستغفر لهم عن تخلفهم، وفي ذلك إظهار للندم على ما بدر منهم، ولكنهم يكذبون في ذلك فما كان لهم من عذر أولاً، وهم لا يطلبون الاستغفار بصدق ثانياً، بمعنى أنهم يكذبون في طلب الاستغفار، وإنما يطلبون ذلك ليظهروا الندامة ويحافظوا على مكانتهم بين المسلمين وهم غير نادمين واقعاً. وطلبهم

الاستغفار يدلّ على اعترافهم بأنّ العذر ليس موجّهاً وهو واضح، فالمحافظة على الأهل والأولاد لا يبرّر التقاعس عن الخروج لنصرة الرسول ﷺ ولو فرض كونه عذراً لكان الواجب أن يعرضوا حالهم عليه قبل الخروج.

﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً﴾ ردّ عليهم وعلى كلّ من يظنّ نفس الظنّ في المواقف المشابهة، فالإنسان يحاول دفع الضرر عن نفسه ويتشبّث بكلّ وسيلة حتّى لو كانت غير مبرّرة وهو غافل عن أنّ النفع والضرر بيد الله تعالى، فهناك من الناس من أوكّلوا أمرهم إلى الله تعالى وخرجوا لطاعته فدفع الله عنهم الشرّ بعنايته، وكثير منهم عصوا ربّهم وحاولوا الابتعاد عن الشرّ فوقّعوا فيه من حيث لم يتوقّعوا، وقد وجدنا لذلك أمثلة كثيرة في حياتنا. وقد حكى لي أحد المجاهدين في الحرب التي أشعلها صدام ضدّ إيران الإسلامية أنّ جماعة منهم خرجوا لأداء مهمّة في الحرب ولما اقتربوا من مواضع إلقاء القذائف وسمعوا الأصوات المخيفة والقذائف تقترب منهم خاف أحدهم والتجأ إلى غار هناك ولم يتقدّم مع أصحابه ولم يفد في إقناعه كلّ حديث وذهب الجمع وأدّوا مهمّتهم ورجعوا بأجمعهم سالمين غانمين ووصلوا إلى الغار وإذا بصاحبهم قتله قذيفة وهو في ملجئه.

وليس معنى ذلك أنّ الإنسان لا يجب عليه أن يحافظ على نفسه، وإنّما الكلام في أنّه لا يصحّ أن يبرّر ترك الواجب لذلك، بل لا بدّ من المحاسبة، فإن كان الواجب أهمّ فلا يجوز تركه لحفظ الأهل والمال، وإلا فلا شكّ أنّ الواجب هو المحافظة عليهم.

و«مَنْ» للاستفهام الإنكاري، أي لا يملك أحد من الله شيئاً. والملك في الأصل

يدلّ على قوّة في الشيء وصحّة على ما في «معجم المقاييس»^١ والمراد به هنا القدرة، أي لا يقدر أحد أن يفعل شيئاً يمنعه تعالى من أيّ ضرر يريد إيقاعه عليكم. وقوله: «لَكُمْ» أي لنفعلكم ومصلحتكم، ومنه يظهر أنّ الاستفهام الإنكاري يتعلّق بإرادة الضرّ واستغني عن ذكر مماثله في إرادة النفع. والتقدير: ومن يمنعه إن أراد بكم نفعاً؟! ومثله قوله تعالى: «قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنْ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً؟»^٢ فَإِنَّ الْعَصَمَةَ إِنَّمَا هِيَ مِنَ السُّوءِ. فالتقدير: ومن يمنعه إن أراد بكم رحمة.

﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾. التعبير يحمل تهديداً مبطناً، فالله تعالى كان عالماً بما تضمرون في أنفسكم من الشرّ وهو القادر على أن يجازيكم عليه. وإنّما أتى بفعل «كان» لأنّ مورده ممّا مضى، فالمعنى أنّكم اضمرتم شيئاً ظناً منكم أنّ أحداً لا يعلم به وكان الله تعالى خبيراً به، كما هو خبير بكلّ شيء. والخبر هو العليم بالشيء على حقيقته، قال العسكري في «الفروق»: «الخبر هو العلم بكنه المعلومات على حقائقها، ففيه معنى زائد على العلم» ثمّ قال: «هو من قولك خبرت الشيء إذا عرفت حقيقة خبره».^٣

ويبدو من الآية أنّهم لم يكتفوا بترك الخروج مع الرسول ﷺ، بل عملوا في الخفاء ما يدلّ على خيانتهم، وهذا ما تقتضيه الظروف أيضاً.

ويبعد جداً ما ذكره بعضهم من أنّ المراد بعملهم ظنّهم أن لن ينقلب الرسول؛ كما في الآية التالية لعدم صدق العمل عليه. وما ذكرناه يحتمل أن يكون هو

١. راجع: معجم مقاييس اللغة ٥: ٣٥١ - ٣٥٢.

٢. الأحزاب (٣٣): ١٧.

٣. الفرق في اللغة: ٨٦.

الوجه في الإتيان بـ «بل»؛ لأنها للإضراب، ومعناها بناءً على ذلك أن الذي صدر منكم لم يكن مجرد تخلف عن نصرته الرسول ﷺ، بل صدر منكم من العمل ما يعلمه الله ويجازيكم عليه.

﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾؛ أي لم يكن السبب في قعودكم وتخلفكم ما أظهرتموه، بل هو هذا الظن وهذا هو ما جاء في الخبر عنهم حيث قالوا: «لن يرجع محمد وأصحابه من هذه السفرة»، والانتقال الرجوع إلى المأوى. والأهلون جمع أهل كما مر، و«لن» تفيد نفي الأبد وأكدته بقوله: «أبدًا»، ويفهم منه أنهم كانوا جازمين بهذه العقيدة، وهذه قرينة أخرى على نفاقهم وعدم إيمانهم بأصل الرسالة وبأن الله تعالى هو الذي أرسل الرسول ﷺ وأنه سيحميه وينصره.

﴿وَزَيْنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ﴾؛ أي زين ذلك الظن في قلوبكم بمعنى أنه تمكن من قلوبهم فاعتمدوا عليه واعتبروه أمراً مسلماً لا ريب فيه، أو زين ذلك المظنون في قلوبكم بمعنى أن عدم رجوع الرسول ﷺ وأصحابه إلى المدينة أصبح أمانة لهم، فاخذوا يعدون العدة لحياة جديدة يعودون فيها إلى الجاهلية الأولى.

﴿وَوَظَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾. قيل: إنه تكرار للظن السابق، وفي تفسير «الميزان» أن المراد به ظنهم بأن الله تعالى لا ينصر رسوله، فظن السوء هنا من سوء ظنهم بالله تعالى، إما من جهة أنهم لا يعتقدون أنه تعالى يؤثر في الكون أو أنهم لا يعتقدون أنه ينصر رسوله أو يقدر على ذلك. والسوء بالفتح مصدر كما مر. ويمكن أن يكون المراد كل ما رتبوه في أمانهم على عدم رجوع الرسول ﷺ فكل منهم ربما كانت له أهداف وآمال لا يمكنه أن يصل إليها في

ظَلَّ السلطة القائمة، فكانوا يتوقعون أن تعود المياه إلى مجاريها السابقة فيعودون إلى أغراضهم الدنيئة.

والبور مصدر بمعنى الفساد أو الهلاك أطلق على الفاسدين مبالغة، أو هو جمع بائر بمعنى الفاسد أو الهالك، فالمراد أنهم فسدوا أو اهلكوا أنفسهم بالكفر والنفاق. ولعلّ في التعبير بالماضي: ﴿وَكُنْتُمْ﴾ إشارة إلى إمكان أن تتحولوا وتكونوا صالحين لئلا يشعروا بانسداد باب الصلاح عليهم، ويمكن أن يكون بمعنى صار، أي صرتم بذلك هلكى أو فاسدين، ويمكن - كما قيل - أن يكون بمعنى كونهم قبل ذلك فاسدين أو هلكى.

﴿وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ بيان لنتيجة عملهم وموقفهم الذي يدلّ على كفرهم بالله ورسوله لينتهبوا ويعودوا إلى رشدهم، وفيه إشارة إلى أن موقفهم من الرسول ﷺ ينبع من عدم إيمانهم بالله تعالى. ولعلّه لم يقل: أعتدنا لهم، بل قال: ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ لأمرين: لتوصيفهم بالكفر، وهم يأبون عنه كغيرهم من المنافقين، وللتنبية على السبب، وهو الكفر، وربما يتوهم أن الكفر بنفسه ليس سبباً للعذاب. وأنّ الإنسان إنّما يؤاخذ بظلمه للناس وليس الأمر كذلك؛ فإنّ الكفر أكبر ظلم وأقبحه. والسعير: النار الملتهية ولعلّ التذكير للتهويل، كأنّه يقول: إنّهُ سعير أيما سعير.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ «السموات والأرض» تعبير عن الكون كلّهُ، فكلّ الوجود ملكه تعالى، والملكية هنا حقيقة بمعنى أنّ الكون كلّهُ متقومٌ في كيانه وذاته بإرادته تعالى، وحيث حذر المخلفين في الآية السابقة أنهم يدخلون ضمن الكفّار إلى السعير، فلعلّه يوجب استغراباً ويستبعد أنّ الله تعالى يدخلهم النار لتخلفهم عن نصرته الرسول ﷺ ويتوهم أنّ العقاب غير متناسب مع الذنب،

وهذا التوهم يحصل لكثير من الناس في كثير من الموارد، ويصرّح بعض الناس باستبعاده أن يدخل الله أحداً النار لمجرد أنّه ترك الصلاة أو أفطر في شهر رمضان من غير عذر أو ترك الحجّ أو أتى بكلّ الأعمال فاقداً للولاية ونحو ذلك، وكأنّ الإنسان يتصوّر أنّ الله تعالى يحكم بمقاييس الناس وأنّه يتبع القوانين الوضعية، فهذه الآية تنبّه الجميع أنّ الله تعالى لا يتبع إرادة أحد ولا يعمل وفقاً لمنطق الناس وإدراكهم، فالكون كلّ له يفعل فيه ما يشاء، فلو أراد أن يغفر لكلّ المجرمين العتاة المردة لم يكن لأحد الحقّ في الاعتراض، ولا يمكن الاعتراض ولا أثر له، وكذلك لو أراد أن يدخل الناس كلّهم في النار، ولكنّه لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة.

﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾ وهذه نتيجة حتمية للجملة السابقة، فالمغفرة والعذاب وكلّ ما يحدث في الكون يرتبط بمشيئته تعالى ولا يتوقّف على أمر آخر، إلا أنّ المشيئة على أساس الحكمة والتدبير، فهو لا يشاء أبداً أن يغفر للمشرّكين إن لم يتوبوا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾؛^١ كما أنّه لا يعذب أحداً إلا بسوء عمله، بل إنّ مغفرته ورحمته سبقت غضبه، والمشهد في الكون أنّ الغالب هو آثار رحمة الله تعالى، وقلّ ما نجد في الكون آثاراً لغضبه، ولعلّه لذلك قدّم الغفران على العذاب، ثمّ أكّد على كونه غفوراً رحيماً، فلا يؤاخذ العباد بكلّ ما اقترفوا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾.^٢

١. النساء (٤): ٤٨ و ١١٦.

٢. النحل (١٦): ٦١.

سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَائِمٍ لِّتَأْخُذُوا ذُرُوءًا تَتَّبِعُكُمْ^١
يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ^٢ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ^٣
فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَحْسُدُونَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ
الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولَىٰ بِأَسْ شَدِيدٍ تَقْتُلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ^٥ فَإِن تُطِيعُوا
يُؤْتِكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا^٦ وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ^٧ مِن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾
لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ^٩ وَمَن يُطِيعِ
اللَّهَ وَرَسُولَهُ^{١٠} يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ^{١١} وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا
أَلِيمًا ﴿١٢﴾

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَائِمٍ لِّتَأْخُذُوا ذُرُوءًا تَتَّبِعُكُمْ﴾ هذا خبر غيبي
آخر، والمراد بالمُخَلَّفِينَ هنا من سبق ذكرهم، والمعروف أن المراد بالمغانم ما
حصل للمسلمين من مغنم خبير، ولم يرد فيه خبر، وربما يشهد له استخدام
حرف السين في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ﴾ مما يدل على المستقبل القريب وأن غزوة
خير كانت أقرب المغنم بعد الحديبية. ويبدو من الآية حيث لم يقل: «إذا
انطلقتم إلى حرب أو إلى عدو»، بل قال: ﴿إِلَىٰ مَغَائِمٍ لِّتَأْخُذُوا﴾ أن غزوة
خير كان الأمر فيها محسوماً من قبل، والنتيجة واضحة والغلبة قطعية، فالسفر لم
يكن لصدّ العدو، بل لأخذ غنائمه كما هو مذكور في كتب التاريخ أيضاً.
و«مغانم» جمع مغنم وهو مصدر ميمي، أي الغنيمة، ويطلق على ما يغنم.
ويظهر من قولهم المنقول ﴿ذُرُوءًا تَتَّبِعُكُمْ﴾ أن الرسول ﷺ سيمنعهم من اللحق
بالمؤمنين؛ لأن هذه المغنم مما وعد الله تعالى من شارك في الحديبية

خاصّة بهم، كما يظهر من الجملة التالية أيضاً.

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ يظهر منه - كما مرّ - أنّ الله تعالى كان قد أخبر أنّهم يعوّض المؤمنین عن ما أصابهم من الأسف والأذى - لعدم تمكّنهم من الاعتماد وغير ذلك ممّا أصابهم في قضية الصلح - بغنائم يأخذونها ولعلّها غنائم خيبر، فالوحي النازل بذلك كان أمراً من جهة وإخباراً من جهة أخرى، فأمر الله تعالى أن لا يشاركهم فيها أحد، وأخبر أنّه لا يشاركهم فعلاً وأنّها تخصّهم، ويبدو أنّ المخلفين كانوا قد سمعوا بذلك فأرادوا مشاركتهم لوجهين: الحصول على الغنائم الكثيرة السهلة الميسورة، وتبديل كلام الله تعالى بأن يعملوا على خلاف ما أخبر به الله تعالى ليكون بذلك شاهداً على نفي الرسالة. وبهذا يتبيّن أنّهم كانوا منافقين ويعادون الرسالة، فقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا﴾ يدلّ على أنّهم كان لهم في ذلك غرض منشود. وبذلك يظهر أيضاً أنّ ما ورد في السيرة من تخصيص الرسول ﷺ تلك الغنائم بمن كان معه في الحديبية لم يكن لاختياره ذلك، بل بأمر من الله تعالى.

﴿قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾. قيل: إنّ المراد بالنفي المؤبد التأكيد على النهي وهو أمر متعارف؛ فإنّ النهي إذا أتى به بصيغة النفي أفاد التأكيد بذاته، فهناك فرق بين أن تقول: «لا تفعل» وأن تقول: «إنك لا تفعله» وأنت تريد نهيه عن ذلك، فإنّ النفي هنا يدلّ على أنّك لا تصدق أنّه يفعل ذلك، فإذا أتيت بالنفي المؤبد كان ذلك آكد، فالمعنى نهيه نهياً باتاً، وعليه فمعنى الجملة التالية أنّ الله تعالى نهى عن ذلك مؤكّداً. ولكن إذا لاحظنا ما مرّ في تفسير قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ من أنّه تعالى أخبر بأنّهم لن يتمكّنوا من اللّحوق بهم،

تَبَيَّنَ أَنَّ النَّفْيَ هُنَا لَيْسَ بِمَعْنَى النَّهْيِ، بَلْ بِمَعْنَاهُ الْحَقِيقِيُّ، أَيَّ أَنَّكُمْ لَا تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَفْعَلُوا ذَلِكَ أَبَدًا؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخْبَرَ بِذَلِكَ فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَحْدُثَ لَا مُحَالَةً.

﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَحْنُ مُخْذَبُونَ﴾، أَيَّ أَنَّ الْمُخْلَفِينَ لِحُشْعِهِمْ وَنِفَاقِهِمْ مَعًا سَيَكْذِبُونَ الرَّسُولَ ﷺ وَيَرْدُونَ عَلَيْهِ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَقُلْ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا تَمْنَعُونَنَا مِنْهَا لِحَسَدِكُمْ وَرَفْضِ نَفْسِكُمْ أَنْ نُنَاشِرَكُمْ فِي الْغَنَائِمِ.

﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، وَهَذَا رَدٌّ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا مِنْ أُمُور الدُّنْيَا، وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ لَا يَهْتَمُّونَ إِلَّا بِالْمَالِ وَالْغَنَائِمِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾،^١ وَهَكَذَا أَبْنَاءُ الدُّنْيَا حَيْثُ يَفْسُرُونَ كُلَّ مَا يُوَاجِهُونَهُ مِنْ حَقَائِقَ بِتَفْسِيرِ مَادِي، حَتَّى الرِّسَالَاتِ وَأَعْمَالِ الرِّسْلِ وَكَرَامَاتِهِمْ، وَلَا يَشْعُرُونَ أَيَّ فَرْقٍ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ غَيْرِهِمْ مِمَّنْ هُوَ عَلَى شَاكِلَةِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ عَشَاقِ الْمَالِ.

﴿قُلْ لِلْمُخْلَفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾، تَكَرَّرَ التَّعْبِيرُ عَنْهُمْ بِالْمُخْلَفِينَ وَعَدَمُ الْإِكْتِفَاءِ بِالضَّمِيرِ لِلتَّرْكِيزِ عَلَى التَّنْذِيرِ بِهَذِهِ الصِّفَةِ الَّتِي تَشْتَمِلُ عَلَى الْقَدَحِ وَالتَّحْقِيرِ، حَيْثُ إِنَّ الْمُخْلَفَ هُوَ الَّذِي تُرِكَ مَعَ أَنَّهُمْ كَانُوا مُتَخَلِّفِينَ وَلَمْ يُتْرَكُوا، لِعَدَمِ الْإِعْتِنَاءِ بِهِمْ إِلَّا أَنَّهُمْ حَيْثُ تَرَكُوا الْوَاجِبَ وَأَخْلَدُوا إِلَى الْأَرْضِ وَقَدَّمُوا الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ اسْتَحَقُّوا هَذَا التَّحْقِيرَ، فَاعْتَبَرُوا كَأَنَّهُمْ تَرَكُوا لِعَدَمِ الْإِهْتِمَامِ بِشَأْنِهِمْ. وَأَيْضًا التَّأَكِيدُ عَلَى كَوْنِهِمْ مِنَ الْأَعْرَابِ فِيهِ نَوْعٌ تَحْقِيرٍ لَهُمْ وَانْتِقَاصٍ مِنْ ثِقَاتِهِمْ.

وَالْآيَةُ الْكَرِيمَةُ تَفْتَحُ لَهُمْ مَجَالًا لِلْعُودَةِ وَالتَّوْبَةِ، وَلَكِنْ لَا يُمْكِنُ ذَلِكَ مَعَ

الخلود إلى الراحة وانتهاز الفرص للسيطرة على الغنائم، وإنما تقبل منهم التوبة إذا فازوا في امتحان أصعب ممّا مضى حيث يُدعون لمقاتلة قوم أولي بأس شديد، فليسوا كاليهود متستّرين بالحصون للمحافظة على أموالهم، ومن جهة أخرى لا يكفي في القتال أن يستسلم القوم أو يهربوا أو يدفعوا الجزية، بل عليهم أن يقاتلوهم إلى أن يسلموا فهو امتحان صعب. وهكذا يتبلى الله تعالى عبده بمحنة، فإن تهرّب عنها وقع في محنة أصعب ليتبيّن صفاء روحه وقوة إيمانه ومدى تسليمه لأمر الله تعالى.

وقد وقع الخلاف في المراد بهذا القوم، فقليل: هم هوازن في غزوة حنين، وقيل: ثقيف في غزوة الطائف، وقيل: مشركو مكة في فتح مكة، وقيل: الروم في غزوة مؤتة، وقيل: المراد دعوتهم إلى حروب المسلمين بعد الرسول ﷺ كالمرتدين مع مسيلمة أو الفرس، وكلّ منهم أشدّاء ذوو بأس شديد إلا أنّه يبعد إرادة الروم؛ لأنّهم كانوا أهل كتاب، والحرب معهم لا يستمرّ إلى الإسلام، بل تقبل منهم الجزية، فقله تعالى: ﴿ثَقَاتِلُوهُمْ أَوْ يُسْلِمُوا﴾ يدلّ على أنّهم مشركون. وكذلك لا يصحّ إرادة الفرس؛ لأنّهم كانوا مجوساً وحكمهم في الحرب كأهل الكتاب، ويبعد إرادة أهل مكة؛ لأنّ ظاهر الآية أنّهم قوم غير من دعوا إلى محاربتهم في هذه القضية، وإلا لقال: ستدعون إلى قتال هؤلاء مرّة أخرى، وظاهر قوله: ﴿سَتَدْعُونَ﴾ أنّه يتمّ في المستقبل القريب، فيبعد أيضاً حملة على ما بعد الرسول ﷺ، فالصحيح أنّ المراد بهم هوازن أو ثقيف أو كلاهما.

﴿فَإِنْ طَطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾

الغرض من هذا البيان أنّ الامتحان لا يتمّ إلا بالابتعاد عن الجشع والمطامع

المادية وإلا فأنتم باقون على النفسية السابقة، فإن وطنتم أنفسكم على قتال عدو شديد البأس لا تتركونهم حتى يسلموا من دون أن يكون لكم مطمع في مال، بل يكون هدفكم بلوغ رضوان الله تعالى ونيل ثوابه واجتناب عذابه يوم القيامة، فقد فزتم وإلا فإن الله تعالى يعذبكم عذاباً أليماً، ولعله لذلك لم يفصل ذكر الأجر أيضاً، بل أبهمه ليكون قصد التقرب إليه وامثال أمره هو الهدف الأساس.

ومن الغريب أن بعض من يصرّ على أن هؤلاء قوم مؤمنون، فسّر هذه الآية بأنها نزلت للتخفيف عنهم بأنكم ستألون غنائم في حروب آتية، وإنما كان المنع في غنائم خبير لمصلحة خاصة مع أن الآية لا تدلّ على ذلك، وإنما وعدوا بالأجر الحسن. والأجر الحسن لم يكن في الدنيا، بل في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾، أي في الحديبية، وفيه تهديد لهم بأن ذلك التوليّ يستلزم العذاب الأليم، ولكن الله تعالى يعفو عنهم إذا أطاعوا في غزوة أخرى. والتوليّ عن الشيء الإذبار والإعراض عنه، فلا بدّ من تقدير، أي تولّوا عن الإطاعة، ولذلك يعبر به عن العصيان.

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذَّبْ عَذَاباً أَلِيماً﴾. يبدو أن المعوقين كالأعمى والأعرج وكذلك المرضى ممّن تخلفوا، وربما شاركوا الأصحاء في ظنّ السوء وبثّ الدعايات ضدّ الرسول ﷺ لمّا رأوا أن التوبة والرجوع أنيط بالدعوة إلى القتال أصابهم الهلع والخوف من أنهم لا يقدرّون على ذلك، فكيف يضمّنون قبول التوبة، فنزلت الآية الكريمة تعفيهم عن القتال، ولكّنها في نفس الوقت تطالبهم بإطاعة الله ورسوله، فمجال الإطاعة واسع ومن

لا يستطيع القتال، يمكنه بذل النصح للرسول ﷺ وللأمة، ولذلك عقبه بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وعبر عن العاصي بنفس التعبير الوارد في من ترك القتال ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ للتنبيه على أن دور العاجز خلف جبهات القتال لا يقصر عن دور المقاتل.

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ ۚ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ۝ وَلَوْ قَتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ ۖ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۝﴾

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾. الآية تشير إلى بيعة المؤمنين مع الرسول ﷺ يوم الحديبية وتسمى بيعة الشجرة، لوقوعها تحت شجرة سمرة هناك، ويقال: إن المؤمنين كانوا يتركون بها مدة من الزمان إلى أن قطعت بأمر عمر على ما روى السيوطي في «الدر المنثور» قال: «أخرج ابن أبي شيبة في المصنّف عن نافع، قال: بلغ عمر بن الخطاب أنّ ناساً يأتون الشجرة التي بويح تحتها فأمر بها فقطعت»^١.

وتسمى هذه البيعة بيعة الرضوان أيضاً لمكان هذه الآية الكريمة، والقصة مشهورة في كتب السيرة والتاريخ، ففي «مجمع البيان»: «إن رسول الله ﷺ لما نزل بالحديبية دعا عمر بن الخطاب ليرسله إلى أهل مكة ليأذنوا له بأن يدخل مكة ويحلّ من عمرته وينحر هديه، فقال: يا رسول الله ما لي بها حميم وإنّي أخاف قريشاً لشدة عداوتي إيّاها، ولكن أدلك على رجل هو أعزّ بها منّي عثمان

بن عفان، فقال: صدقت، فدعا رسول الله ﷺ عثمان، فأرسله إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وإنما جاء زائراً لهذا البيت معظماً لحرمة، فاحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان قد قتل، فقال ﷺ: لا نبرح حتى نناجز القوم ودعا الناس إلى البيعة، فقام رسول الله ﷺ إلى الشجرة فاستند إليها وبايع الناس على أن يقاتلوا المشركين ولا يفرّوا.^١

ولكن هناك تساؤلات حول هذه القصة تمنع من قبولها، مع أنها مشهورة، فمنها: أن الرسول ﷺ كان مؤيداً من عند الله تعالى يخبره بما يحدث، فكيف خُدع بما بلغه من مقتل عثمان؟! ولا يمكن القول بأنه ﷺ تظاهر بالانخداع ليأخذ من الناس البيعة، ومن غريب ما في القصة ما ذكره جمع من المفسرين ومنهم الآلوسي في «روح المعاني»، حيث قال: «وصحَّ أنه - صلى الله عليه وسلم - ضرب بيده اليمنى على يده الأخرى وقال: هذه بيعة عثمان»،^٢ فكيف يبايع الرسول عنه وهو مقتول؟!

ويؤيد هذا التشكيك ما رواه البلاذري في «أنساب الأشراف» قال: «وقدم ابن مسعود المدينة وعثمان يخطب على منبر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلما رآه قال: إلا أنه قدمت عليكم دوية سوء من تمش على طعامه بقيء ويسلح، فقال ابن مسعود: لست كذلك، ولكني صاحب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوم بدر، ويوم بيعة الرضوان، ونادت عائشة، أي عثمان، أتقول هذا لصاحب

١. مجمع البيان في تفسير القرآن ١٠ - ٩: ١٧٧.

٢. روح المعاني ١٣: ٢٦٠.

رسول الله - صَلَّى الله عليه وسلّم -؟!»^١.

وكان - كما قيل - يعرض بعثمان، حيث تغيب في هذين اليومين، ولو كانت بيعة الرضوان من أجل ما ذكر من خير مقتله لم يكن وجه للتعريض به، بل كان فخراً له، فالغالب في الظنّ أنّه غاب عن هذه البيعة لسبب ما، فاختلقت أجهزة وضع الحديث الأموية وحاكت كلّ هذه القصة لتبرير موقفه ولجعله منقبة له.

وقد مرّ الكلام حول إسناد الرضا والغضب إلى الله تعالى، وقلنا: إنّهُ لا يمكن بظاهره؛ إذ لا يمكن عروض الحالات عليه تعالى مضافاً إلى أنّ المعنى الظاهري للرضا هو الملاءمة مع الطبع ولا معنى لإسناد ذلك إليه سبحانه، ولذلك ورد في رواياتنا أنّ رضا الله ثوابه وغضبه عقابه، بمعنى أنّ الذي يحدث هو فعل الله تعالى وهو الثواب والعقاب، والظاهر أنّ الثواب والعقاب هنا يشمل القرب والبعد، فالمراد بهذا التفسير على ما يبدو هو أنّ ما يحدث إنّما هو في الإنسان وهو دخوله في مقام القرب لدى الله تعالى أو في حضيض البعد عن رحمته.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ ظرف يفيد التعليل، ومعناه أنّ ما أوجب كون المؤمنين مرضيين لديه تعالى هو مبايعتهم تحت الشجرة للظروف الخاصة المحيطة بهم، ولما وطّئوا عليه أنفسهم من الوفاء للرسول ﷺ وقصدوا بذلك الزلفى لديه تعالى، فالرضا وإن تعلّق بذات الإنسان إلا أنّه ليس مطلقاً وليس معناه أنّ هذا الإنسان معصوم أو مؤيد من عند الله تعالى، وإنّما يدلّ على أنّ هذا العمل ممّا يرضى به الله تعالى، فمن عمله فهو داخل في مرضاة الله، وقد مرّ أنّ رضا الله إنّما يتعلّق بالسجاياء والأعمال، فالذي يحدث بعمل الإنسان هو

١. أنساب الأشراف ٢: ٢٦٩ (على ما في المكتبة الشاملة).

وروده في دائرة الرضا المتعلق بعمله، ولا ينافي ذلك أن يصبح بعد ذلك مغضوباً عليه بارتداد أو قتل مؤمن ونحو ذلك. ونظيره ما ورد مستفيضاً في أحاديث الفريقين من أنه تعالى يغفر للواقفين بعرفة بأجمعهم، فإنه لا يعني أنه يغفر له ما يأتي من ذنوبه مستقبلاً، فربما يذنب متعمداً في نفس الموقف بعد استغفاره وقبول التوبة منه.

ثم إن الرضا المتعلق بالجماعة ليس معناه الرضا عن كل فرد فرد، ومن الغريب إصرار المتشبهين بالحشائش بمثل هذا التعبير، لإثبات أن كل فرد منهم مخاطب بذلك يقول بعضهم: «يا الله! كيف تلقوا - أولئك السعداء - تلك اللحظة القدسية وذلك التبليغ الإلهي؟ التبليغ الذي يشير إلى كل أحد في ذات نفسه ويقول له: أنت أنت بذاتك. يبلغك الله لقد رضي عنك وأنت تباع تحت الشجرة وعلم ما في نفسك فأنزل السكينة عليك إن الواحد منا ليقراً أو يسمع: ﴿اللَّهُ وَبِئِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾...^١ فيسعد يقول في نفسه: ألسنت أطمع أن أكون داخلاً في هذا العموم؟ وقرأ أو يسمع: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^٢ فيطمئن يقول في نفسه: ألسنت أرجو أن أكون من هؤلاء الصابرين؟ وأولئك الرجال يسمعون ويبلغون واحداً واحداً أن الله يقصده بعينه وبذاته ويبلغه: لقد رضي عنه وعلم ما في نفسه ورضي عما في نفسه...»^٣.

ولا يكاد ينقضي العجب من هذا الكلام!! ما هو الفرق بين التعبير بالصابرين والذين آمنوا حيث إنهما يدلان على العموم ويشملان الفرد بعموم اللفظ، وبين

١. البقرة (٢): ٢٥٧.

٢. البقرة (٢): ١٥٣؛ الأنفال (٨): ٤٦.

٣. في ظلال القرآن ٦: ٣٣٢٦.

التعبير بالمؤمنين الوارد في الآية الكريمة؟! أليس هذه أيضاً كلمة تدلّ بعمومها على الأفراد؟! فالصحيح أن اللفظ عام يشمل الجميع، ولكن قوله تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ عنوان يختلف فيه الناس اختلافاً فاحشاً، وليس كل أولئك بمنزلة واحدة في النية والخلوص، بل لا شك أن فيهم ضعاف الإيمان والمنافقون، وفيهم المخلصون غاية الإخلاص، وفيهم المتوسطون؛ ويقال إنهم بأجمعهم بايعوا إلا جدّ بن قيس كان منافقاً فستّر ولم يبايع. وأكثر منه نفاقاً من تستر ببيعته. ويدلّ على ما ذكرناه من الاختصاص قوله تعالى في نفس هذه البيعة: ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ ولو لم يكن هناك من يقصد النكث لم يذكر الله تعالى ذلك، وقد روى في «الدّر المنثور» عن ابن أبي حاتم، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ قال: «إنما أنزلت السكينة على من علم منه الوفاء»^١.

﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَنَابَهُمْ فَتَحَا قَرِيْباً﴾. الظاهر أن الجملة معطوفة على قوله: ﴿يُنَادِيْعُونَكَ﴾، أي علم ما انطوت عليه ضمائرهم من حسن النية والعزم على الوفاء للرسول ﷺ فأُنزل السكينة والاطمئنان في قلوبهم ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم. ومنه يظهر أن السكينة لا تنزل لمجرد الاضطراب والقلق كما يتصور، بل لابد من عمل وخلوص ليستحقوا نزولها. ونسب إلى «مقاتل» أن المراد بما في قلوبهم كراهة البيعة والحرب^٢، ولعلّه إنما فسّره بذلك ليناسب نزول السكينة، كأنّه تصوّر أن الإنسان لا يحتاج إليها إلا إذا كان مضطرباً وهو خطأ

١. الدّر المنثور ٦: ٧٤.

٢. مجمع البيان في تفسير القرآن ١٠-٩: ١٧٦.

واضح، وقد أنزل الله تعالى سكينته على رسوله كما سيأتي في هذه السورة، وقد ورد أيضاً في قوله تعالى: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾^١.
والإنابة بمعنى إعطاء الثواب، أي الجزاء وأصله من الثوب، أي الرجوع، يقال: تاب إلى الله وتاب وأتاب كلها بمعنى واحد، وهذا التعبير بلحاظ أن ثواب الإنسان وجزاءه كأنه نفس عمله أرجع إليه. والظاهر أن المراد بالفتح القريب فتح خير، لأنه كان بعد الحديبية مباشرة.

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيمًا﴾ عطف على الفتح القريب فهي جزء من الثواب، والمراد غنائم خير وهي كانت كثيرة فعلاً؛ لأن اليهود كانت تجمع الأموال كما هو شأنهم وديدنهم دائماً؛ وتوصيفها بأنهم يأخذونها لعلّه للتأكيد على أنها مغانم مادية وأموال لثلاثيهم أن المراد مغانم معنوية، فتصغر في نفوس من يسترخصها، وقيل: إن التوصيف بذلك للإشارة إلى أن كل الحاضرين في البيعة المخاطبين بهذا الخطاب يأخذونها فلا يهلك منهم أحد قبله. وهو بعيد عن اللفظ؛ إذ الخطاب العام في مثل ذلك لا يستلزم الانحلال إلى خطابات بحسب الأفراد، مضافاً إلى أنه لا ينطبق على نفس هذا الوصف حيث ذكر في الآية التالية ويقصد بالخطاب فيه كل المسلمين على ما يبدو.

و﴿كَانَ﴾ منسلخة عن الدلالة على الزمان وتدلّ على مطلق الثبوت. والعزة والحكمة واضحتان ممّا حدث، فالله تعالى عزيز وغالب على أمره، فإذا أراد أن يجازي قومًا محسنين جزاءً عاجلاً وفيراً فالأمر كله بيده يقرب البعيد ويبعد القريب، وإنما يتأخّر الجزاء في أكثر الموارد لحكمته تعالى، فإن الدار دار

امتحان وابتلاء ولو كان كل مؤمن يلقي جزاء إحسانه في العاجل وبصورة واضحة تميّزه عن غيره لكان ذلك من أشدّ المغريات تأثيراً واستجلاباً للناس، ولدخلوا في الدين طواعية بالملايين من دون أن يُمَحَّصوا وتخلّص جواهر نفوسهم وتركوا أرواحهم، وهذا خلاف المصلحة والحكمة من هبوط الإنسان إلى الأرض.

﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُم مَّ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُم﴾ الظاهر أنّ المراد بالمغانم مطلق المغنم التي وعد بها المسلمون بصورة عامة على لسان الرسول ﷺ وإن قوله «هذه» إشارة إلى غنائم خيبر. وقيل: إنّها إشارة إلى صلح الحديبية، فهو مغنم معنوي، وربّما يؤيده قوله: «وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُم» بناءً على أنّ الناس كفّار مكّة، ولكن ما ذكرناه من وجه التوصيف بالأخذ ينافيه، فإنّه يقتضي أن تكون الغنيمة مادية.

وأما المراد بالناس فقد قيل: إنّهم يهود خيبر أو بنو أسد وغطفان من حلفائهم، حيث أرادوا النزول إلى المعركة لحماية اليهود، فأنزل الله في قلوبهم الرعب وردّهم. ولكنّ الأظهر أنّ المراد بهم مشركو مكّة، حيث كان من المتوقع أن يقاتلوا المسلمين لمنعهم من دخول مكّة مع كلّ ما بينهم من العدا، بل الثأر المطلوب فكفّ الله أيديهم، ولذلك ورد في عبارة الرسول ﷺ عن فتح الحديبية - كما أسلفنا -: «هذا أعظم الفتح لقد رضي المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم»^١ ويؤيده أيضاً الآيات التالية.

﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَتَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾. الضمير في «لِتَكُونَ» يعود إلى

الغنيمة المشار إليها بقوله ﴿هَذِهِ﴾ والواو للعطف، فالجملة معطوفة على مقدر ولعلّ التقدير: «لتغنموا» أو «ليحقق الله وعده»، ولتكون الغنيمة آية للمؤمنين، فبناءً على كون المراد بها صلح الحديبية - كما قيل - فهو آية عظيمة فتح الله به للرسول ﷺ طريق النفوذ في القبائل العربية ونشر الدعوة، ثم لما لم تتحمل قريش نتائج ما آلت إليه المصالحة من دخول الناس في دين الله أفواجاً نقضت العهد، ففتح الباب للهجوم الكاسح بآلاف من المسلمين، ففتح الله مكة لرسوله بدون قتال. ولكن الصحيح - كما مرّ - هو أنّ المراد بها غنائم خيبر، فكونها آية من جهة تحقّق ما أخبر الله به على لسان نبيّه ﷺ فيقوى بذلك إيمانهم بالله ورسوله. والظاهر أنّ الهداية إلى الصراط المستقيم تترتب على كون الغنيمة آية، حيث يزدادون إيماناً وتمسكاً بعقيدتهم، فيهتدون إلى الصراط المستقيم الذي دعاهم الله تعالى إليه.

﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾. (أُخْرَى) صفة لمقدّر، والمقدّر معطوف على قوله: ﴿هَذِهِ﴾ في الآية السابقة، أي وعجّل لكم غنيمة أخرى. وجملة ﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ وصفية، وقوله: ﴿لَمْ تَقْدِرُوا﴾ يدلّ على نفي القدرة فيما مضى، فالمعنى أنّهم حاولوا الوصول إليها ولم يقدروا، فالأقرب أن يكون المراد دخول مكة وفتحها، حيث تمت المحاولة في قضية الحديبية وحصلوا على هذه الغنيمة في فتح مكة.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ جملة وصفية أيضاً، والإحاطة بالشئ بمعنى الإحداق والإطافة به من كلّ جهة، فقد يراد بها العلم بكلّ جوانبها، وقد يراد بها القدرة الكاملة عليها بحيث لا يمنعه مانع وهما في الحقيقة مختصّان به تعالى،

كما قال: ﴿إِلَّا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّخِيطٌ﴾^١ والمراد بالإحاطة هنا إحاطة قدرة، أي أنّ هذا الأمر وإن لم يكن مقدوراً لكم إلا أنّه كغيره تحت إحاطته تعالى وقدرته، فهو قدير على كلّ شيء و﴿كَانَ﴾ - كما مرّ - منسلخة عن الزمان وتدلّ على أصل الثبوت ولو أريد بها ما يدلّ على الماضي صحّ أيضاً، وتفيد التنبيه على أنّه تعالى كان قادراً عليها حين عجزكم وإنّما أخرها لمصلحة وحكمة.

﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَذْهَارُ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾. المراد بالذين كفروا مشركو مكة، ويبدو أنّ بعض الناس كانوا يظنون أنّ الخطر كان محدقاً بالنبي ﷺ وأصحابه من جهة المشركين، وأنّه كان من الخطأ النزول في عقر دارهم لقلّة عددهم وعدم استعدادهم للقتال، وقد وصلوا إلى مشارف مكة، فإنّ الحديبية قريبة جداً منها وهي من حدود الحرم. فهذه الآية ترد على هذه الظنون بأنّ المسلمين كانوا هم الغالبين لو كان يحدث بينهم قتال وأنّ المشركين كانوا ينهزمون في الحرب ويولّون أدبارهم، وأمّا الاتكال على الأعراب والأحباش فلا أثر له، فإنّ الله تعالى إذا شاء يقذف في قلوبهم الرعب، كما ألقى في قلوب اليهود وحلفائهم، فلو قاتلوكم ما كانوا يجدون وليّاً يتولّى أمورهم ويدافع عنهم، بل ولا نصيراً يؤازرهم.

وأتى بحرف ﴿لَوْ﴾ للدلالة على أنّهم يهابون المسلمين ولا يقاتلونهم أساساً؛ لأنّ ﴿لَوْ﴾ تدلّ على الامتناع. وتولية الدبر بمعنى الفرار، و﴿وَلَّى﴾ أي أتبع الشيء بالشيء، فإن قيل: ولاه وجهه، أي أقبل إليه، كما قال تعالى: ﴿قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ

المُسْجِدِ الْحَرَامِ^١ وإن قيل: ولاه دبره، أي خلفه، فيكون بمعنى الإعراض أو الفرار. ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾. ﴿سُنَّةَ اللَّهِ﴾ مفعول مطلق لفعل مقدّر، أي سنّ الله سنّته التي... و﴿خَلَتْ﴾ بمعنى مضت، أي ليس هذا بدءاً من الأمر، بل هو سنّة الله تعالى في نصره أنبيائه السابقين، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَا غَلِبَ إِلَّا أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^٢ فهذا أمر مكتوب وقضاء حتم، والجملة الأخيرة المبدؤة بنفي الأبد للتأكيد على أنّ هذه السنّة باقية لم تتغيّر ولن تتغيّر. وليس المقصود أنّ الأنبياء لا يهزمون في قتال أو لا يظلمون، فقد ورد في القرآن التنديد بمن قتلوا النبيين عليهم السلام. والهزيمة قد وقعت في صفوف المسلمين أيضاً كما حدث في أحد، ولكنّ المقصود أنّهم هم الغالبون في النهاية. مضافاً إلى أنّ المستفاد من الآيات الكريمة أنّه تعالى يؤيّد المؤمنين وينصرهم إذا أطاعوا الله ورسوله ونصروا دين الله، كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾^٣ وهذه سنّته في كلّ ما كان من غزوات وحروب، ولم يهزم المسلمون إلا في المواقف التي خالفوا فيها أمر الرسول ﷺ وإنّما كان الحكم هنا هو الانتصار الحتمي، لأنّهم أخلصوا النية وبايعوا الرسول ﷺ حتّى الموت أو على عدم الفرار، وعلم الله منهم الصدق والوفاء، فأنزل السكينة عليهم وكان النصر لهم حتماً حتّى لو وقع القتال بينهم وبين المشركين.

١. البقرة (٢): ١٤٤.

٢. المجادلة (٥٨): ٢١.

٣. محمد (٤٧): ٧.

وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرْتُمْ عَلَيْهِمْ^١ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿١٦﴾ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ حِمْلَهُ^٢ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْصِبْكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بَغِيرٌ عَلِيمٌ^٣ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ^٤ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَنَهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ^٥ وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا^٦ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿١٨﴾

﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرْتُمْ عَلَيْهِمْ﴾.
 الآية مرتبطة بصلح الحديبية ولا وجه لتخصيصها من بين آيات السورة بفتح مكة. وتقديم الضمير المسند إليه للتركيز على الفاعل، أي أن الله تعالى هو الذي فعل ذلك ولم يكن الأمر من تدبيركم، وهو الذي تولى أموركم لستم الفتح المبين لرسوله ﷺ، والكف هو المنع، فالله تعالى بتصرفه في القلوب — وهو يحول بين المرء وقلبه — منع كلاً من الفريقين أن يهاجم الآخر، مع أن الوضع بصورة اعتيادية كان يستلزم المواجهة، فالتأثر والعداء بينهما راسخان والمسلمون قلة لم يستعدوا للحرب، وهاهم بلغوا مشارف مكة، والتعبير بأنهم في بطن مكة إما للمبالغة أو باعتبار إطلاق الاسم على المدينة المقدسة وما حولها من الضواحي، كما هو المتعارف. والحديبية أول الحرم الشريف. والبطن، يطلق على داخل الشيء بخلاف الظهر، ومثلها الباطن والظاهر. ومع كل ذلك لم تحصل

أي مواجهة ولم يمنع منها إلا قدرة الله تعالى، حيث منع كلا منهما أن يقصد الآخر ليلبغ الغاية المتوخاة، وهو فتح مكة بدون قتال، ليبقى حرم الله تعالى مصوناً من سفك الدماء فيه، والله بالغ أمره.

وأما قوله تعالى: ﴿مَنْ بَعْدُ أَنْ أَظْفَرَكُمُ عَلَيْهِمْ﴾ فالظاهر أن المراد به الظفر على المشركين عامة من جهة أن الرسول ﷺ تمكن من دخول مشارف مكة بجمع قليل، ومن دون أن يحملوا عتاد الحرب وأن يرغمهم على قبول الصلح، وكان هذا بنفسه فوزاً عظيماً، ولذلك عدّه الله سبحانه فتحاً مبيناً. ولكن كثيراً من المفسرين رووا روايات تدلّ على أن الآية نزلت في شأن قوم خاصّ من المشركين أرادوا الفتك بالمسلمين، فأمكن الله منهم وقبضوا عليهم وأطلقهم الرسول ﷺ، والروايات متخالفة ولا اعتبار بإسنادها، وبعضها واضح الكذب لاشتمالها على أن خالد بن الوليد هو الذي أسرهم بأمر النبي ﷺ مع أنه لم يكن مسلماً ذلك اليوم، فكأن الواضع خائنه ذاكرته.

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾. لا شك أنه تعالى بصير بكل شيء، وإنما القصد هنا التنبيه على أن الأمور كانت تحت عنايته الخاصة، كما قال تعالى خطاباً لموسى عليه السلام: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾، فالمراد أن الأمور ما كانت تسير سيرها الطبيعي المتوقع، بل كانت عناية الله سبحانه وتأييده ولطفه تسير الأمور على الوجه الخاص، بحيث ينتهي الأمر إلى ما يريده تعالى وهو الصلح المستتبع لفتح مكة من دون قتال والله غالب على أمره.

﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهٰذِي مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ حِلُّهُ﴾. هذه

الآية تثبت استحقاق المشركين لأن يعذبهم الله تعالى بأيدي المؤمنين، بل يبيدهم عن آخرهم، وتبين السبب في تأخير ذلك. أمّا وجه استحقاقهم للعذاب فأمر ثلاثة: الكفر، وهو بنفسه يكفي مبرراً للعقاب إذا تمت الحجة عليهم وقد تمت بالفعل؛ والثاني أنهم منعوا المسلمين من دخول المسجد الحرام، والثالث منعهم الهدى من أن تبلغ محلّها وتذبح أو تنحر؛ فقوله تعالى: ﴿وَالْهَدْيُ﴾ عطف على الضمير المنصوب في ﴿صَدُّوْكُمْ﴾، أي صدّوا الهدى. والصد: المنع. والمعكوف، أي المحبوس ومنه الاعتكاف، حيث يحبس الإنسان نفسه في المسجد. والهدى ما يهدى إلى الكعبة من النعم قربة إلى الله تعالى. والمحلّ، أي الموضع الذي يحلّ فيه ذبحه أو نحره وهو مكّة في العمرة المفردة، حيث يستحبّ فيها الهدى. وكان منع الهدى من بلوغ مكّة يعتبر جريمة في عرف العرب الجاهلي، بل كانوا يُشعرون الهدى أو يقلّدونه فلا يتعرّض له أحد بأذى إلى أن يبلغ مكّة للذبح أو النحر.

﴿وَلَوْ لَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوُّوهُمْ فَتُصَيِّبُكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾. وهذا بيان للسبب في تأخير العقوبة وهو - على ما هو المعروف في تفسير الآية - وجود رجال مؤمنين ونساء مؤمنات في مكّة لا يعرفهم المسلمون بأشخاصهم، فينالهم سوء بسبب الحرب وينتهي الأمر بما يوجب حرجاً على المسلمين. وقوله: ﴿لَمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ جملة وصفية للرجال والنساء، أي لم تعرفوهم، و﴿أَنْ تَطَّوُّوهُمْ﴾ بدل عن رجال ونساء، أي لولا أن تطّووا هؤلاء. والوطء هو الدوس بالأرجل، وهو كناية عن الإهلاك كما قيل. والمعرة، المكروه وما يصيب الإنسان من الإثم، كما في «العين»^١ وأصله العرّ بمعنى الجرب واللطخ بالقدارة

والعيب. والمراد به - على هذا التفسير - أنكم إذا قتلتم مؤمناً خطأ فإنكم تصابون بالأسف، كما أنه يستلزم عاراً ومسبة، فيقال: إن أتباع دينهم أيضاً لم يسلموا منهم. وقوله: ﴿وَلَوْلَا﴾ شرط جوابه محذوف، أي لولا ذلك لسَلَطَكُم الله عليهم. وهناك اختلاف في متعلق قوله: ﴿بَغَيْرِ عِلْمٍ﴾، فقال في «الكشاف»: إنه متعلق بـ ﴿أَنْ تَطْثُوهُمْ﴾، يعني أن تطئوهم غير عالمين بهم.^١ ولكنه يكون تكراراً لقوله: ﴿لَمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾.

وقيل: إن المراد بهذا العلم، العلم بلحاق المعرفة، فيختلف عن العلم في: ﴿لَمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ المتعلق بإيمانهم. ولكنه قيد لا فائدة فيه، فإن إصابة المعرفة محذور، سواء علم بها أم لم يعلم، مضافاً إلى أن المعرفة إنما تصيبهم بعد تبين إيمانهم وهم حينئذ يعلمون بالإصابة فلا تصيبهم من غير علم. وقيل: إن المراد بالعلم الأول العلم بالوطأة، أي تقتلونهم من دون شعور بهم، والعلم الثاني متعلق بإيمانهم، وكلاهما غير صحيح؛ فإن العلم الأول تعلق بهم، لقوله: ﴿لَمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ فلا يمكن أن يتعلق بالوطأة، والثاني لا علاقة له باعتبار الإيمان.

وقيل: إن المراد بالثاني عدم علم من يعترض عليكم بأنكم معذورون في قتلهم، لعدم العلم بهم وهو أبعد من الجميع. ومن الواضح ارتباك التفسير في توجيه هذه الكلمة وأكثرهم مرّ عليها مرور الكرام. والسّر في ذلك هو أنهم لم يتعرضوا للسؤال واضح هنا أو لم يتأملوا في ما هو الجواب الصحيح وإن أشار إليه بعضهم. والسؤال البارز هنا أنه من هم هؤلاء

١. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ٤: ٣٤٣.

قال: «ودائع مؤمنون في أصلاب قوم كافرين وكذلك القائم عليه السلام لن يظهر أبداً حتى تخرج ودائع الله عز وجل، فإذا خرجت ظهر على من ظهر من أعداء الله عز وجل فقتلهم»^١. وروى مثله أيضاً عن طريق آخر، وروى أيضاً في نفس الباب عن منصور بن حازم، عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾، «لو أخرج الله عز وجل ما في أصلاب المؤمنين من الكافرين وما في أصلاب الكافرين من المؤمنين لعذب الذين كفروا»^٢.

ويمكن الاعتراض على هذه الروايات بما يلي:

الاعتراض الأول: أن إسنادها ضعيفة.

والجواب: أن رواية ابن أبي عمير لا إشكال في سندها إلا في من يروي عنه الصدوق مباشرة وهو جعفر بن محمد بن مسرور ولم يذكر بمدح أو ذم، ولكن الصدوق عليه السلام ترخم عليه وذكره بخير، وهذا وإن لم يدل على التوثيق إلا أنه يعتبر ممدوحاً ويكفي ذلك في التفسير، وأما إرسال ابن أبي عمير فلا يضر عند كثير من العلماء حتى في الفقه. وأما رواية منصور بن حازم فكل رواية سنده من الأجلاء إلا من يروي عنه الصدوق وهو أيضاً ممدوح عنده. والحاصل أن الروايات المذكورة مما يمكن الاعتماد عليها في التفسير مع سلامة المتن.

الاعتراض الثاني: أن ظاهر الآية المباركة أنهم رجال ونساء موجودون بالفعل ومؤمنون، كما أن قوله تعالى: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾. يدل أيضاً على أنهم مختلطون لأن التزييل التفرق.

١. علل الشرائع ١: ١٤٧؛ كمال الدين وتمام النعمة: ٦٤١.

٢. علل الشرائع ١: ١٤٨؛ بحار الأنوار ٢٩: ٤٣٧.

والجواب: أنه ليس في مجرد التوصيف دلالة على أنهم موجودون بالفعل، فهو كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^١ وأما التزليل فسيأتي الكلام فيه إن شاء الله.

الاعتراض الثالث: أنه لا يصح التعبير بالوطء والإهلاك لمن في الأصلاب، فلا يقال: إن من قتل أحداً فقد قتل كل من كان بالإمكان أن يولد منه، فمن الواضح أن المراد بالآية وجود اناس بالفعل بين المشركين لا يعرفهم المسلمون بأعيانهم فيقتلونهم جهلاً.

والجواب: أنه لم يعبر بالقتل والإهلاك، وإنما فسّر الوطء بذلك، ولعل اختيار هذا التعبير قرينة على أن المراد بهم من ليس موجوداً بالفعل، فالوطء أي الدوس بالأرجل باعتبار أن قتل الآباء لا يبغي مجالاً لوجودهم.

الاعتراض الرابع: أن هذا النوع من القتل لو صح التعبير لا توجب إصابة معرة، فلا يلام أحد إذا قتل أحداً مستحقاً للقتل بآنك منعت نسله من الوجود، مع احتمال أن يكونوا مؤمنين! خصوصاً أنه أمر غير معلوم، ولا أثر للاحتمال.

والجواب: أن هذا الإشكال إنما ينشأ من تفسير إصابة المعرة بما ذكر، ولكن الصحيح بناءً على هذا التفسير أن إصابة المعرة بمعنى النقص الوارد على المسلمين حيث ينقص عددهم، والمعرة تصدق على كل مكروه وعيب، ولعله لهذا السبب اختير هذا التعبير غير الواضح.

الاعتراض الخامس: أنه لو أريد بالآية مثل ذلك لزم المنع من قتل كثير من

الكفّار في كثير من الحروب؛ إذ لو كان الكافر يبقى لكان من المحتمل أن يولد من نسله مسلم، كما هو الغالب في المجتمع الإسلامي.

والجواب: أنّ الآية لم تمنع القتل في الحرب، وإنّما ذكرت السرّ في أنّ الله تعالى منع تكويناً تحقّق الحرب في خصوص هذا المورد؛ لأنّه كان يستوجب قتل كثير من الناس، ولعلّه كان يفعل مثل ذلك في موارد أخرى أيضاً مشابهة من دون أن يشعر به أحد.

ومن هنا يتبيّن أنّه ليس المراد بالآية الكريمة حسب هذا التفسير وجود رجال مؤمنين ونساء مؤمنات في الأصلاب بقضاء حتمي من الله تعالى، بل المراد قابلية الآباء لإيلادهم، وقابلية الأولاد المفترضين للاندماج في المجتمع الإسلامي، كما هو الغالب حيث إنهم لو ولدوا في هذا المجتمع وهذه الظروف فسيكونون مسلمين قطعاً، وأيضاً قابليتهم للوصول إلى مرحلة الإيمان الكامل وهذا أمر لا يختصّ بهؤلاء، بل هو سار في كلّ من كانوا في ذلك العصر وتلك المنطقة، فالغرض من هذه الآية - حسب تفسير هذه الروايات - أنّ الله تعالى أراد أن يبقى على هذا النسل ويمنع من هلاك جمع كثير من الناس، لأنّهم هم الذين يشكّلون في المستقبل السواد الأعظم للمؤمنين رجالاً ونساءً.

﴿لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾، أي أخر الله في عذاب المشركين ومنع من نشوب الحرب بينهم ليفسح المجال أمام من يريد الهداية منهم ومن الأجيال الآتية ليؤمن ويدخل في رحمته تعالى. والتعليق على المشية يراد به من اقتضت حكمته تعالى أن يدخله في رحمته، إذ هو لا يشاء إلا ما تقتضيه الحكمة، والمراد صلاحيته للهداية. وهذا التعليل أنسب بما ورد في الروايات من أنّ المراد بهم من في الأصلاب.

﴿لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ التزيّل التفريق، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾^١ أي فرّقنا بينهم. والتفسير المعروف لهذه الجملة أنهم لو انفصل بعضهم عن بعض وأمكن عذاب الكافرين منهم من دون أن يصيب المؤمنين لعذبناهم عذاباً أليماً، ولم يبين أنه بأيدي المؤمنين أو غيرها، فيشملهما معاً، وهذا يدلّ على أن الله تعالى يدفع العذاب العامّ عمّن يستحقّه إذا كان في البلد من لا يستحقّه، ويدلّ عليه أيضاً ما جاء في الآيات من أنه تعالى كان ينجي الأنبياء والمؤمنين قبل نزول العذاب، كقوله تعالى: ﴿وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾^٢ وقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^٣ وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾^٤ وغيرها من الآيات الكريمة.

ولكن الروايات المذكورة تدلّ على أن المراد بالتفرّق تفرّق المؤمنين من الجيل المتأخّر عن آبائهم الكافرين، وهو أمر لا يحدث إلا بالتدرّج، فالواقع أن هذا التزيّل وما يترتب عليه من عذاب الكافرين ممّا لا يحدث أبداً، وإنّما المراد بيان استحقاق الجيل الحاضر وقت نزول الآية لعذاب الله تعالى، ولعلّ المراد به عذاب الاستئصال، كما هو ظاهر اللفظ عند الإطلاق، فلا وجه لما قيل من أن المراد عذابهم بأيدي المؤمنين، فالمعنى حسب هذا التفسير أن الله تعالى لا ينزل العذاب على هذا القوم - مع استحقاقهم - بسبب وجود جيل مؤمن في ذريتهم.

١. يونس (١٠): ٢٨.

٢. النمل (٢٧): ٥٣.

٣. الذاريات (٥١): ٣٥.

٤. الأنفال (٨): ٣٣.

ويؤيد هذا المعنى ما ورد في دعاء سيدنا نوح عليه السلام: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾^١ مما يدل على أنهم لو كان في أصلابهم مؤمن لم يدع الله عليهم، ولعله عليه السلام علم بذلك من هذا الوحي حيث قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾^٢؛ إذ لو كان في ذريتهم مؤمن لكان من قومه أيضاً. ومن هنا فإنّ هذا التفسير هو الصحيح من بين كل ما قيل في تفسير الآية الكريمة، فإنّ الكافرين في مكّة وقت نزول الآية لم يكن بينهم مؤمنون إلا من كانوا معروفين بأشخاصهم وكان بإمكانهم الهجرة، خصوصاً بعد توسّع الإسلام وسيطرته على الجزيرة العربية.

وبهذا التفسير يتبيّن الجواب عن عدّة أسئلة في الآية الكريمة:

السؤال الأول: وجه التعبير بقوله تعالى: ﴿لَمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ بدلاً من «لا تعرفونهم» الذي هو المناسب لو كان هنالك أشخاص مؤمنون لا يعرفون بسماهم، فالتعبير بعدم العلم بهم من جهة أنّ أصل وجودهم غير معلوم.

السؤال الثاني: التعبير بالوطء بدلاً عن القتل؛ إذ لو كان هنالك أشخاص لكان التعبير بالقتل هو الأولى.

السؤال الثالث: التعبير بإصابة المعرة وهو تعبير غامض ينطبق على أمور كثيرة ولو كان المراد قتل الأشخاص لكان يعبر عمّا يوجب الأسف الشديد.

السؤال الرابع: التعبير بالتزيّل ولو كانوا أشخاصاً لقال: «لو هاجروا» أو «لو خرجوا».

١. نوح (٧١): ٢٦ - ٢٧.

٢. هود (١١): ٣٦.

وهكذا نجد أن تفسير الآيات المشككة لا نجده إلا في روايات أئمة أهل البيت عليهم السلام ولو كانت أبوابهم مفتوحة للناس لما وقعوا في مناهات الجهل.

﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾. يحتمل أن تكون «إِذْ» تعليلية وتكون لبيان علّة استحقاق العذاب في الآية السابقة، ويمكن أن تكون ظرفاً لقوله: «صَدُّوهُمْ» ولا حاجة إلى تقدير اذكر ونحوه كما قيل. والحميّة من الحمي وهو شدّة الحرّ، والمراد ثوران الغضب، فإنّ الإنسان يشعر بحرارة شديدة إذا اشتدّ غضبه، ثمّ فسّر الحميّة بحميّة الجاهلية، والجاهلية صفة لمقدّر، أي حميّة الملة الجاهلية أو أنّها أُضيفت إلى صفته، فالحمية التي جعلوها في قلوبهم هي التي ورثوها من الجاهلية. والجاهلية تطلق على عادات العرب قبل الإسلام وما يدعى بزمان الفترة.

ولعلّك تسأل: لماذا ذكر الحميّة أولاً، ثمّ أبدلها أو بيّنها بحميّة الجاهلية ولم يقتصر على حميّة الجاهلية فقط وهي أخصر؟ والجواب: أنّ هذا التعبير يفيد استقباح عملهم من جهتين: الأولى: أنّه ليس بدافع العقل والمنطق، بل الحميّة؛ والثانية: أنّ هذه الحميّة من تركة الجاهلية.

والموصول فاعل «جَعَلَ» كما هو واضح، فهم بأنفسهم جعلوا في قلوبهم الحميّة، ولا وجه لما قيل من أنّ فاعله هو الله تعالى، ولا تستقيم معه العبارة وإنّما قيل ذلك استبعاداً لاحتمال جعلهم ذلك بأنفسهم، وإنّما لم يقل: «جعل الله» ليدلّ الكلام على أنّهم اختاروا هذه الحميّة، وهذا النهج الفاسد بسوء اختيارهم. فلم تكن هذه الحميّة مودعة في قلوبهم رغماً عليهم، بل هم بأنفسهم جعلوا ذلك في قلوبهم وأرسخوها وبنوا عليها نهجهم، وما يتّخذونه من موقف تجاه الرسول ﷺ

وأصحابه، وعلى هذا الأساس الفاسد منعوهم من الطواف بالبيت ومن نحر الهدي في محله، مع أنه مخالف لسننهم، حتى أن صاحب الثأر كان يجد قاتل أبيه في الحرم فلا يتعرض له، ولكنهم استسلموا لعصيتهم الجاهلية ورأوا أن دخول القوم في مكة لعله يعتبر عند بعض العرب ارغاماً لأنافهم فمنعوهم، وكان ذلك السبب في أن الله تعالى أرغم أنافهم في مدة قصيرة، وفتح مكة لرسوله ﷺ وللمؤمنين فتحاً باهراً.

﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾. هذه السكينة في مقابل تلك الحمية ولذلك صدر الجملة بفاء التفريع، فالحمية من صنعهم ومن جعلهم، والسكينة من الله تعالى. والحمية ثورة لا تستند إلى منطق وعقل وثقافة، والسكينة اطمئنان في القلب وحلم في السيرة. ومن هنا اتخذوا ذلك الموقف الهادئ بعد أن بايعوا الرسول ﷺ حتى الموت وقبلوا كل ما أبدى الجاهليون من أعداز واهية لتغيير مضمون الصلح، وهم واثقون من أن ذلك لا ينتج إلا الخير لهم، وأن العقابة للمتقين. وإنما كرر لفظة ﴿عَلَى﴾ لاختلاف السكينة النازلة عليه ﷺ عما نزل في قلوب المؤمنين، كما أن ما نزل في كل قلب من قلوبهم أيضاً من السكينة تختلف عن غيره، فكل أحد حاز منها ما هو المناسب لوعائه، ولعل منهم من لم يشعر بأي سكينة كالمنافقين.

﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ قيل: المراد بكلمة التقوى «لا إله إلا الله»، وقيل غيرها من الكلمات، فكأنه يجب أن يكون كلاماً، ولكن الظاهر أن المراد بها روح الإيمان، كما ذكره العلامة الطباطبائي رحمه الله إنه الذي يبعث بالتقوى في قلب

الإنسان والكلمة كلٌّ ما له تأثير، قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾^١، ويؤيد هذا التفسير قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ﴾^٢، فالإيمان كلمة كتبها الله في قلوب المؤمنين. والالزام جعل الشيء لازماً لشيء، فالمراد أنه تعالى جعل كلمة التقوى ملازمة لهم لا ينفكون عنها، فإن رعاية التقوى في بعض الحالات دون بعض ليست ميزة يمتازون بها.

﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلُهَا﴾، أي كانوا أجدر بها من غيرهم حيث إنهم أبلوا بلاءاً حسناً واتباعوا ربهم وأطاعوه فاستحقوا أن يكتب الإيمان في قلوبهم، وأما قوله: ﴿وَأَهْلُهَا﴾ فالمراد أنهم لم يكونوا أحق من غيرهم فحسب، بل لم يستحقها أحد في ذلك الزمان غيرهم حيث إن قوله: ﴿أَحَقَّ﴾ ربما يوهم أن من الآخرين أيضاً من يستحقها ولو بدرجة خفيفة، فهذا التعبير بين أنهم لا يستحقونها أبداً، بل المؤمنون هم أهلها فحسب.

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾، فهو يعلم ما تخفيه الضمائر وما يجعله الإنسان في قلبه من حب أو بغض وما يستحقه من حمية أو سكينه.

١. الكهف (١٨): ١٠٩.

٢. المجادلة (٥٨): ٢٢.

لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ
ءَامِينَ ۚ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۚ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ
دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ
لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ
أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا
سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ
كَزَرْعٍ أُخْرِجَ شَطْعُهُ فَفَازَرَهُ فَأَسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سَوْفِهِ ۖ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ
لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۚ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا
عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾. اللام لام القسم المقدّر، أي والله لقد صدق؛
و﴿صَدَقَ﴾ يتعدى إلى مفعولين، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ
بِإِذْنِهِ﴾^١ أو تقدر «في» أي صدق رسوله في الرؤيا وفي وعده. وقوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾
متعلّق بمحذوف، أي متلبساً بالحقّ وهو حال للرؤيا، أي أنّها رؤيا حقّة وليست
من أضغاث الأحلام، ويمكن أن يكون متعلّقاً بقوله: ﴿صَدَقَ﴾ وعلى الفرضين
يعتبر تأكيداً للصدق. والمعنى أنّ الله تعالى أراه ﷺ رؤيا صادقة، وذلك حيث
رأى الرسول ﷺ في منامه أنّه دخل المسجد الحرام مع أصحابه وطافوا بالبيت
فأخبرهم بذلك ففرحوا واستبشروا، ولما خرجوا إلى مكّة ووصلوا الحديبية
ومنعهم المشركون من دخول الحرم شكّ بعضهم، فقيل: إنّ المنافقين منهم بثّوا

الدعايات وسخروا من وعد الرسول ﷺ وكذبوه في الرؤيا التي أخبرهم بها، قال الألوسي في «روح المعاني»: «قال على طريق الاعتراض عبد الله بن أبي عبد الله بن نفيل ورفاعة بن الحرث: والله ما حلقتنا ولا قصرنا ولا رأينا المسجد الحرام فنزلت. وقد روي عن عمر - رضي الله تعالى عنه - أنه قال نحوه على طريق الاستكشاف ليزداد يقينه..»^١ فلما سألوا الرسول ﷺ عن ذلك، قال لهم ما معناه: ما أخبركم أنه يقع هذا العام.

﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ جواب لقسم مقدّر أيضاً، أي والله لندخلن المسجد الحرام تصديقاً للرؤيا التي رآها النبي ﷺ وهذا قسم بعد قسم. وهذا من الأخبار الغيبية التي أخبر بها الرسول ﷺ عن الله تعالى، ووقع فعلاً في العام التالي. وهناك سرّ في هذا التأخير وفي الإعلام عنه قبل عام، وفي خروج الرسول ﷺ في عام الحديبية، وهو أن يتبين المنافقون والذين في قلوبهم مرض والشاكّون في دينهم، ولكن عامّة الناس لم ينتبهوا إلى الحكمة في ذلك.

والتعليق على المشيئة قيل: إنه لتعليم الناس أن يعلّقوا كلّ ما يخبرون بوقوعه بذلك، فإنّ الأمور كلّها معلّقة على المشيئة. والصحيح أنّه ليس للتعليم، بل حتّى ما وعده الله تعالى معلّق عليها مع أنّه واقع لا محالة، فليس معنى التعليق على المشيئة التردّد في تحقّق الشيء كما يتوهّم، بل المعنى هو تعليق كلّ الوقائع عليها واقعاً، فإنّ الله تعالى ليس ملزماً بشيء، وليس هناك أيّ قانون يلزم الله تعالى بأن يفعل شيئاً أو لا يفعله، فهو يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، ولذلك علّق الله تعالى الخلود في الجنّة والنار أيضاً بذلك، قال تعالى في سورة هود: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ

شَقُوا فِي النَّارِ هُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيْقٌ * خَالِدِيْنَ فِيْهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ * وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا ففِي الْجَنَّةِ خَالِدِيْنَ فِيْهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْدُوذٍ^١ ويلاحظ أن استثناء المشيئة اتبع بما يدل على أن الخلود ثابت لا محالة، فقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ في أهل النار يراد به - على الظاهر - رفع الاستبعاد عن الخلود في النار، وقوله تعالى: ﴿عَطَاءٌ غَيْرُ مَجْدُوذٍ﴾ في أهل الجنة واضح في الدلالة على أنه غير منقطع بمشيئة الله تعالى وعطائه.

﴿أَمِيْنٍ مَّخْلُقِيْنَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِيْنَ لَا تَخَافُوْنَ﴾ وعد بأنهم يدخلونها آمنين لا يخافون اغتيال المشركين، وقوله: ﴿لَا تَخَافُوْنَ﴾ مؤكّد للأمن. وكان كما وعد الله تعالى، حيث إنه ألقى في قلوبهم أن يخرجوا من مكة لئلا يروا الرسول ﷺ وكان ذلك موجبا لأمان أكثر للمسلمين وما أظنهم تفتنوا لذلك، وإنما خرجوا حقدًا وحنقًا ولكن الله تعالى بالغ أمره. والآية تدل على الخيار في الحلق والتقصير في العمرة المفردة، ولعل ذكرهما من بين الأعمال للتأكيد على إكمال أعمالهم وخروجهم عن الإحرام وهم باقون في مكة، فليسوا مستعجلين للخروج منها، وورد في الحديث أن المشركين أرسلوا رسولاً إلى الرسول ﷺ بل انتهاء المدّة يذكرونه بما وعد ويطالبون عدم التأخير.

﴿فَلَمَّ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَعَجَلْ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتَحاً قَرِيباً﴾، أي أن الرؤيا كانت صادقة، ولعله كان من المناسب أن يقع ما وعده الله تعالى في نفس السنة خصوصاً مع خروج الرسول ﷺ للاعتماد، ولكنه تعالى علم أن المصلحة تقتضي تأخير

العمرة لوجوه كثيرة منها تبين المنافق عن المؤمن وتبين درجات المؤمنين، ولكنه أبدلكم من ذلك بفتح قريب هو فتح الحديدية وهو أعظم بكثير من الاعتماد كما تبين نتائجها. فقوله: ﴿مَنْ دُونَ ذَلِكَ﴾ أي بدلاً عنه.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً﴾، أي لا غرابة في أنه تعالى يظهر رسوله على المشركين فيدخل مكة رغماً على أنوفهم، ويعتمر هو وأصحابه آمنين مطمئنين، فإن الغاية المتوخاة أكبر من ذلك، فإنه تعالى لم يرسل رسوله ليغلب قوماً ضعيفاً كمشركي مكة، بل أرسله ليغلب دينه كل ما على الكرة الأرضية من دين، فما تجدونه من تقدم وغلبة ليس إلا مقدمة للفتح الأعظم وهو الغلبة العامة. يلاحظ أن هذا الكلام يلقي على الناس في عهد لم تتجاوز سيطرة الإسلام أطراف المدينة وهو بعد لم يتمكن من فتح مكة، ولكن الله تعالى يشهد لهم بأن هذا سيكون وكفى بالله شهيداً.

والباء في الآية للمصاحبة، أي أرسله الله تعالى مصاحباً للهدى ودين الحق، والمراد بالهدى يمكن أن يكون القرآن الكريم أو هداية الله تعالى له ﷺ في جميع أموره بأن يوفقه لما هو الأصح له ولدينه ولأتمته أو ما تضمنته الكتاب وسيرة الرسول ﷺ من الآيات والمعاجز التي توجب هداية الناس ومعرفتهم ببرّهم. والمراد بالدين الشريعة والقوانين والأحكام الإلهية في العبادات والمعاملات. وقوله: ﴿دِينِ الْحَقِّ﴾ من باب الإضافة إلى الصفة، أي الدين الذي هو الحق.

واللام في قوله: ﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ لام العاقبة لتبين ما سيؤول إليه أمر الرسالة وليس بياناً لسبب الإرسال، فإن السبب ليس إلا هداية الإنسان إلى ما يوجب سعاده

الأبدية بتحصيل رضا الله تعالى. والظهور: الغلبة. والضمير يعود إلى دين الحق، أي يظهر دينه على الدين كله. وقيل يعود إلى الرسول ﷺ وهو بعيد. والباء في قوله: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ﴾ زائدة، أي كفاه الله سبحانه شهيداً، فلا حاجة إلى استدلال بشيء ولا حاجة إلى ذكر شواهد ولا إلى شهادة شهود، فالله تعالى شاهد يخبر به وخبره الحق.

والمذكور في التفسير أن المراد بالظهور الغلبة من حيث الدليل والبرهان، ولكن الظاهر من اللفظ هو الغلبة الخارجية وهي تتحقق إما بأن يكون هذا الدين هو دين أغلب الناس أو بأن تكون السلطة السياسية لأتباع هذا الدين ولا يقتضي بالطبع زوال سائر الأديان، بل ظاهر العبارة بقاء الأديان على مغلوبيتها، وهذه الغلبة لم تحصل حتى الآن إلا إذا أريد به الغلبة في الجزيرة العربية، وهو بعيد عن السياق، فالظاهر أنه إشارة إلى ما وعده الله سبحانه على لسان رسوله ﷺ من قيام الإمام المهدي - عليه أفضل الصلاة والسلام - وعجل الله تعالى فرجه - حيث يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ورد في الحديث النبوي المتواتر، فتكون له السلطة التامة على كل البلاد، وبذلك يتحقق الوعد الإلهي لا خصوص ما ورد في هذه الآية فحسب، بل ما ورد في كل الرسالات، فإن الله تعالى قال: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾^١، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾^٢.

١. راجع: الأمالي (للصدوق): ٢٦؛ كمال الدين وتمام النعمة ١: ٢٥٦؛ بحار الأنوار ١٢: ١٩٥.

٢. المجادلة (٥٨): ٢١.

٣. الصافات (٣٧): ١٧١ - ١٧٣.

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾، الظاهر أن قوله: ﴿مُحَمَّدٌ﴾ مبتدأ خبره رسول الله. وقيل: إنه خبر لمبتدأ محذوف وهو ضمير يعود إلى قوله: ﴿أَرْسَلَ رَسُولُهُ﴾، أي هو محمد رسول الله. قالوا: لأن المراد ليس إخبار أنه رسول الله، بل إخبار أن الرسول المذكور سابقاً الذي صدقه الله الرؤيا وأرسله ليظهر دينه هو محمد ﷺ. ولكن هذا يستلزم تكرار التوصيف بالرسالة مع أنه معلوم لا حاجة إلى ذكره، فالرسول في هذا السياق لا يحتمل غيره ﷺ. وقيل: إن ﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾ صفة ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ معطوف عليه وقوله: ﴿أَشْدَاءُ﴾ خبر. وكأن هذا المتكلف استبعد أن لا يشمل التوصيف بهذه الأوصاف الكريمة الرسول الأكرم ﷺ وغفل عن أن توصيفه بالرسالة يغني عن كل وصف فيكفيه كمالاً وجمالاً وجلالاً أن يرسله الله تعالى مبعوثاً إلى الناس ووسيطاً بينه وبين خلقه.

﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشْدَاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾. لا شك أن المراد بالذين معه ليس كل المعاصرين وفيهم أعداءه ﷺ، ولا كل من كانوا تحت سلطته أو الذين بايعوا معه وأظهروا الإسلام وفيهم المنافقون الذين هم أشدّ عداءً له من المشركين، بل المراد الذين كانوا معه ﷺ في هدفه وفي عقيدته وفي موافقه. ومن الملاحظ أيضاً أن هذه الصفات ما كانت متوفرة في كلهم بالفعل، وإنما كانت في بعضهم وهم أيضاً كانوا مختلفين في ذلك شدةً وضعفاً. نعم كانت الصبغة العامة للمجتمع الصحابي هي ما تذكره الآيات، فكانوا على وجه العموم أشدّاء على الكفار لا يظهرون ليناً تجاههم ولذلك صعب عليهم تحمّل ما اقترحه المشركون في الصلح، كما أنهم كانوا رحماء بينهم فلم تكن شدّتهم مع الكفار لخشونة في طباعهم، بل لشدّدهم في ذات الله. ولكن لم يكن كلهم كذلك، بل

كان فيهم من كان يهادن المشركين ويتعاطف معهم، بل يرسلهم وفيهم من لم يصدر منه ضربة موجّهة إلى أحدهم لا في الحرب ولا بعد الأسر.

﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾. قيل: إنّ المراد بذلك الصلاة لاشتغالها على الركوع والسجود، ولأنّهما ركنان من أركانها، ولكن ظاهر قوله ﴿تَرَاهُمْ﴾ استمرارهم على ذلك كأنّهم دائماً في حال ركوع وسجود، فلا يبعد أن يكون المراد بهما خشوعهم لله تعالى حيث إنّّه باد على وجوه الصالحين بصورة مستمرة وفي كلّ الأحوال، والسجود ليس اسماً للحالة الخاصّة، بل هو عبارة عن الخشوع التام وبهذا المعنى ورد في قوله تعالى: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾؛^١ إذ لا يمكن دخول الباب في حالة السجود بالمعنى الأخصّ. ويمكن أن يكون المراد كثرة الصلاة منهم.

﴿يَتَّبِعُونَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾. إذا كانت الجملة تعليلًا للذي قبلها فالمعنى أنّهم يصلّون يتبعون بذلك فضله ورضوانه، وإذا كانت توصيفاً مستقلاً فظاهر الجملة أنّهم لا يقصدون بأعمالهم إلا الفضل من الله ورضوانه، وهذا غاية المدح ونهاية الكمال، فهم لا يتبعون في كلّ أعمالهم ونشاطاتهم إلا فضل الله ورضوانه، فإذا بذلوا الجهد لكسب مال أو صحّة وعافية أو أيّ أمر آخر ممّا يعود إلى المصالح الدنيوية فإنّهم لا ينتظرون إلا فضلاً من الله تعالى في أن يرزقهم ويعافهم... وهذا يعود إلى اعتقادهم بأنّ كلّ ما يكسبونه من مال أو يحصلون عليه من جاه أو يضافى عليهم من صحّة وعافية كلّ ذلك فضل من الله تعالى وليس نتاج عملهم وجهدهم، وهكذا ينبغي أن يكون المؤمن فلا يجد نعمة إلا

١. البقرة (٢): ٥٨ والاعراف (٧): ١٦١ وفي سورة النساء (٤): ١٥٤: ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾.

ويحمد الله تعالى عليها ولا يعتبر لجهده تأثيراً في ذلك، بخلاف الكافر فإنه يقول كما قال قارون: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾^١ وكذلك من كان مثله وإن ادّعى الإسلام، فإنه وإن لم يقلها باللفظ إلا أنه هو ما انطوت عليه سريرته، ويبرز من كلّ أعماله وسيرته، فلو كان يعتقد أنه من الله لدفع ما أوجبه عليه من حقّ ومن جهة أخرى فإنهم لا يطلبون بعملهم إلا رضوانه تعالى بمعنى أنّهم لا يطلبون من الدنيا إلا ما هو مقدمة للآخرة. وإذا عملوا للآخرة فلا يجدون أنفسهم مستحقّين لأجر وجزاء من الله تعالى، بل يعلمون أنّ كلّ ما يثابون عليه فإنما هو فضل من الله تعالى، ثمّ إنّهم لا يهتمّون بدخول الجنّة بقدر ما يهتمّون بتحصيل رضوان الله تعالى، فالغرض الأسمى لهم وغاية الغايات هو تحصيل رضوان الله تعالى وهذا غاية في المعرفة والكمال.

﴿سَيَأْتِيهِمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾. السیما: العلامة وهو مقلوب من الوسم، والمعنى أنّ أثر السجود بيّن عليهم؛ إمّا بمعنى أنّ أثر الخشوع لله تعالى واضح من وجوههم ومن أعمالهم وسيرتهم وتواضعهم، فيكون التعبير بكونه في وجوههم بمعنى أنّه بيّن عليهم، وهذا أمر مشهود من المؤمن الصالح، فإنّ الخشوع لله يمنع من الكبر والخيلاء، فإذا رأيت الإنسان مختلاً فخوراً يتبخر في مشيه وفي ثيابه وفي مركبه وغير ذلك، فاعلم أنّه لا يخشع لله تعالى، وإمّا بمعنى تأثير السجدة على جباههم، فإنّهم - رضوان الله عليهم - ما كانوا يسجدون على الثياب أو الفرش وإنما يسجدون على التراب أو الحصر والبواري فتؤثر السجّدات الطويلة على جباههم، ومن الناس من أنكر أن يكون هذا أمراً مطلوباً بدعوى أنّه رياء،

وهو خطأ فاحش، فالرياء أمر قلبي وليس كلّ ما يتظاهر به الإنسان من إطاعة أو خشوع رياءً، بل المطلوب شرعاً من المؤمن أن يحسن ظاهره وأن يشترك في صفوف الجماعة في الصلاة وفي سائر الاجتماعات ليتبين للمجتمع صلاحه ويقتدي به غيره.

﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾. الظاهر أنّ ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما مرّ ذكره من الصفات. والمثل كلام أو غيره يمثل حقيقة بصورة أخرى، فهذه الصفات المذكورة في التوراة تمثّل شخصية أصحاب الرسول ﷺ.

﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ تشبيه لهم بحقيقة عينية واردة في الإنجيل على ما هو الظاهر من كونه جملة مستأنفة. وقال جمع من المفسرين: إنّهُ عطف على ﴿مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾ وقوله: ﴿كَزَرْعٍ﴾ مستأنف. ^١ وهو بعيد؛ إذ لا وجه لتكرار ﴿مَثَلُهُمْ﴾.

والشطأ، فرخ النبات يخرج من جذوره ثمّ يقطع ويزرع، والمراد هنا أنّ هذا الفرخ يستعين بالشجرة الأمّ، والأمّ تؤازره، أي تعاونه في النمو إلى أن يستغلظ ويقوى ويستوي على سوقه وهو جمع الساق، ويدلّ التعبير على وجود مجموعة من الفروخ كلّ منها يستوي على ساقه، وهذا النمو والاستغلاظ يحدث في هذه الفروخ بسرعة غير معتادة بحيث يعجب الزرّاع. والمراد بالتشبيه أنّ المؤمنين الذين هم حول الرسول ﷺ ينمو عددهم نمواً هائلاً، فكلّ واحد منهم يهدي أحداً أو جمعاً من الناس ويربّيه حتّى يستكمل دينه فيستقلّ عن أصله وربما يزيد عليه، وأنّ هذا التامّي يعجب المجتمع البشري وهم المراد بالزرّاع. وقيل: إنّ

الشجرة الأم هو الرسول ﷺ والشطأ هم الصحابة، وهو بعيد عن السياق. ولعلّ في التنبيه على هذه الجملة بعد صلح الحديبية أثراً عميقاً في خروج جمع من الصحابة لنشر الدعوة في القبائل العربية.

﴿لِيَغِظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾. الظاهر أنّه تعليل لهذا الجعل التكويني، أي أنّ الله تعالى جعلهم كذلك كما وصفهم في الإنجيل، ليغظ بتكاثرهم وتناميهم الكفار. وقيل: إنّّه تعليل لهذا التشبيه، وهو بعيد إذ لا يعلم به أكثرهم، بل كلّهم إن أُريد بهم مشركو مكّة والجزيرة العربية. ولعلّ ما بأيدينا اليوم من الكتّابين لا يوجد فيهما هذان المثالان، إذ لم يحصل الباحثون على تصريح بهما، وما ذكره بعضهم ليس كما ورد في القرآن.

ونسب إلى بعض فقهاء العامة الاستدلال بالآية الكريمة على كفر الشيعة، لأنّهم يغتاظون من الصحابة ومن كثرتهم، ولئن صحّت النسبة فهو دليل على عدم فقهه. وليس من الشيعة من يبغض أحداً من الصحابة الذين آزرُوا النبي ﷺ واتبعوه في ساعة العسرة وبايعوه حتّى الموت وتفانوا في حبّه والدفاع عنه. وفي ما نזור به سيّدنا حمزة (عليه السلام) وشهداء أحد - رضوان الله عليهم - دليل واضح على عدم فقه الرجل لو صحّت النسبة وهي بعيدة. وليس من الصحابة من نبغضه إلا عدداً يسيراً جداً أظهرُوا بغضهم وعداءهم لأهل بيت النبي ﷺ ونحن واثقون من أنّهم كانوا يبغضون الرسول ﷺ ولم يتمكنوا من إظهاره في حياته، بل أنّ بعضهم أظهره في مواقف لا تخفى على من راجع التاريخ بإنصاف، ومنهم الذين آذوا رسول الله ﷺ في حياته وبعد مماته. وهل تشمل هذه الآية المنافقين الذين هم في الدرك الأسفل من النار؟! وهل المنافقون اسم لجماعة بأعيانهم أو

المقياس هو صفة النفاق؟! وأخطر المنافقين من لا يعرفهم الناس وقد قال تعالى:
 ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ * وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ
 بِسَيِّئَاتِهِمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾^١ وقال أيضاً: ﴿وَيَمُنْ حَوْلَكُمْ مِنَ
 الْأَعْرَابِ مُتَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾^٢.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾. المعنى واضح
 ومن العجيب ما حاوله أغلب المفسرين من العامة من اعتبار «من» بيانية، فيكون
 الوعد شاملاً لجميع من كان مع النبي ﷺ. ولو صح ذلك لم تكن حاجة إلى
 ذكر هذه الجملة مع هذا البيان، فإن كونهم مؤمنين ويعملون الصالحات مفروغ
 عنه، بل هذه الأوصاف صعد بهم إلى أعلى مراتب الكمال، فلا وجه لبيان هذا
 العنوان العام الذي يشمل كثيراً ممن هو دونهم، فالصحيح الذي لا مناص منه هو
 أن «من» تبعية، فتكون في الآية إشارة إلى أن هذه الصفات هي الصبغة العامة
 ومنهم من ليس كذلك، وهذا مما لا ريب فيه ولا شك يعتريه.

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الأمين وآله الطاهرين.

١. محمد (٤٧): ٢٩ - ٣٠.

٢. التوبة (٩): ١٠١.

تفسير سورة الحجرات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ شَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ
كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ
يَغْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۖ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ
مَغْفِرَةٌ ۖ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا
يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿٥﴾

سورة الحجرات مدنية كما تشهد به مواضعها، وتشتمل على آداب في
التعامل مع الرسول ﷺ ومع المجتمع الإسلامي ومع سائر الناس، وتنتهي ببيان
الفرق بين الإسلام والإيمان.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، تصدير الآية بهذا الخطاب ينبي
عن أن الالتزام بما يأتي من الحكم هو مقتضى الإيمان، فكأنه يقول: إن كنتم

مؤمنين فلا تقدّموا، وقد قرئت الآية بوجهين؛ فالقراءة المشهورة: «لَا تُقَدِّمُوا» بضم التاء وكسر الدال من التقديم، وقرئت بفتح التاء والدال من التقدم، أي لا تتقدّموا فحذف أحد التاءين، والمعنى على القراءة الثانية واضح، فإنّ التقدّم بمعنى السبق، فيكون المراد: لا تسبقوا حكم الله تعالى والرسول ﷺ في أي شيء؛ وأمّا بناءً أعلى على القراءة المشهورة، فيحتمل أن يكون بنفس المعنى، ففي «تهذيب اللغة» للأزهري: «ويقال قَدَّمَ فلان يقدم، وتقدّم يتقدّم، وأقدم يقدم، واستقدم يستقدم بمعنى واحد، قال الله جلّ وعزّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾^١. ويحتمل أن يكون بمعنى جعل شيء قبل شيء، كما قال تعالى: ﴿إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ﴾^٢ وهو تفعيل من قَدَّمَ يقدم إذا كان أمام القوم، قال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾^٣، فإذا أتى من باب التفعيل كان معناه جعل شيء قدام شيء.

و«بين اليمين» كناية عن الإمام باعتبار أنّ الإمام بالنسبة للإنسان يقع بين يديه، والأصل في التقديم أن يكون له مفعول، فيمكن أن يكون حذفه هنا لإفادة التعميم، أي لا تقدّموا أيّ عمل على حكم الله ورسوله، ويمكن أن يكون النهي عن فعل التقديم، كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾^٤ من دون ذكر المتعلّق، أي يفعل الحياة والموت كما في «الكشاف»^٥.

١. تهذيب اللغة ٩: ٥٨.

٢. المجادلة (٥٨): ١٢.

٣. هود (١١): ٩٨.

٤. المؤمنون (٢٣): ٨٠.

٥. راجع: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ٤: ٣٤٩.

ومهما كان، فالمراد النهي عن التقدم عليهما فيما يخص أمر الدين أو الشؤون الاجتماعية، أي لا تأمروا بأمر في هذا الباب ولا تعملوا عملاً إلا بعد ورود الأمر من الله تعالى أو من رسوله ﷺ. ولا يراد قطعاً النهي عن أي عمل شخصي لم يرد فيه نهى من الشارع، فيكون مخالفاً لإجراء أصالة الإباحة، وإنما يراد النهي عن إصدار حكم شرعي قبل ورود الأمر أو النهي أو التحليل من الله تعالى، وذلك فيما هو من شؤون الدين، وكذلك النهي عن أي عمل في مجال السياسة وإدارة المجتمع في ذلك العهد قبل أمر الرسول ﷺ أو نهيه، فإنه هو الحاكم المفترض الطاعة.

ويشمل هذا النهي كل اقتراح يتقدم به أحد في مجال الحكم الشرعي، وكذلك في شؤون إدارة المجتمع في ذلك العهد إلا ممن يستشير الرسول ﷺ، وما كان يستشير استفهاماً فهو كان غنياً عنهم بفضل ربه، ولكنه كان يستشيرهم عطفاً ورحمة، كما قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾^١.

ومن الغريب بعد ذلك ومع هذا النهي الصريح أن يعتبر بعض ما كان يتقدم به بعض الصحابة من حكم شرعي قبل نزول الوحي فضيلة له، ويدعى أن الله تعالى تبعه في إصدار الحكم، وورد أحاديث في صحاح القوم بهذا الشأن في موارد عديدة على لسان الرجل نفسه متباهياً بذلك وعلى لسان غيره!! وكأنه تعالى كان غافلاً عن أن الوقت قد حان لإصدار هذا الحكم فنيه عليه بشر ممن خلق، وهذا غاية العجب والغلو.

ومما ذكرنا يتبين أن ذكر الله تعالى مع الرسول ﷺ من جهة أن بعض الأمور لا يجوز التقدم فيها على الله تعالى، لأنه مجال الحكم الشرعي، وبعضها يتوقف على أمر أو نهي من الرسول ﷺ، وذلك في مجال إدارة شؤون المجتمع في عهد ولايته العامة، وليس السبب في ذكره تعالى هو تشريف الرسول ﷺ وتعظيمه كما قيل.

والحكم والتشريع خاص بالله تعالى، كما قال: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ﴾^١ ولكن بمقتضى الروايات قد أذن الله لرسوله ﷺ في ذلك بالنسبة للتشريعات الأساسية؛ مثل ما ورد في تشريع الصلاة أن الله تعالى فرضها ركعتين، ثم سنّ الرسول ﷺ ركعة وأضافها إلى المغرب، وأضاف إلى الظهرين والعشاء ركعتين.^٢ وما ورد في تشريع الزكاة من أنه تعالى فرضها والرسول ﷺ وضعها في تسعة أشياء وعفا عما سواهن^٣ وغير ذلك. والوارد في روايات الباب أن الله تعالى فوّض ذلك إلى الرسول ﷺ ومع ذلك فقد أجاز الله تعالى حكمه ونفّذه.

ومن هنا انقسمت الأحكام أو التقديرات الشرعية إلى فرائض الله وسنن رسوله ﷺ ويقصد بها السنن الواجبة لا المستحبة. كما أنه ﷺ يحق له التشريع في مجال إدارة نظام الحكم وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^٤ وغيره من الآيات؛ وكذلك لولاة الأمر المعصومين عليهم السلام بعده.

والحاصل أن المقصود بالآية النهي عن التقدم على تشريع الله وتشريع

١. الأنعام (٦): ٥٧؛ يوسف (١٢): ٤٠ و ٦٧.

٢. راجع: الكافي ١: ٢٦٦، باب التفويض إلى رسول الله ﷺ.

٣. راجع: الكافي ٣: ٥٠٩، باب ما وضع رسول الله ﷺ الزكاة عليه.

٤. النساء (٤): ٦٤.

الرسول ﷺ أو حكمه الولائي بأن يشرع الإنسان حكماً تشريعاً من جانبه أو يعمل عملاً في المجال التشريعي أو الولائي من دون ترخيص وإذن من الولي الشرعي وهو الرسول ﷺ في عهده. والمراد بالتشريع أن يعتقد الإنسان أو يحكم بأن شيئاً حرام أو حلال وقد تكرر الآيات الكريمة في التنديد به، وأكثر هذه الآيات وإن وردت في مخاطبة المشركين إلا أن الحكم لا يختص بهم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾^١.

وليس معنى ذلك أن لا يعتبر الإنسان شيئاً مباحاً حتى ينزل فيه الحكم الشرعي؛ إذ قد يكون ما نستحلّه أمر مستحدث لم يرد فيه حكم، ولكن الحلّ الذي هو حكم شرعي غير الإباحة الأصلية التي تبني على عدم وصول منع من الشريعة، فالحلّ في الأصل حلّ العقدة كما قال تعالى: ﴿وَاخْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾^٢ وفي الشرع عبارة عن حلّ عقدة الحظر، كما أفاده سيّدنا الأستاذ دام علاه،^٣ فإن كان الشيء محرماً قبل ذلك، إمّا في هذا الشرع أو في شرع سابق أو في العرف الخاطئ الذي يحرم من عند نفسه أو في القوانين الوضعية التي تحرم بغير حق أو كان مورداً لتوهم الحظر، ثم أحله الله تعالى فقد انحلت عقده، نظير قوله تعالى: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصَّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾^٤ وقوله تعالى: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ

١. النحل (١٦): ١١٦.

٢. طه (٢٠): ٢٧.

٣. أي مرجع الأمة وملاذها السيّد السيستاني حفظه الله تعالى.

٤. البقرة (٢): ١٨٧.

مَنَاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ»،^١ وقوله تعالى: ﴿وَأَحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾.^٢

وهناك من الناس من يحرم ما لم يحرمه الله تعالى بدعوى أنه محدث وكل محدث بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار!! وهو الذي يدخل النار بقوله هذا، لأنه يحرم ما لم يحرمه الله تعالى، فهو المبتدع والمعتدي على التشريع الإلهي وأما من يرتكبه من دون أن يحكم بأنه مما أحله الله تعالى وإنما يستحلّه؛ لأنه تعالى لم يحرمه وأنه على إباحته الأصلية، فهو متبع لشرع الله وليس مبتدعاً. وهذا باب واسع يدخل فيه كثير مما يتسرّع فيه الجهلة المتلبسون لباس الفقهاء بالحكم بالابتداع والضلالة.

نعم، لا يجوز أن يدخل في الدين ما ليس فيه، فيحكم بأن هذا واجب أو حرام أو حلال شرعاً والشرع لم يحكم فيه بشيء. والطريف أن أكثر موارد التنديد في القرآن الكريم هو التحريم الجاهلي لا التحليل، فكانوا يحرمون على أنفسهم أنواعاً من الإبل كالوصيلة والحامي والبحيرة والسائبة، فأنزل الله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِيَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.^٣

والآيات التي تندّد بالتحريم الجاهلي كثيرة، وربما يتعجب الملاحظ من هذا الاهتمام والتأكيد، وربما يتصور أنه ليس بتلك المثابة من الأهمية، ولكن الواقع

١. المائدة (٥): ٩٦.

٢. النساء (٤): ٢٤.

٣. المائدة (٥): ١٠٣.

أَنَا كَثِيرًا مَا نَسْتَخَفُّ بِأَمْرٍ وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ، كما قال تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾^١ والتشريع شأن إلهي لا يحق لأحد أن يتلبس به.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. الأمر بالتقوى بعد الأمر السابق يوحى إلى المخاطب أن الأمر بالغ الأهمية، فلا يتوهم أنه ليس عليه رقيب وأن بإمكانه أن يقول ما يقول ويفعل ما يفعل إذا كان وحده، فالله تعالى معه ورقب عليه يسمع أقواله ويعلم أفعاله. وإنما لم يقل بصير، لأن الفعل هنا ربما يكون قلبياً فإن اتصاف الفعل بكونه تشريعاً محرماً أمر قلبي، وذلك لأن اتصافه بذلك يتبع نيته بأن هذا وارد في الشرع أو مع نسبة التحريم أو الإيجاب إلى الله تعالى، وإن كان ذات الفعل أمراً مشهوداً إلا أن اتصافه بكونه تشريعاً محرماً يتبع نيته.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾؛ إعادة النداء تفيد الاهتمام بما بعده وتفيد التنبيه على أنه حكم خاص، وليس من فروع الحكم السابق. وهذا حكم شرعي في باب مراعاة الأدب عند النبي ﷺ، ويبدو أن بعض من كان يحضر عنده ﷺ، من عرب البادية، بل غيرهم أيضاً ممن فيه جفوة الأعراب ما كانوا يراعون احترام النبي ﷺ فيرفعون أصواتهم عنده، وكان هذا قلة أدب ومخالفاً للتوقير، ولعله كان أيضاً يؤذي النبي ﷺ فنهى الله عنه، وكان النبي ﷺ كثير الحياء تتأبى نفسه الزكية من مصارحتهم باحترامه وتوقيره وتنبيههم على ما هو مقتضى الأدب، ولكن الله تعالى لا يستحيي من الحق. وقوله: ﴿فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ يبين حدّ الرفع الممنوع، فالمعنى أنهم حينما يتكلمون في محضره ﷺ سواء كان صامتاً أو يكلمهم أو يكلم غيرهم أو يخطب، فالواجب أن يكون

صوتهم دون صوته لتكون له العلوّ والرفعة في الظاهر، كما هو في الواقع، وهذا واضح فيما لو كان الرسول ﷺ يتكلّم، أمّا إذا كان صامتاً فيجب أن يكون الصوت خافتاً جداً لا يسمعه إلا المخاطب.

﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ الفرق بينه وبين الحكم السابق أن الأول ليس في مقام المحادثة معه ﷺ كما تبين، ولذلك استند إليه بعضهم في عدم جواز رفع الصوت عند قبره ﷺ أيضاً، وهذا الحكم خاصّ بمقام المحادثة لقوله تعالى: ﴿لَهُ﴾، ففي المقام الأول يجب أن يكون الصوت أخفض من صوت النبي ﷺ إذا كان يتكلّم، سواء كان يخطب أو يتكلّم معه أو مع غيره، ويجب أن يكون خافتاً إذا كان النبي ﷺ ساكناً، كما يفعله الناس بمحضر العظماء، وليس في البشر أعظم من رسول الله ﷺ ولكنّه حيث كان يعيش بينهم كأحدكم، بل كأحد فقرائهم فما كان الجهلة يعرفون قدره، وفي المقام الثاني وهو مقام المحادثة، يجب الإخفات فلا يجهر بالقول كما يجهر مع غيره إجلالاً له وتعظيماً، والجهر ربما يصدق على الصوت الذي لا يعتبر رفيعاً، فهناك فرق آخر بينهما؛ فإنّ الجهر يقابله الإخفات، ورفع الصوت يقابله خفضه وإن كان جهرًا والجهر بمعنى الإعلان. ويظهر من قوله: ﴿كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ أن الجهر المتعارف المعتاد بين المتخاطبين ممنوع معه ﷺ.

﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾. مرّ الكلام في حبط الأعمال في سورة محمد ﷺ وقلنا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾^١ إنّ هناك من

١. في تفسير الآيات ٩ و ٢٨ و ٣٣.

٢. محمد (٤٧): ٣٣.

المعاصي ما يحبط بعض الأعمال ومنها ما يحبط كلها. وذهب بعض المفسرين إلى أنه لا يحبط العمل إلا الكفر، وهذا من موارد نزاع الأشاعرة والمعتزلة ومن أصحابنا أيضاً من قال به.

قال في «مجمع البيان»: «قال أصحابنا أن المعنى في قوله: ﴿أَنْ تُحِبَّ أَغْمَالَكُمْ﴾ أنه ينحبط ثواب ذلك العمل لأنهم لو أوقعوه على وجه تعظيم النبي ﷺ وتوقيره لاستحقوا الثواب، فلما فعلوه على خلاف ذلك الوجه استحقوا العقاب وفاتهم ذلك الثواب فانحبط عملهم، فلا تعلق لأهل الوعيد بهذه الآية، ولأنه تعالى علّق الإحباط في هذه الآية بنفس العمل، وهم يعلقونه بالمستحقّ على العمل وذلك خلاف الظاهر»^١.

ويقصد بقوله: «أهل الوعيد» المعتزلة. ومن الواضح أن ما قاله ونسبه إلى الأصحاب هو خلاف الظاهر، فإنّ إضافة الأعمال إلى الضمير تدلّ على العموم ومعناه حبط جميع الأعمال، مع أن هذا العمل لا ثواب فيه حتّى لو لم يكن برفع الصوت والجهر بالقول، فقد يكون القول في محضر الرسول ﷺ لأمر دينوي يعود نفعه إلى المتكلّم، بل قد يكون بذاته محرّماً أيضاً فضلاً أن يكون عملاً صالحاً يثاب عليه، كالغيبة والنميمة والبهتان وغيرها.

وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ بمعنى أنّهم ما كانوا يشعرون أن هذا العمل محبط للأعمال، بل كانوا ما يتوقعون ذلك. والسّرّ في كونه محبطاً أنه هتك لمقام الرسالة، والظاهر أن من كانوا يرفعون أصواتهم يستهينون بمقامه ﷺ وإن لم يصرّحوا بذلك، وقد وضعت أحاديث لإثبات أن بعض الصحابة تغيّر موقفهم

١. مجمع البيان في تفسير القرآن ١٠-٩: ١٩٦.

وعملهم في هذا المقام بعد نزول الآية، وهذا بنفسه يدل على سلبية مواضعهم قبلها، ولكن الواقع أن بعض الناس لم يغيروا موضعهم أساساً حتى آخر أيام حياته ﷺ ولم يراعوا مرضه فضلاً عن مقام الرسالة واتهموه بالهجر والهديان فما أكذب هذه الأحاديث؟!

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ تأكيد على أهمية الحكم وإشارة إلى أنه كما أن رفع الصوت عند النبي ﷺ موجب للحبط، كذلك خفضه عنده موجب للمغفرة، بل موجب لأجر عظيم ويكفيه عظمة أن الله تعالى يعده عظيماً، والتنكير أيضاً يفيد التعظيم. وغضّ الصوت: خفضه. والامتحان: الاختبار. ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مِهَاجِرَاتٍ فَاِمْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ﴾^١ وهناك محاولات في التفاسير وكتب اللغة لتأويل الامتحان هنا أو البحث عن معانٍ أخرى في الاستعمالات اللغوية، لأن الاختبار لا يدلّ بذاته على الفوز ولا يختص بمن حصل على مرتبة عالية، فكلّ الناس معرّضون للامتحان للتقوى. فقيل: إن معنى الآية أخلص الله قلوبهم للتقوى. وقيل: بمعنى صفاها. وقيل: وسعها. وقيل: وضع الامتحان موضع المعرفة، لأنّه سببها، فكأنّه قال عرف أنّها لائقة للتقوى. وقيل غير ذلك.

ويمكن أن يكون المراد بهم من كانوا يغضّون الصوت عنده ﷺ قبل أن تنزل الآية، أي أن الوعد بالمغفرة والأجر العظيم هنا لا يشمل من ائتمر بهذا الأمر بعد نزوله فغضّ صوته أمام الرسول ﷺ، بل خاصّ بمن كانوا يغضّون الصوت

عنده تلقائياً مما يدلّ على أنّهم كانوا يعرفون مقام الرسالة وقدرها عند الله، فهم بطبيعتهم كانوا يخضعون للرسول ﷺ ويتواضعون ويتهيّون جلالة قدره، فيغضّون أصواتهم من دون أن يكون هناك أمر وطلب وتنبيه، فأراد الله تعالى أن يبيّن السبب في تنبّه هؤلاء قبل نزول الأمر وهو أنّهم ممّن تكرّر امتحان قلوبهم للتقوى في مجالات كثيرة، فتدرّبت نفوسهم عليه وتذلّلت. وعليه فلا حاجة إلى تأويل.

وفي تغيير التعبير من النبي في الآية السابقة إلى رسول الله إشارة إلى أن تعظيمه وإكرامه إنّما هو من أجل كونه رسول الله، وتوقيره وتعظيمه توقير وتعظيم له تعالى: كما أنّ هتكه وقلة الأدب لديه يعدّ قلة أدب لدى الله تعالى شأنه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ قيل: إنّ شأن نزول الآية أنّ قوماً من العرب أتوا إلى المدينة فأخذوا حسب عاداتهم في تعاملهم مع الآخرين ينادون الرسول ﷺ من وراء الجدار: يا محمّد اخرج إلينا. والحجرات جمع حجرة من الحجّر، أي المنع يطلق على المكان المحجور ببناء أو نحوه، ويقال: إنّ حجراته ﷺ كانت من جريد النخل عليها من الخارج مسوح من الشعر الأسود: وكانت حجراته تسع بعدد نسائه وبقيت إلى عهد بني أمية، فادخلوها في المسجد وليس القصد توسعة المسجد، بل إبادة آثار الرسالة لئلا يقيس الناس بينها وبين قصور من يدعون خلافته.

وقيل في قوله تعالى: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أنّه بمعنى كلّهم، ولعلّهم إنّما أولوا ذلك لأنّهم كلّهم لا يعقلون. ولكن من المحتمل أن يكون التعبير بلحاظ أنّ

بعضهم كان يتعمد ذلك هتكاً أو إيذاءً فلم يكن ذلك لغبائه أو جفائه، ويحتمل أن يكون ذلك من أدب القرآن الكريم لاحتمال كون بعضهم مكرهين أو غافلين. ولا تظن أن كلهم ترك هذه العادة السيئة وإن وضع القوم في ذلك الأحاديث حتى قيل: إن بعضهم كان إذا تكلم بعد ذلك في محضر رسول الله ﷺ لم يسمع كلامه فيستفهم، وقيل: إن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ﴾ نزلت في الشيخين.

ولمعرفة ما آل إليه الوضع بعد ذلك ننقل الحديث التالي عن صحيح مسلم حرفياً والقصة وقعت في آخر أيام حياة الرسول ﷺ قال: «وَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ رَافِعٍ وَعَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ، قَالَ عَبْدُ أَخْبَرَنَا وَقَالَ ابْنُ رَافِعٍ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُثْبَةَ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ لَمَّا حَضَرَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي الْبَيْتِ رَجُلًا فِيهِمْ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، فَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - «هَلُمُّ أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابًا لَا تَضِلُّوْنَ بَعْدَهُ»، فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَدْ غَلَبَ عَلَيْهِ الْوَجَعُ وَعِنْدَكُمْ الْقُرْآنُ، حَسْبُنَا كِتَابُ اللَّهِ، فَاخْتَلَفَ أَهْلُ الْبَيْتِ فَاحْتَصَمُوا؛ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ قَرَّبُوا يَكْتُبْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كِتَابًا كَنْ تَضِلُّوْا بَعْدَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ مَا قَالَ عُمَرُ؛ فَلَمَّا أَكْثَرُوا اللَّغْوَ وَالْاخْتِلَافَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - «قُومُوا»، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يَقُولُ: إِنَّ الرِّزْيَةَ كُلَّ الرِّزْيَةِ مَا حَالَ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَبَيْنَ أَنْ يَكْتُبَ لَهُمْ ذَلِكَ الْكِتَابَ مِنْ اخْتِلَافِهِمْ وَلَغْطِهِمْ»^١.

١. صحيح مسلم ٥: ٧٥، كتاب الوصية، باب ترك الوصية لمن ليس له شيء يوصي فيه.

قوله: «لَمَّا خُصِرَ»، أي حضرته الوفاة ﷺ. واللغظ: صوت وضجة لا يفهم معناه. ويظهر من الحديث بوضوح أن هؤلاء عليّة الأصحاب وبطانة رسول الله ﷺ ولم يكن لفظهم وصياحهم واختلافهم عن عادة سيئة فحسب، بل أن بعضهم قصد بذلك إيذاء الرسول ﷺ وقد بلغ من تأذيه - وهو على فراش الموت - أن أخرجهم من بيته ولم يكن ذلك من خلقه الكريم.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ليس المراد بقوله: «خَيْرًا» التفضيل، بل المراد أنه هو الخير فحسب، إذ أن ما فعلوه لم يكن فيه شيء من الخير، بل هو شرّ كلّ. والتعقيب بالمغفرة والرحمة من غاية لطفه تعالى وعنايته بعباده المقصرين في حقّه وحقّ رسوله ﷺ.

يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بَنِيًّا فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا
عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ بِنُفُسِكُمْ ۖ وَعَلَّمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ
الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ إِلَّا يَمُنَ وَرَبُّهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرِهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ
وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٦٧﴾ فَضَلًّا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ ﴿٦٨﴾

﴿يَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بَنِيًّا فَتَبَيَّنُوا﴾. الآية على ما ذكره المفسرون
ووردت به روايات الخاصة والعامّة نزلت في شأن الوليد بن عقبة بن أبي معيط
أخي عثمان لأمه وكان من حديثه - على ما قالوا- أنّ الرسول ﷺ بعثه إلى قوم
لأخذ الزكاة منهم، فرجع إليه وادعى أنّهم منعوه الزكاة وأرادوا قتله واختلفوا في
سرد القضية بما لا يؤثر في أصلها، قالوا: فأراد الرسول ﷺ غزوهم وأنّه بعث
إليهم خالد بن الوليد فتبين كذب الوليد فنزلت الآية. كذا في بعض الروايات
وهي كثيرة ومختلفة.

وفي بعضها أنّ الحارث بن ضرار الخزاعي آمن على يد الرسول ﷺ فجعل
له موعداً يبعث إليه رسولاً لأخذ الزكاة منه ومن قومه، فبعث إليه الوليد فرجع مع
اتهامه لهم من دون أن يصل إليهم أو وصل إليهم وخافهم على نفسه أو لغرض
في قلبه، فلمّا رأى الحارث تأخر المبعوث ظنّ أنّه لسخط من الله ورسوله ﷺ،
فأتى مع كبراء قومه إلى المدينة ليستعلم الحال، فسأله الرسول ﷺ عمّا أخبر به
الوليد، فأنكر ذلك وبيّن حقيقة الحال، فنزلت الآية، ويبدو أنّ هذا هو الصحيح
فلم يبعث الرسول ﷺ أحداً لغزوهم وليس من شأنه أن يستعجل في مثل ذلك،

ويشهد له أنَّ الآية إنما نزلت لتنبية المؤمنين على عدم جواز الاعتماد على خبر الفاسق وليس فيه خطاب للرسول ﷺ وإلا لقال: «يا أيها النبي...»، إذ هو المناسب لو كان هو الذي قصد الغزو، وفي الآية التالية شاهد واضح على ذلك.

وفي الآية تصريح بفسق الوليد، ومع ذلك فإنَّ عثمان ولاه الكوفة بعد عزل سعد بن أبي وقاص، فصلَّى بالناس وهو سكران صلاة الفجر أربعاً، ثمَّ قال: هل أزيدكم؟ فعزله عثمان عنهم بعد هذه الفضيحة، ولم يجر عليه الحدَّ إلى أن ثار الناس وشكوا أمره إلى عائشة واعترضت عليه اعتراضاً شديداً، وكذا بعض الصحابة. ويبدو من الروايات أنَّه شهد عليه رجلان أحدهما شهد على شربه والآخر على تقيئه، ولمَّا كثر الاعتراض اضطرَّ عثمان إلى تحكيم أمير المؤمنين (عليه السلام) ولعلَّه توقَّع أن يردَّ عنه الحدَّ لاختلاف الشهادة. فقبل (عليه السلام) الشهادة وقال: لم يتقيأه إلا وقد شربه وأجرى عليه الحدَّ، ولذلك كان يسبُّ أمير المؤمنين (عليه السلام) طول حياته حيث كان قاتل أبيه أيضاً.

وفي الآية أيضاً ردٌّ واضح على من ادعى عدالة جميع الصحابة، حيث صرَّح بفسق الوليد وهو منهم، مع أنَّه لا يحتاج إلى دليل بعد ثبوت جرائم بعضهم التي يصغر عندها شرب الخمر، كالخروج على الإمام وقتل النفس المحترمة. والفسق في الأصل بمعنى الخروج عن الشيء، يقال: فسقت الرطبة إذا خرجت عن قشرتها، وأطلق في القرآن على من خرج عن طاعة ربِّه، وقيل: إنَّه لم يسبق في كلام العرب إطلاق الفاسق على إنسان.

والنبا: الخبر. وقيل: خصوص الخبر المهم الذي له شأن.

ويعلم من تنكير الفاسق والنبا عموم الحكم لكلِّ فاسق وكلِّ نبا، أو لكلِّ نبا

وإن لم يكن المخبر فاسقاً بناءً على ما سيأتي من عدم دخالة الفسق في الحكم لئلا يتوهم اختصاص الحكم بمورد النزول أو بمشابهاتها.

والتيّن، من البين بمعنى الفصل والفراق، ويستعمل في الوضوح والإيضاح، لأنه بذلك ينفصل الحقّ عن الباطل ويستعمل لازماً ومتعدياً، فإذا قلت: تبيّن الأمر أي اتّضح، وإذا قلت: تبيّنُ الأمر، أي بحثت عن الحقّ فيه حتّى اتّضح لي، ومورد الاستعمال هنا هو الثاني، فالمعنى: إن جاءكم فاسق خارج عن الدين أو عن طاعة ربّه بخبر هامّ فتريثوا ولا تستعجلوا في قبوله، بل تبيّنوا الأمر حتّى يتبيّن لكم الحقّ من الباطل.

واستدلّ بالآية على قبول خبر العادل وحجّيته، وفي ذلك بحث طويل في كتب الأصول، والصحيح عدم الدلالة، وأنّ الظاهر من الآية عدم العناية بكونه فاسقاً، بل مصبّ الاهتمام فيها هو لزوم التثبت وعدم الاستعجال في قبول الخبر المهمّ وترتيب الآثار عليه، خصوصاً مثل هذا الأثر وهو الغزو والقتال حتّى لو كان المخبر عادلاً، بل عادلين، فليست الآية في مقام بيان ما هو الحجّة من الأخبار، بل في مقام المنع من الاستعجال في الحكم. ووصف «الفاسق» على ما يبدو ليس له دخل في الحكم، وإنّما أتى به للتأكيد بالمخبر الذي لا يهمّه ما يترتّب على خبره من المفاسد، بل يتبع في ذلك هواه على ما ذكره من وجود عداوة بينه وبين القوم.

والصحيح في باب حجّية الخبر هو حجّية ما يوجب الوثوق الشخصي فلا يجوز لأحد الاعتماد في ترتيب الآثار الشرعية وقبول الأحكام على خبر لا يشقّ بصدقه وإن رواه العدول، فضلاً عن الثّقاة، نعم يعمل بشهادة العدلين في

تشخيص بعض الموضوعات وهذا أمر آخر.

وأما ما قيل من أن بناء العقلاء على حجّة خبر الثقة وهو من يوثق بنقله عادة فضلاً عن العادل، وأن أمور الناس في حياتهم الاجتماعية لا تدور إلا على ذلك فمردود بأنّه دعوى لا يدعمها الاستقراء، والناس عادة في أمورهم المهمّة لا يعتمدون على خبر الثقة ولا العادل إلا إذا اقترن بما يؤكّد صدقه.

نعم ربما يعتمدون على خبر الفاسق وغير الثقة أيضاً في مقام الاحتياط والتأكد، فإذا جاء لأحدهم خبر عن خيانة وكيله مثلاً حتّى لو لم يكن مؤكّداً وموجباً للوثوق، بل حتّى لو كان من فاسق، فإنّه ربما يهتمّ به فيعزله إن لم يترتب على عزله ضرر، وليس هذا معنى حجّة الخبر، بل هذا للاحتياط في الأمور المهمّة وهو مورد تأكيد الآية، ولذلك استدلّ بعضهم بها على أن الفاسق أهل للشهادة وإلا لم يكن وجه للأمر بالتبيين، بل كان المفروض أن يرفض من أساسه، فالآية تدلّ على لزوم الاهتمام بخبر الفاسق إن كان مورده خبراً مهماً ولكن لا يعتمد عليه.

واستدلّ بعضهم على حجّة خبر الثقة بأن الاعتماد على ذلك أساس التاريخ وأنّه لو حذفنا خبر الثقة لبطل كثير من التراث العلمي والمعارف المتعلّقة بالمجتمعات القديمة، بل المعاصرة أيضاً بل تتوقّف عجلة الحياة!!!

أما التراث العلمي فهو كلام العلماء بأنفسهم وآراؤهم التي ذكروها في كتبهم وليس خبراً عنهم. نعم، يمكن أن يعتبر الكتاب كلّ خبراً عن مؤلفه إلا أنّه إذا لم تتوفّر القرائن المفيدة للعلم أو الوثوق باستناد الكتاب إلى مؤلفه، فإنّ القول لا يمكن اسناده إليه، ولكنّه لا يوجب حذف القول عن قائمة التراث العلمي فهو قول عالم مجهول الهوية.

وإن أريد بالتراث العلمي التاريخ، فما أكذبه وما أظلمه قديماً وحديثاً وما نحن نجد في عصرنا مع توفّر وسائل الإعلام وسرعة نقل المعلومات كثرة الأكاذيب والتفاسير الخاطئة المترتبة عليها، فكيف بالتاريخ القديم؟! ونحن لا نعتمد على ما يرويه المؤرخون إلا ما توفّرت فيه قرائن الصدق أو كان ممّا يحتجّ به على الخصماء لكونه مأخوذاً من منابعهم. ومن هنا فإنّ التاريخ بحاجة إلى تحديث وإلى تمحيص. ومن المؤسف أنّ المؤرخين الجدد خصوصاً في الكتب الدراسية التي تملأ بها أوعية الجيل الناشئ يتعمدون الكذب وتحريف التاريخ، فيا حبّذا لو كانوا يكتفون بما كذب أسلافهم.

﴿أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾؛ أي مخافة أو كراهة أن تصيبوا قوماً وهو مفعول لأجله، أي يجب التبيّن حتّى لا تقعوا في هذا المحذور وهو غزو المؤمنين.

والجهالة بمعنى السفاهة والطيش والعمل من دون روية وحكمة. وليس المراد الجهل بمعنى عدم العلم؛ إذ ليس كلّ تعامل مع الآخرين من دون علم موجباً للندامة، كما لو كان العمل موافقاً للاحتياط والحكمة.

والباء تفيد الحال، أي تصيبيهم حال كونكم جاهلين، أو للسببية، أي بسبب جهالتكم وسفهكم. وتصبحوا بمعنى تصيروا. والندم هو الغم، على ما فعله الإنسان غمّاً شديداً مستمراً. والمعنى واضح.

واستدلّ بهذا التعليل على عدم حجّية الخبر مطلقاً ما لم يوجب العلم أو الوثوق؛ لأنّ التعليل يعمّم ويخصّص، فصدر الآية وإن كان خاصّاً بالفاسق إلا أنّ التعليل يقتضي التعميم، فالنتيجة أنّه لا يجوز الاعتماد على الخبر مطلقاً حتّى لو كان المخبر عادلاً. والصحيح أنّها لو دلّت على ذلك فإنّما تدلّ على عدم الحجّية

في خصوص ما يترتب عليه مثل هذا الأثر، ويحتمل فيه تعقّب الندامة، ولكنّ الكلام في أصل حجّة الخبر، إذ لا موجب للحكم بحجّيته ما لم يوجب وثوقاً وعلماً.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ تعبير ينبئ عن لزوم الحذر والحيطه والقوم كانوا يعلمون أنه ﷺ رسول الله ويشهدون به، ومع ذلك فقد يغفل الإنسان عن بعض الحقائق التي تحيط به وهو يشعر بها ليلاً ونهاراً. ولذلك لم يقل: «واعلموا أنه رسول الله» بل قال: ﴿أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾، فالحقيقة التي يغفل الإنسان عنها هي هذه النعمة الجليلة التي لا تقدّر بثمن وهي أعظم النعم على الإطلاق، خصّ الله تعالى ذلك القوم بها وهي أن رسول الله بين أظهرهم، فيا لها من سعادة!! والحاصل أن الآية تنبّه المؤمنين على عظمة النعمة التي أنعم الله عليهم بها من جهة، وعلى خطر المسؤولية تجاه هذه النعمة من جهة أخرى.

ولعلّ كلّ ما تقدّم من لزوم عدم التقدّم على الرسول ﷺ في الحكم والعمل في مجال التشريع الأساسي أو الحكومي، ولزوم المتابعة والتعبّد المحض بأوامره ﷺ، كما هو الحال في أوامر الله تعالى، وما تقدّم من لزوم رعاية الأدب عند الحضور لديه ﷺ بالسكوت وخفض الصوت، كلّ ذلك كان مقدمة للتنبيه على هذا الأمر المهمّ، فيثير فيهم بهذه الآية تنبّهاً وحيطه أكثر، فإنّ الذي بين أظهرهم ليس بشراً كسائر الناس ولا زعيماً سياسياً ولا قائداً عسكرياً، بل هو رسول الله، وهذا مقام لا يصل إليه بشر إلا بعناية خاصّة. وقد مرّ في تفسير قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾^١ أن جمعاً من المفسّرين اعتبر الصفات

المذكورة صفات للرسول ﷺ والذين معه جميعاً، حيث شقَّ عليهم أن يعتبروها خاصةً بمن معه ونسوا أن توصيفه بالرسالة يغنيه عن كل توصيف.

كما أن قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾^١ ليس في مقام تنزيل مقام الرسالة إلى مستوى البشر العادي كما يتوهم، بل هو بيان للفارق الكبير بين الرسول وبين الناس فارق فاصل كالذي بين السماء والأرض وهو الوحي، فإن غاية ما يمكن أن يصل إليه الإنسان هو أن يكلمه الله تعالى أو يوحى إليه فهو فوق الغاية التي من أجلها خلق البشر وهو ارتباط العبد بالله تعالى أي العبادة. وهناك فاصل كبير بين أن يرتبط العبد بربه وبين أن يرتبط الله تعالى بعبد. وأين هذا من ذاك مهما خلصت العبادة وجل محتواها؟!

ولذلك نحن نعتقد أن خلافة الرسول ﷺ ليست كخلافة الملوك وما يسمى ولاية العهد، وأن الذي ينتقل إلى خليفة الرسول ﷺ ليس الحكومة كما يتوهم، بل هو مقام رباني ومنصب إلهي لا يكون إلا للمعصوم، فتفترض طاعته من الله تعالى، كما فرضت طاعة الرسول ﷺ ولذلك أيضاً نقول: إن أولي الأمر في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾^٢ ليس بمعنى كل من تولى أمور الناس بأي سبب كان كما يقولون، بل حتى لو كان باختيار أهل الحل والعقد أو اختيار كل المسلمين، بل المراد بهم من جعلهم الله تعالى أولياء لأمر المسلمين. ونعتقد أن الآية الكريمة تدل على أن أولي الأمر يجب أن يكونوا معصومين وإلا لم يصح الأمر المطلق بالإطاعة، وأن المراد بهم

١. الكهف (١٨): ١١٠.

٢. النساء (٤): ٥٩.

خصوص الأئمة الطاهرين الإثني عشر الذين أخبر بهم الرسول ﷺ في روايات كثيرة بعضها متفق عليها بين الفريقين وهي التي تذكر العدد فقط.

وعلى كل حال، فمن الخطأ الفادح الذي ابتليت به الأمة أن يعتبر الرسول ﷺ مجرد حاكم نصبه الله تعالى للحكومة فيخلفه كل حاكم، إنما الفرق أن الحاكم بعده يختاره الناس، بل ذهب بعض الكتّاب الجدد وعشاق الديمقراطية إلى أن شرعية حكومة الرسول ﷺ كانت ببيعة الناس أيضاً!!!

﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ هذا تفرّيع على الجملة السابقة ويبدو من الآية أن جمعاً من المؤمنين كانوا يطالبون الرسول ﷺ بترتيب الأثر على نبيّ الفاسق ومعاقبة بني المصطلق، فنهاهم الله تعالى أولاً عن متابعة خبير الفاسق من دون تثبّت عن الأمر، ثم يبيّن لهم أنه لا يجوز لهم أن يتوقعوا من الرسول ﷺ أن يطيعهم في كلّ ما يطلبون، فإنه لو أطاعهم في كثير منها لوقعوا في مشقة وضيق. والعنت: المشقة. والإتيان بالفعل المضارع للدلالة على الاستمرار، أي لا تتوقعوا ذلك في المستقبل أبداً. والتعبير بالإطاعة للإشارة إلى قبح ما يتوقعون، فإنّ المفروض أنّه هو القائد المطاع فلا ينبغي أن يكون مطيعاً وهو المؤيد من عند الله تعالى ولا يحتاج إلى اقتراحكم ورأيكم ومشورتكم، والغرض تنبيههم على أن توقعكم يعود إلى توقّع الإطاعة منه.

وإنّما قيده بالكثرة، لأنّ بعض ما يطالبون به صحيح وفي موضعه، وهذا من أدب القرآن كما قلنا مراراً. والآية تدلّ على ما مرّ في تفسير الآية السابقة من أن الخطاب إنّما هو للمؤمنين وليس للرسول ﷺ.

ويبدو من الآية الكريمة أن التوقّع العامّ فيهم كان هو تقبّل الرسول ﷺ منهم

ما يروونه مناسباً، ولعلّ السبب في هذا التوقّع والانتظار هو اللين واللفظ في خلقه الكريم ﷺ، كما قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾؛ مضافاً إلى ما ورد من الأمر بالمشاورة معهم في الآية إلا أنه لم يكن مأموراً بالقبول، ولذلك عَقِبَ الأمر بالمشاورة بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾.

وربما استدلّ بعض الناس بالآية الكريمة على اعتبار رأي العامة للأمر بالتشاوّر معهم، ولكنّ الصحيح أنّ المشاورة لم يؤمر بها الرسول ﷺ كمنهج عملي، بل لخفض الجناح للمؤمنين واحترامهم وتطبيب نفوسهم، ولذلك ورد الأمر بالمشاورة بعد الأمر بالعفو والاستغفار لهم.

والحاصل أنّ الرسول الأكرم ﷺ لخلقه العظيم ولأمر من الله تعالى كان يشاور المؤمنين، فلعلّه تسبّب في خلق جوّ من التوقّع الباطل وهو لزوم العمل وفقاً لأرائهم، فنبّههم الله تعالى بهذه الآية على خطئهم.

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾. الكلام هنا في وجه هذا الاستدراك وأنّه استدراك من أيّ مضمون ممّا سبق؛ والغالب في التفسير أنّ المخاطب في هذه الجملة مجموعة أخرى من المؤمنين، فالمعنى أنّه ليس توقّع الإطاعة صفة الكلّ، بل إنّ منكم من حبّب الله إليه الإيمان وهو بعيد عن سياق الآية، بل ظاهرها أنّ الخطاب في الموردين للجماعة وليس معناه بالطبع توجيهه لكلّ فرد، بل الخطاب موجّه إلى المجموعة،

ففي المورد الأول، أي قوله تعالى: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ﴾ كان التوقع المذكور حالة عامة في المجتمع المسلم؛ وأما في المورد الثاني، أي التحبيب والتكره فالظاهر أنهما أيضاً من الشؤون العامة فيهم على اختلاف مراتبهم في الإيمان.

والذي يخطر بالبال أنه استدراك عن التنديد بتوقعهم إطاعة الرسول ﷺ لهم ومعنى هذه الجملة: ولكنكم لا تتوقعون ذلك، لأنه ينافي الإيمان، بل يناسب الكفر والفسوق والعصيان، وحيث حَبَّ الله تعالى إليكم الإيمان، فأنتم لا تتوقعون ذلك، مع أنهم كانوا يتوقعون، فهو نظير الجملة الخبرية التي يراد بها الطلب فتقول - مثلاً -: «تفعل كذا» تريد أن تقول: «افعل كذا»، ولكنك تخبر أنه سيفعله قطعاً تأكيداً على وجوبه، كأنك واثق منه أنه لا يتركه، فالآية أيضاً تريد أن تنهاهم عن هذا التوقع المشين فتنبّههم بهذه الطريقة اللطيفة.

وفي الآية الكريمة إشارة إلى التوفيق الإلهي ولطفه الموجب لانجذاب المجتمع نحو الإيمان. والواقع أنّ الذي حصل من الانجذاب في ذلك المجتمع البدوي الجاهل والغارق في الفساد الأخلاقي والاجتماعي كان في حد ذاته معجزة، والآية تنبّه على سرّ هذا الإعجاز وهو أنّ الله تعالى حَبَّ إليهم الإيمان بالله تعالى وبرسوله ﷺ وزينه في قلوبهم، والإنسان منجذب بالفطرة نحو الزينة والجمال، بل كرهه إليهم ما كان مستقرّاً في قلوبهم وورثوه من آبائهم من الكفر والفسوق والعصيان.

والكفر، هو تغطية النعم بالجحود. والفسوق: الخروج عن الطاعة. والعصيان: التأبى، يقال عرق عاص، أي يأبى التوقف من نزف الدم. والظاهر أنّ المراد بالفسوق والعصيان أمر واحد يعبر عنه تارة بالفسوق؛ لأنه خروج عن طاعة الرب،

وتارة بالعصيان؛ لأنه امتناع عن الطاعة والانقياد، ويمكن أن يكون الفسوق أشدّ، فيختصّ بالمعاصي الكبيرة والإصرار على المعصية والبعد فيها، والعصيان يشمل كلّ مخالفة.

والآية تدلّ على أنّ الله تعالى لا يجبر الإنسان على الإيمان أو الكفر، وإنّما يحبّ إليه الإيمان ويكره إليه الكفر والفسوق، فهو يتبع ما تميل إليه نفسه. والتحبيب والتكره قد يكونان بتأثير غيبي من دون استناد إلى العوامل الطبيعية، بحيث يلقي الله تعالى في قلب العبد حبّ الإيمان والتقوى وكره الكفر والنفاق، وقد يتحقّقان بإيجاد الدواعي النفسية بصورة طبيعية من دون أن يكون هناك تأثير غيبي مباشر، فمثلاً إذا أراد الله تعالى بعبد خيراً لسبب أو جوب استحقيقه، فربما يوقّعه بلطف وبطريقة خفية للعيش في مجتمع يحبّ إليه الإيمان ويبعده عن الكفر، كما يمكن أن يضلّه لاستحقاقه بالعناد، فيمهد له الطريق ليعيش في مجتمع يجره إلى الكفر والفسوق والعصيان. ونحن نجد كثيراً من الناس اهتموا إلى الطريق الصحيح بعد أن كانوا ضالّين، لأسباب طارئة خارجة عن اختيارهم ألزمتهم البقاء في ظروف جرّتهم إلى الهداية من حيث لا يشعرون، فكأنّهم كانوا على موعد ولم يكونوا كذلك، كما نجد بالعكس أناساً كانوا على الصراط السوي فتغيّرت وجهة معاشهم واضطروا إلى السكنى في مجتمع سلبهم الإيمان أو جرّهم إلى الفساد والانحلال، وكأنّهم أيضاً كانوا على موعد، والله لطيف لما يشاء.

ويوضّح ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا

يُؤْمِنُونَ^١ وذيل هذه الآية يدفع إشكالاً يختلج في الأذهان وهو أنه تعالى لماذا يفرق بين عباده فيهدي بعضاً ولو بالتوفيق لا الإيجاب، ويضلّ بعضاً ولو بسلب التوفيق لا الإيجاب أيضاً؟! أليسوا كلّهم عباده؟! وخصوصاً في مورد الإضلال، إذ الهداية وشرح الصدر نعمة يخصّ الله بها بعض عباده لحكمة، ولكنّ الإضلال وجعل الصدر ضيقاً حرجاً ربما يعتبر ظلماً ينزه الله تعالى عنه.

والجواب أنه تعالى لا يجعل الرجس إلا على الذين لا يؤمنون، والمراد به أنه تتمّ لهم رؤية الحقّ ومعرفته، فلا يؤمنون به فيسلمون التوفيق، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ^٢﴾ والسبب في ذلك أنهم لا يمنعهم شيء من الإيمان إلا معاندة الحقّ. والعناد ينشأ إمّا من الكبر والغرور والعصية الجاهلية، وإمّا من الحسد، كما كان في كثير من صناديد قريش بالنسبة إلى الرسول ﷺ.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾؛ الرشد خلاف الغي بمعنى الاهتداء وإصابة الطريق الصحيح، والإشارة إلى الذين حبّب الله تعالى إليهم الإيمان وكرّه إليهم الكفر والفسوق، فهم الذين اهتدوا إلى الحقّ وإلى الطريق المستقيم. ولعلّ تغيير التعبير عن الخطاب إلى الغيبة للتنبيه على أنّ الأمر لا يخصّ المخاطبين، فكلّ من حبّب الله إليه الإيمان فاختره فهو راشد، كما أنه لا يعمّ جميع المخاطبين، بل يخصّ من حبّب الله إليه الإيمان بالفعل ومن المخاطبين من لم يكن كذلك، كالمنافقين والذين في قلوبهم مرض.

١. الأنعام (٦): ١٢٥.

٢. الأنعام (٦): ١١٠.

﴿فَضْلاً مِنْ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، كلٌّ من ﴿فَضْلاً﴾ و﴿نِعْمَةً﴾ مفعول لأجله والعامل فيهما ﴿حَبَبٌ﴾ و﴿كَرَّةٌ﴾، أي أنّ هذا التحبيب والتكريه كان لفضل منه تعالى عليكم وللإنعام عليكم، وهما شيء واحد يعبر عنه بالفضل؛ لأنّ كلّ ما أنعم الله تعالى به فهو فضل منه تعالى، وليس في مقابل حقّ لأحد عليه ولا لتوقع شيء من أحد، ولا هو واجب عليه تعالى بموجب عقد وإنّما يؤتيه الله تعالى فضلاً، والفضل هو الزيادة، ويعبر عنه أيضاً بالنعمة؛ لأنّ الهداية أعظم نعمة من الله تعالى، والنعمة كلّ ما ينعم به الإنسان، أي يعيش معه في نعمة ورخاء، وقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾^١ والله عليم بمن يستحقّ الإفضال والإنعام، وحكيم لا ينعم بالهداية إلا على من يستحقّها.

وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَجُلِّيْهُمَا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٣١٤﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٣١٥﴾

﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾؛ حكم عام يحدّد وظيفة المجتمع الإسلامي فيما إذا وقع اختلاف بين بعض الطوائف من المسلمين ممّا يمكن أن تؤدّي إلى الاقتتال، ولا يختصّ بزمان ومكان. والاقتتال والتقاتل بمعنى واحد وهو ظاهر في الحرب ومحاولة كلّ طائفة قتل الأخرى، وقيل بتعميم الحكم لكلّ اختلاف، وهو بعيد عن لفظ الآية، نعم يمكن أن يقال بأنّ المراد إرادة الاقتتال أو كونهما في معرضه، فيشمل كلّ اختلاف شديد يحتمل فيه الانجرار إلى المقاتلة.

والإتيان بضمير الجمع بدلاً عن التثنية بلحاظ أنّ المرجع جمع من جهة المعنى، فإنّ الطائفتين مجموعتان من الناس، ولعلّ اعتبارهم جمعاً حين القتال من جهة أنّه لا يكون إلا مع الاجتماع.

والمراد بالإصلاح إصلاح الشأن بينهما، فإن كان النزاع لسوء تفاهم فالإصلاح يتمّ بتبيين الحقّ، وإن كان لمجرّد تبادل كلام مشين بينهما فالإصلاح يتمّ بالعفو والإغماض، وإن كان لإعتداء من بعضهم على حقّ من حقوق الجانب الآخر فالإصلاح لا يتمّ إلا بإعادة الحقّ إلى صاحبه. وليس المراد بالآية إلزام المظلوم بقبول الظلم وتنازله عن حقّه مطلقاً، لأنّه ظلم وليس إصلاحاً بالعدل،

كما ورد في الآية. ولكن الظاهر أن الفرض الأخير خارج عن هذه الجملة ودخل في الجملة التالية.

﴿فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾؛ البغي في الأصل مطلق الطلب ويستعمل كثيراً في طلب الإنسان ما ليس له. والفِيء هو الرجوع. والمراد بأمر الله حكمه في القضية. وقيل: المراد بالبغي رفض الصلح، والمراد بأمر الله الصلح. ولا يصح ذلك على إطلاقه، فإنه يقتضي أن يكون المطلوب من المتقاتلين قبول الصلح مهما كان، فإن طالب أحدهما بحقه ورفض الصلح من دونه فهو باغ. وهذا ظلم لا يمكن أن يكون هو المقصود، كما تبين آنفاً. فالمراد بالبغي هنا طلب ما ليس له ظمناً وعدواناً، سواء كان هو الأمر الذي تسبب للنزاع أو غيره، ولذلك أتى بالفعل المضارع الدال على الاستمرار.

والوارد في التفسير أن مورد هذه الجملة هو نفس المورد الأول بمعنى أن الطائفتين إذا اقتتلا ورفض أحدهما الصلح أو بغى على الأخرى بعد الصلح، فهي التي تقاتل إلى أن يقبل بالصلح، ولكن الظاهر أن مورد هذه الجملة غير الأولى، فمورد الإصلاح ما لم يكن هناك بغى واعتداء، كما إذا كان الاختلاف لسوء تفاهم أو خطأ من بعضهم، وأما إذا كانت إحدى الطائفتين معتدية على الأخرى فالواجب أولاً هو رفع الظلم وإعادة الحق إلى أهله، فالأمر بالقتال ليس على إطلاقه، بل يجب القتال إلى أن يتحقق الرجوع إلى أمر الله، أي التسليم لحكم الشرع فالمطلوب أولاً هو الانصياع لحكم الله تعالى، فإن رفضت الفئة الباغية تحارب إلى أن تنصاع وتطيع، ثم يكون الإصلاح بعد ذلك.

وهناك فرق آخر بين الموردين، وهو أن الأمر بالإصلاح متوجه إلى الجميع

على نحو الكفاية، فيجب أن يقوم به كل من يعلم بالأمر ويستطيع الإصلاح، والظاهر أن هذا الحكم لا يختصّ بنزاع الطائفتين، بل يشمل كل اختلاف ونزاع خطير ولو بين فردين، وإذا قام بالواجب أحد أو مجموعة سقط التكليف عن الآخرين، كما هو الشأن في كل واجب كفائي. وأمّا الأمر بالقتال في هذا الأمر فلا يمكن أن يوجّه إلى عامة المؤمنين، فإنّه يستلزم الفوضى واتساع رقعة الفساد، بل المأمور به هو الإمام كالأمر بإجراء الحدود.

﴿فَإِنْ فَاءَتْ فَاضْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾، وهذه الجملة تبين بوضوح أن المراد بالإصلاح ليس على إطلاقه، بل المراد الإصلاح على أساس العدل وتطبيق الحق وإرجاع حق كل أحد إليه.

والقسط - بالكسر - هو السهم والنصيب و - بالفتح - هو الجور، والقاسط الذي يأخذ نصيب الآخرين ويجور، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾^١ والمقسط: العادل كأنّ باب الإفعال يفيد رفع القسط، أي الجور. والجملة الأخيرة تبين أن الهدف في هذه العملية يجب أن يكون هو التقرب إلى الله تعالى بالعمل بما يحبه وهو يحبّ المقسطين الذين يجهدون لإيصال الحق إلى أهله.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَاضْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾؛ الآية في مقام التعليل للحكم السابق والحثّ عليه فتبين أن العلاقة بين المؤمنين من أوثق العلاقات وهي علاقة الأخوة وهذه أخوة اعتبارية، كما قال العلامة في «الميزان»: وليس تشبيهاً وتمثيلاً، كما ذكره بعضهم، فهناك أخوة حقيقية تنشأ من الاشتراك في النسب وهناك أخوة

اعتبارية يعتبرها المشرّع، ليرتب عليها أحكاماً خاصة، وليس معنى ذلك ترتب كل أحكام الأخوة الحقيقية التي منها الميراث وصلة الرحم، بل المراد لزوم المحافظة على أواصر الودّ والسلام بوجه عام.^١

وقد وردت في الروايات حقوق للأخوة في الإيمان بعضها واجب وبعضها مستحب، فمن الحقوق الواجبة ردّ السلام وعدم الاغتياب، بل ربما يقال بوجوب الدفاع عنه إذا اغتیب والنصيحة إذا استنصحه، بل مطلقاً، وعدم الانتقاص والنيل منه، واحترامه وعدم الاستهانة به، وتجهيزه إذا مات فهو واجب كفائي، وهذا لا يجب للكافر. ومن الحقوق المستحبة أن يسلم عليه ويغفر زلّته ويعوده في مرضه ويشهد ميّته ويحبب دعوته ويقبل هديّته ويقضي حاجته، وغير ذلك ممّا ورد في الروايات.

واللطيف في تعبير الآية أنّه يحثّ المؤمنين على إصلاح ذات البين باعتبار أن كليهما أخ لكم، ومن الطبيعي أن الإنسان حريص على الإصلاح بين أخويه، لأنّ كلّ ضرر يمسّهما يعدّ ضرراً له.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، لعلّ الأمر بالتقوى في هذا الموضع للتأكيد على أن الإصلاح يجب أن يكون مع مراعاة أحكام الله تعالى والمحافظة على حقوق المتنازعين، ولعلّه إشارة إلى أن محاولة الإصلاح بينهما بنفسه من شؤون التقوى.

وهنا أيضاً يؤكّد على أن الهدف الأسمى يجب أن يكون هو التقرب إلى الله تعالى ونيل رحمته لا تحقيق أهداف دنيوية فحسب. والتقوى سبب لنزول

الرحمة لولا المانع، فيمكنكم أن تتوقعوا الرحمة إذا اتقيتم، وقلنا مراراً أنّ «لعلّ» و«عسى» ونحوهما تدلّ على أنّ الأمر متوقّع. ويمكن أن يكون المراد ترتّب رحمة الله تعالى على التقوى في امتثال هذا الأمر خاصّة، فإنّ صيانة المجتمع من التفكّك والتباغض سبب لنزول رحمة الله تعالى عليهم، وهو أمر طبعي كما لا يخفى.

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْسِنِ بِئْسَ الْإِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٣١﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَتُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٢﴾ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَنُّكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٣﴾

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ﴾: القوم: هم الرجال يعبر به عنهم، لأنهم يقومون بالأمور الهامة في المجتمع أو لأنهم قوامون على العائلة. والسخر: الاستهزاء والاحتقار. قال القرطبي: «السخرية الاستحقار والاستهانة والتنبيه على العيوب والنقائص بوجه يضحك منه، وقد تكون بالمحاكاة بالفعل أو القول أو الإشارة أو الإيماء أو الضحك على كلام المسخور منه إذا تخط فيه أو غلط أو على صنعه أو قبح صورته». ^١ والتذكير لإفادة الشمول، أي لا يسخر أي قوم من أي قوم، فهناك تعميم في جهة الساخرين وفي جهة المسخور منهم.

وهنا سؤال يثار غالباً، وهو أنه لماذا لم يوجه النهي إلى الأفراد ليشمل سخرية الفرد، إذ كثيراً ما لا يسخر القوم من القوم وإنما يسخر الفرد من الفرد؟ وذكر الزمخشري في الجواب وجهاً حسناً تبعه غيره، وهو أن في ذلك إشعاراً بأن الفرد غالباً لا يسخر إلا في جمع من الناس وسائر القوم يضحكون معه ولا ينهونه، بل

ربما يكرّرون مقاله، فتعود سخرية الفرد عملاً جماعياً، والآية تريد استفظاع ما كانوا عليه من الحال. ولكن يبقى السؤال عن الجمع في المسخور منه، فهذا الوجه لا يفيد جواباً عنه وهو أمر غفل عنه المفسّرون.

والظاهر أنّ هذه الآية كسابقتها تحاول تصحيح الوضع الاجتماعي، فكما أنّ الآية السابقة لم تتعرّض للنزاع الفردي، وإنّما تعرّض لتنازع الفرق والطوائف، كذلك هذه الآية منعت من سخرية كلّ طائفة من طائفة أخرى واحتقارها، وهذا يختلف قبحاً وتأثيراً عن سخرية الفرد من الفرد أو الجماعة من الفرد، ومنه يتبيّن أنّ موضع الاهتمام في الآية منع الطائفية والتعصّب العرقي والقومي والقبلي، ولعلّ أكثر ما كان شائعاً آنذاك هو التعصّب القومي والقبلي، وهذا أمر خطير يوجب تفكّك المجتمع المسلم، وهو في بدء تكوّنه بحاجة ماسّة إلى التعاضد والتكاتف، بل المجتمع بحاجة إلى ذلك دائماً، سواء كان أساس الوحدة فيه الدين أو الوطن، كما يحاول اليوم أن يكون هو الأساس في المجتمعات، ولكن دين الله تعالى يعتبر الإسلام والاعتصام بحبل الله تعالى أساس الوحدة والتماسك، ويقبح جداً أن يتفرّق المجتمع الإسلامي لاختلاف الفرق والطوائف والقبائل.

﴿عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ جملة مستقلة وهي جواب عن سؤال مقدّر حول سبب النهي، وهو أنّ كلّ قوم يجب أن لا يفترضوا أنّهم هم القوم المختار عند الله تعالى كما ظنّ اليهود، فليس هناك قوم يختارهم الله تعالى لقوميتهم، كما ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ: «إنّ الناس من عهد آدم إلى يومنا هذا مثل أسنان المشط، لا فضل للعربي على العجمي، ولا للأحمر على الأسود إلا بالتقوى».^١

وظاهر الآية أنّه يمكن أن يكون قوم خيراً من قوم. وكلمة «عسى» على ما قلنا مراراً ليست للترجي، كما ورد في بعض التفاسير، بل لبيان أنّه أمر متوقّع، فيجب على كلّ قوم وطائفة أن يتوقّعا كون الطائفة الأخرى خيراً منهم. فيعود السؤال عن وجه الخيرية، إذ لا يكون الفضل إلا بالتقوى وهي صفة فردية، والآية هنا تمنع كلّ قوم من احتقار قوم عسى أن يكون القوم الآخر خيراً منهم، فما هو الموجب لكون قوم خيراً من قوم؟

والجواب أن الآية الكريمة لم تقل إنّ القوم الآخر أكرم عند الله تعالى، وإنّما أشارت إلى احتمال أن يكون القوم الآخر من جهة المقومات التي تعتبر عند الناس مناسطاً للفضيلة كالدكاء والجود ونحو ذلك خيراً منهم، فلا بدّ لكلّ قوم يحقرّ قوماً أن يحتمل ذلك، فإنّ الغالب أنّ كلّ قوم لهم مميّزات حسنة، وربما كانت لهم صفات عامّة سيّئة أيضاً، ولكنّ الأفضلية لا تناط بصفة خاصّة، فربما كانوا بملاحظة مجموع القيم خيراً من القوم الساخر، وليس الأمر كما ورد في التفاسير من أنّ النهي من جهة احتمال الفضل والكرامة عند الله تعالى وأنّ مناسط الفضل عنده هو التقوى ولا يعلم به أحد. وذلك لأنّ التفاضل هنا بين الأقوام لا الأفراد.

﴿وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءِ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ﴾ يتبيّن بما مرّ معنى هذه الآية، ولكن يبقى هنا سؤال، وهو أنّ الآية لا تشمل سخرية الرجال من النساء وكذا العكس. ولعلّ الوجه أنّ الغالب هو سخرية الرجال من الرجال والنساء من النساء، خصوصاً في ذلك المجتمع حيث كانت مجالس النساء ومجامعهنّ خاصّة بهنّ كما ينبغي، بل يجب أن يكون كذلك دائماً.

وفيه وجه آخر، وهو أنَّ منع الرجال يكفي عن منع النساء، كما أنَّ أكثر الأحكام يذكر فيها الرجل ولا يعني ذلك الاختصاص، وإنَّما ذكر حكم النساء هنا مستقلاً، لأنَّ نوعية السخرية بين النساء تختلف عن نوعيتها في الرجال، فكلُّ من الجنسين يحتقر الأفراد والأقوام بمناط خاصٍّ هو موضع الاهتمام عندهم، فالرجال مثلاً يعيبون غيرهم من الرجال غالباً بالجبين والبخل وضعف التعبير ونحو ذلك، والنساء يعين غيرهنَّ من النساء غالباً بالنقص في ما يتميَّز في نظرهنَّ من الجمال والتجمل والتبعل وحضانة الأولاد ونحو ذلك.

﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾؛ اللمز والهمز والغمز في الأصل بمعنى الدفع والضغط الخفيف، واستعير للطنن والانتقاص، كما أنَّ الطعن أيضاً كذلك، وقيل: إنَّ اللمز في المواجهة والهمز في الغياب، وقيل غير ذلك. والغرض من الآية النهي عن الانتقاص من سائر المؤمنين، وإنَّما عبّر بالانتقاص من النفس بلحاظ أنَّ المؤمنين مجموعة واحدة متَّحدة كأنَّهم شخص واحد، فتعيير أحدهم تعيير للكلِّ، فإذا صدر هذا التعيير من أحدهم فكأنَّه عيَّر نفسه وعابها. وهذا الإسناد حقيقي وليس مجازياً، فإنَّ العيب في كلِّ مؤمن يعتبر عيباً للجميع في تلك الظروف الخاصَّة، حيث كان المجتمع العربي يبحث بدقَّة ويضع كلَّ حركة من الجماعة المؤمَّنة تحت المجهر، كما هو الحال في نظائهم، فإنَّا نجد في مجتمعنا مثلاً أنَّه إذا صدر ما لا ينبغي من رجل دين معتمِّم فإنَّه يصيب الجميع، وليس كذلك سائر الطوائف، والسبب هو ما أشرنا إليه من أنَّ الأعداء يضعون كلَّ صغيرة منهم تحت المجهر ويكبِّرونه أضعافاً ويعمِّمونه على الجميع.

﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ﴾؛ النبز: التلقيب، أي وضع اللقب للآخرين ولكنه يستعمل

في ألقاب السوء ويتداول في كثير من المجتمعات المتخلفة وضع الألقاب السيئة للناس احتقاراً لهم وإذاءً، وهكذا كان المجتمع العربي آنذاك والإسلام منهم من ذلك، فالآية بل السورة بكاملها من أهم الآيات والسور في مجال تربية المجتمع الإسلامي وتكوين أسسه.

﴿بَشِّرِ الْإِنْسَانَ الْفُسُوقَ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾؛ الاسم، هو العلامة ويطلق على اللقب والكنية أيضاً، وحيث كانوا يطلقون على من سبق منه معصية لقباً يدلّ على ذلك، منهم من التلقب بما يدلّ على الفسوق، فإنّ السمة الواضحة للإنسان المؤمن هو إيمانه حتّى لو صدر منه ما لا ينبغي، فلا يجوز أن يسمّى بما ينافي الإيمان. وقيل: إنّ المراد بالاسم الذكر، كما يقال: خلد اسمه أو رفع اسمه، أي ذكره، فالمعنى بشّر الذكر أن يذكر المؤمن بفسقه.

﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾؛ تبشير وإنذار معاً، فالجملة تدعو إلى التوبة وتبشر بأنّ ما مرّ منكم من الأخطاء والذنوب تغفر لكم بالتوبة، وإنذار لمن لم يترك السنن الجاهلية ولم يتب إلى الله تعالى، فإنّه سيكون من الظالمين، بل التعبير يدلّ على الحصر. فالظالم هو الذي لا يتوب ويصرّ على العادة السيئة ليس غيره، فإنّ التائب لا يكون ظالماً بعد ذلك وإن كان ما صدر منه ظلماً بحق أخيه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾، الآية الكريمة تمنع بعض ما يهدّد كيان المجتمع ووحدته وتماسكه، وهي أمور مهمّة جدّاً في ترسيخ النظام الاجتماعي وتأمين الحياة السعيدة للإنسان وحفظ حقوقه الشخصية وكرامته. فأول تلك الأمور التي يوصي بها الله سبحانه من آمن به وبرسوله وبدينه تجنّب الظنّ السيء بالآخرين. وجعل المخاطب في ذلك: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إيذاناً بأنّ

الالتزام بذلك مقتضى الإيمان بالله ورسوله.

والاجتناب بمعنى الابتعاد مأخوذ من الجانب، أي كن على جانب من ذلك فلا تقرّبه. وقد اختلف اللغويون في تحقيق معنى الظنّ وهو - على ما يبدو من موارد استعماله - الاعتقاد الذي لا يستند إلى دليل، سواء كان قطعياً أو فيه نوع تردّد، فالمراد هنا تجنّب الاعتماد في تقييم الأشخاص على التهمة والاعتقاد الذي لا يستند إلى دليل قاطع أو حجة شرعية.

وليس المراد بالطبع الاجتناب عن نفس الظنّ، فإنّه أمر غير اختياري، فالإنسان إذا واجه أموراً تدلّ ولو بوجه ظنيّ ضعيف على حالة أو عمل، فإنّه يحصل له الظنّ بذلك والناس مختلفون في التأثير بهذه العوامل، فهناك من يحصل له اليقين بأدنى أمارّة وعلامة، وهناك من يحصل له الظنّ، وهناك من يتردّد إلى غير ذلك، وإنّما المنهيّ عنه هو ترتيب الأثر على الظنّة والتهمة ومؤاخذه الناس به فعلاً أو قولاً.

وليس المراد أيضاً حسن الظنّ بالناس والاعتماد على كلّ أحد بمجرد كلام معسول وعدم اتخاذ الحيطة على النفس أو المال أو نحو ذلك، حتّى لو ظنّ بأحد شراً، فإنّ ذلك من السذاجة ويؤدي إلى أضرار كثيرة. ومن الواضح أنّه ليس من الإساءة بالظنّ أن يحتاط الإنسان إذا ظنّ بأحد شراً، إذ المنهيّ عنه هو ترتيب الأثر على سوء الظنّ وليس معناه العمل بحسن الظنّ، بل ربما تتغيّر المقاييس بتغيّر الزمان ويكون الأولى بوجه عامّ هو الاحتياط وعدم الاعتماد على الناس، كما عن أمير المؤمنين عليه السلام: «إذا استولى الفساد على الزمان وأهله، ثمّ أساء رجل الظنّ برجل لم يظهر منه حوبة فقد ظلم، وإذا استولى الفساد على الزمان وأهله، ثمّ

أحسن رجل الظنّ برجل فقد غرر»^١.

ومن هنا يتبيّن الوجه في أنّه تعالى لم يأمر باجتنب الظنّ مطلقاً، بل الكثير منه، فإنّ الغالب من موارد الظنّ بالسوء ما يتلقّفه الناس لينشروه فيما بينهم ويجعلونه حديث المجالس للانتقاص من الآخرين، وقليل من موارد يستلزم الاحتياط في مقام العمل، وهذه الموارد واضحة للجميع والناس بطبيعتهم يحتاطون في موارد لزوم الاحتياط بسبب سوء الظنّ بالشخص، كما نلاحظه في رجال الأمن مثلاً، فإنّهم يبحثون عن المجرمين بأدنى مظنة للسوء وهو ما ينبغي أن يفعل إذا كان القصد المحافظة على أمن المجتمع.

وقيل في تفسير الآية: إنّ التقيد بالكثير من جهة أنّ ما يقابله هو الظنّ بالخير وهو قليل، وإنّما الغالب الظنّ بالسوء؛ وقال بعضهم: إنّ ظنّ سوء كثير في نفسه ولا يراد أنّه الأكثر. ولكنّ الصحيح الواضح من السياق أنّ المراد بالظنّ هو ظنّ سوء خاصّة، فالكثرة باعتبار أنّ بعض الظنّ بالسوء يجوز العمل على طبقه في مورد، بل لا يجوز الاجتناب عنه وهو موارد لزوم الاحتياط كما قلنا، لكن ليس معناه أن نتهّم أحداً ونجازيه بمجرد الظنّ، إنّما الواجب هو الاهتمام به وأخذ الحيطة. وبذلك يتبيّن أيضاً المراد بقوله تعالى: ﴿إِنْ بَعْضُ الظَّنِّ إِنَّكُمْ﴾.

والأصل في الإثم - على ما قال العسكري في فروق اللغة - التقصير.^٢ وقال في «الكشّاف»: «هو الذنب الذي يستحقّ صاحبه العقاب»،^٣ وفي «المفردات»

١. نهج البلاغة (للصبيحي صالح): ٤٨٩ / الحكمة: ١١٤.

٢. الفروق في اللغة: ٢٢٧.

٣. الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل ٤: ٣٧٢.

و«مقاييس اللغة»: «أنَّ أصله التباطؤ وهو يناسب التقصير»،^١ والمراد هنا التباطؤ عن الخير ومنه سمِّي الذنب إثماً.

ومهما كان فالآية تمنع هنا من إساءة الظنِّ بالناس، ولم يخصَّص الحكم بالمؤمنين أو المتّقين والصالحين، فالظاهر أنَّ الهدف هو بناء مجتمع يبتني على أساس حسن الظنِّ بالناس، كما نجده اليوم في المجتمعات المتحضّرة وهذا الأمر يوجب رخاءاً اجتماعياً وهناءً في العيش وراحة للضمير وتأدّباً عامّاً، ويحثّ عامّة الناس على عدم الإضرار بالآخرين، ومتابعة النظام والقانون والابتعاد عن الشرِّ والفوضى. والناس بصورة عامّة تواقّون للخير والاستثناء شاذّ، فلا بدّ من حسن الظنِّ بهم حتّى لا يظنّوا بأنفسهم الشرّ، ولا يهون الشرّ في أعينهم فتميل إليه نفوسهم، ولكن ليس معنى ذلك عدم أخذ الحيطة، بل القرآن يؤكّد على أن يكتب كلّ دين ولا يكتفى بحسن الظنِّ، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَمْسَطَ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾،^٢ بل رغب في أخذ الرهان إن لم يمكن الكتابة.

﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ وهذا هو الأمر الثاني ممّا أوصى به الله تعالى لتنظيم المجتمع الصالح. والتجسّس من الجسّ، وهو كما قال ابن فارس في «معجم المقاييس»: «تعرف الشيء بمسّ لطيف، يقال جسست العرق وغيره جسّاً، والجاسوس فاعول من هذا، لأنّه يتخبر ما يريده بخفاء ولطف».^٣ والنهي عنه بعد المنع من إساءة

١. راجع: مفردات ألفاظ القرآن: ٦٣؛ معجم مقاييس اللغة ١: ٦٠.

٢. البقرة (٢): ٢٨٢.

٣. معجم مقاييس اللغة ١: ٤٦٤.

الظنّ يدلّ على أنّه إذا أسأت الظنّ، فلا تتحقّق ولا تبحث عن ما يستره المظنون، كما ورد في الحديث النبوي الشريف: «ثلاث لازمات لأمتي الطيرة والحسد وسوء الظنّ» فقال رجل ما يذهبهنّ يا رسول الله ممّن هنّ فيه؟ قال: «إذا حسدت فاستغفر الله، وإذا ظننت فلا تحقّق، وإذا تطيّرت فامض»^١.

والمراد بالتجسّس الممنوع البحث عن الشؤون الشخصية للناس، كما إذا رأيت أحداً يحمل قارورة يشبه قوارير الخمر فإنّه لا يجوز لك أن تتحقّق وتسلّ، بل يجب أن يحمل على الصحّة ما دام له محمل، كما ورد عن أمير المؤمنين (عليه السلام): «ضع أمر أخيك على أحسنه حتّى يأتيك ما يقلبك منه، ولا تظنّنّ بكلمة خرجت من أخيك سوء وأنت تجد لها في الخير محملاً»^٢، وغير ذلك من الأحاديث وهي كثيرة جداً وموردها جميعاً الأمور الشخصية. ومنها ما روي عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): «لا تطلبوا عثرات المؤمنين، فإنّ من تتبّع عثرات أخيه تتبّع الله عثراته، ومن تتبّع الله عثراته يفضحه ولو في جوف بيته»^٣، وربما يستفاد من الآية عدم اختصاصه بالمؤمنين لإطلاق النهي.

نعم ربما تضطرّ الحكومات إلى التجسّس لمعرفة الأعداء إذا أرادوا إيقاع الشرّ أو إثارة الحرب، وكان للنبي (صلى الله عليه وآله) عيون، أي جواسيس يخبرونه عمّا يدور حوله من حوادث، فقد كان محاطاً بكثير من الأعداء، بل ربما يتوقّف الأمر على التجسّس على بعض الناس في بيوتهم أو التنصّت إلى مكالماتهم ولا يجوز ذلك في الظروف المعتادة، وإنّما يجوز في الحالات الطارئة وبالنسبة لمن يظنّ به أنّه

١. بحار الأنوار ٥٥: ٣٢٠.

٢. الكافي ٢: ٣٦٢، باب التهمة وسوء الظنّ.

٣. الكافي ٢: ٣٥٤، باب من طلب عثرات المؤمنين.

يقصد إيقاع الشر بالمجتمع، خصوصاً في زماننا هذا حيث يمكن لأي واحد من الناس أن يفجر مجتمعاً سكنياً أو تجارياً برمته ويهلك عدداً هائلاً من الأبرياء، فلا يجوز في مثل ذلك التمسك بالمنع عن التجسس أو لزوم رعاية الحريات الشخصية أو الكرامة الإنسانية.

﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ وهذا هو الأمر الثالث من هذه الوصايا. والاعتياب والغيبة - بالكسر - مأخوذ من الغيبة - بالفتح - وهي الغياب عن البصر، والمراد به الواقعة في الناس في غيابهم، وقد اختلف في تعريف الغيبة التي حرّمها الله تعالى، فقيل: هو ذكرك أخاك بما يكرهه. وعرفه كثير من الفقهاء بأنه ذكر المؤمن بعيب في غيبته، سواء أكان بقصد الانتقاص أم لم يكن، وسواء أكان العيب في بدنه أم في نسبه أم في خلقه أم في فعله أم في قوله أم في دينه أم في دنياه أم في غير ذلك ممّا يكون عيباً مستوراً عن الناس.

ويظهر من الآية الكريمة أنّ حرمة خاصّة بالمؤمنين، حيث قال: ﴿لَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ ولذلك قلنا بأنّ النهي في الموردين السابقين لا يختصّ بالمؤمنين، فالقرينة على ذلك هو تخصيص هذا الحكم بالمؤمنين.

وقد سنّع الله تعالى ذلك أشدّ تشنيع، حيث شبّهه بأكل لحم الأخ ميتاً، ومن بدائع القرآن أنّه لا يكتفي في مثل هذه الموارد بالنهي والمنع، بل يحاول تنفير النفوس من الأمر؛ ومن الواضح والضروري أنّ النفس تشمئز غاية الاشمئزاز من رؤية هذا المشهد، فضلاً عن القيام به: أخ يأكل لحم أخيه بعد موته!! وإنّما شبّهه تعالى بذلك، لأنّ المؤمنين إخوة - كما سبق ذكره في هذه السورة - وغيابه يشبه

موته، لأنّه لا يستطيع الدفاع عن نفسه كالميت، والواقعة في عرض الأخ يشبه أكل لحمة إن لم يكن أشدّ منه، ولذلك ورد في بعض الروايات أنّ حرمة عرض المؤمن كحرمة دمه وماله، كالحديث النبوي المشهور: «المؤمن حرام كلّ عرضه وماله ودمه»^١.

وفي الآيات تأكيد من جهات أخرى أيضاً، ذكره ضمن استفهام إنكاري، والتعبير بقوله: «يُحِبُّ أَحَدُكُمْ» النافي لأن يكون أيّ أحد منهم محبّاً لذلك، وقوله تعالى: «فَكَرِهْتُمُوهُ» وهو بتقدير جملة، أي: عرض عليكم هذا فكرهتُموه. فكراهة هذا الأمر وجداني طبيعي، فلتكن كراهة الغيبة أيضاً كذلك.

والمنع من الغيبة يزيد المجتمع تماسكاً، بل يمنحه نوعاً من الشعور بالمسؤولية تجاه غيره من المؤمنين بصورة واقعية، فإنّ ذلك - يعني أنّ المودة والمحبة بين أفراد المجتمع - يجب أن لا تكون من المجاملات التي تتعارف في المجتمعات البشرية، بل الشعور بالأخوة يجب أن يكون واقعياً ينبع من إيمان كلّ فرد برّبه ودينه حتّى في غياب أخيه المؤمن، وهذا من خصائص المجتمع الديني، ولذلك اختصّ النهي عنها بالمؤمنين في ما بينهم. وقد تأكّد النهي عن الغيبة في الروايات الكثيرة من الفريقين بحيث أصبح تحريره والتنديد به من الأمور الواضحة في الدين لا يكاد يخفى على أحد.

واستثنى الفقهاء من حرمة الغيبة بعض الموارد حيث تقتضي الحكمة تجوزها، بل إيجابها، فمنها: مورد التظلم لقوله تعالى: «لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالشُّوْرِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ»^٢.

١. المؤمن (للحسين بن سعيد): ٧٢ / ١٩٩.

٢. النساء (٤): ١٤٨.

ومنها: مقام النصيحة للمؤمن في ما إذا استشار بل مطلقاً، وهذا باب واسع فقد يستشير المؤمن للزواج أو للمشاركة أو الاستيجار أو أي نوع من التعامل مع الآخرين وهو لا يعرف صاحبه، فعلى أخيه المؤمن إذا عرف أنه لا يصلح له أن ينصحه ويمنعه من الوقوع في المشاكل.

ومن ذلك مورد انتخاب أحد لتصدّي رئاسة الجمهورية أو أي مقام آخر يتوقّف على الانتخاب، كالمجلس التشريعي فإنّ المصلحة العامّة تقتضي أن لا يخفي الإنسان ما يعلمه من المرشحين، ومن هو الأصلح للناس، ولا يجوز أن يخفي شيئاً من ذلك تذرّعاً بحرمة الغيبة، ولكن لا يجوز أيضاً أن يتذرّع بالمصلحة وينشر بين الناس كلّ ما لا ينبغي أن يقال من الأسرار، وإنّما عليه أولاً أن لا يقول إلا ما يعلمه بوجه قطعي؛ وثانياً أن يقتصر على المقدار الذي يكفي لامتناع الناس من التصويت له، وهكذا في سائر موارد الاستشارة أو النصيحة بوجه عام.

ومنها: ما لو كانت الغيبة لمصلحة المغتاب مصلحة أهمّ من فضح سرّه وذكر عيوبه، كما لو كان يترتب على ذلك حفظه من الوقوع في ضرر متوقّع من الظالمين ونحوهم، أو كان يترتب على ذلك منعه من الاستمرار في المنكر إذا لم يمكن رده عنه بوجه آخر.

وذكروا موارد أخرى، منها: التجاهر بالفسق، والظاهر أنّه خارج عن الغيبة، لأنّه ليس عيباً مستوراً، أمّا لو كان الشخص متجاهراً أمام مجموعة من الناس فقط، فلا يجوز فضحه أمام غيرهم، كما أنّه لا يجوز اغتيابه في عيب من عيوبه أو فسق آخر ممّا لا يتجاهر به.

ومنها: غيبة من يخاف على الدين أو المجتمع الإسلامي منه لكونه مبتدعاً أو منحرفاً أو جاهلاً يظهر نفسه بمظهر العلماء ونحو ذلك، وهذا يدخل في باب النصيحة. ويمكن أن يدخل في ذلك أيضاً ما ذكروا من جرح الشهود والقدح في المقالات الباطلة، والردّ على العلماء ونفي الاجتهاد أو العلمية أو سائر شروط المرجعية عن مدّعيها ونحو ذلك.

وقد وقع الخلاف بين الفقهاء في أنّ التوبة عن الغيبة هل يكفي مطلقاً، أو في خصوص ما إذا لم يمكن الاعتذار من المغتاب، أو لا يكفي مطلقاً، بل لابدّ من الاعتذار أو الاستغفار له؟ بل ربما قيل: إنّ لا يغفر له إن لم يغفر له المغتاب، سواء تمكّن من الاعتذار أم لا، بل روي ذلك في بعض الروايات وعُلِّل به أنّ الغيبة أشدّ من بعض الكبائر، لأنّه يكفي فيها التوبة والغيبة لا تغفر. حتّى يغفر له المغتاب.

ولكن جمعاً من الفقهاء المحقّقين ومنهم سيّدنا الأستاذ حفظه الله^١ يقولون بكفاية التوبة في كلّ الموارد، وأنّ حرمة المؤمن حقّ الله تعالى، ولذلك لا يجوز للمؤمن نفسه أيضاً أن يذلّ نفسه ولا أثر لإعلانه مسبقاً بأنّه راضٍ عن اغتيابه، فالحرمة باقية حتّى مع هذا الإعلان، ولا يجب الاعتذار، بل ربما لا يجوز إذا كان موجباً لإيذائه وكثيراً ما يوجب ذلك تنافراً ومزيداً من التصدّع في المجتمع، فالأولى للإنسان أن يكتفي بالكفّ عن أعراض الناس والاستغفار وليست الغيبة بأشدّ من سائر الكبائر.

وهل يجب الدفاع عن المغتاب والانتصار له؟ ورد ذلك في بعض الروايات

١. سماحة السيّد السيستاني دام ظله.

وأفتى به بعض الفقهاء، وورد أنه إذا لم يردده ولم ينصره خذله الله تعالى في الدنيا والآخرة، وأنّ عليه كوزر المغتاب. ولكن ذلك غير ثابت والروايات ضعيفة، خصوصاً أنّ السامع ربما لا يعرف المغتاب وأنّه هل يستحقّ الغيبة أم لا؛ نعم يجب النهي عن المنكر مع اجتماع شرائطه، ومنها العلم بكونه منكراً وأنّه خارج عن موارد الاستثناء وأنّ القائل متبّه لكونه غيبة، إذ لا يعتبر منكراً في غير هذا الحال، وتختلف الموارد في ذلك، فربما يذكر القائل أحد العلماء أو الأولياء الصالحين ممّن لا يحتمل فيهم جواز الغيبة ولا يحتمل الغفلة، بل يقطع بكون القائل يقصد بذلك الطعن في الدين وفي رجاله، وهنا يجب قطعاً التصدي له والدفاع عن الدين ورجاله.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾، تأكيد على لزوم اجتناب الغيبة وأنّه ينافي التقوى، وتحذير من غضبه تعالى. وربما يستغرب التعليل، حيث يتوهّم أنّ المناسب في تعليل التقوى هو التأكيد على كونه منتقماً وذا عقاب شديد لا كونه تواباً رحيماً، ولكنّ الظاهر أنّ التعليل بلحاظ أنّ الغيبة كثيراً ما يتداولها الناس، بل يستسيغونها، وحيث شدّد النكير عليه فربما يتصور الإنسان أنّه غير قابل للمغفرة بالتوبة كما مرّ ذكره فعلاً تعالى الأمر بالتقوى واجتناب الغيبة في المستقبل بأنّه تعالى تواب رحيم، فلا تستبعدوا أن يقبل توبتكم إذا رجعتم إليه وتركتم الذنب. وهذه الجملة تدلّ على كفاية التوبة إلى الله تعالى، ولا يتوقّف قبولها على الاسترضاء والاعتذار.

والتوّاب مبالغة في التوبة، أي الرجوع. والتوبة من العبد هي الرجوع إلى الله تعالى باجتناب نواهيه والائتمار بأوامره واستغفار ما مضى منه. والتوبة من الله

تعالى توبتان توبة قبل توبة العبد حيث يوفقه للتوبة، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^١ وتوبة بعدها وهو قبول توبته وإدخاله في رحمته.

روى الآلوسي في «روح المعاني»: أن سلمان الفارسي - رضي الله تعالى عنه - كان مع رجلين في سفر يخدمهما وينال من طعامهما وأنه نام يوماً فطلبه صاحبه فلم يجده فضربا الخباء وقال: ما يريد سلمان شيئاً غير هذا أن يجيء إلى طعام معدود وخباء مضروب، فلما جاء سلمان أرسلاه إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يطلب لهما إداماً فانطلق فأثاء فقال: يا رسول الله بعثني أصحابي لتؤدّمهم إن كان عندك، قال: «ما يصنع أصحابك بالإدام؟ لقد اتدّموا»، فرجع - رضي الله تعالى عنه - فأخبرهما فانطلقا فأتيا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالا: والذي بعثك بالحقّ ما أصبنا طعاماً منذ نزلنا، قال: «إنكما قد اتدّمتما بسلمان»، فنزلت.^٢

وروى أيضاً عن أنس قال: كانت العرب تخدم بعضها بعضاً في الأسفار وكان مع أبي بكر وعمر رجل يخدمهما فناما فاستيقظا ولم يهيء لهما طعاماً، فقالا: إنّ هذا لنؤوم فأيقظاه، فقالا: ائت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقل له: إنّ أبا بكر وعمر يقرءانك السلام ويستأدّمانك، فقال: «إنّهما اتدّما»، فجاءا فقالا: يا رسول الله بأيّ شيء اتدّمنّا؟ قال: «بلحم أخيكما والذي نفسي بيده إنّني لأرى لحمه بين ثناياكما»، فقالا: استغفر لنا يا رسول الله، قال: «مراه فليستغفر لكما».^٣

١. التوبة (٩): ١١٨.

٢. روح المعاني ١٣: ٣١٠.

٣. روح المعاني ١٣: ٣١٠.

والظاهر أنّ مورد الروایتين قصّة واحدة، والرواية الأولى تدلّ على أنّ الآية نزلت في هذا الشأن، ويظهر من الثانية أنّ الرسول ﷺ لم يستغفر لهما، وإنّما أمرهما أن يطلبوا من سلمان أن يغفر لهما ممّا يدلّ على أنّ الله تعالى لا يغفر للمغتتاب إلى أن يغفر له من اغتابه، وقد مرّ الكلام فيه.

ويظهر من القصّتين أنّ بعض المحدثين أو المؤلّفين كانوا يحذفون بعض الأسماء ويستبدلونها بتعابير عامّة كالرجل أو الرجلين لأهداف سياسية أو غيرها، ومن ذلك حديث الدواة والكتف.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾؛ كان الخطاب في الآيات السابقة موجّهاً إلى الذين آمنوا ولكنّ الخطاب في هذه الآية ورد بعنوان الناس، فربما يقال: إنّ الخطاب فيه موجّه واقعاً إلى البشر جميعاً، نظراً إلى أنّ نبد التمييز العنصري والتعصّب القبلي أمر حضاري لا بدّ من ترسيخه في البشرية لتنظيم الحياة الاجتماعية على الأرض، ولكنّه بعيد عن سياق الآية وعن أهداف القرآن الكريم؛ لأنّ الآية لا تنفي التفاضل بين البشر، كما هو الهدف من نبد التمييز، بل تحدّد للتمييز مقياساً لا يعرفه المجتمع البشري وهو التقوى، فليست الآية في مقام نفي التمييز، بل لتحديد مقياس التفاضل عند الله تعالى.

ومن جهة أخرى فإنّ الدين الإلهي لا ينظر إلى الحياة الدنيا وشؤونها إلا كمقدمة لنيل السعادة في الآخرة، قال تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾^١ فلا يهمّ الدين ما يخصّ الشأن الدنيوي والحضارة البشرية.

والخطابات في القرآن بعضها يخصّ المؤمنين لبيان أحكام الشريعة أو غيرها،

فإن الدين يهّمه شأنهم حتّى لو كان لتنظيم الحياة الاجتماعية، ولكن من جهة الحكم الشرعي فقط كأحكام النكاح والطلاق والإرث والبيع والإجارة وغيرها، ولا يتعرّض الدين للشأن الاقتصادي ولا لغيره من شؤون الحياة، بل يبيّن الحكم الشرعي فحسب، وهو يمنع بعض ما نراه مفيداً لنا اقتصادياً، لا أنّه يقتصر علينا طرّقاً مفيدة.

وبعض خطابات القرآن موجهة لعامة البشر، ولكن بهدف هدايتهم وسوقهم إلى الإيمان بالله تعالى لا تنظيم حياة الناس الاجتماعية، ويختلط الأمر كثيراً على الباحثين فيحسبون أنّ الدين يشمل علم الاقتصاد والسياسة والاجتماع، وليس كذلك، وإلا لكان يغني المؤمنين في الطبّ والتكنولوجيا وغيرهما أيضاً.

وعليه فلا يبعد أن يكون المخاطب في هذه الآية أيضاً هم الذين آمنوا إلا أنّه خاطبهم باعتبار أنّهم بشر، ولعلّ السرّ في انتخاب هذا التعبير في الخطاب حتّى المؤمنين على عدم التفاخر والتفاضل على غيرهم من البشر بالعنصر والقبيلة ونحوهما، كما لا يجوز أن يفتخروا في ما بينهم بها، وليعلموا أنّ التمييز إنّما هو بالتقوى.

وفيه وجه آخر وهو أنّ هذا الأمر، أي كون اختلاف الشعوب بهدف التعارف فحسب لا يختصّ بالمؤمنين، فخطبوا بما أنّهم ناس لا بما أنّهم مؤمنون. ويحتمل أن يكون الخطاب للبشر جميعاً ويكون تنبيهاً لهم على سخافة ما يعتبرونه في أعرافهم مناطاً للأفضلية، وأنّ الفضيلة ليست إلا بالتقوى.

ويذكر المفسّرون أنّ المراد بالذكر والأنثى آدم وحواء، فالمعنى أنّ البشر كلّهم ينتمون في النهاية إلى أصل واحد، فالأجدر بهم أن لا يفتخر بعضهم على

بعض بأصله ومَحْدَه، ولكن هذا المعنى بعيد في نفسه وبعيد ترتيبه على ما ذكر؛
أما في نفسه، فلائنه لاشك في تأثير العوامل الوراثية في سعادة الإنسان وفي
اختياره لمنهج الحياة وفي اعتناقه للدين والمذهب وفي كثير مما يبرر الافتخار
والتباهي، فلا شك في أن الانتماء إلى الرسول ﷺ شرف للإنسان، ونجد في
الآثار مباهاة الرسول ﷺ بجدّه عبدالمطلب، وكذلك مباهاة الأئمة بجدّهم
الكريم، بل بسائر من ينتمي إلى هذه الشجرة الطيبة كحمزة وجعفر عليهما السلام، بل
حتّى بمن يأتي بعدهم كالإمام المهدي عليه السلام.

وأما عدم ترتبه على ما ذكر، فمن الواضح أن مجرد كوننا جميعاً من نسل
آدم وحواء لا ينافي التباهي والتفاخر بالآباء الأقربين، بل حتّى لو كانوا مشاركين
في الجدّ القريب، ونحن نجد الفرق الواضح بين بني هاشم الأطيّسين وبني أمية
الذين هم أولاد عبد شمس، وهما أخوان، فالفريقان يشتركان في عبد مناف.

وقيل: إنّ المراد بهما الرجل والمرأة، والمعنى أن كلّ واحد منكم مخلوق من
أب وأمّ، فلا فخر لأحد على أحد إلا بمميّزاته الذاتية؛ ولكنّه غير صحيح، إذ أنّه
كالقول بأنّ الإنسان خلق من نطفة، فالأصل في الجميع واحد وإن اختلفت
النطف، وإنّما يمتاز الإنسان بصفاته الخاصّة به لا بأصله ومحتده، ولا بأيّ جهة
من الجهات الأخرى التي ربما يتفاخر بها، ومن الواضح أن مجرد وجود وجه
مشترك بين الجميع لا ينفي التفاضل، كما أن هناك وجوهاً مشتركة بين الإنسان
والحيوان ولا تنافي هذه الوجوه فضل البشر وكرامته.

ويحتمل أن تكون «من» بيانية وإن لم يذكر في التفسير، فالمعنى: «أنا
خلقتكم رجالاً ونساءً وجعلناكم شعوباً»، ولعلّ القصد من التعميم إلى الذكر

والأنثى لدفع توهم أن الذكورة مما يوجب الفخر والتباهي، فكما أن الاختلاف في الشعوب والقبائل للتعارف ولا يبرر التفاخر كذلك الاختلاف في الذكورة والأنوثة، فالتقوى هو مناط التفضيل عند الله حتى بين الرجل والمرأة، ولا فضيلة للرجل على المرأة إلا بالتقوى وهذا الأمر مما أكد عليه القرآن الكريم في مواضع عديدة، كقوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾^١، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾^٢ ونحوهما.

وهكذا ينبه القرآن على أمر غريب في ذلك المجتمع، بل في كثير من المجتمعات المتخلفة المعاصرة حتى الذين يدعون الإسلام، حيث نجد أكبر الظلم على المرأة. وأما رسالة السماء منذ البدو فلم تفرق بين الرجل والمرأة في كسب المنزلة والثواب لدى الله تعالى.

وحاصل معنى الآية أن هذه الاختلافات إنما هي مميزات شخصية لتعيين الأشخاص ورسم هوياتهم، حتى يكون لكل أحد عنوانه الخاص به، وهو أمر هام يتقوّم به كثير من الشؤون الاجتماعية، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿لَتَعَارَفُوا﴾، أي ليعرف بعضهم بعضاً، ولا يوجب ذلك كرامة عند الله، إنما الكرامة عنده بالتقوى وكل من كان أتقى فهو أكرم عند الله تعالى، ولا ينافي ذلك وجود تفاضل في المجتمع بأسباب أخرى، كالعلم والفن والشجاعة وسائر الامتيازات التي تستلزمها الحاجات الاجتماعية، كما لا ينافي شرفاً وافتخاراً بالانتساب إلى الرسول ﷺ،

١. آل عمران (٣): ١٩٥.

٢. النساء (٤): ١٢٤؛ وراجع أيضاً: النحل (١٦): ٩٧ و غافر (٤٠): ٤٠.

نعم لا شرف لمن ينتمي إلى هذا النسب الشريف إن لم يكن مؤمناً؛ لأنه خالف سنة جده وسيرته.

والحاصل أن الآية لا تمنع التفاضل والتفاخر، ولا تنفي شرف الانتساب بوجه عام وإنما تحدّد الكرامة عند الله تعالى وإنّ المناط فيها هو التقوى، فمن لم يكن متّقياً لا كرامة له عند الله تعالى حتّى لو كان ابن نبي، وكلّ ما زادت التقوى زادت الكرامة ولا ينافي ذلك شرف الانتساب ولزوم الاحترام لذلك في الدنيا إذا كان مؤمناً متّقياً، بل إنّ ذلك ينفع المؤمن يوم القيامة أيضاً، كما يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿جَنّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾^١، وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾^٢، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾^٣.

وقد بيّنا في التفسير أنّ هذه الآيات تدلّ على أنّ الله تعالى يدخل الجنّة من الآباء والأزواج والذرية من يكون صالحاً بشفاعة المؤمن المقرب، وذلك لأنّه لو كان المراد بهم من يستحقّ الجنّة بنفسه استحقاقاً كاملاً لم يكن وجه للإلحاق؛ لأنّه داخل في القسم الأوّل فلا معنى للإلحاق ولا لتوهّم التنقيص من العمل، كما في سورة الطور، فقوله تعالى: ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ يراد به دفع توهّم أنّ الإلحاق إنّما يكون بالتنقيص من عمل الأوّلين وتسجيله في صحيفة عمل الملحقين. والتقييد بالصلوح يدلّ على أنّ الشفاعة لا تشمل الكافر والمنافق وربما

١. الرعد (١٣): ٢٣.

٢. غافر (٤٠): ٨.

٣. الطور (٥٢): ٢١.

بعض المؤمنين أيضاً، ولعلّ المراد به صلاحية الدخول في الجنة وإن كان له بعض الموانع لبعض أعماله السيئة.

واختلف كلام اللغويين والمفسرين في أنّ الشعب - بفتح الشين - حي من القبيلة أو أنّه يجمع القبائل ولا طائل تحت هذا الاختلاف، إذ يصدق الشعب لغة على كلّ مجموعة من الناس، والغرض أنّ الانتماءات القبلية - سواء القريبة ام البعيدة - إنّما تفيد في التعارف وليس مناطاً بذاتها للتقرّب إلى الله تعالى.

والسبب في إثارة هذا الأمر هو أنّ كثيراً من العرب كانوا يعتبرون هذه العناوين والانتماءات مناطاً للشرف واقعاً، بل حتّى في مناطات الأحكام الدينية وكانوا ينتقصون الموالي ومن ليس لهم أصل في العرب، والرسول ﷺ كان يحارب هذه الظاهرة بشدّة ويأمر الأشراف بأن يزوّجوا بناتهم من الموالي، وقد تكرّر ذلك في عدّة موارد حتّى أنّه أمر أن يزوّج زيد بن الحارثة زينب بنت جحش وهي بنت عمته ﷺ، ومن الغريب أنّ هذه الظاهرة بقيت في القوم مع كلّ هذه المحاولات حتّى أنّ بعض الخلفاء فرقوا بين العرب وغيرهم في العطاء من بيت المال، بل فرقوا بين الأشراف وغيرهم، بل بين أقاربهم وغيرهم إلى أن جاء أمير المؤمنين عليه السلام فمنع كلّ ذلك.

وأغرب من ذلك أنّ بعضهم فسّر هذه الآية أيضاً بما ينافي الهدف الواضح منها؛ روى السيوطي في «الدر المنثور» عن عمر بن الخطاب أنّه قال: «هذه الآية خاصّة بالعرب، والموالي أي قبيلة لهم وأي شعب؟!» فمغزى هذا الكلام أنّ الآية إنّما تمنع وجود تفاضل واقعي عند الله بين العرب لا بين العرب وغيرهم

بقريئة أنه تعالى اعتبر الشعوب والقبائل للتعارف، والشعوب والقبائل خاصة بالعرب، والموالي لا ينتمون إلى شعب وقبيلة!! وهذا من غرائب الكلام، فإن كل البشر لهم شعوب وقبائل، ولكنهم حيث كانوا لا يجدون الأعجمي المؤمن في المدينة منتبهاً إلى قبيلة من العرب كانوا يتصورون أنه ليس له قبيلة في بلده أيضاً!!!

﴿إِنْ أَكْرَمَكُمُ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ﴾. الكرامة هي مناط التقييم، فيطلق الكريم على كل شيء شريف قيم، ويقال للأحجار النفيسة الأحجار الكريمة، ويقال للعينين الكريمتان ولابنة الرجل كريمته، كما في الأحاديث، فالأكرم عند الله تعالى أي الأشرف والأنفس. والتقوى مصدر من الوقاية وهي التحفظ. وتقوى الله تعالى أي التحفظ مما يسخطه ويكرهه، فكلما كان الإنسان أبعد من معاصي الله تعالى كان أتقى وأحفظ لنفسه من التعرض لغضبه وعذابه.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾. الظاهر أن الجملة في مقام التعليل لكون الكرامة والشرف عند الله تعالى بالتقوى، ولعلّ التوصيف بالعلم لأن معرفة المناط الحقيقي للكرامة تتوقف على العلم بحقائق الأمور، والله تعالى لعلمه بها هو الذي يحدد مناط الكرامة لا البشر الجاهل بها.

والخير من الخبرة وهي معرفة دقائق الأمور التي لا يعرفها عامة الناس. ولعلّ توصيفه تعالى بالخبرة من جهة اعتبار مناط الكرامة درجة التقوى لمكان أفضل التفضيل في قوله تعالى: ﴿اتَّقَاكُمْ﴾ ومعرفة ذلك صعبة للغاية، بل مستحيلة لعامة الناس؛ لأن تمييز من هو أتقى من غيره يتوقف على معرفة ضمائر البشر ودخائل نفوسهم وهي أمر غير متاح للبشر بوجه عام وإنما يعرفها علام الغيوب جلّ وعلا.

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّدِيقُونَ ﴿١١﴾ قُلْ أَنْتَعِلُوا لِلَّهِ بَدِينَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِلَّا سَلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾. الآيات تشير إلى حالة كثير من الناس قديماً وحديثاً، ومورد الآية جمع من الأعراب أسلموا ومنوا على الرسول ﷺ بذلك، كما يمين به حتى الآن كثير من الناس على الله ورسوله ومن يلقونه من رجال الدين. وبالطبع فإنه ليس موقف الأعراب كلهم لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾. ١ وقد مرّ الكلام حول معنى الأعراب في تفسير سورة الفتح، وقلنا: إنه جمع لا مفرد له وليس جمع العرب، لأنه اسم جنس، وإنما ينسب إليه المفرد، فيقال: «أعرابي» ويطلق على أهل البداوة من العرب الذين لم يتحضروا ويسكنوا المدن، وقيل: إنه يطلق على غير العرب أيضاً إذا كانوا أهل بدواة. وقيل: إن قوماً من بني أسد أسلموا، ثم قالوا للرسول ﷺ آمنا بك ولم نقاتلك

كما قاتلك بنو فلان، فنزلت الآية. وقيل غير ذلك. ولا يهتَمُّ شأن النزول، فلآية شأن مستمرّ كسائر آيات الكتاب العزيز. والذي تركّز عليه هذه الآية هو الفرق بين الإسلام والإيمان. والمطلوب من الناس هو الإيمان بالله تعالى ورسوله، وأمّا الإسلام باللسان والتسليم لسلطة الرسول ﷺ والانخراط في صفوف المسلمين بالشهادتين فلا يجب إلا حكماً ظاهرياً بحقن الدماء وصحة المناكح والمواريث، وليس هو الهدف الأسمى من إرسال الرسل وإنزال الكتب والشرائع. وليس معنى ذلك أنّه يحقّ للإنسان أن يمتنّ على الله ورسوله بإيمانه، بل الله يمتنّ عليه بالهداية، كما سيأتي.

ثمّ، إنّ الإسلام ربما يطلق ويراد به معنى أخصّ من الإيمان بالقلب وهو التسليم لأمر الله تعالى، وهو لا يحصل إلا للمخلصين في إيمانهم والعارفين لله تعالى، ومثل هؤلاء لا يمتنّون على النبي ﷺ بإسلامهم، ولكنّ المراد به هنا - كما ذكرنا - هو إظهار الإيمان والنطق بالشهادتين الذي يجتمع مع النفاق وإبطان الكفر، وكان هناك ممّن أسلم ظاهراً من لا يقصد بذلك إلا الشؤون المادية، فبعضهم أسلم لما رأى من قوّة المسلمين وشوكتهم، وبعضهم أسلم لما سمعه من أحبار اليهود والنصارى وغيرهم من أنّ لهذا الدين شأن، ولعلّ بعض من أسلم في مكّة أيضاً لم يقصد بإسلامه إلا بلوغ المآرب الدنيوية، وبعضهم علم أنّه حقّ ولكنّه مع ذلك لم يؤمن بقلبه؛ وقد ذكرنا في مواضع من هذا التفسير أنّ العلم لا يستلزم الإيمان، وكان كثير من المشركين يعلمون أنّه حقّ ولم يؤمنوا به، كما قال موسى عليه السلام لفرعون حسبما ورد في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَتَرُلَ

هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَافِرَعُونُ مُثْبَوْرًا»، وهذه الآية تدلّ بوضوح أن هناك مَنْ أسلم في عهد الرسول ﷺ ورآه وعاصره من لم يؤمن به قلباً، فلا بدّ من تجديد النظر في تعريف الصحابة إن قلنا بكونهم جميعاً مؤمنين، فضلاً عن القول بعدالة الجميع الذي لا يستند إلى أيّ دليل.

فقوله تعالى: ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ تكذيب لهم حيث ادعوا الإيمان وهو لا يكون إلا في القلب ويظهر في العمل كما سيأتي، فتكذيبهم إخبار عن الغيب وعمّا يختلج في نفوسهم. ولم يقل: «قل لا تقولوا آمناً»، لأنّه يترأى منه النهي عن أمر مطلوب وهو الإيمان، فاكتمى بإخبارهم عمّا في قلوبهم، وهو أبلغ من التكذيب الصريح، ثمّ عرض بهم في آية أخرى بقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ ممّا يفيد الحصر، أيّ أمّا أنتم فكاذبون في دعواكم. ولم يقل لهم أيضاً: «ولكن أسلمتم»، وإنّما عبّر عن ذلك بالأمر بالقول: ﴿قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ لثلاث يتوهّم منه الاعتداد بإسلامهم على أساس أنّه مرحلة ممّا هو المطلوب؛ إذ ليس كذلك واقعاً وإنّما ينتفعون بإسلامهم في الحياة الدنيا وظاهر الأمر.

﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ لا يتوهّم أن هذا تكرار لنفي الإيمان الذي سبق، فإنّ المعنى يختلف، فالنفي الأوّل أفاد نفي تحقّقه سابقاً ممّا يدلّ على كذبهم، وهذه الجملة تنفيه حتّى هذه اللحظة، ولكن مع إفادة التوقّع في المستقبل، فمعناها أنّه لم يتحقّق حتّى الآن ولكن ينبغي أن يتحقّق، والهدف التربوي منه واضح.

﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. قال بعض

المفسرين: إن المراد بهذا الشرط الإيمان بالقلب والعمل جرياً عليه وترك النفاق، ولكن الظاهر أن مورد هذه الجملة هو نفس الحالة المذكورة سابقاً، أي إظهار الإسلام مع عدم الإيمان الواقعي، فالغرض بيان أن الله تعالى لا ينقص من عملهم شيئاً وإن لم يؤمنوا بقلوبهم، وعليه فالمراد بإطاعة الله العمل بفرائضه انصياعاً لأمره تعالى، وبإطاعة الرسول ﷺ العمل بسننه الواجبة وبأوامره الحكومية من باب إطاعة ولي الأمر وإن لم يكن مؤمناً بقلبه إيماناً كاملاً، كما سيأتي بيانه في الآية التالية، والناس بطبيعة الحال يختلفون في درجات الإيمان، ويؤثر ذلك في قبول العمل ودرجته، ولكن الله تعالى لا يظلم أحداً ويحسب لكل إنسان عمله حسب طاقته.

و﴿يَلْتَكُمُ﴾ مأخوذ من لات يليت ليتاً، أي نقصه، أو من ألت يألت بنفس المعنى أيضاً، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾، فهو إما فعل ماضٍ من ألت مجرداً، أو من لات من باب الإفعال. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ تعليل لما وعده من عدم النقص من أعمالهم بسبب عدم إيمانهم واقعاً. ولولا غفرانه تعالى ورحمته بالناس لما تقبل من أعمالهم إلا القليل، فإنه قلما يكون العمل خالصاً من الشوائب.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ تعليل لما مرّ من عدم إيمانهم واقعاً بحصر الإيمان في من يجتمع فيه عدة شروط، وهي لم تكن محققة فيهم، فلا يشملهم عنوان المؤمن، كما لا يشمل كثيراً ممن أسلموا وإن أظهروا الإيمان وخدعوا البسطاء من الناس للوصول إلى مآربهم الخاصة. و﴿إِنَّمَا﴾ هنا تفيد الحصر حتى لو

قلنا: إنها لا تفيد بحسب الوضع اللغوي، وذلك للقرينة على أن السياق يريد منع كونهم مؤمنين.

وقد ذكر من الشروط أولاً الإيمان بالله ورسوله، ثم عدم الارتياح، ثم الجهاد بالنفس والمال. والتقييد بالإيمان بالرسول ﷺ يخرج كثيراً من الناس، حيث كانت تبدر منهم في مناسبات خاصة ما يدل على عدم إيمانهم به إيماناً كاملاً، فهناك من المسلمين من شكك في عدله ﷺ^١، وهناك من رفض الانصياع لبعض الأحكام كالذي امتنع من قبول متعة الحج، بل هناك من النساء من قالت له: «ما أرى ربك إلا يسارع في هواك»^٢ وفي هذا الكلام تعريض به ﷺ وبما نزل عليه من خصائصه، بل في التعبير عن الله تعالى بأنه ربّه ما لا يخفى، وهناك من اتهمه بالهجر والهديان ممّا يسقط اعتبار كلامه ﷺ وحجّيته، وذلك في آخر عهدهم به وغيرهم وغيرهم. والقرآن يؤكد على أن الإيمان بالله تعالى غير كافٍ ما لم يؤمن العبد بالرسالة وينصاع لأوامر الرسول ﷺ، قال تعالى: «فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً»^٣.

﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَأَوْا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، «ثم» للتراخي، والوجه في

١. عَنْ جَابِرٍ قَالَ: أَتَى رَجُلٌ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِالْجُفْرَانَةِ مُنْصَرَفَهُ مِنْ حُثَيْنٍ، وَفِي نَوْبٍ يَلَالٍ فِضَّةً وَرَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقْبِضُ مِنْهَا وَيُعْطِي النَّاسَ، قَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَغْدِلْ قَالَ: «وَيْلَكَ، وَمَنْ يَغْدِلُ إِذَا لَمْ أَغْدِلْ، لَقَدْ خَبْتُ وَخَسِرْتُ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَغْدِلُ»، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ دَغْنِي أَقْتُلْ هَذَا الْمُنَافِقَ، قَالَ: «مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يَتَحَدَّثَ النَّاسُ أَنِّي أَقْتُلُ أَصْحَابِي، إِنَّ هَذَا وَأَصْحَابَهُ يَفْرَوْنَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَعْرِفُونَ مِنْهُ كَمَا يَمُرُّقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ». (سنن النسائي ٧: ٢٨٦)

٢. الدر المنثور ٥: ٢١١؛ روح المعاني ١١: ٢٣٧.

٣. النساء (٤): ٦٥.

الإتيان بها أنه لا يكفي عدم التردد حين الإيمان، بل يجب أن يستمر ذلك طيلة الحياة. والارتياح بمعنى الشك، فالمؤمن واقعاً لا يشك في إيمانه ولا تنزل قدمه في هذا الصراط، لأنه لم يبن إيمانه على شعار أو تأثر سريع بالمشاهد المثيرة للاندفاع أو طلب لما يهواه أو خوف مما يضره، بل بناه على تأمل في الكون وتعمق في آيات الله تعالى. ولا بد لهذا الإيمان من الثبات في كل موقف، فالله تعالى يتلي عباده بالخير والشر. والمؤمن الحقيقي لا يرتاب في إيمانه في كل تلك المواقف. أما الذي أسلم ظاهراً ولم يؤمن واقعاً فإن زلات لسانه تفضحه، وهي تدلّ بوضوح على ترزعزع إيمانه أو عدم إيمانه أساساً.

ولا يكفي الإيمان بالقلب إن لم يصدقه في مرحلة العمل، ولم يذكر من العمل هنا الصلاة والعبادة والذكر والتسبيح، فإن المتظاهر أيضاً لا يمتنع منها وضعفاء الإيمان أيضاً لا يمتنعون من العبادة والصلاة، بل والزكاة أيضاً، ولكن الابتلاء الأقوى الذي يظهر به مدى إيمان العبد هو الجهاد بالأموال والأنفس، والجهاد بالأموال لا يكتفى فيه بدفع الزكاة الواجبة وإن شق ذلك أيضاً على كثير من المسلمين، فالجهاد هو بذل غاية الطاقة وتحمل المشاق والمصاعب، كما نجده في الجهاد بالنفس في مقابلة العدو، والجهاد بهذا المعنى إذا تعلّق بالمال فلا يراد إلا التخلي عن كل ما يملك أو أكثره لو اقتضته الضرورة، كما يحدث في بعض الحروب.

ولا يكفي ذلك أيضاً، بل لا بد من الجهاد بالنفس وبذل الروح وركوب الأهوال في سبيل إقامة الدين إذا أمر به الرسول أو الإمام أو اقتضته ضرورة الدفاع عن الإسلام، وهنا تظهر المروءات، ويظهر الصدق والكذب، ويتبين

المؤمن الحقيقي عن الذين كانوا ينادون بأعلى أصواتهم بالإيمان ولم تظهر منهم طيلة أيام الجهاد الصعبة التي استشهد فيها جمع كثير من الصحابة الأخيار ضربة واحدة بالسيف أو طعنة واحدة بالرمح أو رمية واحدة بالنبل أو حتى بحجر، اللهم إلا التبجح بضرب أعناق الأسرى، حيث يعلمون أن الرسول ﷺ لا يسمح بذلك، ولو احتملوا إذنه لم يظهروا ذلك أيضاً خوفاً من معاداة أقوام الأسرى من المشركين، فهم ما كانوا يضحّون في سبيل الدين حتى بمودة المشركين. وبهذا المقياس للإيمان يُعَرَّبَل المدّعون ولا يبقى من المسلمين إلا القليل في جميع العصور.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ الجملة واضحة في حصر الصادقين في من مرّ ذكره، وهو تعريض بأنّ غيرهم يكذب في دعوى الإيمان ولا يحقّ له ذلك، وإنّما هو مسلم بالمعنى العامّ وبمعنى أنّه أسلم نفسه للمجتمع المسلم ولولي الأمر ليحفظ بذلك دمه وماله وعرضه، ويدخل فيما دخل فيه المسلمون من المصالح العامّة والحماية والأمن، ويشمله توزيع الغنائم والزكوات ونحو ذلك.

وربما يقال: إنّ الحصر هنا إضافي، فمعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ وكذلك قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ نفي الإيمان عن أولئك الأعراب، ولا يقصد به نفي الإيمان عن كلّ من لم تكن فيه هذه الصفات؛ لأنّ المجاهدة في سبيل الله تعالى قد لا تنهياً للمؤمن أو قد يكون معذوراً، فلا يمكن نفي الإيمان بمجرد ذلك.

وهذا كلام باطل وهو مخالف لصريح الآية الكريمة أو ما هو كالصريح، والحصر حقيقي، ولكنّ المراد بالمجاهدة أن يكون المؤمن مستعداً للتضحية في سبيله تعالى إذا اقتضى الأمر، ومن لم يكن مستعداً لذلك فهو ليس بمؤمن إلا

باللفظ ولم يؤمن بقلبه. هذا مضافاً إلى أنَّ المجاهدة في سبيل الله تعالى لها صور كثيرة ربما تتحقّق بعضها لكثير من الناس حتّى في أيّام السلم، فالذي يتحمّل المشاقّ لتبليغ دين الله تعالى في أيّام السلم ولا يهتمّ بالأخطار المحيطة به مجاهد في سبيله تعالى، وربما لا يكون الخطر يهدّد حياته، ولكنّه يهدّد شؤونه الاجتماعية ويحطّ من كرامته عند الناس، فلا يعتني بها في سبيل امتثال أوامر الله تعالى.

﴿قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يُعَلِّمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾؛ الاستفهام للإنكار، والمراد بالتعليم الإعلام، ولذلك تعدّى بالباء. قيل: إنّ جمعاً منهم بعد نزول الآيات السابقة أتوا النبي ﷺ وحلفوا أنّهم صادقون في إيمانهم وكأنّهم أرادوا بذلك الردّ على ما ورد من الوحي فيهم، فأتاهاهم الجواب صاعقاً وساخراً منهم ومن دعواهم. فمن المضحك أن يحاول الإنسان أن يُعلم الله بأمر وهو عالم الغيب ولا يعزب عنه مثقال ذرّة في السماوات ولا في الأرض. والإنسان لا يعلم ما في نفسه وكثيراً ما ينخدع بجهله هذا، وكثيراً ما يتصوّر الإنسان أنّه مخلص في عمله ويتبيّن له يوم القيامة ما فيه من شوائب، ويمكنه معرفة ذلك هنا إذا راجع ضميره.

وقيل: إنّ هذه الرواية لا أساس لها، وإنّ المراد بإعلامهم دينهم هو نفس دعواهم الإيمان؛ ولكنّ الذي يبدو من الآية أنّها ردّ على أمر آخر غير دعواهم السابقة، فإنّهم في تلك الدعوى لم يحاولوا إعلام ربّهم بدينهم، وإنّما ادعوا ذلك فحسب، فسواء صحّ الخبر أم لم يصحّ لا بدّ من تقدير أمر آخر غير الدعوى الأولى ليكون هذا ردّاً عليه، وما ورد من الخبر يناسب مضمون الآية. وتؤيّد

إعادة الأمر بقوله ﴿قُلْ﴾ ممّا يدلّ على أنّه محادثة أخرى غير ما سبق.

﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. العليم صفة مشبّهة تدلّ على الثبات والدوام، فالعالم يمكن أن يكون علمه حادثاً ويمكن أن يزول، والله تعالى علمه بكلّ شيء أزلي وأبدي لم يحدث ولن يزول، فلا معنى لمحاولة إعلامه بشيء.

﴿يُتَنَوَّنُ عَلَيْكَ أَنْ اسْلَمُوا قُلْ لَا تَخْشَوْا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ﴾. المنّ بمعنيين: القطع والإنعام. ويقال لمن يعدّ نعمه على المنعم عليه إيداءً له: إنّ منّ عليه؛ إمّا بمعنى أنّه قطع نعمته بذلك، أو بمعنى أنّه اعتبر ما أسداه إليه نعمة، مع أنّه لا ينبغي أن يعتبره نعمة منه، فالمنعم في الحقيقة هو الله تعالى. والمراد بالمنّ هنا هو هذا المعنى، أي أنّهم اعتبروا إسلامهم نعمة منهم عليك، والإتيان بفعل المضارع يدلّ على استمرارهم على ذلك أو أنّه ثابت في سريرتهم لا يزول، وهكذا كثير من الناس، فإنّهم يمتّون على الله تعالى وعلى رجال الدين بأنّهم مؤمنون مسلمون؛ وكأنّ ذلك نعمة يقدمونها إلى الله تعالى وإلى الدين ورجاله، والآية تعالج هذه المشكلة النفسية التي تمنع من نفوذ الإيمان في القلوب.

والظاهر أنّ المراد به نفس ما ذكر أولاً من قولهم: «آمنّا» ولكنّه بدّل التعبير عنه بالإسلام، فلم يعتبره إيماناً، لما مرّ من نفي الإيمان عنهم. ثمّ نهاهم عن المنّ عليه بالإسلام لأمرين:

أحدهما: أنّ الإسلام والإيمان ليس ممّا يمنّ به على أحد، بل هو نعمة أنعمها الله عليكم.

والثاني: أنّه ﷺ رسول من الله تعالى ووسيط، فلو كانت لهم نعمة ومنة لكان ذلك على الله تعالى وهو لا يُمنّ ولا يُنعم عليه، بل هو الذي يمنّ على من سواه

وكل شيء منه، فقلوه: ﴿لَا تَتَّبِعُوا عَلَىٰ إِسْلَامِكُمْ﴾ يشير إلى الأمرين.

﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَذَا كُمْ لِلْإِيمَانِ أَنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. في هذه الجملة أيضاً إشارتان، فمن جهة منع أن يكون إسلام الناس أو إيمانهم نعمة منهم على أحد، بل هو نعمة من الله تعالى على الناس؛ ومن جهة أخرى أبدل الإسلام بالإيمان، لأن الإسلام الظاهري ليس هو المقصود بالذات، فهو لا يفيد في الآخرة شيئاً والله تعالى يريد الآخرة، وإنما الذي يعتبر نعمة من الله تعالى وليس منكم هو هدايته لكم إلى الإيمان إن كنتم صادقين في قولكم الأول: ﴿أَمَنَّا﴾، وقد بين سابقاً أنهم كاذبون، فهذه الجملة مبنية على مجرد افتراض الصدق. ولا شك أن الإيمان من أجل نعم الله تعالى، بل هو أجلها على الإطلاق؛ لأن النجاة لا تكون إلا به، وهو الهدف الأساس من الخلق.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ الغيب هو ما يغيب عن الأبصار، فلا يمكن أن يشاهد، وهو تارة نسبي، وتارة غيب على الإطلاق، فالنسبي ما يكون غيباً لبعض دون بعض، فكل من غاب عن الحادث اعتبر ذلك غيباً له لا يمكن له العلم به إلا بواسطة، والغيب المطلق ما لم يوجد بعد، فلا تمكن مشاهدته للجميع. والغيب بالمعنى الأول لا معنى له بالنسبة إلى الله تعالى؛ فإنه محيط بالكون والكل حاضر لديه لا يغيب عنه شيء، وهو عالم بالغيب المطلق، أي ما لم يوجد بعد، بل بعبارة أدق لا يغيب عنه المستقبل أيضاً. وعلى هذا المعنى فالمراد بالغيب ما يكون غيباً لغيره.

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾. الظاهر أنه تكميل للاستدلال، فالله عالم بالغيب، فكيف بما هو مبصر وحاضر وهو أعمالكم، ومنها الإسلام والإيمان. وقد قلنا

مراراً، إنّ كونه تعالى بصيراً ليس بمعنى كونه عالماً بالمبصرات، بل بمعنى كونها حاضرة عنده، فهو يبصرها ولا يغيب عنه شيء في السماوات والأرض. والحاصل أنّ الآية استدلال بوجه آخر لسفاهتهم، حيث يحاولون إعلامه تعالى بدينهم.

والحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين وآله الطيّبين الطاهرين.

تفسير سورة ق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا
شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَيْدَا مِثْنَا وَكُنَّا تَرَابًا ذَلِكِ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ
الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِیْظٌ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ
مُرِیْجٍ ﴿٥﴾

سورة ق مكیة بشهادة آیاتها، حیث تتناول التندید بكفر المشركین وإنكارهم
للقیامة، مع الإشارة إلى أدلتها والتحذیر من عواقب الكفر وما لحق بالأمم
السالفة، ثم ذكر بعض حقائق تلك المرحلة من الكون ممّا هو غریب عن ذهن
الإنسان، والتأکید على قدرة الله تعالى في خلق الكون وإعادة الحیاة للإنسان.
﴿ق﴾ من الحروف المقطّعة، وقد مضى بعض الكلام حولها في تفسیر
سورة یس.

﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ قسم بالكتاب العزیز. والله تعالى یقسم في مواضع كثيرة
بكتابه وبكثیر ممّا خلق. والقسم إنشاء علاقة اعتبارية بین ما یراد بیانه أو الالتزام
به، و بین عزة ما یقسم به وكرامته، كما هو واضح من الأقسام العرفية، حیث

يقسم الإنسان بحياة ابنه أو أبيه ونحو ذلك، وقسم الله تعالى أيضاً لا يشذ عن هذا الأمر، وكرامة ما يقسم به الله تعالى من جهة استناده إليه وتعلقه به، وهو يختار من بين ما يقسم به ما يناسب الأمر المقسم عليه، وهنا يقسم بالقرآن للتأكيد على الرسالة والرد على اعتراض المشركين وإن لم يصرح.

والمجد، بلوغ الغاية في الكرم والشرف والعظمة، فالمجيد المطلق هو الله تعالى، وقيل: إن توصيف القرآن به لأنه كلام المجيد وهو بعيد، بل هو بنفسه أيضاً مجيد؛ لكونه بلغ النهاية في العظمة من بين أنحاء الكلام وفي الكرم، كما وصفه تعالى به حيث قال: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾^١، والكرم بمعنى كون الشيء قيماً، ولذلك توصف به الأحجار الكريمة، والقرآن فوق كل كرم، ولا يمكن لأحد أن يحدّد له قيمة. وبلغ النهاية في الشرف، لأنه كلام الله تعالى.

ومهما كان فهو قسم حذف جوابه، ونظيره ما وقع في أول سورة ص، ويمكن أن يقدّر جوابه بأحد الوجوه التالية أو غيرها:

١- أن تكون الجملة المقدّرة: «لا أقول إلا الحق» أو ما يفيد معناها، وهذه هي الجملة التي يطلب من الشاهد أن يقولها أمام القاضي، فلا يبعد أن تكون الأقسام التي وردت في القرآن الكريم من دون ذكر المقسم عليه كلّها من هذا القليل، فحذفت الجملة اعتماداً على وضوحها.

٢- أن تكون الجملة: «إِنَّكَ لَمِنَ الْمُنذِرِينَ» أو ما يفيد معناها، مثل ما ورد في أول سورة يس: ﴿وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾^٢، وذلك بقرينة أن الكافرين

١. الواقعة (٥٦): ٧٧.

٢. يس (٣٦): ٢ - ٣.

أظهروا عجبهم من كون المنذر منهم، بناءً على أن الجملة التالية تدلّ على العجب من جهتين ولكنه بعيد.

٣- أن تكون الجملة ما يدلّ على حشر الناس يوم القيامة بقرينة استغرابهم ذلك، كما هو مفاد الجملة التالية.

﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ إضراب عن الجملة المقدّرة جواباً للقسم، فإن قدرنا الجملة الأولى فمعنى الإضراب أنّهم لا يشكّون في أن ما يقوله الرسول ﷺ هو الحق، ولكنهم استغربوا الإنذار، ولكنه ليس عجباً كما سيأتي. وإن قدرنا الجملة الثانية، فمعناه أنّهم لم يكذبوه في رسالته وإنما عجبوا من هذا الإنذار.

وإن قدرنا الجملة الثالثة، فمعناه أنّهم لا يمكنهم إنكار القيامة بدليل إذ لا سبيل إلى هذا الإنكار، وإنما هم يستغربون تحقّقها لخطأ منهم، كما سيأتي بيانه في الآيات التالية.

والضميران في ﴿عَجِبُوا﴾ و﴿مِنْهُمْ﴾ يعودان إلى كفّار مكّة وإن لم يذكروا سابقاً إلا أن السياق يدلّ عليهم وهم مذكورون في الجملة التالية.

والإنذار: الإعلام بما يُحذر منه، والمراد إنذارهم بالحشر يوم القيامة وهو منشأ التعجّب كما صرّح به في الجملة التالية.

وقوله: ﴿مِنْهُمْ﴾ يمكن أن يكون بمعنى من جنسهم، فيكون منشأ آخر للتعجّب، لأنهم كانوا يستغربون كون الرسول بشراً مثلهم، ويظنّون أنّه يجب أن يكون من جنس الملك، كما يرويه القرآن الكريم من الأقوام السابقة، ولكن الأقرب أن يكون المراد من قوله: ﴿مِنْهُمْ﴾، أي من قومهم، فلا يكون مورداً

للتعجب، بل يكون التنبيه عليه لمزيد من التنديد بهم، حيث كان المفروض أن يهتموا بإنذاره، لأنه لا يريد بهم إلا الخير، خصوصاً بملاحظة أنهم عرفوا منه الصدق والأمانة.

﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾، الفاء للعطف، أي قالوا ذلك نتيجة لاستغرابهم. وأتى بالاسم الظاهر أي ﴿الْكَافِرُونَ﴾ بدلاً عن الضمير ليدلّ على مرجع الضمير، وللتنبيه على أن السبب في إنكارهم وإبدائهم للاستغراب هو الكفر، أي ستر الحق، فهم يدركون أنه الحق من ربهم ولكنهم يكفرون به تعتأً، حيث إنهم عرفوه أميناً صادقاً، ولم يسمعوا منه كلاماً يدلّ على نبوغ في العلم أو الأدب طيلة أربعين سنة، فلا يبقى مجال للشك في أن ما يأتي به إنما هو من الله تعالى. وقولهم: ﴿هَذَا﴾ إشارة إلى الإنذار المذكور في قوله: ﴿مُنْذِرٌ﴾.

﴿إِذْأَمْتَنَا وَكُنَّا تَرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾. هذا بيان لوجه استغرابهم أو ما يظهرونه وجهاً لذلك تمويهاً على السذج من الناس.

والرجع: الرجوع. والمراد بالبعد الاستبعاد العقلي، والمعنى واضح ومتكرّر منهم وممن قبلهم وبعدهم، والرجوع في الواقع غريب على الإنسان الذي لا يؤمن بالله، وأما الذي يعتقد بأن الله تعالى هو خالق الكون لا ينبغي أن يستبعد ذلك، والوثنيون كانوا يعترفون بذلك، فالذي خلق الكون من البدو ولم يكن شيئاً، وإنما أبدعه بإرادته لا يستبعد منه أن يعيد خلقه بعد الفناء. وقد حذفت جملة الجواب، أي: «أئذا متنا وكُنَّا تراباً نرجع»، ولعلّ الوجه في حذفه التنويه على أنه لغرابته لا يمكن التصريح به.

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ﴾ جواب عن الاستغراب

المذكور، وهو أن الله تعالى لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، فهو يعلم بما تأخذ الأرض من أجزائهم ويحولها تراباً ويعلم أين هي. والكتاب أي المجموعة، وكتب بمعنى جمع، فلا يجب أن يكون مكتوباً بالمعنى المتعارف. والحفيظ مبالغة في الحفظ، فالمراد أن كل الأجزاء المنتشرة، بل وصورة الإنسان الشخصية معلومة ومحفوظة لديه تعالى، ويمكنه الإتيان بها وإعادة صنعها وبث الحياة فيها متى شاء. ولعلّه أتى بفعل الماضي: ﴿قَدْ عَلِمْنَا﴾ ولم يقل: نعلم، مع أنهم لم يتحولوا تراباً آنذاك للتنبيه على أن علمه تعالى أزلي.

وفي الآيات هنا أربعة وجوه من الاستدلال على إمكان المعاد، هذا أولها وهو استدلال بالعلم الإلهي ردّاً على استبعاد المعاد من جهة تشتت الأجزاء وتفرّقها. والوجه الثاني: ما يستفاد من قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ﴾ وما بعده من أن خالق الكون قادر على خلق مثله.

والوجه الثالث: يفيد قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾، فإن إحياء الموتى لا يختلف عن إحياء الأرض بعد موتها وهو متكرّر طيلة القرون.

والوجه الرابع: يفهم من قوله تعالى: ﴿أَفَعَيَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾، حيث يفيد أن بدء الخلق وإبداعه لم يعجز الله تعالى، فكيف يعجزه إعادته؟!

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾، أي ليس استغرابهم وإنكارهم مستنداً إلى شك واقعي أو بحث علمي، بل هم أدركوا أن الذي جاءهم هو الحق من ربهم ولكنهم كذبوا بالحق لغرض في نفوسهم وحقد وحسد، وإذا قاوم الإنسان الحق الصريح الواضح اختلطت عليه الأمور، فهو يتخبط في موقفه لا يستقرّ على فكرة واحدة وطريق واحد، وهذا هو المراد بالمريج؛ فإن المرج هو

الخلط. وكان الخلط والتناقض واضحاً في مواقفهم تجاه الرسول ﷺ، فتارة يقولون إنه ساحر أو كاهن، وتارة يرمونه بالجنون، وتارة يتهمونه بالكذب والافتراء مع اعترافهم بأنه الصادق الأمين طيلة حياته بينهم، وتارة يقولون إن القرآن شعر، وتارة يقولون إنه كلام عادي ولو شئنا لقلنا مثل هذا، وتارة يعترفون بأنه لا يشبه كلام الشعراء وإنما هو سحر مفترى يسحر الناس بتأثيره، وغير ذلك من أنحاء التخبّط.

أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿١﴾ وَالْأَرْضَ
 مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٢﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ
 عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٣﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٤﴾
 وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿٥﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ
 الْخُرُوجُ ﴿٦﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرِّسِّ وَثَمُودُ ﴿٧﴾ وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ
 وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ﴿٩﴾ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٠﴾
 أَفَعَيَيْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ﴿١١﴾ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٢﴾

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾. مجموعة من
 الآيات تدعو الناس إلى تدبر الأمور الكونية للوصول إلى جواب آخر عن
 السؤال المذكور، وهو الاستدلال بقدرته تعالى - وهو خالق الكون العظيم - على
 الإحياء بعد الموت، فتدعوهم أولاً إلى النظر إلى السماء فوقهم، والمراد به النظر
 بالعين فلا حاجة إلى دقة علمية وبحث فلسفي. والفاء في قوله ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا﴾
 للتفريع، يعني إذا استغربوا المعاد فلماذا لا ينظرون إلى الكون ليتبين لهم أن
 الخالق الذي أبدع هذا الكون العظيم الجميل البديع قادر على إنهائه وإبداع خلق
 جديد وعلى إعادة الحياة للإنسان بعد موته؟! ومثله قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ * إنها أمره إذا أراد شيئاً
 أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ^١.

وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾ لا يراد به دفعهم إلى معرفة كيفية الخلق والصنع،

فهو أمر لا شأن للقرآن به مع أنه ممّا لا يمكن للبشر معرفته خصوصاً في ذلك العهد، ولم يكن الإنسان يتطلّع إلى ذلك، وإنّما المراد - والله العالم - التأمل قليلاً في خلق الكون وفي دقّته وحسن نظامه الظاهر لكلّ متأمل في شروق الشمس وغروبها وحركة القمر والنجوم، حيث لم يختلف هذا النظام قيد أنملة طيلة القرون المتمادية. والتعبير بالبناء ربما يدلّ على نوع من التدرّج، حيث إنّه لا يتمّ إلا بضمّ جزء إلى جزء.

ولا شكّ أنّ الإنسان كثيراً ما ينظر إلى السماء وتبهره بزینتها وعظمتها، ولكنّ المهمّ هو النظر إليها بما أنّها مخلوقة لله تعالى، لتدلّ على عظمة الخالق وسعة قدرته، وإلا فالنظر فيها مهما كان طويلاً ودقيقاً لا يفيد الهدف المنظور إن لم يتجاوزها.

ومن الملفت التنبيه إلى زينة السماء ممّا يدلّ على أنّ جمال الطبيعة في كلّ جوانبها أمر مقصود وهو ممّا يدلّ على أنّها لم توجد بمجرد صدفة، كما يظنّ الأغبياء، بل هناك يد صانعة زيّنت الطبيعة لهدف عظيم، وهو الدلالة على الخالق، فكما أنّ الاستحكام والدقّة يدلان على الصانع الحكيم، كذلك الزينة والجمال.

والفروج، جمع فرج وهو الشقّ بين شيئين، ولكن ما هو المراد بالسماء؟ ربما يقال: إنّها هي المجموعة الفلكية التي نراها فوقنا فهي مبنية باستحكام، وهي زينة لمن في الأرض، ولكن ما المراد بأنّها ليس لها فروج وشقوق وتصدّعات؟ قيل: إنّ المراد به أنّها متماسكة وتسير بانتظام لا يتخلّل نظامها شيء. ولكنّه بعيد من اللفظ مع أنّ الآية تقول: ﴿زَيَّنَّاها﴾ ولم تقل: «جعلناها زينة لمن في الأرض»

وهناك فرق بينهما، فتزيين السماء بمعنى خلقها جميلة جذابة بذاتها، وهذا هو المذكور في الآية، وأمّا إذا قلنا بأنّها زينة لمن في الأرض، فيصدق إذا كان كذلك في أعيننا، وإن لم تكن في الواقع جميلة، وهذا التأويل لا يستلزم كونها جميلة، كما هو ظاهر الآية.

والظاهر أنّ المراد بها هي السماء الزرقاء التي نراها وهي الغلاف الجوي وكلّ ما نراه فوقنا فهو سماء. والسماء جهة العلوّ. والقرآن ليس كتاب علوم طبيعية ولا يهتمّ ببيان حقائق الكون، فهو شأن بشري، حيث يحاول حل ألغاز الكون، وليس من شأن الدين أن يفتح له الأبواب في هذا المسار، وإنّما شأنه أن يهدي الإنسان إلى خالق الكون وهو يخاطب بهذه الآيات كلّ البشر، سواء تقدّموا في العلم أم تأخّروا، بل المخاطبون مباشرة هم من لا سبيل لهم لمعرفة حقائق الكون، والقرآن يخاطبهم بما يفهمونه، ويطلب منهم النظر إلى هذه السماء التي فوقهم وهي مبنية باستحكام لا تتغيّر معالمها على مرّ الدهور والقرون، وهي مزينة بما وراءها من أجرام فلكية، وبسبب الغازات المكوّنة للغلاف، وليس لها فروج وتصدعات، ولا شأن للقرآن في بيان حقيقة هذا الجرم وأنّه غلاف جوي يحفظ الأرض أم أنّه شيء آخر، كما أنّه لا شأن له ببيان أنّ السماء بهذا المعنى لو كان لها فروج وشقوق لتسرّبت منها الأشعة الضارّة بالحياة، كما يذكره بعض المفسّرين، فهذا أمر لا يعرفه المخاطبون، بل المهمّ هو أن يعترف الإنسان بعظمة خالق الكون من خلال نظره إلى الطبيعة بما فيها من بناء وزينة حسب إدراكه وفهمه وتطوّره في العلم والمعرفة.

﴿وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾. ونظرة أخرى إلى الأرض وأنّ الله تعالى

مدّها وبسطها ليتمكّن الإنسان من استخدامها في مآربه. وهنا أيضاً لا ينظر القرآن إلى الجانب العلمي وأن الأرض كروية أم مسطّحة، كما كان يظنّ الأقدمون، وإنّما ينظر إلى ما نشعر به من تسطّح الأرض نسبياً، حيث تتيح لنا التمكّن من استخدامها لحاجتنا.

والجملة معطوفة على الجملة السابقة، و﴿الْأَرْضُ﴾ مفعول لفعل مقدّر يفسّره قوله: ﴿مَدَدْنَاهَا﴾، أي ومددنا الأرض، ويمكن أن يكون منصوباً بنزع الخافض ومعطوفاً على السماء، أي أولم ينظروا إلى الأرض...، وهذا أولى ليشملها الأمر بالنظر.

والرواسي، هي الجبال من رسا الشيء إذا ثبت. والإلقاء، إفعال من اللقاء بمعنى إيجاد الملاقاة بين شيئين، وليس دائماً بمعنى النبذ والطرح كما يتوهم، فالذي يدلّ عليه اللفظ هنا هو أنّ الجبال لم تكن موجودة ابتداءً على سطح الأرض فأوجدها الله تعالى على سطحها لغرض، فتحقّقت الملاقاة بينهما وهو معنى الإلقاء. وقد تکرّر في القرآن الكريم التنبيه على أنّ الجبال تؤثر في ثبات الأرض وعدم ميدانها وانحرافها، ولعلّ المراد انحرافها عن مسارها حول الشمس أو حول نفسها. ولم تثبت علمياً علاقة بين وجود الجبال على سطح الأرض وعدم انحرافها عن مدارها، ولكنّها محتملة، وليس هناك ما يمنع هذا الاحتمال ولعلّه يظهر فيما بعد. ويمكن أن يكون ذلك إشارة إلى منعها من حدوث بعض الاضطرابات والزلازل وحركة سطح الأرض، فإننا نجد أنّ هذه القشرة التي نسكنها ونعتمد عليها تتغيّر وتتحرك، ولعلّ الثبات النسبي الموجود الذي نحتاج إليه في حياتنا على هذا الكوكب يستند إلى وجود الجبال الرواسي، وقال بعض

المفسرين: إن هناك من النظريات العلمية ما يؤيد ذلك.

﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾، الزوج المثلان المتقارنان، يقال لهما: زوج وزوجان، سواء في البشر أو الحيوان أو غيرهما، ويطلق أيضاً ويراد به الصنف، كما قيل، ولم أجد في القرآن ما لا يمكن حمله على المعنى الأول الذي هو الظاهر منه، ولعلمهم اضطرّوا إلى فرض المعنى الثاني لعدم تعقّلهم الزوجية في النبات إلا في بعض أنواعه كالنخل، وقد تكرّر في القرآن الكريم الإشارة إلى ذلك، والعلم يثبت أن كل نبات فيه زوجان، بل ربما يظهر من قوله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^١ أن الزوجية في كل شيء، وهذا أيضاً اربك المفسرين، بل زاد من التعقيد، إذ لا يمكن حمله على الصنف؛ لأن الأشياء أصناف وليست صنفين، وسيأتي الكلام حوله في تفسير سورة الذاريات إن شاء الله تعالى.

ومرة أخرى يذكرنا الله تعالى بالزينة المبهرة للعيون على الأرض بقوله: ﴿زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾. والبهجة في اللغة قد تطلق على الحسن والنضارة، وقد تطلق على السرور، قال ابن دريد في «الجمهرة»: «للبهجة موضعان؛ فمنهما أن تقول هذا شيء ليس عليه بهجة، أي ليس عليه طلاوة، ومنهما قولهم: أبهجني هذا الأمر وبهجني إذا سرّك»^٢ ويظهر من بعضهم أنه الحسن الموجب للسرور، ومهما كان فلا شك في استعمال البهجة في نفس السرور حتّى لو لم يكن من التأثير بالحسن، وتستعمل أيضاً في الحسن الناضر من النبات، كما قال تعالى: ﴿حَدَائِقُ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾^٣، فلعلّ

١. الذاريات (٥١): ٤٩.

٢. جمهرة اللغة ١: ٢٧٢.

٣. النمل (٢٧): ٦٠.

المراد بالبهيج هنا النبات النضر الحسن الذي يوجب السرور والابتهاج.

﴿تَبْصِرَةٌ وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّثِيبٍ﴾ مفعول لأجله، أي بنينا وزينّا وأنبتنا ليكون كلّ ذلك تبصرة وذكرى. والتبصرة من باب التفعيل، أي إيجاداً للبصيرة في القلوب والنفوس. والإنسان يرى كلّ ما في الطبيعة ويتنعم بها، ولكن قلّ من تجده يتبصر بها ما وراءها، وقلّ من يبصر من خلالها آيات الله سبحانه وإن كان يتوغّل في النظر إليها ويدقّق في أعماقها، وهذا ما أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام بقوله في وصف الدنيا: «مَنْ أَبْصَرَ بِهَا بَصَرَهُ وَمَنْ أَبْصَرَ إِلَيْهَا أَعْمَتَهُ»، أي من تأمل في جوانب الحياة الدنيا وما فيها من حقائق يعرف الخالق الحكيم، فإنّ دقائق الكون تبصره، أي تجعله بصيراً عارفاً برّبه، وأمّا من نظر إليها وتعمّق فيها من دون أن يتجاوزها ويحاول معرفة خالقها فإنّ الدنيا تعميّه، فلا يرى ربّه ولا يجد من خلال حقائق الكون اليد الخالقة القادرة.

والذكرى اسم مصدر للتذكير — كما في «العين»^٢ — والتذكير يقتضي أن يكون الإنسان عالماً بالأمر، وإنّما طرأت عليه الغفلة، فهو إمّا باعتبار أنّ الإنسان المؤمن برّبه يغفل عنه إذا اشتغل بالدنيا وهمومها ومشاكلها أو زينتها وزخارفها، وإمّا باعتبار أنّ الإنسان يعرف ربّه بفطرته، وإنّما ينساه ويغفل عنه نتيجة الخوض في الدنيا فيحتاج إلى تذكير فقط، والقرآن يؤكّد على هذه الحقيقة وأنّ القرآن وكلّ كتب السماء ذكرٌ للإنسان وأنّ هذه الحياة سبقتها معرفة له بحقائق الكون، بل اعتراف بها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ

١. نهج البلاغة (للصحي صالحي): ١٠٦ / الخطبة ٨٢

٢. كتاب العين ٥: ٣٤٦.

وَأَشْهَدُهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمُ الَّتِي بَرَّيْتُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ؛^١ ومهما كان فكلّ ما في الكون من آيات الله تعالى تذكر الإنسان بتلك الحقيقة التي يغفل عنها نظراً إلى اشتغاله بالدنيا وبعده عن ربّه.

والإنابة: الرجوع ومثلها التوبة. والمراد أنّ هذه الآيات تبصّر وتذكّر كلّ عبد من عباده تعالى يريد أن يرجع إليه بعد اشتغاله بالدنيا وبعده عن ربّه. ومعنى ذلك أنّ التبصّر والتذكّر لا يتمّان إلا إذا كان في العبد رغبة في الإنابة والرجوع.

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾؛ ومن النعم الجسيمة التي لا تستغني عنها الحياة على هذا الكوكب نزول المطر، والله تعالى يعبر عنه بأنّه ماء مبارك، والبركة هي الخير الكثير المستقرّ، ومن خصائص المطر أنّه يستقرّ خيره في الأرض وليست نعمة عابرة، فيستقرّ نفس الماء في الجبال والأراضي المرتفعة ويخرج من العيون والقنوات والآبار، كما يستقرّ خيره بإنبات الأرض وإخصابها ومنع تصاعد الغبار وتصفية الجوّ وتغيير المناخ وغير ذلك ممّا يعلمه البشر أو لا يعلمه. والمراد بالسماء هنا جهة العلوّ، حيث يكون السحاب. وتعلّق الإنبات بالجنت فيه نوع من الإسناد المجازي، فإنّ الإنبات يتعلّق بالزرع والشجر. والجنت: الأرض ذات الشجر الكثير بحيث يسترها. ويمكن أن يكون التجوّر في اللفظ، فإراد بالجنت نفس الشجر وهو أنسب بعطف الحبّ عليه.

والحصيد فعيل بمعنى المفعول، أي المحصود وهو الزرع، فإضافة الحبّ إليه على حقيقتها؛ فإنّ الزرع يشتمل عليه. والمراد به الحنطة والشعير والأرز ونحوها،

ويمكن أن يكون الحصيد صفة للحب، فتكون من قبيل إضافة الموصوف إلى الوصف.

﴿وَالنَّخْلَ بِاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ عطف على حب الحصيد أو على الجنات إذا أريد بها الشجر، فيكون من عطف الخاص على العام. وباسقات حال من النخل. والبسوق: الطول. وصف النخل به لأن جمالها بطولها، وهنا أيضاً تطرق لزينة الخلق، وكذلك في وصف الطلع بالنضيد.

والطلع: ما يطلع من النخلة من النور، ثم يصير تمراً إن كانت أنثى، وإن كانت ذكراً لم يصير تمراً، بل يؤكل طرياً أو يترك على النخلة أياً ما معلومة حتى تتكوّن فيه مادة بيضاء مثل الدقيق، ولها رائحة زكية فيلقح به الأنثى.

والنور - بالفتح - الزهر الذي يكون مبدأً للثمرة.

والنضيد، أي المنضود حيث إنّ الطلع المذكور منظم بترتيب واتساقٍ بعضه على بعض. والنضد: ضم شيء إلى شيء أو عليه باتساق ونظم.

﴿رِزْقًا لِلْعِبَادِ﴾. الرزق هو العطاء المحدّد لوقت خاص، ثم أطلق على غير المحدود أيضاً، وهو هنا مفعول لأجله، أي نزلنا المطر وأنبتنا ما أنبتنا رزقاً للعباد، وقد قلنا غير مرة إنّ المراد بالرزق في الحياة الدنيا هو تدبير الطبيعة بحيث يتمكن كل حي من الوصول إلى ما يحتاجه لاستمرار حياته بصورة طبيعية، وهذه الآية صريحة في أنّ هذا هو المراد بالرزق، وليس إيصال الرزق لكل فرد من الحيوان والإنسان وإن لم يحاول الوصول إلى مطعمه ومشربه بالوسائل المتاحة له في الطبيعة كما يتوهم.

﴿وَإِخْبَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْنًا﴾. وهذا بيان لفائدة أخرى للمطر وهو حياة الأرض الميتة،

ويعبر بموتان الأرض عن عدم استعدادها للإنبات بسبب الجفاف، فالمطر يهيج الأرض ويبث فيها الحركة للإنبات وهو المراد بحياتها، وبذلك يتبين أنه ليس تكراراً لما مرّ من الإنبات.

والبلدة تطلق على كلّ موضع مستحيز من الأرض عامر أو غير عامر، خالٍ أو مسكون كما في «العين»^١ والميت مخفف الميت. وأتى بالوصف مذكراً بتأويل المكان أو البلد.

﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ خبر مقدّم ومبتدأ مؤخر. والمراد بالخروج خروج البشر من القبور يوم القيامة، ويشير بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إلى إحياء الأرض بعد موتها، أي إعادة البشر ليس إلا كإحياء الأرض.

وقد أجاب عن استغراب المشركين أمر المعاد بوجهين فيما مضى من الآيات: علم الله تعالى بكلّ أجزاء الموتى المقصود بقوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ وقدرته المطلقة حيث قال: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ﴾، وهنا يشير إلى الدليل الثالث على إمكان المعاد ردّاً عليهم، وذلك لأنّ الإحياء أمر متكرّر، فالأرض الموات تحيا بالمطر وتموت بالجذب ثانية وتحيا بعدها، فلا وجه لاستبعاد إعادة الحياة للإنسان، بل هناك من الأراضي الموات ما تبقى مواتاً سنين متتالية لا عشب فيها لتوالي الجذب، ثمّ تحيا بالمطر بأحسن وجه.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ﴾ تهديد لمكذبي المعاد والرسالة، وتسلية لخاطر الرسول ﷺ وللأمة المسلمة بأن هؤلاء ليسوا وحدهم من يكذبون، ولكنّ الله تعالى لهم جميعاً بالمرصاد. والقرآن يؤكّد

في أكثر من موضع على أن الأمم تتبّع بعضها بعضاً ويكرّر كل قوم متأخراً أقوال من تقدّمهم، والعجيب أن البشر في العصر الحاضر وبعد ما حقّقه من التقدّم العلمي وكشف حقائق الكون يكرّر أيضاً سفاهات المتقدّمين. وقوم نوح عليه السلام من أقدم الأقسام البشرية أو هم الأقدم مطلقاً أو أنّهم أقدم من بعث إليهم رسول.

والرس، قيل: اسم لواد معروف، وقد ورد ذكره في شعر زهير بن أبي سلمى:

فهنّ ووادي الرسّ كاليد في الفم.^١

وقال الخليل: «بئر لبقية من قوم ثمود».^٢ وقيل: بمعنى البئر التي لم تطوّ، أي لم تُبنّ بالحجارة، وأن هؤلاء كذبوا نبيّهم فانخسفت بهم البئر. وقيل: رسّوه في البئر، أي دفنوه. وكثر الكلام حول ذلك بما لا دليل عليه. وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «أَيْنَ الْعَمَالِقَةُ وَأَيْنَ الْعَمَالِقَةُ أَيْنَ الْفَرَاعِنَةُ وَأَيْنَ الْفَرَاعِنَةُ أَيْنَ أَصْحَابِ مَدَائِنِ الرَّسِّ الَّذِينَ قَتَلُوا النَّبِيَّ وَأَطْفَقُوا سُنْنَ الْمُرْسَلِينَ وَأَخْبُوا سُنْنَ الْجُبَّارِينَ»^٣ ممّا يدلّ على أنّهم كانت لهم مدائن. وأمّا الأوصاف التالية في كلامه عليه السلام فيمكن أن تكون لكلّ من سبق، فلا تدلّ على أنّهم ممّن جاءهم جمع من الأنبياء.

وعاد وثمرود قومان من الأمم القديمة، ويبدو من بعض الآيات أن آثارهم كانت باقية ومعروفة في عهد الرسول ﷺ، ولذلك اهتمّ بذكرهم القرآن الكريم، ونبه الناس على الاعتبار بهم وبعاقبة أمرهم، وقوم عاد ونبيّهم هود عليه السلام كانوا يعيشون في الأحقاف، وهي منطقة – على ما يقال – في حضرموت اليمن، وقد مرّ بعض الكلام حولهم في تفسير سورة الأحقاف.

١. لسان العرب ٦: ٩٨؛ فتح القدير ٤: ٧٦.

٢. كتاب العين ٧: ١٩٠.

٣. نهج البلاغة (للصحي صالحي): ٢٦٣ / الخطبة ١٨٢.

وأما ثمود فنبّيهم صالح عليه السلام وكانوا يعيشون في منطقة بين المدينة والشام على ما يقال. وربما تكون هي ما سمي بالحجر في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾^١ ويحتمل بعض المؤرخين وعلماء الآثار أن تكون جزءاً من منطقة وادي القرى وما يعرف اليوم باسم مدائن صالح على الطريق من خيبر إلى تبوك والله العالم.

ومهما كان فقصّتهم وعقرهم للناقة معروفة ومذكورة في موارد عديدة في الكتاب العزيز. والغالب في موارد ذكرهم في القرآن أن يذكر قوم عاد قبل ثمود لكونهم أسبق، كما قال تعالى نقلاً عن صالح عليه السلام: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾^٢ ويبدو أن السبب في التغير هنا رعاية القوافي.

والمراد بفرعون هو وقومه، والمراد بإخوان لوط عليه السلام قومه الذين أرسل إليهم، والتعبير بالأخ لا يقتضي القرابة ولا كونه من نفس القوم، فإن القرآن كثيراً ما يعبر عن رسول القوم بأخيهم، وقد مرّ بعض الكلام حوله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾^٣ وقلنا: إنه تعبير عن كلّ نوع من المشاركة والمصاحبة، كقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾^٤ وقوله تعالى: ﴿وَمَا تُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾^٥ والتعبير العربي مشحون بذلك كأخي الجهد في شعر امرئ القيس:

١. الحجر (١٥): ٨٠.

٢. الأعراف (٧): ٧٤.

٣. الأحقاف (٤٦): ٢١.

٤. الأعراف (٧): ٣٨.

٥. الزخرف (٤٣): ٤٨.

عشية جاوزنا حماة وسيرنا

أخو الجهد لا يلوي على من تعذراً^١

ويقصد به السير بجهد. وكذلك تعبيرهم بأخي الخير وأخي الشر ونحو ذلك. **﴿وَاصْحَابُ الْاِيْكَهٖ وَقَوْمٌ تَبِعَ﴾**. الأيكة: الشجر الكثير الملتف أو الأجمة التي فيها السدر والأراك من ناعم الشجر. والمراد بهم قوم شعيب عليه السلام لقوله تعالى: **﴿كَذَّبَ اصْحَابُ الْاِيْكَهٖ الْمُرْسَلِيْنَ ۚ اِذْ قَالَ هُمْ شُعَيْبٌ اَلَا تَتَّقُوْنَ﴾**^٢.

و**﴿تَبِعَ﴾** من ملوك اليمن ويسمّون التبابعة، والظاهر أن المراد به هنا أحدهم وهو من ذكر في التاريخ باسم أسعد أو سعد أبو كرب. وقد ورد ذكره في الروايات وأنه ممّن بشر أهل يثرب في عصره بظهور الرسول ﷺ في هذا البلد، وأنه أمرهم وأمر أولاده بمتابعته ونصرته.

روى الصدوق بسند معتبر عن أبي عبد الله عليه السلام قال: **«إِنَّ تَبَعًا قَالَ لِلأَوْسِ وَالخَزْرَجِ كُونُوا هَاهُنَا حَتَّى يَخْرُجَ هَذَا النَّبِيُّ أَمَا أَنَا فَلَوْ أَدْرَكْتَهُ لَخِدْمْتُهُ وَلَخَرَجْتُ مَعَهُ»**^٣. وروى أن الرسول ﷺ نهى عن سبّه، لأنه أسلم وأنه أول من كسا الكعبة المعظمة^٤. والمراد بإسلامه إيمانه بالله تعالى وبالرسالات. ولعله لذلك لم يرد في الآية تبّع، بل قوم تبّع وورد مثله أيضاً عند ذكرهم في سورة ص.

﴿كُلُّ كَذَّبَ الرُّسُلِ فَحَقَّ وَعِيدُ﴾، أي كلّ منهم كذب الرسل إمّا بمعنى أن كلّ قوم كذبوا رسولهم، فالمراد بالرسول آحاد الرسل في كلّ قوم، أو بمعنى أن

١. ديوان امرئ القيس: ٤٦؛ الدرّ المصون ٢: ٢٣٤.

٢. الشعراء (٢٦): ١٧٦ - ١٧٧.

٣. كمال الدين وتعام النعمة: ١٧١.

٤. راجع: مجمع البيان في تفسير القرآن ١٠ - ٩: ١٠٠ - ١٠١؛ الميزان في تفسير القرآن ١٨: ١٥٢.

تكذيبهم لرسولهم تكذيب لكل الرسل، فإنهم كانوا يُكذِّبون الرسالات. والوعيد مضاف إلى ياء المتكلم، أي فحقّ عليهم وعيدي. وتدلّ الجملة على أنّ هناك وعيد عامّ منه تعالى لكلّ من كذّب الرسل، فحقّ على هؤلاء ذلك الوعيد السابق أي ثبت. والمراد - بالطبع - القوم الذين أرسل إليهم رسول فكذبوه، ولا يشمل تكذيب من لم يروا بينهم رسولاً.

﴿أَفَعَيَّنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ يعود السياق للاستدلال على المعاد بوجه رابع، وهو أنّه تعالى لم يعجز عن الخلق الأوّل وهو أغرب وأبعد عن العقول فكيف بإعادة الخلق، وهذا الأمر أيضاً ممّا تكرّر التنبيه عليه، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾^١.

والعِيّ - بكسر العين - بمعنى العجز، وقيل: إنّهُ بمعنى التعب، ولكنّ الظاهر من موارد الاستعمال - كما قال بعض اللغويين^٢ - أنّ الإعياء بمعنى التعب، والعِيّ بمعنى العجز. ووجه الاستدلال واضح، فإنّ بدء الخلق لم يكن هناك شيء فأوجد الله الكون من لا شيء وبمحض الإرادة فالقادر على ذلك قادر بطريق أولى على إعادة الخلق بعد إفنائه، فإنّ الخلق الثاني له أصول وله نماذج وصور في علم الله تعالى.

﴿بَلْ هُمْ فِي بَلْسٍ مِنْ خَلْقِي جَدِيدٍ﴾. الإضراب باعتبار أنّهم لا ينكرون قدرة الله تعالى على الخلق الأوّل، فهم يعترفون به، بل هم في شكّ واختلاط ولبس من خلق جديد للكون أو للإنسان، وهذا استغراب من إنكارهم وكفرهم، حيث إنّهم

١. الروم (٣٠): ٢٧.

٢. راجع: المغرب ٢: ٩٦.

يعترفون بما هو أهمّ وأصعب وأبعد عن العقل، ويلتبس عليهم الأمر في إمكان الخلق الجديد، مع كونه أسهل وأقرب إلى الإمكان حسب عقول البشر؛ وأمّا بالنسبة إلى إرادة الله تعالى وقدرته فليس هناك سهل وأسهل ولا صعب وأصعب، بل نسبة كلّ الأمور إليه تعالى نسبة واحدة.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿٢﴾ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿٣﴾ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿٤﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٥﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٦﴾ لَّقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَىٰ عَتِيدٍ ﴿٨﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٩﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿١٠﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ ۚ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿١١﴾ ۖ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطَّغَيْتُهُ ۖ وَلَٰكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٢﴾ قَالَ لَا تَخْصِمُوهُ لَدَىٰ ۖ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴿١٣﴾ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدَىٰ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٤﴾

مجموعة آيات تبين مسيرة الإنسان في الحياة من بدء خلقه، ثم تقلبه في شؤون الدنيا تحت هيمنة علم الله تعالى عليه، والرقابة المشددة وتسجيل كل ما يقول إلى أن يحين موته وما يعرض عليه حين الموت، ثم إحياءه من جديد ليحضر أمام خالقه ومربيّه.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾. الآية تذكر الإنسان ببدء خلقه لينبّه على إمكان خلقه من جديد وإحيائه للحساب، وأن كل أعماله وحتى خطرات قلبه محفوظة مسجلة عليه؛ وتقديم ذكر الخلق مؤكداً باللام و«قد» مقدمة للتنبيه على نفوذ علمه تعالى، فإن الذي خلق الإنسان أعلم بما فيه وبما ينطوي عليه ضميره، فإن خلق الله تعالى ليس كما يصنع البشر حيث يركب مواداً

ويصنع هيئة لآلة أو دواء أو معجون أو أي هيئة تركيبة أخرى لبلوغ مقاصده وهو يجهل كثيراً من حقائق هذا المركب. يجهل حقائق موادّه ويجهل كثيراً من خصائص التركيب، وكثيراً ما يتبين له بعد عدة تجارب أنّ ما صنعه من دواء - مثلاً - له منافع أخرى أو له مضارّ لم يتفطن لها، وأمّا الخالق الذي يبدع الشيء ويصنع مادّته وتركيبه من غير مثال محتذى ومع سبق العدم المطلق، فإنّه يعلم بكلّ خصائصه؛ لأنّه أعطاه الوجود ولم يكن شيئاً مذكوراً.

والوسوسة والوسواس - بكسر الواو - مصدر، والوسواس - بالفتح - اسم لمن يوسوس في صدور الناس، قال تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾^١ والأصل في مثل هذه الكلمات هو تكرر الشيء، فالذبذبة تكرر الذبّ وهو الدفع فيفيد معنى الاضطراب وتكرّر الحركة، ومثله زلزل ودبدب وكبكب وغيرها. والوسوسة تكرر الوسّ وهو الصوت الخفي كصوت حُلبيّ المرأة وصوت من يريد الصيد. ومن الوسوسة ما يلقي الشيطان في النفوس وكذلك شياطين الإنس، ومنها أيضاً هواجس النفس وخواطرها، مع أنّها ليست أصواتاً في الغالب إلا أنّها تُشَبّه بها من جهة كونها إلقاءات خفيّة في النفس. وفي الآية ضمير مقدّر والتقدير ما توسوسة به نفسه.

والإنسان يحدث نفسه كما تحدّثه نفسه، وهما أمران مختلفان وليس مجرد اختلاف في التعبير، كما ذكر في اللغة وبعض التفاسير، فالمراد بتحديثه لنفسه ما ينشئه الإنسان من أفكار وتخيلات وأوهام ونحوها ويلقيها على نفسه، كأنّه يلقي محاضرة وكأنّ هناك من يسمعه ويتلقّى منه؛ وهذه الأمور منها خير ومنها شرّ،

والمراد بتحديث النفس له الهواجس والخواطر التي تخطر بالبال من خير وشر، أيضاً، وهي في الغالب ترد النفس من دون اختيار، وربما تهيمن عليها وتستعبده وتسيطر عليه وتجره إلى ما لا يحمد عقباه إذا لم يكن الإنسان مذكلاً نفسه مروّضاً إياها بالرياضات النفسية دينية كانت أو غيرها.

والمراد بالوسوسة في الآية الكريمة هذه الخواطر النفسية التي ربما لا يشعر بها الإنسان، وإنما ينقاد لها ويتحرك وفقاً لالقاءاتها، فالله تعالى عليم بكل هذه الخواطر التي تخطر بالبال حتى لو غاب عن شعور الإنسان نفسه.

والغرض واضح من الآية الكريمة، وهو تنبيه الإنسان على شدة الرقابة عليه ومحاسبة كل شيء يتعلّق به حتى ما كان من قبيل الخواطر التي لا يشعر بها.

ولعلّك تقول: ما شأن الإنسان بهذه الخواطر، فهي ليست من صنعه، بل ربما يتألم من هجومها عليه وهو لا حول له ولا قوة في قبالتها؟

والجواب: أنّ المراد ليس محاسبة الإنسان على هذه الخواطر، بل تنبيهه على غاية إحكام الرقابة عليه بحيث لا يغيب عن الرقيب وهو الله تعالى حتى هذه الخواطر السريعة. هذا مضافاً إلى أنّها وإن لم تكن بذاتها تحت سيطرة الإنسان إلا أنّه بإمكانه أن يهيئ المناخ المناسب للخواطر الحسنة، ويتردد عن نفسه الخواطر السيئة التي ربما تجره إلى المعاصي والمهلك، ويذلّل نفسه للابتعاد عنها، فعروض الخواطر السيئة وإن لم يكن اختيارياً بذاته إلا أنّ مقدماته في الغالب اختيارية.

ومضافاً إلى أنّ المحاسبة لا تعني المعاقبة والإنسان يحاسب على أمور كثيرة لا يعاقب عليها؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنْ تُبْذُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَخَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرْ

لَمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»^١، والله تعالى لا يعاقب على النوايا، كما ورد في عدة روايات؛ منها رواية أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِيَهْمَ بِالْحَسَنَةِ وَلَا يَعْمَلُ بِهَا، فَتَكْتَبُ لَهُ حَسَنَةٌ، وَإِنْ هُوَ عَمِلَهَا كَتَبَتْ لَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ؛ وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ لِيَهْمَ بِالسَّيِّئَةِ أَنْ يَعْمَلَهَا فَلَا يَعْمَلُهَا فَلَا تَكْتَبُ عَلَيْهِ»^٢.

ولكن ذلك لا ينافي المحاسبة، وربما تؤثر في درجة الإنسان وقربه لدى الله تعالى. بل ربما يظهر من الآية المذكورة أنه يستحق العقاب على النوايا أيضاً، ولكن الله تعالى يغفر له إن شاء، كما يغفر ما ينسى ويخطئ، والمغفرة فيهما ليس ضرورياً بالعقل، قال تعالى: ﴿وَبَنَّا لَا تُلَاقُوا خُذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَاْنَا﴾^٣؛ إذ لو كان ضرورياً لم يكن وجه للدعاء.

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾؛ الوريد عرق في الجسم سمّي به لأنّ الدم يرد فيه؛ قالوا: ويرد فيه الروح أيضاً، وذلك لما رأوه من الموت السريع بقطعه فتوهموا أنّ الروح يخرج منه، واختلف أهل اللغة في تحديد المراد بهذا العرق والأكثر على أنّه عرقان على صفحتي العنق وهما الودجان اللذان يقطعان من الحيوان في التذكية، وقيل: إنّ العرق المتّصل بالقلب والكبد، وقيل: إنّ المنتشر في الجسم.

ومهما كان فالمراد به العرق الذي يقطعه يموت الإنسان والحيوان، وإضافة الحبل إليه بيانية، وعبر عنه بالحبل كأنّه سبب اتصال الإنسان بروحه، وبقطعه ينفصل الروح عن الجسم حيث يموت، والغرض بيان أنّ الله تعالى أقرب إلى

١. البقرة (٢): ٢٨٤.

٢. الكافي ٢: ٢/٤٢٨، باب من يهمل بالحسنة أو السيئة.

٣. البقرة (٢): ٢٨٦.

الإنسان من روحه؛ أقرب إليه علماً وقدرة، فهو أعلم بما في نفسه من نفسه وهو أقدر على تغيير نفسياته منه. والإنسان ربما يخدع نفسه فيتصور أنه يعمل العمل لوجه الله تعالى مثلاً ولا ينتبه إلى الدوافع الأخرى التي تدفعه، والله تعالى يعلم بها ويُعلمه بها يوم القيامة. كما أنه يُقلّب نفس الإنسان ويغيّر أحواله وهو لا يتمكن من السيطرة على نفسه إلا جزئياً، وذلك أيضاً بإلهام من الله تعالى وإقدار منه.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾^١، فالله تعالى أقرب إلى الإنسان من قلبه، أي نفسه وروحه، كما أنه أقرب إلى قلبه منه فيقلبه كيفما يشاء ويتحكم، في إرادته ويصرفه عما يشاء. والغرض من هذا التعبير تنبيه الإنسان على إمكان هذه السيطرة التي يصعب عليه تصوّرها، فهو يعلم أن بالإمكان رقابة الإنسان حسب ظاهر حاله، وعلى أساس ذلك يتوهم أن الرقابة الإلهية أيضاً لا تتعدّى ظواهر أعماله وأحواله كرقابة الدوائر الأمنية في الدنيا.

﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾؛ التلقّي مطاوعة اللقاء أو الإلقاء، ولذلك يأتي بمعنى الاستقبال إذا أراد أحد لقاءه، وبمعنى الأخذ إذا ألقى إليه أحد شيئاً أو كلاماً؛ والمراد به هنا تلقّي ما يفعله الإنسان، وحذف مفعول التلقّي لدلالة الآية التالية عليه. و﴿إِذْ﴾ ظرف متعلّق بمقدّر، أي اذكر، والظاهر أن الخطاب للإنسان بوجه عام، فالمراد تنبيهه أن هناك ملكين يتلقّيان كلّ ما يفعله من خير وشرّ ويسجّلان عليه، ولعلّ اليمين والشمال رمز للخير والشرّ كما رمز بهما في التعبير بأصحاب اليمين وأصحاب الشمال، فالملكان يسجّلان عليه ما يفعله من خير وشرّ ولا نعلم كيف يتلقّيان؟ وكيف يسجّلان؟ وما معنى

التسجيل؟ وقد أخبرنا الله سبحانه أن الإنسان يجد ما عمله حاضراً يوم القيامة. والقعيد بمعنى المجلس كما في «العين»،^١ فهو تعبير عن ملازمتها ودوام حضورهما مع الإنسان، فليسا عابرين، بل هما لا يفارقانه في حلّه وترحاله وليله ونهاره.

وقد ذكر المفسرون ورووا روايات غريبة في كيفية جلوسهما على اليمين والشمال وكيفية كتابتهما وتسجيلهما ونوع مدادهما، وبعض ذلك تخرّص على الغيب وأكثرها ممّا يحتاج إلى تأويل ولم تثبت صحّة شيء من تلك الروايات. وقيل: إن «إذ» ظرف لقوله تعالى: «أَقْرَبُ» في الآية السابقة، والمعنى أنّه تعالى حين تلقّي الملكين أقرب إليه من حبل الوريد تنبيهاً على أنّه ليس بحاجة إليهما، وإنّما خلقهما ووكّلهما به لمصلحة أخرى كالسجّل عليه بنحو من أنحاء التسجيل، أو ليكون في تنبيهه بذلك توجّس أكثر من جهة الشعور بوجود رقيب عليه؛ ومهما كان فالمراد بناءً على هذا الوجه ببيان أنّ الله تعالى لا يحتاج إلى رقابة الملائكة، كما لا يحتاج إلى وساطتهم في سائر الشؤون، فهو أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد.

ولكن هذا الوجه مع لطفه بعيد عن العبارة - كما في «الميزان»^٢ - فإنّ الظاهر أنّها تنبّه على رقابة الملكين وتنظر إليها نظرة مستقلّة، ومقتضى هذا الوجه أنّ ذكر تلقّي الملكين إنّما هو لبيان عدم الحاجة إليهما في الرقابة الإلهية فحسب وهو بعيد.

١. كتاب العين ١: ١٤٣.

٢. راجع: الميزان في تفسير القرآن ١٨: ٣٤٨.

ويبدو من الآية أنَّ الملكين جليسان للإنسان وأنَّهما خارجان عن روحه ولا يتغلغلان في ذاته، ولعلَّه لذلك لا يعلمان بما تنطوي عليه سريرته، كما ورد في دعاء كميل عليه السلام: «وكننت أنت الرقيب عليَّ من ورائهم والشاهد لما خفي عنهم»^١ وهذا من فضله تعالى على البشر حيث لم يجعل للملائكة سبيلاً للدخول في أعماق روحه. وقد ورد التصريح بذلك في رواية رواها الكليني عليه السلام بسند صحيح عن إسحاق بن عمار، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إن المؤمنين إذا اعتنقا غمرتهما الرحمة، فإذا التزما لا يريدان بذلك إلا وجه الله ولا يريدان غرضاً من أغراض الدنيا، قيل لهما: مغفور لكما فاستانفا، فإذا أقبلا على المسألة قالت الملائكة بعضها لبعض تنحوا عنها، فإنَّ لهما سرّاً وقد ستر الله عليهما». قال إسحاق فقلت: جعلت فداك فلا يكتب عليهما لفظهما وقد قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾^٢ قال فتنفس أبو عبد الله الصعداء، ثم بكى حتَّى أخضلت دموعه لحيته وقال: «يا إسحاق إنَّ الله تبارك وتعالى إنَّها أمر الملائكة أن تعتزل عن المؤمنين إذا التقيا إجلالاً لهما، وإنَّه وإن كانت الملائكة لا تكتب لفظهما ولا تعرف كلامهما، فإنَّه يعرفه ويحفظه عليهما عالم السرِّ وأخفى»^٣.

وهناك رواية ربما يستفاد منها أنَّ المراد بالقعدين ملك وشيطان، فقد ورد في صحيحة حماد، عن أبي عبد الله عليه السلام: «ما من قلب إلا وله أذنان على إحداهما ملك مرشد وعلى الأخرى شيطان مفتن، هذا يأمره وهذا يزجره؛ الشيطان يأمره بالمعاصي والملك يزجره عنها، وهو قول الله عز وجل: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ

١. مصباح المتعبد و سلاح المتعبد ٢: ٨٤٩.

٢. ق (٥٠): ١٨.

٣. الكافي ٢: ١٨٤ / ٢، باب المعانقة.

قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ^١.

والمراد بالقلب روح الإنسان. ولكن يمكن أن يكون استشهاد الإمام عليه السلام بالآية الثانية وأن المراد بالرقيب العتيد الملك الذي يمنعه من ارتكاب المعصية، فلا ينافي كون القعידين ملكين، كما لا ينافي أن يكون الرقيب العتيد يجمع بين الوظيفتين الزجر عن المعاصي وتسجيلها عليه.

﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾. الرقيب صفة مشبهة بمعنى اسم الفاعل من الرقابة، أي الذي يراقب ويرصد أقواله. والعتيد أي الحاضر والمهيأ لأمر ما. والصفتان صفة للملك الذي يسجل السيئات، وأمّا الآخر الذي يسجل الحسنات فلا علاقة له بالموضوع، وهذا الملك يسجل كلّ أعماله السيئة لا خصوص الأقوال، ولكن حيث إنّ القول عميق التأثير وخفيف المؤونة فيغفل عنه الإنسان ولا يهتم به أكّد القرآن عليه بالخصوص، ليكون الإنسان على حذر ممّا يتلفظ به، وكم من كلام غير مجرى التاريخ، وكم من كلام تسبّب في سفك الدماء واندلاع الحروب، وكم من كلمة سدّ الطريق على الأنبياء عليهم السلام ومنعهم من بلوغ مقاصدهم الإلهية وتسبّب في ابتعاد الناس عنهم، كالقول الذي منع من كتابة الرسول ﷺ وصيته التي لو كان يكتبها لم يختلف بعده من الأمة اثنان.

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾. الجملة عطف على ما قبلها، خلق الله الإنسان وسار على منهجه الطبيعي وهو غافل عن الرقابة المشددة عليه، وأنّ كلّ ما يقوله مسجل عليه فضلاً عن ما يفعله، بل إنّ كلّ ما توسوس به نفسه محفوظ لدى علام الغيوب، ثمّ جاءته سكرة الموت أي غشيته والإغماء الحاصل حين الموت،

١. الكافي ٢: ٢٦٦ / ١، باب إنّ للقلب أذنين.

والسُّكْر يقابل الصَّحْو. والظاهر: أنَّ الباء للملابسة، أي جاءت سكرة الموت، لأنَّه حقٌّ ثابت لا مناص منه. وقيل: إنَّها للمصاحبة، أي أتت بالحقِّ إلى الإنسان حيث إنَّه مع الموت يجد الحقَّ، أي يصل إلى حقائق الأمور وينكشف عنه الغطاء.

﴿ذَلِكَ مَا كُنْتُمْ مِنْهُ نَحِيذٌ﴾، ﴿مَا﴾ موصولة. والنَحِيذ: الميل والانحراف، أي أنَّ الموت هو الأمر الذي كنت تحاول أيتها الإنسان أنَّ تميل عنه وتعديل كناية عن الفرار. والإنسان ككلٍّ موجود حيٍّ لا يفرُّ من شيء كفراره من الموت وهو أمر طبيعي، فالحيُّ يحبُّ الحياة، لأنَّه يشعر أنَّ بها كينونته وبقائه، فإذا عرف الحقَّ وعلم أنَّه لا يفتنى بالموت، بل يدخل عالماً أوسع من هذه الحياة الضيقة بكثير لم يخش الموت، وقلَّ من يبلغ ذلك، قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «وَاللَّهِ لَا بُدَّ لِي أَنْ يَطْلُبَ آنَسٌ بِالْمَوْتِ مِنَ الطِّفْلِ بِثَدْيِ أُمِّهِ»^١.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾، انتهى عالم البرزخ وقامت القيامة ليرز الإنسان بصحيفة أعماله إلى ربِّه. والنفخ هنا يراد به النفخة الثانية التي بها تقوم القيامة، لا النفخة الأولى التي بها يصعق من في الكون. والصور قرن الثور كانوا ينفخون فيه قديماً لإعلان الحرب ونحوه، وهو كناية عن سرعة الحدوث والمفاجأة وعدم التدرُّج، كما قال تعالى: «ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ»^٢، أي بمجرد النفخ يقومون فجأة. والإشارة في قوله تعالى: «ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ» إلى وقت نفخ الصور. والوعيد بحذف المضاف، أي يوم تحقُّق الوعيد، وأمَّا ظرف الوعيد فهو الحياة الدنيا. والمراد كلُّ ما توعد الله تعالى به العصاة والكفَّار، لأنَّه

١. نهج البلاغة (للصَّحبي صالح): ٥٢ / الخطبة ٥.

٢. الزمر (٣٩): ٦٨.

وإن كان من الوعد وهو عامٌ يشمل الخير والشرَّ إلا أنَّ الوعيد لا يستعمل إلا في الشرَّ، كما في «معجم المقاييس»^١ وغيره. والإتيان بالفعل الماضي هنا وفي العبارات التالية من جهة حتمية الوقوع.

﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾، التعبير يصوّر حضور الإنسان يوم القيامة، وأَنَّهُ لا يحضر من تلقاء نفسه، بل يساق سوقاً ليحكم على ما فعل. والسوق حثّ الدابة على السير من ورائها، بخلاف القيادة فإنَّها من الأمام. وظاهر الآية أنَّ الأمر عامٌ يشمل جميع الناس لقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ ولكن لا شك أنَّ العموم بلحاظ أنَّه حكم الغالب وإلا فالأبرار المتّقون لا يساقون ولا يخاطبون بالخطابات التالية. والتعبير بالسوق في قوله تعالى: ﴿وَيَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾^٢ من باب المشاكلة مع سوق الذين كفروا مضافاً إلى أنَّ هذا السوق إلى الجنّة وليس إلى الحساب. والظاهر أنَّ السائق غير الشهيد، فملك يسوقه وملك يشهد عليه، ولعلَّ الشهيد تعبير عن كلّ ما يشهد عليه من الملائكة وأعضاء جسمه والأرض وغيرها.

﴿لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾، هذا خطاب يخاطب به الإنسان المذكور في الآية السابقة، وهم يشكّلون أكثر البشر. والخطاب لا يجب أن يكون صوتاً مسموعاً، بل يكفي أن يكون إعلماً له بوجه من وجوه الإعلام، ومنها أنَّه يدرك هذه الحقيقة كسائر الحقائق بكلّ وجوده، فكأنَّه يلمسها. والإشارة في قوله تعالى: ﴿مِنْ هَذَا﴾ إلى الحضور أمام الله

١. معجم مقاييس اللغة ٦: ١٢٥.

٢. الزمر (٣٩): ٧٣.

للمحاسبة. والغفلة تقتضي أن يكون ذلك أمراً معلوماً للإنسان في الحياة الدنيا، ولكنّه لتلهي الإنسان بملذّات الدنيا وزينتها غفل عن هذه الحقيقة وبالفعل، فإنّ هذه الحقيقة معلومة للإنسان بإبلاغ الأنبياء ﷺ.

ولعلّ المراد بالغطاء ما يستلزمه الكون على هذا الكوكب من القيود والحدود التي تمنع الروح الإنسانية من الاتصال بسائر الموجودات إلا في الأطر الخاصّة التي تفرضها قوانين الطبيعة كالإدراك بالحواسّ الخمس. وينكشف الغطاء بالموت والتحرّر من هذه القيود والحدود، فتسبح الروح في عالم الواقع العريض والعميق حرّاً طليقاً، وترتبط بكلّ الموجودات ارتباطاً مباشراً، فتدرك حقائق الأمور على ما هي عليها وتصل إلى أعماق الحقيقة بدون حجاب، وهذا هو معنى كون بصره حديداً، فليس البصر بمعنى العين الجارحة. والإنسان يمكنه أن يصل إلى كثير من الحقائق المبصرة عن غير طريق البصر بنحو أشدّ وأكّد، بل بنحو لا يمكن فيه الشكّ بينما يمكن التشكيك في كثير من المبصّرات، بل نعلم أنّ كثيراً منها من خداع العين. وأقوى إدراك للإنسان في هذه الحياة المعتمة هو إدراكه لنفسه، فهو يشعر بنفسه شعوراً مباشراً حضورياً لا يشوبه أدنى شكّ وارتياب، ولا يتوقّف ذلك على الإبصار ولا على اللمس، وهذا الإدراك على الظاهر هو الذي يحصل عليه الإنسان بعد موته وتحرّره من ظلمات الجسم والمادّة بالنسبة إلى كلّ الأشياء وكلّ الحقائق، سواء كانت جسميّة أم ممّا وراء الطبيعة. وقريب من ذلك ربما يحصل للإنسان في الرؤيا الصادقة حيث يتحرّر الروح جزئياً من قيود المادّة.

﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾. القرين هو المقرون بالشئ لا يفارقه إلا نادراً،

والضمير يعود للإنسان المذكور، والعديد بمعنى الحاضر المهيأ كما مرّ. وقد اختلف المفسّرون في أنّه من المراد بهذا القرين؟ فقال جمع: إنّهُ الشيطان الذي يغويه والذي ورد ذكره في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾^١، وقوله: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾^٢، والشاهد على ذلك قوله تعالى بعد ثلاث آيات: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾^٣، ولا شك أنّ المراد به الشيطان كما سيأتي. قالوا: إنّ الإشارة - بناءً على هذا الاحتمال - إلى الإنسان، والمعنى أنّ هذا هو الذي عندي وفي ملكتي مهيأً لجهنّم بإغوائِي. هكذا ورد في «الكشاف» و«روح المعاني»^٤، ولعلّ المراد من قوله: ﴿في ملكتي﴾، أي تحت سلطاني.

وقال آخرون ولعلّهم الأكثر: إنّ المراد به الملك الذي يسوقه أو الشهيد، وقد مرّ ذكر الملكين السائق والشهيد، فهما قرينان له هناك، فإن كان المراد به الملك السائق فالظاهر أنّ «هَذَا» إشارة إلى الإنسان المسوق، ومعنى الجملة إعلام أنّه مهيأً للحكم عليه بما يستحقّه، وإن كان المراد به الملك الذي يشهد عليه، فيمكن أن تكون الإشارة إليه أيضاً، ويمكن أن تكون إلى صحيفة أعماله التي يعرضها أمام ربّه.

وهذا الاحتمال هو الأقرب، كما أنّ الأقرب فيه أن يكون المراد به هو السائق، لأنّ الشهيد يأتي دوره حينما يطلب للشهادة، والجملة هنا إعلام لحضور المتّهم،

١. الزخرف (٤٣): ٣٦.

٢. فصلت (٤١): ٢٥.

٣. ق (٥٠): ٢٧.

٤. راجع: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ٤: ٣٨٦؛ روح المعاني ١٣: ٣٣٥ - ٣٣٦.

وهذا دور السائق الذي يسوق المتهم إلى المحكمة.

والاحتمال الأول بعيد جداً من جهة أنّ الشيطان المضلّ لا دور له في ذلك المشهد ليعلم عن شيء، خصوصاً مع التعبير الوارد في «الكشاف» و«روح المعاني»، فإنّ التعبير بما يدلّ على السلطة هناك لا يحقّ لأحد فضلاً عن الشيطان. والمُلك ذلك اليوم لله الواحد القهار، بل الشياطين في ذلك اليوم من المحضرين والمُسوقين، فأنتى لهم هذا البيان؟! نعم ربما يتكلّم الشيطان لمخاصمة الإنسان والدفاع عن نفسه، كما في الآية الآتية وكما يتخاصم المستكبرون والمستضعفون من أهل النار.

﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ كُلُّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ الخطاب على الظاهر للملكين السائق والشهيد. أمّا توجيه الخطاب إلى السائق فواضح، وأمّا الشهيد فلأنّه سبب دخوله جهنّم واستحقاقه العذاب، لأنّه الذي يشهد على أعماله. والتعبير عنه بالإلقاء يصوّر زوال كرامة هذا الإنسان، فهو يلقي في جهنّم وكأنّه من القمامة. والكفّار مبالغة في الكفر وهو الستر يوصف به الكافر، لأنّه ينكر ربّه ونعمة ربّه، والمبالغة إمّا من جهة تشدّده في الإنكار أو لعظمته ما ينكره. وتوصيفه بالعنيد يخرج من كان إنكاره لضعف إدراكه وعدم فهمه. والعناد: العتوّ والطغيان والعدول عن طريق الاستقامة. وقيل: العنود المعجب بما عنده وهو أساس الطغيان. والمبالغة في الكفر يستلزم العناد، فإنّ الذي يصرّ على كفره وإنكاره لأوضح الحقائق خصوصاً مع إدراكه لحقيقة الأمر يتحوّل إلى عنيد لا يمكنه درك الحقائق، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾^١.

﴿مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مَّرِيبٌ﴾. المَنَاعُ مبالغة في المنع، ويصدق على من لا يعمل الخير وعلى من يمنع الآخرين من عمل الخير. ويبعد أن يكون المراد به خصوص المنع عن المال، كما في «الكشاف»^١، بل يشمل من يمنع من اهتداء الناس إلى الدين وهو خير الخير مطلقاً فهو أولى به. والاعتداء هو تجاوز الإنسان من حقه إلى حق غيره، والإنسان إذا لم يكن لديه وازع من الدين قلماً يتقيد بضميره، فلا يعتدي على غيره، وهذا في خصوص الحقوق الاجتماعية، وأما حق الله تعالى وسائر ما جعله الله من حقوق على الإنسان فالكافر لا يلتزم بها بالطبع، واعتدائه عليها ينبع من عدم إيمانه بها. والريب هو الشك. والإرابة بمعنى أنه يبعث بالشك في قلوب الآخرين وهو بمعنيين؛ فتارة أمره مريب؛ أي يبعث بالشك في نواياه بالنسبة للمجتمع بمعنى أنه لا يؤمن من شره، وهذا واضح إذا قيس المؤمن بالكافر؛ وتارة يبعث بالشك في قلوب الآخرين بالنسبة لحقائق الكون، فهو لا يكتفي بكفره تجاه ربه، بل يحاول أن يضل غيره أيضاً عن طريق التشكيك في المعتقدات، وهذا ما نجده بوضوح من وسائل الإعلام الكافرة في عصرنا.

﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ وهذا هو الوصف الأخير له وهو أقبح أوصافه حيث يجعل لله نداً وشريكاً في العبادة. والفاء تفرع على الإلقاء الأول للتأكيد، نظير قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُجِبُونَ أَنَّ يُمِئَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبْنَهُمْ بِمَقَارَةِ مِنَ الْعَذَابِ﴾^٢.

١. راجع: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ٤: ٣٨٧.

٢. آل عمران (٣): ١٨٨.

ويحتمل أن تكون هذه جملة مستقلة والموصول يتضمن معنى الشرط والفاء للجزاء، ولعلّ هذا التخصيص بالذكر للإشارة إلى أنّ الشرك هو أسوأ الشرور والصفات الرذيلة، ولذلك وصف عذابه بالشديد. ولو لاحظ الإنسان الصفات الرذيلة بنظرة اجتماعية تتبع المصالح البشرية، فلعلّه لا يصل إلى هذه النتيجة، كما أنّه لا يصل إلى أهمية العبادة ومعرفة الله تعالى، ولكن خالق الكون حيث أعلن أنّه إنّما خلق الإنس والجنّ ليعبدوه، فإنّه يعتبر الشرك أعظم جريمة، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾^١ والسبب واضح، لأنه يسير في اتجاه معاكس لما وضعه خالق الكون طريقاً له إلى كماله. وربما يتوهم أنّ هناك ما هو أفظع من الشرك وهو إنكار وجود الخالق، ولكنّ الصحيح أنّ الشرك أعظم منه، لأنّ المشرك يعبد ربّاً غير الله تعالى، فهو يستخفّ بربه وينزّل من شأنه ويجعل له منائياً وشبيهاً من خلقه وهو أعظم من إنكار وجوده رأساً.

﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾. الطغيان تجاوز الحدّ في العصيان. ويبدو من هذه الجملة أنّ الإنسان المجرم بعد صدور الحكم بحقه يحاول أن يدافع عن نفسه؛ فيلقي اللوم على الشيطان أو الإنسان الذي أضلّه، كما يظهر ذلك أيضاً من قوله تعالى: ﴿لَا تَحْتَصِمُوا﴾ حيث يدلّ على أنّ كليهما يتحدثان هناك، ولكنّ السياق لا يتعرّض لكلامه للاستغناء عنه بذكر جواب القرين، والظاهر أنّ المراد به هنا من كان قريناً له في الدنيا، والقرين في الآية السابقة هو من جاء قريناً له في المشهد يوم القيامة وهو الملك السائق له كما مرّ،

والقرين هنا لعله الشيطان الذي قبضه الله له في الدنيا بعد أن غفل عن ذكر ربه، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾^١؛ ويمكن أن يكون إنساناً مضلاً فإنه أيضاً قرين له غالباً، كما قال تعالى في حكاية كلام المؤمن في الجنة: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ إِنَّكَ لَمِنَ الْمَصْدُوقِينَ * إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا إِنََّّا لَمُدِينُونَ﴾^٢.

ومهما كان فإن هذا القرين يربه الخطاب الإلهي بالإلقاء في العذاب، فيحاول تبرئة نفسه مما آل إليه أمر قرينه فيعتذر قائلاً: ﴿رَبَّنَا مَا أَطْعَمْتُهُ﴾ أي لست مسؤولاً عن طغيانه على ربه فلست من جعله طاغياً، ولكنه كان بنفسه في ضلال بعيد، والتعبير بالبعيد يعني أنه كان بعيداً عن طريق الحق لا تؤمل فيه الهداية، فهناك إنسان ضالّ عن الطريق إلا أنه قريب منه فيؤمل منه الاهتداء، وأما إذا بُعد في التوغل في الضلال فإنه لا يؤمل منه العود. والشيطان أو الإنسان المضلّ لا ينفي بالطبع، إغواءه ووسوسته، وإنما ينفي إجباره على ذلك، كما حكى الله تعالى عن الشيطان قوله يوم القيامة: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾^٣.

﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ﴾. الاختصام والمخاصمة أي المنازعة ومطالبة كلّ من الطرفين حقه. والاختصام ليس ممنوعاً أمام الله تعالى يوم القيامة، بل هو يوم تخاصم الناس ومطالبة المظلومين حقوقهم من الظالمين،

١. الزخرف (٤٣): ٣٦.

٢. الصافات (٣٧): ٥١ - ٥٣.

٣. إبراهيم (١٤): ٢٢.

وقد قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾^١ وهو خطاب للرسول ﷺ ومناوئيه. وإنما النهي هنا عن اختصام الضالين والمضلين، فإن الله تعالى قد أنذر وحذر وعهد إلى الإنسان أن الشيطان له عدو، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾^٢، كما حذر الشيطان بقوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾^٣، وجملة ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ﴾ حالية، أي مع هذا التقديم والإنذار لا معنى للتخاصم، ومعنى ذلك أنه لا يعذر الشيطان، سواء كان من الإنس أو الجن، لأنه ياغواؤه كان يؤثر في ضلال الناس، فهو مشارك في آثامهم، ولا يعذر الإنسان المخدوع، لأن الإغواء والإغراء مهما كان فليس بحيث يوجب عنه سلب القدرة على التفكير أو الاختيار. فالنهي عن الاختصام هنا بمعنى أنه لا ينتهي إلى حل، فالحكم بالعقاب عام شامل للطرفين ولا عذر لأحدهما.

ومعنى قدّم له وقدم إليه: سبق القول منه قبل مداهمة الأمر. فالمراد أن الوعيد بالعذاب جاءهم من الله تعالى قبل نزول العذاب يوم القيامة يوم كان الخيار بيدهم.

﴿مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ﴾. في هذه الجملة احتمالان:

الأول: أنه تعالى لا يبدّل قوله، فلا معنى للاعتذار والمخاصمة حيث إن الحكم صادر من قبل في حقّ الضالين والمضلين، والله تعالى لا يبدّل حكمه. وربما يقال: إن هذا ينافي المغفرة، فالله تعالى قد أوعد المذنبين بالعذاب مع

١. الزمر (٣٩): ٣١.

٢. يس (٣٦): ٦٠.

٣. ص (٣٨): ٨٥.

أنه ربما يغفر لهم، أليس هذا من تبديل القول؟ والجواب: أنه أيضاً على أساس قول آخر وهو وعده بغفران الذنوب في ظروف خاصة، وهذا الوعد لا يشمل المشرك وهو المخاطب هنا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾^١.

والاحتمال الثاني: أن المراد بالقول قول المتخاصمين، أي لا ينفعكم تبديل القول لديّ وإنّما كان ينفعكم التبديل والتغيير في الحياة الدنيا، وحيث فارقتها مشركين وكافرين، فلا ينفعكم الإيمان والتوحيد هنا، وهذا واضح ولكنّ الاحتمال الأوّل أوفق بالسياق.

﴿وَمَا أَنَا بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ سبحانه وتعالى أن يظلم أحداً، فما يفعله هو العدل المطلق؛ إذ لا حاجة له إلى ظلم أحد ولئن استوجب اختيار الإنسان في هذه الحياة أن لا يوضع كلّ أحد موضعه الحقيقي لظلم الناس بعضهم بعضاً فلا مجال هناك حتّى لهذا الظلم، وكلّ إنسان ينال حقه ويوضع موضعه ولا يجزى إلا بعمله. والسؤال في هذه الآية في التعبير بالظلام وهي صيغة المبالغة، فلعله يوهّم أنه لا يبالغ في الظلم، وأمّا الظلم الطفيف فيمكن أن يحصل مع أنه مستحيل في حقه تعالى.

والجواب أن المراد أنه لو كان يظلم أحداً في تلك الحياة لكان الظلم فظيماً وكبيراً ولكان الله سبحانه ظلاماً وليس به، فلا يظلم أحداً ولا مثقال ذرة. أو المراد أنه لو كان يظلم الناس حقهم لكان ظلاماً باعتبار كثرة موارد الظلم. ويمكن أن يكون «ظلام» بمعنى ظالم كما قيل.

يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴿٣٩١﴾ وَأَزْلَفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣٩٢﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٩٣﴾ مَنْ حَشَى الرَّحْمَنَ الْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿٣٩٤﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٩٥﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٩٦﴾

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾. هذه الآية مثار لعدة أسئلة:

السؤال الأول: ما هو متعلق الظرف: ﴿يَوْمَ نَقُولُ﴾؟ وأجيب أنه متعلق بظلام في الآية السابقة، والمعنى أنه تعالى ليس ظلاماً للعبيد حين يملأ منهم جهنم. وهو بعيد؛ لأنه تعالى لا يظلم أحداً مطلقاً وفي أي ظرف لا في خصوص هذا اليوم إلا أن يحمل الكلام على أن المراد نفي كون هذا الأمر، أي ملء جهنم من الجنة والناس أجمعين ظلماً، ولكنه لا يناسب صيغة المبالغة ولا يأتي فيه ما مر من التوجيه، فلا بد أن يقال: إن هذا ليس ظلماً لأحد.

والصحيح في الجواب أنه متعلق بمحذوف، أي اذكر يوم نقول، وذلك لأن هذه الآية تنبه الإنسان في هذه الحياة إلى أمر آخر من حقائق الكون لا يرتبط بالآية السابقة، وهو أن الله تعالى لم يخلق شيئاً لأمر إلا وهو قائم بما أريد منه بكماله وتمامه، وذلك لدفع توهم بعض البسطاء من الناس أن جهنم مهما كانت واسعة فإنها لا تسع كل هذه الخلائق الكافرة وهم أكثر الخلق، فيمنّي الإنسان الجاهل نفسه بإمكان التخلص من العذاب، فالله تعالى ينهيه أن العذاب يوم القيامة كسائر حقائقها لا يقاس بما نجده في هذه الحياة، وجهنم كافية للجميع مهما بلغ عددهم.

السؤال الثاني: كيف تخاطب جهنم وكيف تجيب وهي جمادى؟ وأجيب تارة بأن الخطاب للخرقة والجواب منهم وهو تأويل بعيد. وأخرى بأن الله تعالى يخلق للجمادات يوم القيامة عقولاً فتتكلّم الجنّة والنار، وتشهد الألسنة والأيدي والأرجل والجلود، أو بأن الجمادات لها نوع من الشعور والإدراك لا نشعر بها، ولذلك يخاطب الله تعالى السماء والأرض ويردّان الجواب، ويوحى إلى النحل ونحو ذلك.

ولا يبعد القول بأن لكل الأشياء أمام ربّها نوعاً من الإدراك والشعور، حتّى لو أمكن تأويل ما ورد من توجيه الخطاب إليها، وذلك لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾^١، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾^٢؛ ولكن الظاهر أنّ هذه الخطابات المحكية عن يوم القيامة ليست من قبيل القول بالمعنى المتعارف، بل هي إشارات وكنائيات تدلّ على حقائق، وقد قلنا مراراً إنّ التعبير بالقول يوم القيامة قد لا يحكي عن كلام، بل عن أمر آخر؛ فقول الملائكة: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾^٣ ربما يكون المراد به إثبات حقيقة السلامة لهم تكويناً، وكذلك اللعن، فلا يبعد أن يكون ما ورد من الخطاب لجهنم وجوابها بياناً رمزياً لحقيقة عينية، وسيأتي ذكرها.

السؤال الثالث: أنّ ظاهر هذا السؤال والجواب أنّ جهنم لم تمتلئ بمن فيها من أهلها وهو ينافي التعبير بملء جهنم في أكثر من مورد، منها قوله تعالى: ﴿وَمَتَّ

١. الإسراء (١٧): ٤٤.

٢. النور (٢٤): ٤١.

٣. الزمر (٣٩): ٧٣.

كَلِمَةً رَبِّكَ لَا مُنَالَانَ جَهَنَّمَ مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ؟^١

وأجيب بوجوه أحدها: أنَّ المراد بالسؤال المذكور في جواب جهنم: ﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ الاستفهام الإنكاري، أي ليس فيها من مزيد. وعليه فيكون المراد بالمزيد مزيداً من الحيز والمكان وهو بعيد عن اللفظ بعداً شاسعاً، ويصح أن يقال إنَّ من الواضح أنَّ المراد مزيد من المستحقين للعذاب. ويدلّ على ذلك أيضاً أنَّ الغرض من هذا السؤال والجواب واضح بناءً على أنَّ المراد طلب المزيد، وهو بيان أنَّ جهنم كافية للمجرمين مهما كثر عددهم دفعاً لتوهم بعضهم أنَّ الكافرين والمشرّكين والمجرمين هم أكثر أهل الأرض وطيلة القرون المتتالية لا يحصون عدداً، فكيف يحصرون في جهنم؟! فالآية تردّ عليهم بأنَّ جهنم لا تمتلئ بكلّ هؤلاء، بل تطلب المزيد، فقلوه: ﴿هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ لبيان الطلب كناية عن كفايتها، بل زيادتها رداً على هذا التوهم، وأمّا بناءً على كونه إنكاراً للمزيد، فلا يتبيّن منه غرض صحيح.

وقيل: إنَّ المراد بالامتلاء أنّه لا يخلو طبقة منها من السكنة ولا ينافي وجود فراغات فيها وهو كلام سخيّف يبتني على تصوّر أنَّ جهنم بلدة فيها مبان وطبقات.

وقيل: إنَّ عدم الامتلاء قبل أن يلقى فيها باقي أهلها والامتلاء بعد ذلك؛ وهو أيضاً سخيّف، إذ لا يبقى معنى لعرض هذا الخطاب والجواب، فما هو الغرض من السؤال هل امتلأت؟ وكأنَّ هذا القائل تصوّر أنَّ الله تعالى يستفسر جهنم أو خزنتها واقعاً. هل هناك مجال ليلقي فيها مجموعة أخرى من المجرمين أم لا؟ ولا

أدري على هذا التصوّر لو لم يكن فيها مجال، هل كان يبنى لهم سجن آخر أم ماذا؟!

والصحيح في الجواب أن المراد بقوله تعالى: ﴿لَا مُلْأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ ليس هو سدّ الخلل والفرج في جهنّم من الجنّة والناس، إذ لا يناسب المقام التركيز على ذلك، بل المناسب في مقام تهديد العصاة والمردة أنّه تعالى لا يأبه لإدخال الجنّة والناس أجمعين في جهنّم، فمصبّ الاهتمام إنّما هو كلمة ﴿أَجْمَعِينَ﴾ دفعاً لما يستغرب - وإلى يومنا هذا - من إلقاءه تعالى كلّ كافر ومنافق وعاصٍ في جهنّم وهم كلّ البشر على ما نرى وكلّ الجنّ أيضاً على ما يبدو، ولا يبقى للجنّة إلا النادر، وهذا الاستغراب أبداه الشيطان من أوّل يوم، فردّ الله تعالى عليه بأنّ ذلك لا يهمّه وأنّ جهنّم مهياة لكلّ من يتبعه، ولو كفر كلّ من في الأرض لألقاهم جميعاً في جهنّم ولا يبالي.

والحاصل أن المراد ليس هو الملء بمعنى عدم وجود الفراغ، بل بمعنى عدم استثناء من يستحقّ العذاب وأنّه تعالى لا يهمّه كثرة العدد. والقصد من ذلك الردّ على فكرة خاطئة لدى الإنسان وهي متابعة الأثرة، فالإنسان يلاحظ في هذه الحياة أنّ الغلبة دائماً للأثرة الساحقة وأنّ الحكام لا يسعهم مواجهة العدد الهائل من المعارضين، ومن هنا يتصوّر كثير من الناس أنّ الفلاح والنجاح دائماً مع السواد الأعظم، فالله تعالى ينبّه البشر على أنّ الأثرة الساحقة مصيرهم جهنّم بحيث لا يبقى إلا القليل، فيصحّ التعبير بأنّه تعالى ملأ جهنّم من الجنّة والناس أجمعين.

ومن الطريف ما ورد في هذا الباب من الروايات في صحاح العامّة ممّا

اضطرّهم إلى تأويلها لاستلزامها القول بالتجسيم وغيره من الاعتقاد الباطل والسخيف. ففي «روح المعاني»: أخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وغيرهم عن أنس قال: قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وسلّم - : «لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد حتّى يضع ربّ العزة فيها قدمه فيزوي بعضها إلى بعض وتقول قطّ قطّ وعزّتك وكرمك، ولا يزال في الجنة فضل حتّى ينشئ الله لها خلقاً آخر، فيسكنهم في فضول الجنة»^١.

وقال: أخرج الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وسلّم - : «تُحاجّت الجنة والنار، فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين؛ وقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم، فقال الله تعالى للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي، وقال للنار: إنّها أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي، ولكلّ واحدة منكما ملؤها، فأما النار فلا تمتلئ حتّى يضع رجله، فتقول قطّ قطّ، فهناك تمتلئ ويزوي بعضها إلى بعض ولا يظلم الله من خلقه أحداً، وأما الجنة فإنّ الله تعالى ينشئ لها خلقاً»^٢.

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾. شروع في بيان حال المتّقين بعد بيان تعاسة حال الكافرين والعاصين. و﴿أُزْلِفَتْ﴾، أي قرّبت. قالوا: إنّ الأمر ينبغي أن يكون بالعكس حيث إنّ المتّقين يقرّبون إلى الجنة إلا أنّ ذلك تشريف من الله لهم حيث تقرّب الجنة إليهم؛ وقالوا: إنّ ذلك ليس بعيداً من قدرته تعالى. وقال بعضهم: إنّ التعبير إنّما هو للتشريف والتكريم، والواقع أنّهم هم الذين يقرّبون إلى الجنة. ويرد القول الأوّل التصريح بالعكس في قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا

١. روح المعاني ١٣: ٣٣٨.

٢. نفس المصدر.

رَبِّهِمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِينْتُمْ فَأَدْخَلُوهَا خَالِدِينَ»^١

ولا يبعد ان يكون المراد بالإزلاف التقريب المعنوي بمعنى التسامح معهم في الحساب ليدخلوا الجنة، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۖ إِلَّا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾^٢، وقال أيضاً: ﴿إِنْ تَحِبُّوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾^٣ بخلاف غيرهم الذين يحاسبون سوء الحساب ويؤخذ عليهم كل صغيرة وكبيرة، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ هُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَٰئِكَ هُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾^٤

وقوله تعالى: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ حال من الجنة، وقيل: إنه تأكيد للقرب، نظير قولهم: عزيز غير ذليل. ولعل الوجه في مثل هذا التأكيد دفع توهم التجوز في التوصيف بالعزة أو القرب. ويمكن أن يكون تأسيساً باعتبار أن التقريب لا يستلزم القرب؛ لأنه أمر إضافي فيمكن أن يقرب الشيء إلى الشيء بمعنى تقليل المسافة، ولكنه يبقى بعيداً أيضاً في حد ذاته وإن صار أقرب من ذي قبل، فالتوصيف بأنها غير بعيد يدل على أنها قربت بحيث أصبحت قريباً من متناول يدهم.

ووقع الكلام في وجه الإتيان بالحال مذكراً، وقد مرّ البحث عنه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِكُ لَعَلَّ السَّاعَةِ قَرِيبٌ﴾^٥، قلنا: إن أفضل ما قيل في هذا الباب ما حكى عن الفراء من أن القرب والبعد إن أتى بهما لبيان القرابة النسبية

١. الزمر (٣٩): ٧٣.

٢. المدثر (٧٤): ٣٨ - ٣٩.

٣. النساء (٤): ٣١.

٤. الرعد (١٣): ١٨.

٥. الشورى (٤٢): ١٧.

وانتفاؤها، لوحظ فيهما التذكير والتأنيث، وإن أتى بهما لبيان القرب والبعد المكاني أو الزماني ولو تجوزاً لم يلاحظ التذكير والتأنيث، للفرق بين المعنيين ولأن الصفة في الواقع صفة للمكان أو الزمان، وليس معناه تقدير كلمة مكان ليختلّ النظم والتركيب، بل بمعنى أن تذكير الصفة بلحاظ أنها في الواقع للمكان ولو تجوزاً، ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾^١.

﴿هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ إشارة إلى الجنة بذاتها لا إلى لفظ الجنة، فلا ينافي تذكير الضمير، وهذه جملة قيل: إنها تقال لهم حين يسار بهم إلى الجنة أو تُقَرَّب الجنة إليهم، وبناءً على ما مرّ من الاحتمال يمكن أن لا يكون هناك قول وخطاب، بل هذا لسان الحال. ثم إنه لو كان هناك قول وقائل في ذلك اليوم، فلا بدّ من تقدير في الجملة، أي ما كنتم توعدون في الحياة الدنيا. ويمكن أن يكون انشاءً في هذه الحياة لا خطاباً هناك. أي يقال في القرآن المنزل خطاباً للمتقين: ﴿هَذَا مَا تُوْعَدُونَ﴾.

وقوله: ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ بدل عن ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾، وجملة: ﴿هَذَا مَا تُوْعَدُونَ﴾ معترضة بين البذل والمبذل منه. والأوَّاب مبالغة في الأوب وهو الرجوع، كالتَّوَاب، وقد وصف الله بهما عباده المخلصين كالأنبياء والمرسلين. والرجوع يقتضي ذهاباً ولا يستلزم ذنباً، فليس كلّ تائب أو تَوَّاب مذنّب، بل يكفي اشتغاله بغيره تعالى، فإنّ العارف بمقام ربّه يعتبر كلّ اشتغال بغيره مخالفاً لما تقتضيه العبودية في محضر الربّ تعالى، فلا بدّ له من توبة وأوبة ورجوع. وعلى هذا فالأوب والرجوع هنا يختلف باختلاف الموارد. وكثرة الرجوع ليس بمعنى كثرة موارد الاشتغال

بغيره، بل هو في حين الاشتغال أيضاً يرجع ويرجع، فلا يتوغل في الذهاب بعيداً عن خدمة ربه. والحفيظ بمعنى أنه يحفظ عهد ربه وميثاقه ويحفظ نفسه من الزلات قدر المستطاع ويحفظ دينه وتقواه.

﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ﴾. الخشية: الخوف. ولخشية الله تعالى بالغيب معنيان: الأول: أنهم يتقون الله ويخشونه في مواضع الخلوة حيث لا يراهم أحد إلا الله تعالى.

والثاني: أنهم يخشونه وهم لا يرونه، وعلى هذا المعنى فقوله: ﴿بِالْغَيْبِ﴾ ليس تقييداً؛ إذ ليس هناك من يخشاه وهو يشاهده تعالى، فكل من يخشاه يخشاه بالغيب، وإنما أتى به للدلالة على أن مناط استحقاق الجنة هو الإيمان بالغيب، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾، وهذا هو سر الكمال، فالإنسان متشبث بعالم المادّة وزخارفها ومعجب بها، وكلما توغل في هذا الأمر سقط إلى الحضيض، وبعد عن سماء الكمال البشري والقرب لدى الله سبحانه، وكلما انقطع عن هذه الظواهر وارتبط بالغيب وتعلق به ازداد كمالاً وتوسعت نفسه وروحه، فكمال الإنسان كامن في إيمانه بالغيب، أي بما لا يرى ولا يحس. ولذلك فإن الإيمان لا ينفع إذا اتضح الأمر كلّ الوضوح فلم يعد غيباً، بل كان شهوداً، كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيَّائِهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾.^١

١. البقرة (٢): ٣.

٢. الأنعام (٦): ١٥٨.

وفي اختيار اسم الرحمن هنا - مع أنه ربما يتوهم أن الأنسب أن يعبر عنه بما يدل على انتقامه وغضبه - إشارة لطيفة إلى أن خشيتهم ليست من عذابه وعقابه، بل إنهم مع استشعار رحمته الواسعة المدلول عليها بصيغة المبالغة، أي: «الرَّحْمَنُ» يخشونه، فهم يخافون مقام ربهم، كما قال تعالى: «وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جِثَّتَانِ»^١، وقال تعالى: «وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ»^٢، فالخشية من الرحمن ليست خشية من عقابه، بل هي إكرام وإعظام للرب؛ سواء كان المراد بالغيب خشيته تعالى في الخفاء، فإنهم يتقونه تعالى إعظاماً له، أم كان المراد الخشية مع عدم الرؤية، فهم بقلوبهم يشعرون عظمة الخالق. وهذا هو السر الآخر في الكمال البشري، فإن الخوف من العقاب أمر طبيعي لا يدل على عظمة في النفس وتكامل في الروح، وإنما الكمال لمن يتقي الله تعالى إجلالاً له ومعرفة بمقامه الرفيع.

وقد وصف الله تعالى ملائكته بالخشية وهم معصومون لا يعصون الله ما أمرهم وهم بأمره يعملون، فلماذا الخشية ولماذا الخوف؟ قال تعالى في توصيف الملائكة: «وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ بَلَدًا مَّكْرُمُونَ * لَا يَسْئَلُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ»^٣، وقال أيضاً: «وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ»^٤، فهم لا يخشون عذاباً

١. الرحمن (٥٥): ٤٦.

٢. النازعات (٧٩): ٤٠ - ٤١.

٣. الأنبياء (٢١): ٢٦ - ٢٨.

٤. النحل (١٦): ٤٩ - ٥٠.

وإنما يخافون مقام ربهم بمعنى أنهم يخافون من التقصير في حقه تعالى وأن لا يكون عملهم على ما ينبغي من إجلاله تعالى وإعظامه. وهذا هو الذي أشار إليه سيد الموحدين وأمير المؤمنين- عليه أفضل الصلاة والسلام- على ما نسب إليه: «ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك ولكني وجدتكم أهلاً للعبادة فعبدتكم»^١ وإن لم أجد له مستنداً في كتب الحديث.

﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾، أي جاء إلى ربه بقلب منيب، وفيه إشارة إلى بقاءه على خشوعه وخشيته وإنابته لله تعالى إلى يوم لقائه، فكثيراً ما يقضي الإنسان عمره في الطاعة والعبادة، ثم يتحوّل إلى إنسان عاصٍ لربه، فالمهم هو أن يبقى على هدايته إلى آخر الطريق. والإنابة هو الرجوع وقد مرّ الكلام حوله. ولعلّ في توصيف القلب بالإنابة إشارة إلى أنه قد يبقى الإنسان على عادته من العبادة الصورية؛ لأنها شيء تعود فيه فيشقّ عليه تركه، ولكن قلبه يصاب بالمرض نتيجة حبّ الدنيا الذي هو رأس كلّ خطيئة.

﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾. قالوا: إنّه خطاب من الله تعالى أو الملائكة بأمره تعالى موجّه للمؤمنين، وقد قلنا مراراً: إنّ الأقوال هناك لعلّها تعبير عن الأفعال، فهذا الأمر بيان لما يحدث تكويناً في تلك الحياة من الإذن لهم في الدخول. والسلام، أي السلامة من كلّ عيب ونقص، ومن كلّ ما يكدر صفو الحياة، فليس هناك مرض ولا فقر ولا جهل ولا أيّ أمر يحزن الإنسان أو يحذر منه ويخافه، فليس هناك خوف من أمر في المستقبل ولا حزن على ما مضى.

ويوم الخلود، أي مرحلة الخلود، وليس المراد باليوم معناه المتعارف، فإنّه

زمان محدود فيتنافى ذلك مع الخلود؛ وأوله بعضهم بأن المراد يوم ابتداء الخلود أو يوم إعلامه، وما ذكرناه أوضح. والخلود بمعنى الدوام والبقاء. والآيات الدالة بوضوح على خلود أهل الجنة في الجنة كثيرة جداً، وكذلك في خلود أهل النار في النار وإن ناقش بعض المفسرين والباحثين في ذلك، وقالوا إنهم يفنون في النهاية بفناء النار.

﴿هَمْ مَا يَشَاؤُنَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾. الجملة الأولى غير محدودة وغير مقيدة، فلأهل الجنة فيها كل ما يشاؤون والتقييد ليس إلا بالمشيئة، فلا بد من أن يكون المراد بالمزيد ما لا يشاءونه، ولا شك أنهم يشاءون كل ما تصبو إليه النفس من النعم، وليس لمشيئة الإنسان حدٌ إلا التعقل بمعنى أنه لا يشاء ما لا يعقله، فتكون النتيجة أن المزيد الذي ينعم الله به عليهم ممّا لا يتعلّلونه وإلا لشاءوه ولم يكن مزيداً. والظاهر أنه ممّا لا يعلمه إلا الله تعالى، ويبعد أن يكون المراد رضوان الله تعالى، فإنه قد صرح به في القرآن الكريم فهو ممّا يعلمه كثير منهم؛ نعم يمكن أن يكون من اللذات المعنوية التي لا تخطر ببال أحد.

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٦٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴿٦٨﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٦٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ السُّجُودِ ﴿٧٠﴾

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ القرن مأخوذ من قرن الشيء بالشيء، أي جمعهما، فالمعنى كل مجموعة من البشر أو الزمان، فيقال القرن لمجموعة من السنين كمائة سنة وكل مجموعة من البشر وهو المراد هنا، والضمير في قوله: ﴿قَبْلَهُمْ﴾ يعود إلى مشركي مكة، والغرض التهديد والتحذير لمنكري الرسالات. وقد ورد نظيره في موارد عديدة من الكتاب العزيز وكان كثير من الأقسام السابقة أشد بطشاً وقوة وحضارة من مشركي مكة، كما تدلّ عليه آثارهم الباقية، وقد أبيدوا بالعذاب الإلهي لتكذيبهم الرسل. والبطش قيل: هو أخذ الشيء بقوة وقهر وغلبة، ولا يبعد أن يكون بمعنى إعمال القهر والغلبة، سواء صدق الأخذ أم لم يصدق. والتنقيب: الحفر، فهو والتنقيب بمعنى واحد، والتنقيب في البلاد بمعنى السير فيها، إمّا من جهة أنّه يستلزم غالباً الكشف عن أمور جديدة، فكأنّه حفر ووصل إلى مخايب، وإمّا من جهة أنّ السير كان قديماً بالابل ونحوه وهي تحفر الأرض بإخفافها، والغرض هنا أنّهم لم يكتفوا بمواطنهم، بل نقّبوا في البلاد لبسط سيطرتهم أو طلباً للمزيد من المال وأسس الحضارة.

والظاهر أن قوله: ﴿هَلْ مِنْ مَّحِصٍ﴾ خطاب منه تعالى لمشركي مكة، أي هل لكم من محيص من أمره تعالى، فلو كان هناك مهرب من العذاب لكان لتلك الامم ولما هلكوا ولا بادوا وبادت حضارتهم. والمحيص: المحيد والمهرب، أي لا مهرب لكم من عذاب الله تعالى، كما لم يكن لهم. وقيل: إنه تكميل للجملة السابقة، أي بحثوا في البلاد هل لهم مهرب من عذاب الله تعالى، وهذا يبتني على إمهالهم بعد نزول العذاب وهو بعيد.

﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾، الذكرى اسم مصدر من التذكير، كما في «العين»^١. أي في ما مرّ من الآيات أو في ملاحظة أحوال الأمم السالفة تذكير للإنسان، فتدل الآية على أن ما يحصل عليه الإنسان من ملاحظة الآيات والعبر تذكراً، وليس تعلماً جديداً في إشارة إلى أن الإنسان بطبعه وفطرته يعترف بربوبية الله سبحانه، وهو أساس الرسالات، وإنما يغفل عنها بتوغله في شؤون الحياة الدنيا وفي شهواته ولذاته. وهذا ممّا أكّد عليه القرآن الكريم في أكثر من مورد، ومن الآيات التي تدلّ على كون الإنسان مؤمناً بفطرته قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾^٢.

ثم إن التذكير يختصّ بمن كان له قلب أو سمع ما يوجب التذكّر من غيره، والمراد بالقلب القوة العاقلة للإنسان لا العضو الذي يضخّ الدم، فإنه ليس له دور في الفهم والتعلّل، وقد كثر استعمال القلب في هذا المعنى في القرآن الكريم.

١. كتاب العين ٥: ٣٤٦.

٢. الأعراف (٧): ١٧٢.

ولا يقابله من لا عقل له، أي المجنون والسفيه، فإنه خارج عن مورد الكلام، بل يقابله من لا يدرك الأمور المعنوية، ويلاحظ أن أكثر الناس شديد التعقل والإدراك في مرحلة الفهم وشديد الاهتمام أيضاً في مقام العمل وأخذ الحيلة إلى حد الوسوسة لما يخص حياته في الدنيا وسعادته وصحته، بل تمكنه من جمع قدر أكبر من المال ونحو ذلك من الشؤون الدنيوية، ولكنه ضعيف الإدراك بل فاقده في الأمور المعنوية وما يتعلق بالغيب وبالأخرة، ونجد كثيراً ممن يسمون بالعلماء لهم نبوغ وفطنة خارقة للعادة في درك ما يخص شؤون الدنيا، ولكنهم لا يتجاوزون عنها ولا يتفطنون لوجود الخالق الحكيم المدبر للكون، فيا لهم من أغبياء نوابغ؟! فمثل هذا وإن كان له قلب بمعنى ما يتعقل به، ولكنه لا يتعقل ما وراء الحس فكأنه لا عقل له.

وفي محل الكلام، أي الاعتبار بالعبر الباقية من الأمم السالفة نجد المجتمع البشري اليوم يهتم أشد الاهتمام بالاحتفاظ بآثارهم ويصرف الأموال الطائلة لصيانتها والحث على زيارتها، ولكن ليس في ذلك أي اعتبار بما جرى عليهم، بل ربما يهتم بشأن آثارهم باعتبار أنها تدل على حضارة قديمة وتمدن باند ومفاخر للأباء السالفين وأمجاد للملوك القدماء، ولكن القرآن يحرض على السير في الأرض لملاحظة آثار الأمم السابقة، والاعتبار بما جرى عليهم من عذاب الله تعالى.

ومن لا يدرك الأمور المعنوية بنفسه يمكن أيضاً أن يتأثر ويعتبر إذا ألقى السمع وهو شهيد. والمراد بإلقاء السمع هو الإصغاء بدقة، فكأنه ألقى سمعه تحت اختيار القائل، ويشترط في ذلك أن يكون شهيداً، أي شاهداً وحاضراً، فربما

يستمتع الإنسان ويسمع القول ولكن قلبه مشغول بغيره، فلا يؤثر فيه ما يتلى عليه. والترديد بين الصنفين بلحاظ أنّ المعبر بالعبر قد يكون عالماً بنفسه متفطناً لما يستخلص من الآثار من عبر، وقد يكون متعلماً يستمع إلى العلماء بدقّة وتنبّه، وأمّا إذا لم يعقل بنفسه ولم يسمع لتنبيه العلماء المخلصين فمصيره الهلاك، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾^١ وقال أمير المؤمنين (عليه السلام): «النَّاسُ ثَلَاثَةٌ؛ فَعَالِمٌ رَبَّانِيٌّ وَمُتَعَلِّمٌ عَلَى سَبِيلِ نَجَاةٍ وَهَمَّجٌ رَعَاةٍ أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعٍ يَمِيلُونَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ لَمْ يَسْتَغْنُوا بِثَوْرِ الْعِلْمِ وَلَمْ يَلْجَأُوا إِلَى رُكْنٍ وَثِيقٍ»^٢.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾. مرّ الكلام حول هذه الحقيقة في تفسير سورة «فصلت» وقلنا: إنّ المراد بالأيام مراحل تكوين العالم كما هو واضح. واللغوب: التعب.

والآية تردّ على المشركين حيث ينكرون المعاد استبعاداً له، فالله تعالى يقول: إنّ خلق الكون من العدم في ستّة مراحل من التكوين أعظم بكثير ولم يمسه تعالى من هذا الخلق تعب ولا نصب، لأنّ القدرة الإلهية لا حدّ لها، فلا يمكن أن يكون شيء أهون عنده من شيء. ويردّ أيضاً على اليهود حيث قالوا: إنّ الله تعالى خلق السماوات والأرض في ستّة أيّام واستراح يوم السبت واستلقى على عرشه، فأولوا الأيّام بأيّام الأسبوع ونسبوا إليه تعالى التعب. وهو كلام مضحك، لأنّ اليوم بهذا المعنى لا يمكن أن يتحقّق قبل خلق السماوات والأرض، وهذا من علائم التحريف في التوراة؛ فإنّ الذين جمعوها بعد دهر من ضياعها لم

١. الملك (٦٧): ١٠.

٢. نهج البلاغة (للصّحبي صالح): ٤٩٥ / ١٤٧.

يكونوا يحفظون منها إلا أموراً مبهمة، فيضيفون إليها ما يفسرها حسب نظرهم.
وقال بعض المفسرين: إن هذه الآية مدنية بقرينة الرد على اليهود،^١ وهذا لا وجه له حتى لو فرض كونها ردّاً عليهم بالخصوص، فهناك آيات كثيرة نزلت في مكة بشأن أهل الكتاب، كقوله تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادِغٌ وَاسْتَقِيمَ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمُ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حِجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾،^٢ على ما مرّ الكلام في تفسيرها. وكان أهل مكة أيضاً يعلمون أخبارهم وعقائدهم وكانوا يختلفون إليهم ويتحاكمون لديهم.

﴿فَاضْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ تفريع على بطلان عقائد المشركين واستبعادهم للمعاد، وتطبيب لخطر الرسول ﷺ وتهديد للمشركين، فإن الأمر بالصبر هنا يعني إيكال أمرهم إلى الله تعالى، فهو لهم بالمرصاد، ولذلك عقبه بالأمر بالتسبيح والحمد. ونظيره قوله تعالى: ﴿فَاضْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾.^٣

ويبدو أن الغرض التنبيه على أن العنصر الأساس لتحقيق المقاومة أمام ضغوط النفاق والكفر هو الالتجاء إلى ذكر الله تعالى وتسبيحه وعبادته، وقد تكرر ذلك في الكتاب العزيز، منها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ

١. راجع: بيان المعاني ١: ٢٦٦ - ٢٦٧.

٢. الشورى (٤٢): ١٥.

٣. طه (٢٠): ١٣٠.

يَحْمَدُ رَبَّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ^١، وهذا الأمر لا يختص بالرسول ﷺ، بل يشمل كل الدعاة والمصلحين، وكل من يواجه ضغوط الكفر والنفاق في نشاطه الديني.

والباء في قوله ﴿يَحْمَدُ رَبَّكَ﴾ للمصاحبة، أي سبّحه مع الحمد؛ فالتسبيح أي تنزيهه تعالى من كل ما لا يليق بشأنه الكريم من العجز الذي اعتقده المشركون والتعب الذي توهّمه اليهود ومن غير ذلك، وليكن ذلك مصاحباً لحمده والثناء عليه بما يليق بذاته المتقدّسة.

والظاهر أنّ ذكر الأزمنة المختلفة إشارة إلى استمرار الذكر والتنزيه والثناء، وقيل: إنّ إشارة إلى أوقات الصلاة، فقبل الطلوع وقت صلاة الصبح، وقبل الغروب وقت الظهرين، وقوله: ﴿مِنَ اللَّيْلِ﴾ إشارة إلى العشاءين، وأدبار السجود، أي أدبار الفرائض والمراد بها النوافل.

ولكنّه تأويل بعيد، فالتعبير عن وقت الظهر، بل العصر أيضاً بما قبل الغروب بعيد؛ فإنّ وقتها وإن امتدّ إلى الغروب إلا أنّ مبدأه الظهر، ولا يقال له قبل الغروب، بل التعبير بما قبل الطلوع عن صلاة الصبح بعيداً أيضاً، والنوافل ليست كلّها بعد الفرائض، ويقوى الإشكال في سورة طه حيث أضاف إلى آناء الليل أطراف النهار، فالأقرب ما ذكرناه.

وورد في رواية أنّ المراد به الذكر قبل الطلوع والغروب، روى الصدوق رحمته الله في «الخصال» بسند مجهول عن إسماعيل بن الفضل، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾^٢، فقال:

١. الحجر (١٥): ٩٧ - ٩٩.

٢. طه (٢٠): ١٣٠.

«فريضة على كل مسلم أن يقول قبل طلوع الشمس عشر مرات وقبل غروبها عشر مرّات: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت وهو حي لا يموت، بيده الخير وهو على كلّ شيء قدير». الحديث.^١ وهو وإن كان وارداً في آية سورة طه إلا أنّ العبارة إلى هنا فيهما واحدة، ولكنّ السند ضعيف كما قلنا، نعم هناك روايات أخرى أيضاً حول الذكر في هذين الوقتين من دون ذكر الآية؛ ولم أجد ما يصحّ سنده ولم يظهر من الرواية أنّها بصدد تفسير الآية.

و«من» في قوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ﴾ للتبويض، أي وسبّحه شطراً من الليل، ولعلّ المراد غير حال النوم، ومثله قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾^٢ حيث يؤمّر الرسول ﷺ بالتسبيح والحمد طول أوقات قيامه، أي غير حال النوم. وشطراً من الليل، أي قبل أن ينام وبعد قيامه، فالمراد الاستمرار طول الوقت بذكره تعالى، وهكذا كان الرسول ﷺ، فقد كان ذاكراً لله تعالى مع كلّ قول وفعل وفي كلّ حال من حالاته.

و﴿إِدْبَارَ﴾ جمع دبر بضمّتين أو بضمّة فسكون بمعنى آخر الشيء، ولا يبعد أن يكون المراد بالسجود، الصلاة كما يعبر عنها بالركوع أيضاً، وكما يعبر عن جزء منها بالركعة، كلّ ذلك من باب تسمية الشيء باسم جزئه المهمّ، وهذا أمر بالتسبيح بعد الصلاة وينطبق ذلك على التعقيب بعدها، وقد ورد التأكيد عليه في الروايات الشريفة. وقرئ «إدبار» بكسر الهمزة بمعنى الانتهاء، فيكون واقعاً موقع الظرف، أي وقت الانتهاء من الصلاة.

١. الخصال: ٤٥٢.

٢. الطور (٥٢): ٤٨ - ٤٩.

ولكن ورد في بعض الروايات تطبيق الآية على نافلة المغرب، منها ما رواه الكليني بسند صحيح، عن أبي جعفر عليه السلام حديثاً وفي ذيله: قلت: «وَأَدْبَارَ السُّجُودِ؟» قال: «ركعتان بعد المغرب».^١

وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١٠﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ ﴿٤١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤١٢﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤١٣﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ خَافَ وَعَبَدِ ﴿٤١٤﴾

﴿وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾. يحتمل في قوله تعالى: ﴿وَأَسْمِعْ﴾ أن يكون للتنبيه، فليس له مفعول، والخطاب للإنسان أو لكل من يسمع أو يقرأ أو للرسول ﷺ وعلى هذا الاحتمال فالجملة التالية مستأنفة ومضمونها الأمر الذي يجب التنبيه له بقوله: ﴿وَأَسْمِعْ﴾، وعليه فالظرف: ﴿يَوْمَ يُنَادِ﴾ متعلق بما يدل عليه قوله: ﴿ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ﴾، أي يخرجون يوم ينادي المنادي. والمجموع جواب للمشركين المنكرين للمعاد والذين يسألون عن مواعده.

ويحتمل أن يكون التقدير: واستمع للنداء، فيكون الظرف متعلقاً بالاستماع، والمعنى: كن متأهباً لسماع النداء يوم ينادي المنادي، وذلك لأن الاستماع إنما يؤمر به حين يقرب النداء، والغرض بيان أن النداء قريب زماناً وأن توهمه الإنسان بعيداً، وعليه فقوله: ﴿ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ﴾ جملة مستقلة. ويحتمل بعيداً - وإن اختاره العلامة الطباطبائي رحمه الله - أن يكون الاستماع مضمناً معنى الانتظار، فيكون اليوم مفعولاً، أي انتظر يوم النداء مستمعاً له.

واختلف في المنادي أنه جبرئيل أو إسرافيل أو ملك آخر أو هو الله سبحانه، ولا طائل تحت هذا الاختلاف، فالمهم هو أن هذا النداء قريب زماناً ومكاناً،

والمراد به نفخة الصور الثانية التي تحيا بها الخلائق، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾^١؛ أمّا أنّه قريب زماناً - كما يفهم من هذه الآية ومن قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَرَأَوْهُ قَرِيبًا﴾^٢ - فلأنّ الإنسان إذا مات فقد قامت قيامته، لأنّ الزمان مطوي في تلك النشأة، وإذا قام الناس فإنّ أمثلهم طريقة من يقول: ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾^٣، وليس هذا وهماً وخطأً، بل هو حقيقة وإن كنّا نستغرب طي الزمان ولكنّا نشعر به في هذه الحياة أيضاً في عالم الرؤيا، فالإنسان لا يحفظ من رؤياه إلا ما يجده في اللحظة الأخيرة التي يكون فيها بين اليقظة والنام، وربما تكون ثانية أو أقلّ منها وهو يرى مشهداً طويلاً ربما يستمرّ ساعات، وقد لا يكون وهماً وخيالاً، بل رؤيا حقيقية تحكي عن أمر واقع مغيب عنه في نفس الوقت أو في المستقبل.

وأما أنّه قريب مكاناً فهو ما صرّح به في هذه الآية، ومعنى ذلك أنّ الصوت يسمعه كلّ أحد قريباً منه، وليس ذلك لعلو الصوت، بل منشأ الصوت قريب من كلّ أحد، كما هو صريح الآية، فالمكان أيضاً مطوي والفواصل قليلة أو منعدمة. والنداء يوجّه إلى الأرواح التي هي نفس النفوس البشرية حقيقة، لأنّه النداء الثاني الذي يعقب النداء الأوّل، وهو الموجب لصعوق من في السماوات والأرض، كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾^٤، فلم تبق إلا الأرواح.

١. الزمر (٣٩): ٦٨.

٢. المعارج (٧٠): ٦ - ٧.

٣. قال تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ أَثْلُكُمُ طَرِيقَةً إِنْ كُنْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾. (طه (٢٠): ١٠٤).

٤. الزمر (٣٩): ٦٨.

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾ وهذا بدل عن ﴿يَوْمَ يُنَادَى﴾ وقوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ بمعنى أنهم يسمعون واقعاً وليس خيالاً ووهماً، ولعلّ الصيحة صيحة انفجار يتعقبه نشوء الكون الجديد، كما أنّ الصيحة الأولى يحتمل أن تكون صيحة انفجار يهدم النظام الكوني القائم. والآية تنبه على أنّ البشر يسمعون الصيحة، فهم موجودون وأحياء لهم أسماع، وإن لم يكن لهم آذان وأجسام ولكنهم في عالم آخر وبحياة أخرى نجهل كيفيتها ومقوماتها.

﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾؛ أي يوم الخروج من القبور، وربما يكون هذا تعبيراً يراد به عود الأرواح إلى الأجسام والبدء بحياة أخرى. والغرض الردّ على السؤال عن التوقيت، كما ورد في القرآن مكرراً أنهم يقولون: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾^١

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾. هذه الجملة ترفع الاستغراب عن الإحياء بعد الموت، فإنّ الإحياء والإماتة أمران مستمرّان، وهذا ما يدلّ عليه فعل المضارع. وتعاقب الإحياء والإماتة لم يتوقّف لحظة في الكون، فالأرض تموت وتحيا، وما عليها من نبات تموت وتحيا، وكذلك الإنسان والحيوان، بل كلّ خلية. والحياة لا تختلف في الخلية الواحدة عنها في مجموعة الخلايا المكونة لجسم نبات أو حيوان أو إنسان، ونحن نعاشر دائماً موت الملايين من خلايا أجسامنا، وتكوّن خلايا حية بدلاً عنها، وكلّ ذلك من الله تعالى كما أكّد عليه بالضمير المنفصل: ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾، بل كلّ شيء وكلّ حركة وسكون منه تعالى إلا أنّ التأكيد على ذلك في الإحياء والإماتة لغرابتهما وعدم وصول الإنسان إلى مبادئهما الطبيعية.

﴿وَإِنَّا لَإِلَهُ الْمُصِيرِ﴾. المصير هو المرجع والمآل، أي أنّ مرجع الإنسان إلى الله

تعالى، فالكلّ راجع إليه قهراً ليحكم بينهم فيما هم فيه مختلفون، وليبين لهم الحقّ من الباطل ويرفع عنهم الغشاوة، وليجزّي كلّاً بعمله ويضع كلّ أحد موضعه اللائق به. والإنسان كغيره من الخلق لم يخرج عن سلطانه تعالى، ولم يستغن عن رحمته لحظة واحدة، فالرجوع ليس بمعنى أنّه يرجع إلى سلطانه، بل بمعنى أنّه يصل إلى مرحلة من الكون لا تحكم فيها القوانين الطبيعية ويسلب فيها الإنسان اختياره ويكشف عنه الغطاء، فيلقى ربّه ويدرك حقائق الكون إدراكاً واقعياً مباشراً لا يتخلّل الحواس والصور، وهناك يتحقّق قوله تعالى: ﴿لَئِنْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾^١.

﴿يَوْمَ تَشَقُّ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً﴾. يمكن أن تكون ﴿يَوْمَ﴾ ظرفاً للجملة السابقة ﴿وَالْإِنَّا الْمَصِيرُ﴾ ويمكن أن تكون بدلاً عن: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ﴾، فتكون بدلاً بعد بدل، وقوله: ﴿تَشَقُّ﴾ مضارع أصله: تشقّق حذفت إحدى التاءين. وقرئت أيضاً بتشديد الشين، وذلك لقلب التاء شيناً وإدغامها فيها. والمراد بتشقّق الأرض عنهم خروج الناس منها، وهو تعبير كناثي عن إحياء الموتى؛ إذ ليسوا كلّهم في قبور، فملايين الملايين من البشر لم يبق لهم أثر إلا أنّ هذه الأجزاء موجودة على الأرض أو في باطنها، والله تعالى هو العالم بكيفية الإحياء.

و﴿سِرَاعاً﴾ حال من ضمير عنهم، أي مسرعين، والظاهر أنّه جمع سريع. وقيل: مصدر بمعنى اسم الفاعل، ولم نجده في كتب اللغة. وقد ورد هذا التعبير أيضاً في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِصُونَ﴾^٢، ومثله

١. غافر (٤٠): ١٦.

٢. المعارج (٧٠): ٤٣.

التعبير بالمهطعين، قال تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَنْفِدَتْهُمْ هَوَاءً﴾^١، وقال أيضاً: ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾^٢ والإهطاع الإسراع في ذلّ وانقياد، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَتَفْخُ فِي الصُّورِ فَلِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾^٣ أي يسرعون. والسؤال إنّما هو عن المراد بالإسراع هل هم يركضون؟ ولماذا الركض؟ يحتمل أن يكون المراد سرعة الإجابة وأنهم لا يلوون على شيء ولا يترثون ولا ينظرون يميناً أو شمالاً، بل يسرعون نحو الداعي، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ﴾^٤، وكذلك قوله تعالى: ﴿إِلَى نُصْبٍ يُؤْفَصُونَ﴾ وقوله: ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ وقوله: ﴿مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾^٥.

والحاصل أنّهم مسيّرون لا خيار لهم يساقون قهراً نحو الداعي وهو ربهم، كما قال: ﴿إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾^٦ وهم أذلاء لا يرتدّ إليهم طرفهم.

﴿ذَلِكَ حَشَرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾. الحشر: الجمع بسوق وازعاج. واليسير: السهل. وهذا الحشر يوم القيامة أمر غريب حقّاً. عدد هائل من البشر تواتروا على هذا الكوكب في قرون متعديدة لا يعلمها إلا الله تعالى يجمعهم في ذلك اليوم، ولكنّه أمر سهل عليه تعالى، لأنّه على كلّ شيء قدير، وليس شيء أسهل عليه من غيره، فنسبة الأشياء والأمر إليه واحدة. وتقديم الجارّ والمجرور يفيد الحصر، فهو يسير على الله تعالى وليس أمراً هيناً بذاته.

١. إبراهيم (١٤): ٤٣.

٢. القمر (٥٤): ٨.

٣. يس (٣٦): ٥١.

٤. طه (٢٠): ١٠٨.

٥. إبراهيم (١٤): ٤٣.

٦. يس (٣٦): ٥١.

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ تهديد للكافرين وتسليّة للرسول ﷺ، والمراد بما يقولون إنكارهم للبعث وتكرارهم للسؤال: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾^١؟ يقولونه استهزاء واستعجالاً. ولعلّ المراد بالآية أنّه تعالى أعلم بنواياهم حينما يسألون.

﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾؛ «الجَبَّار» مبالغة في الجبر، أي قهر الآخرين وإجبارهم على ما يريد. الخطاب للرسول ﷺ حيث كان يتألم من عدم قبول الناس للهداية وهو أمر طبيعي، فهو يرى أي مستقبل أسود ينتظرهم فيحزن ويتأسف حتّى نزل فيه قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾^٢، يخع نفسه أي قتلها غيظاً. وهكذا سائر الأنبياء ﷺ وقد تكرر في القرآن تسليّة الرسول ﷺ بأنك لا تستطيع إجبارهم على الهدى، ولكنّه أمر ممكن والله قادر على ذلك، ولو شاء لآمن من في الأرض جميعاً ولكنّه لا يجبرهم على ذلك، والسبب واضح، فإنّ الله تعالى أسكن الإنسان على هذا الكوكب ليمتحنه ولا يكون ذلك إلا أن يختار طريقه بكامل حرّيته، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيّ عن بينة.

﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مِنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾، الفاء للتفريع حيث إنك لا تستطيع الإجبار، فعليك أداء الدور المطلوب منك في هذا الامتحان وهو التذكير وهو من الذكر، أي استحضار ما في حفظ الإنسان من معلوماته السابقة، والتذكير أن يجعل غيره يذكر ما نسيه وينبّه عليه. وأمره أن يذكرهم بواسطة القرآن، ففيه كلّ ما يحتاجه الإنسان في هذا السبيل ممّا كانت مستودعة في فطرته، فنسيه بسبب توغّله في

١. يس (٣٦): ٤٨.

٢. الكهف (١٨): ٦.

شؤون الدنيا. والوعيد مصدر كالوعد ولكنّه اختصّ في الاستعمال بالشرّ والتهديد، وكذلك الإيعاد يقال: أوعده، أي هدّده.

وهذا التذكير وإن حصل للجميع إلا أنّه في الواقع ليس إلا لمن يخاف وعيدي، والكسرة على الدال بدل عن ياء المتكلّم. وهذا العنوان لا يختصّ بالمؤمن، فالعرب وهم المخاطبون بالقرآن كانوا يعترفون بالله ويعتقدون بأنّه الخالق الرازق ويخافون بطشه، وقد رأوا ما صنع بأصحاب الفيل وغيرهم، فهم يخافون وعيد الله تعالى، ولكنّهم لا يعترفون بالقيامة، فيجب تنبيههم على أنّ الخطر الأعظم هو ما يحدث في ذلك العالم، وهذه الغفلة تصيب المؤمن أيضاً فنرى كثيراً منهم يخاف عذاب الله تعالى في الدنيا ولا يخاف الآخرة حتّى أنّ بعضهم يعبد الله من أجل الدنيا ولو لم يعترف به، فالإنسان يغفل عن دواعيه الواقعية، ولذلك نجد أكثر الناس يهتمّون بالفطرة دون زكاة المال، لأنّهم سمعوا من الوعاظ أنّ الفطرة تحفظهم إلى فطر آخر، مع أنّه غير صحيح وهم يشاهدون أنّه لا يوافق الواقع ومع ذلك يهتمّون بها رجاء تأثيرها في حفظهم إلى فطر آخر، ويهتمّون بالصدقة دون الخمس لكثرة ما ورد من أنّها تدفع البلاء، وهكذا دأبهم في سائر الأمور، فهؤلاء يخافون الله تعالى ولا يخافون عذابه يوم القيامة. والحمد لله ربّ العالمين وصلى الله على سيّدنا محمّد وآله الطيّبين الطاهرين.

فهرس المطالب

تفسیر سورة الأحقاف

٧.....	سورة الأحقاف (١-٦).....
١٦.....	سورة الأحقاف (٧-١٠).....
٣٧.....	سورة الأحقاف (١١-١٤).....
٤٣.....	سورة الأحقاف (١٥-١٦).....
٥٧.....	سورة الأحقاف (١٧-٢٠).....
٧٢.....	سورة الأحقاف (٢١-٢٥).....
٨١.....	سورة الأحقاف (٢٦-٢٨).....
٨٧.....	سورة الأحقاف (٢٩-٣٢).....
٩٤.....	سورة الأحقاف (٣٣-٣٥).....

تفسیر سورة محمّد

١٠٧.....	سورة محمّد (١-٣).....
١١٦.....	سورة محمّد (٤-٦).....
١٢٤.....	سورة محمّد (٧-١١).....
١٣٢.....	سورة محمّد (١٢-١٥).....
١٤٧.....	سورة محمّد (١٦-١٩).....
١٦٢.....	سورة محمّد (٢٠-٢٨).....
١٨١.....	سورة محمّد (٢٩-٣١).....
١٨٦.....	سورة محمّد (٣٢-٣٥).....

سورة محمد (٣٦-٣٨) ١٩١

تفسير سورة الفتح

سورة الفتح (١-٣)	٢٠١
سورة الفتح (٤-٧)	٢١٥
سورة الفتح (٨-١٠)	٢٢٦
سورة الفتح (١١-١٤)	٢٣٧
سورة الفتح (١٥-١٧)	٢٤٤
سورة الفتح (١٨-٢٣)	٢٥٠
سورة الفتح (٢٤-٢٦)	٢٦٠
سورة الفتح (٢٧-٢٩)	٢٧٣

تفسير سورة الحجرات

سورة الحجرات (١-٥)	٢٨٧
سورة الحجرات (٦-٨)	٣٠٠
سورة الحجرات (٩-١٠)	٣١٣
سورة الحجرات (١١-١٣)	٣١٨
سورة الحجرات (١٤-١٨)	٣٤٠

تفسير سورة ق

سورة ق (١-٥)	٣٥٣
سورة ق (٦-١٥)	٣٥٩
سورة ق (١٦-٢٩)	٣٧٣
سورة ق (٣٠-٣٥)	٣٩١
سورة ق (٣٦-٤٠)	٤٠٢
سورة ق (٤١-٤٥)	٤١٠